الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

Université Abou Bekr Belkaid
Tlemcen Algérie
جامعة أبي بكر بلقايد
تلمسان الجزائر

كلية العلوم الإنسانية و العلوم الاجتماعية

قسم: التاريخ

تخصص: فنون شعبية

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم تحت عنوان:

العمارة الإسلامية في كتب رحالة المغرب الإسلامي من القرن 7 هـ حتى القرن 10 هـ / 13 م حتى 16م

من إعداد الطالب:

❖ محروق إسماعيل

تحت إشراف الأستاذ:

- أ.د معروف بالحاج

أعضاء لجنة المناقشة:

أ.د.ة. مهتاري فايزة	أستاذة التعليم العالي	جامعة تلمسان	رئيسا
أ.د. معروف بالحاج	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	مشرفا ومقررا
د. الغوثي بسنوسي	أستاذ محاضر "أ"	جامعة تلمسان	عضوا
د. لعمى عبد الرحيم	أستاذ محاضر "أ"	جامعة المدية	عضوا
د. بن عبد الله نور الدين	أستاذمحاضر "أ"	جامعة الجلفة	عضوا
د. خشاب صادق	أستاذمحاضر "أ"	جامعة المدية	عضوا

السنة الجامعية: 2018/2017

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شكر و تقدير

أتوجه بشكري و تقديري إلى اللذين ساعدوني على انجاز هذا البحث، سواء بوثائقهم أو بملاحظاتهم، فهم أجل أن أذكر أسمائهم واحدا واحدا، كما أتوجه بتحية وتقدير خاصة إلى الأستاذ الدكتور " معروف بالحاج" الذي اقترح علي هذا البحث، وتحمل مسؤولية الإشراف عليه رغم مشاغله الكثيرة، وقرأ كل هذه الصفحات بصبر وإمعان.

فملاحظاته ونصائحه وتوجيهه الرشيد كان له الفضل في أن يخرج هذا البحث على هذه الصورة، فمهما قلت فلن أوفيه حقه من المدح والثناء.

والشكر نفسه موجه إلى السادة الأساتذة الدكاترة أعضاء اللجنة المناقشة، وكذا كل من قدم لي التسهيلات والنصائح والإرشادات والملاحظات لإنجاز هذا البحث.

<u>فللكل الشكر الجزيل</u>

<u>إ محروق</u>

إهداء

أمي الغالية... أمد الله في عمرها، وصانها بتمام الحفظ والسلامة.

والدي... رحمه الله.

إلى إخوتي: عبد المؤمن، عبد الكريم وكمال.

إلى أختي: فتيحة.

إلى زوجة أخي: نادية.

إلى أصدقائي: العرقوب محمد، محمد كوشنان، عيسى فراين، العرقوب رشيد،

محمد تربش، مصطفى قهواجي، مراتي ياسين.

إلى كل من تربطني بهم رابطة ود أو صلة رحم

<u>أهدي هذا العمل المتواضع</u>

<u>إ محروق</u>

مقـــدمـــة:

لقد جاب الرحالة المسلمون كل بلدان العالم، ودونوا ملامحها الإنسانية والاقتصادية والمعمارية والثقافية والجغرافية، فبعد الفتوحات الإسلامية صار الاهتمام بالرقعة المفتوحة جزء هاما من العمل الإداري للدولة، وبلغ وصف الأقاليم والعناية بها ذروته باعتبارها جزء من الفتوح والمغازي والغنائم، ثم جاء الاهتمام بالمنطقة من حيث ثرواتها، وقدرتها على دفع الضرائب.

وكان لاحتكاك المسلمين بالشعوب الأخرى أثر كبير في نشأة المدينة الإسلامية، وتنوع نسيجها المعماري، وتطور أساليبها التخطيطية والمعمارية والزخرفية، فملك المسلمون ناصية العلم والمعرفة، وتقدمت على أيديهم العلوم المختلفة، واقتبسوا من تراث الحضارات السابقة لهم في المجال المعماري ما يتلاءم مع تعاليم دينهم الحنيف، ثم طوروا تلك الأساليب، وأضفوا عليها طابعهم الخاص، وصارت لهم مميزاتهم الخاصة التي تطبع شخصيتهم المستقلة، والمنفردة عن باقي الفنون، وأصبح من الصعوبة بما كان تميز تأثيرات الفنون الأخرى على العمارة الإسلامية.

وأتيح للمسلمين وخاصة في المغرب الإسلامي، أن يحوزوا قصب السبق في ميدان الرحلات والاكتشافات والدراسات الجغرافية في العصور الوسطى. وكان الحج من أهم بواعث تلك الرحلات، فقد كانت أفواج الحجاج لتأدية فريضة الحج، وزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم، ودون النابهون من الحجاج مشاهداتهم، ونصوص رحلاتهم حتى ينتفع الغير بتجاربهم. وساهم الدافع العلمي مساهمة فعالة في ازدهار الرحلة في المغرب الإسلامي، رغبة في السماع والسند العالي، وتحصيل مختلف العلوم والفنون من منبعها الأصلي، ناهيك أن علماء المغرب الإسلامي كانوا يعتقدون أن شخصيتهم العلمية لا تكتمل ما لم يشدوا الرحال إلى المشرق. وقد ساهمت الظروف السياسية في بعض الحالات في توجيه علماء بلاد المغرب الإسلامي للقيام برحلات إلى بلدان وأصقاع لم يألفوها كرسل موفدين من طرف الملوك والأمراء للقيام بسفارات، ومهام سياسية معينة.

وتظهر الأهمية العلمية لرحلات الجغرافيين والرحالة المغاربة من القرن 7هـ حتى القرن 10 هـ أنهم اعتمدوا على المشاهدة الشخصية وعلى الحس، وأنهم كانوا في الغالب موسوعي الثقافة، وكان لبعضهم نصيب كبير في مجالات التأليف العلمي والأدبي، وتمتعوا بقوة الملاحظة، والقدرة على

الوصف. وقد اتسمت منهجيتهم بسجيل مشاهداتهم، في مسار رحلاتهم الطويل ذهابا وإيابا، فوصفوا البلدان وعالمها ونسيجها العمراني، والعباد وعاداتهم وتقاليدهم في قالب أدبي قد يطول أو يقصر، ذاكرين الشيوخ والعلماء الذين تتلمذوا على يدهم في مسار رحلتهم، مشيرين إلى الكتب المدروسة معهم، معددين الإجازات الممنوحة من طرفهم، مع الاعتناء بالأسلوب الأدبي، وسلامة العبارة، مع تبحر في المصادر والمراجع التي سبقتهم في مجال العلوم المختلفة: كالجغرافيا والتاريخ والمسالك والرحلات والأدب.

وقد حاولنا من خلال هذا الموضوع الموسوم: "العمارة الإسلامية قي كتب رحالة المغرب الإسلامي من القرن 7ه حتى القرن 10ه " إبراز الدور الذي لعبته كتب ومصنفات رحالة المغرب الإسلامي في التعريف بالتراث المعماري الإسلامي، من حيت تنوعه، واعتماده على أساليب وتقنيات وميزات خاصة تشترك فيها جميع مدن الدولة الإسلامية الواسعة الأرجاء، رغم وجود التأثرات المحلية الخاصة بكل قطر. والتعريف بمنجزات الحضارة الإسلامية، وصفحتها المشرقة في تاريخ تطور الإنسانية.

وقد دفعنا للبحث في هذا الموضوع عدة أسباب، منها ما هو ذاتي، ومنها ما هو موضوعي. فمن الأسباب الموضوعية: قلة الدراسات حول موضوع العمارة الإسلامية في كتب رحلة المغرب الإسلامي، بل انعدامها، وكل الدراسات السابقة عنيت بالتعريف بأشهر الرحالة، وتتبع مسار رحلاتهم ذهابا وإيابا، ولقائهم العلماء، ومجالس العلم التي حضروها، والإجازات العلمية التي حازوها، ومنها ما اهتم بتحقيق نصوص الرحلة، وتحليها تحليلا أدبيا، يدرس أسلوب الرحالة في الوصف ومنهجيته، وطريقة استدلاله، واستعماله أساليب البيان والبديع والبلاغة. راجين أن يكون هذا البحث حجرة أساس تعتمد عليه دراسات أكاديمية لاحقة، وخاصة ما تعلق باهتمام رحالة المغرب الإسلامي بوصف النسيج العمراني للمدن الإسلامية في الأقطار والأمصار التي حلوا بها أو صادفوها أثناء مسار رحلاتهم شرقا وغربا، شمالا وجنوبا، ومدى اعتماد الدراسات المعمارية الحديثة عليها، كونها تمثل الدراسة الميدانية في عملية الكشف الجغرافي والوصف التخطيطي والمعماري لمختلف العمائر الإسلامية.

ومن الأسباب الذاتية انتماؤنا إلى مجتمع المغرب الإسلامي، واهتمامنا الشخصي بمطالعة كتب أدب الرحلة بصفة عامة، ورحلات المغرب الإسلامي بصفة خاصة، وكذا اشتغالنا بتدريس مقاييس الفن الإسلامي بجامعة يحي فارس-المدية-.

إن إشكالية البحث تتمثل في التساؤلات التالية :

لا شك أن هناك مجموعة من العوامل والأسباب الدينية والثقافية والتاريخية والسياسية والاجتماعية، ساهمت في أن تشهد بلاد المغرب من القرن 7ه حتى القرن 10ه حركة نشيطة وواسعة ومزدهرة من الرحلات نحو بلاد المشرق، وسائر الأقطار والأمصار والبلدان. فمن هم أشهر رواد الرحلة المغاربة الذين حازوا قصب السبق في الفترة المذكورة؟. وما هي الدوافع التي أدت بهم لشد الرحال لكي يجوبوا كل أنحاء المعمورة؟.

لقد خلف رحالة المغرب الإسلامي من القرن 7ه حتى القرن 10ه ثروة هائلة من المصادر المصنفات الجغرافية، كونهم كانوا ذوي ثقافة موسوعية في شتى أنواع العلوم والفنون. فما هو منهج وصفهم للمدن والأمصار الإسلامية التي مروا، أو حلوا بها أثناء رحلاتهم؟. وما مدى استفادة الدراسات المعمارية الحديثة من نصوص رحلاتهم، وخاصة الدراسات الاستشراقية التي نالت شهرة واسعة في التعريف بتراث الحضارة الإسلامية الذي ظل مطمورا لفترة طويلة من الزمن؟.

يعتبر الطراز المغربي الأندلسي أحد مدارس العمارة الإسلامية، تميز بخصائص تخطيطية ومعمارية وزخرفية، وتأثرات محلية خاصة، رغم اشتراكه في المميزات العامة للفن الإسلامي، مع سائر مدارس العمارة والتشييد، ويعتبر جامع قرطبة النواة الأولى والمنبت الرئيسي لهذه المدرسة، والذي اتخذ المثل الأعلى في عمارة مساجد بلاد المغرب والأندلس. فكيف ساهمت مؤلفات ومصنفات رحالة المغرب الإسلامي في التعريف بأهم الخصائص التخطيطية والمعمارية والزخرفية لهذا الطراز؟. وكيف وصفت أهم المنجزات المعمارية لهذه المدرسة التي عبرت عن ذروة تطور الحضارة الإسلامية؟.

إن طبيعة التساؤلات التي يطرحها موضوع البحث تفرض علينا نوع المنهج الذي نتبعه في البحث، ويتعلق الأمر بالمنهج التاريخي، الذي يعتمد على جمع الوثائق التاريخية، ويتبع الأحداث

التاريخية وفق تسلسلها الزمني، والاستقراء الذي يغلب عليه التحليل، والمقارنة بين الروايات المختلفة، للوصول إلى نتائج علمية صحيحة، استعملناه في تتبع المراحل التاريخية التي مرت بها الرحلة في المغرب الإسلامي من القرن 7هـ حتى القرن 10هـ، وتقصي العوامل التي ساهمت في تكوين الشخصية العلمية الرفيعة لرحالة المغرب الإسلامي، وانتقاء نصوص الرحلات التي تناولت وصف النسيج العمراني في الأقطار والمدن الإسلامية. واستعملنا المنهج الوصفي في إبراز قيمتها في المعالم الأثرية الإسلامية التي مازالت محافظة على طبيعتها التاريخية والفنية حتى وقتنا الحاضر.

وأثناء تناولنا لموضوع البحث اعترضتنا مجموعة من الصعوبات، لعل أهمها قلة المصادر والمراجع، وأن رحالة المغرب الإسلامي، لم يسجلوا ما شاهدوه بالمغرب والأندلس، وهذا أمر طبيعي بالنسبة إليهم، لكونه كان معروفا بخلاف غيره. وأن عددا كبيرا من الرحلات في الفترة المدروسة قد ضاع، أو لم يعن علماء بلاد المغرب الإسلامي بتدوينها، لأنهم غلب عليهم الاهتمام بعلمي بالدراية والرواية.

ومحاولة منا للإمام بالموضوع من كل جوانبه، قسمنا البحث إلى مقدمة ومدخل وبابين وخاتمة. وقد تطرقنا في المقدمة إلى التعريف بالموضوع، وأهميته، وأسباب دراسته، ودواعي اختياره، وكذا إشكالية البحث، والمناهج التي اقتضت الدراسة إتباعها، وقمنا بعرض موجز لخطة بحثه.

فتناولنا في المدخل مفهوم العمارة الإسلامية، والعوامل التي بلورت نواتها الأولى وساهمت في نشأتها، مبرزين الخصائص والسميات التي كونت منها شخصية مستقلة عن باقي الفنون السابقة لها، رغم تأثرها بها.

وخصصنا الباب الاول لتطور الرحلة في بلاد المغرب من القرن ٧هـ إلى القرن 10هـ، وقسمناه إلى أربعة فصول. في الفصل الأول اجتهدنا لإعطاء مفهوم شامل للرحلة، ذاكرين الدوافع التي ساهمت في ازدهارها قي بلاد المغرب من القرن 7هـ حتى القرن 10هـ، وميول المغاربة لها من عوامل دينية وعلمية وسياسية، كالحج، وطلب العلم، والقيام بسفارات وغيرها.

أما الفصل الثاني فقد تناولنا من خلاله التعريف بأشهر رحالة المغرب الإسلامي في القرن 7هـ، الذين ذاع صيتهم في مجال الجغرافيا والرحلات، والذين خلفوا إنتاجا علميا غزيرا، من مصادر ومصنفات، اعتمد عليها الدارسون للعمارة الإسلامية. ونظرا لكثرة عددهم اخترنا منهم:ابن جبير، وابن سعيد المغربي، ومحمد العبدري. وذلك بالتعريف بهم ذاكرين تراجمهم، وشيوخهم الذين تتلمذوا على يدهم، والتعرض إلى أهم مؤلفاتهم، وتتبع مسار رحلاتهم. وفي الفصل الثالث تطرقنا لأشهر رحالة القرن 8هـ :كابن بطوطة، وبن مرزوق الخطيب، وعبد الرحمن بن خلدون. وفي الفصل الرابع عرفنا بأبي العباس يحي الونشريسي من القرن 9هـ، وبالحسن بن محمد الوزان، وأحمد المقري التلمساني. ومن القرن 10هـ.

أما الباب الثاني فدرسنا من خلاله النسيج العمراني للمدن الإسلامية من خلال كتب رحالة المغرب الإسلامي من القرن 7هـ حتى القرن 10هـ، دارسين نصوص الرحلات التي عرفت بمنجزات الحضارة الإسلامية في المشرق والمغرب والأندلس، ومميزات الطرز المعمارية الإسلامية من الناحية التخطيطية، والمعمارية، والزخرفية. والقيمة العلمية لهذه النصوص في الدراسات المعمارية اثلحديثة. وخصوصا وأن الدراسات الاستشراقية التي حازت قصب السبق في ميدان العمارة اعتمدت على مؤلفات ومصنفات الجغرافيين ورحالة المغرب الإسلامي، وقسمناه إلى ثلاثة فصول: فشمل الفصل الأول مدن الأندلس: كقرطبة وغرناطة وإشبيلة، ودرس الفصل الثاني على مدن الحجاز وبلاد الشام والعراق: كمكة المكرمة ودمشق وبغداد، وعرف الفصل الثالث بالنسيج العمراني لمدن المغرب: كالقيروان وفاس وتلمسان. .

وقد ذيلنا بحثنا بخاتمة جمعنا فيها كل النتائج العلمية التي توصلنا إليها، والخاصة بأهمية نصوص الجغرافيين والرحالة المغاربة في التعريف التراث المعماري الإسلامي الذي يتميز بالثراء والتنوع، والكشف عن المميزات التخطيطية والمعمارية والزخرفية الخاصة بكل قطر من أقطار العالم الإسلامي، الواسع الأرجاء. وقد دعمنا بحثنا بمجموعة من الأشكال واللوحات والمخططات التي توضح للقارئ الكريم ما ورد في متن المذكرة.

حرر في تلمسان بتاريخ:22جوان 2017.

مدخل :

ماهية العمارة الإسلامية

وخصوصياتها.

1 – ماهية العمارة الإسلامية.

2– نشأة العمارة الإسلامية.

3 –خصوصيات العمارة الإسلامية.

لقد ارتبطت العمارة بالإنسان بوصفها عملا معبرا عن ثقافته، فمنذ وجوده على سطح الأرض سعى في تكييف الطبيعة لسد حاجاته الجسدية والروحية، فالعمارة تحديدا نشاط ثقافي لا يكمن فهمه، والتعامل معه دون فهم الثقافة الحاضنة له، وقبل أن نستعرض تاريخ نشأة العمارة الإسلامية، لابد من الكشف عن ماهيتها لغة واصطلاحا.

1- ماهية العمارة الإسلامية :

أ- العمارة لغة: مأخوذة من الفعل عَمَّرَ[1] ، والعُمْرُ بالفتح وبالضم وبضمّتين، يقال طال عَمْرُه وعُمْرُه لغتان فصيحتان، فإذا أقسموا : لعَمرك أي فتحوا ، والجمع أَعْمَارٌ ، والعَمْر َوالعُمْرُ اسم لمدّة عِمَارَةِ البدن بالحياة، فهو دون البقاء. قال تعالى في محكم التنزيل: " لعَمرك إنهم في سكرتهم يعمهون"[2]. وعن ابن عباس في قوله تعالى : " لعَمرك أي لحياتك، وقال ما حلف الله بحياة أحد إلاّ بحياة النبي (ص).

وعَمَّرَهُ الله وعَمَرَهُ[3]: أبقاه، وَعَمَّرَ نفسه قدّر، وقوله تعالى : "وما يُعَمِّرُ من مُعَمِّرٍ ولا ينقص من عُمْرِهِ إلا في كتاب"[4].قال القراء: ما يطوّل من عمر معمّر ولا ينقص من عمره.

والعُمْرَى: ما تجعله للرّجل من طول عمرك أو عمره، وفي الحديث النبوي الشريف : " لا تَعْمِرُوا ولا ترقبوا، فمن أَعْمِرَ دارا أو أرقبها فهي له، ولورثته من بعده"[5].

وعُمْرِيٌّ الشجر قديمه، نسب إلى العُمْرِ، وقيل هو العُبْرِيٌّ من السدر والميم بدل، ومنه قول ذي الرمة :

قطعت إذا تجوفت العواطي ضروب خفيف السدر عُبْرِيًّا وصالا.

---

(1) محمد بن محمد الحسيني، تاريخ العروس في جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، ج 13 ، دار الهداية، بيروت، دط، دت ، ص123.

(2) سورة الحجر، الآية: 72.

(3) ابن منظور، لسان العرب، ج04، دار صادر بيروت، ط03، سنة1414هـ، ص ص (602-604).

(4) سورة فاطر، الآية:11.

(5) رواه ابن ماجه والنسائي.

وعَمَرَ الله منزلك عَمَارَةً وَأَعْمَرَهُ[6]، جعله آهلا، والرجل ماله وبيته عِمَارَةً وعَمُورًا: لزمه ومكان عَامِرٌ: ذو عَمَارَةٍ ومكان عَمِيرٌ: عَامِرٌ ، وأَعْمَرْتُ الأرض: وجدتها عَامِرَةٌ.وثوب عَمِيرٌ أي صفيق، وعَمَرْتُ الخراب عَمَارَةً فهو عَامِرٌ أي مَعْمُورٌ[7]، وعَمَرَ الرجل ماله وبيته يَعْمُرُهُ عَمَارَةً وعَمُورًا وعُمْرَانًا: لزمه، وأنشد أبو حنيفة في صفة النحل:

أدام لها العصرين ريا ولم يكن كما ظن عن عُمْرَانِهَا بالدّراهم[8].

وقوله تعالى: " والبيت المِعْمُورِ"[9].جاء في التفسير أنه بيت في السماء بإزاء الكعبة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ويخرجون منه ولا يعودون إليه[10].

وعَمَرَ المال نفسه يَعْمُرُ وعَمَرَ عِمَارَةً، الأخيرة عن سبويه، وأَعْمَرَهُ المكان واسْتَعْمَرَهُ فيه، جعله يَعْمُرُهُ، قال تعالى: " هو أنشأكم من الأرض واسْتَعْمَرَكُمْ فيها"[11]. أي أذن لكم في عَمَارَتِهَا واستخراج قومكم منها وجعلكم عَمَّارَهَا، والمِعْمَرُ: المنزل الواسع من جهة الماء والكلأ الذي يقام فيه، قال طرفة العبد: يا لك من قبرة بمَعْمَرِ[12].

والعَمَارَةُ: الحيّ العظيم تنفرد بضغنها وإقامتها ونجعتها، وجمعها عَمَائِرَ ومنها قول جرير:

يجوس عَمَارَةً ويكف أخرى لنا حتى بجوازها دليل[13].

قال الجوهري : والعَمَارَةُ القبيلة والعشيرة، قال الأخنس بن شهاب:

لكل أناس من معد عَمَارَةً عروض إليها يلجئون وجانب[14].

---

[6] الفيروز أبادي, قاموس المحيط، المصدر السابق، ص444.

[7] ابن منظور، لسان العرب، ج04, المصدر السابق، ص604.

[8] علي بن سيده المرسي، المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، ج02، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1421هـ/2000م، ص 149.

[9] سورة الطور، الآية 04.

[10] إسماعيل بن حماد الفرابي، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ج02، دار الملايين، بيروت، ط04، 1407هـ/1987م، ص756.

[11] سورة هود، الآية 61.

[12] مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، دار الدعوة، القاهرة، دط، دت، ص626.

[13] محمد بن أحمد الأزدي الهروي، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، ج02، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط01، سنة 2001، ص234.

والعَمَائِرُ: جمع عِمَارَةٍ، بالكسر والفتح.

والعَمْرُ: لحم من اللثة سائل بين كل سنين، وفي الحديث " أوصاني جبريل بالسواك حتى خشيت على عَمُورِي". والعُمُورُ: منابت الأسنان واللحم، الذي بين مغارسها الواحد عَمْرٌ بالفتح، قال ابن الأثير : قد يضم، قال ابن أحمد:

كان الشباب وأخلف العَمْرُوتبدل الإخوان والدهر[15].

والجمع عُمُورٌ ، وقيل كل مستطيل بين سنتين عَمْرٌ.

والعَوَامِرُ: الحيّات التي تكون في البيوت واحدها عَامِرٌ، وعَامِرَةٌ، وقيل سميت بذلك لطول عمرها، والعَوْمَرَةُ: الاختلاط، واليَعْمُورُ: الجدي، قال ابن زيد الطائي:

ترى لأخلافها من خلفها نسلا مثل الذميم على قرم اليَعَامِيرِ[16].

والعَمَرَان طرفا الكمين، وفي الحديث: "لا بأس أن يصلي الرجل على عَمَرَيْهِ" . بفتح العين والميم[17].

ب – العمارة اصطلاحا :

في البداية يجب أن نقر لأن لكل فترة تاريخية معينة خصوصيتها المعمارية، ولا يوجد صيغة خصوصية تنطبق على حالة معينة لكل العصور والأزمان, وعلى سبيل المثال العمارة المصرية القديمة, فبالرغم من أن عمرها قد يربو على ثلاثة آلاف سنة, وأن رسم الخطوط للعمارة المصرية بدقة لا يبتعد عن الواقع[18]. فقد بنا المصريون المقابر والمعابد بسبب المعتقدات الدينية وتقديسهم للآلهة وثقتهم بعودة الحياة إلى الجسد بعد الموت, وكانت عمارتهم متجهة نحو السماء.

---

(14) تقي الدين الدقيقي المصري، اتفاق المباني وافتراق المعاني، تحقيق: يحي عبد الرءوف جبر، دار غمار، الأردن، ط01، سنة 1405هـ/1985م، ص ص (219-220).

(15) ابن منظور، لسان العرب، ج04، المصدر السابق، ص606.

(16) المصدر نفسه، ص606.

(17) المصدر نفسه، ص607.

(18) هاني محمد القحطاني، مبادئ العمارة الإسلامية وتحولاتها المعاصرة –قراءة تحليلية نحو الشكل-، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط01، سنة 2009، ص 21.

وقد بينت الدراسات للأهرام سر عظمة العمارة, كما يلاحظ ذلك في الأبهية في إخراجها والدقة المتناهية, وفي تكوينها العام, بجانب ما يستطيع الوصول إليه بالفحص والتحليل من بعض ما بلغه المصريون من تطور كبير في علمي الهندسة والرياضيات[19].

كما قامت المعتقدات الدينية بدور مهم في العمارة اليونانية غير أن ذلك تم تجسيده بطريقة مختلفة, كان الجسم الإنساني موضوع رئيسيا في العمارة. فازدهر عندهم علم النحت إلى درجة قل نظيرها في تاريخ العمارة, فأصبح العمود اليوناني ينحت من الأعلى إلى الأسفل بعد تجميع حجارته الواحدة فوق الأخرى, كما صور النحاتون اليونان الآلهة على أشكال بشرية كاملة الأوصاف ونصبوها في معابدهم في أماكن تم اختيارها لتوافق مع معتقداتهم الدينية، وأتى المعبد اليوناني في تفاصيل المعطيات الثقافية والدينية والفكرية والبيئية لديهم[20]. وهذا ما أدى بريمون بايير بالاعتقاد: "أن العمارة المنبع الأصلي للفنون الأخرى التي تجلت نشأتها على جدران المعابد"[21].

أما الرومان فقد وظفوا الموروث المعماري اليوناني بطريقة مختلفة، حيث مالوا فيه إلى نزعة المجتمع المدنية والتكوين المؤسساتي للدولة، وكانوا مجبرين على ذلك بسبب اتساع الرقعة الجغرافية, فبنوا هياكل ذات فراغات ضخمة لتستوعب أعدادا كبيرة من الناس، مثل: المسارح والمكتبات، والأسواق، والحمامات، ودور القضاء والتسلية، والملاعب الرياضية. وجلبوا المياه من أماكن بعيدة فوق قناطر متعددة الأدوار. فكانت العمارة الرومانية "عمارة مبان مدنية" صاحبتها أنظمة إنشائية متقدمة، يعتبر القوس أهم عناصرها، فعكست حياة المجتمع والدولة والعصر الذي أنشأت فيه[22].

فالعمارة بمفهومها الحضاري هي: "أكثر النشاطات صلة بتجسيد الواقع الحضاري لأمة، كأنها تقوم بتحديد النمط الحياتي، والسلوكي خلال تأثيراتها المباشرة على البيئة البشرية وعكسها للمفاهيم والرموز المادية والمعنوية في أية فترة تاريخية "[23].

---

[19] أحمد موسى، "الفن المصري"، مجلة الرسالة، العدد: 192، ص63.

[20] هاني محمد القحطاني، مبادئ العمارة الإسلامية وتحولاتها المعاصرة، المرجع السابق، ص22.

[21] عبد المعطي محمد، الإبداع الفني وتذوق الفنون الجميلة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، دط، دت، ص96.

[22] هاني محمد القحطاني، مبادئ العمارة الإسلامية وتحولاتها المعاصرة، المرجع السابق، ص23.

[23] محمد حسين جودي، العمارة العربية الإسلامية، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان، ط01، سنة 1427هـ/2007م، ص27.

والعمارة علم يتكوّن من شقين نظري وتطبيقي، فالنظري يقوم بإثبات صحة ودقة النسب المتوخاة، والتطبيقي يعالج الفكرة بالممارسة[24]. وللعمارة ارتباط وثيق بالمعطيات والوضع الطوبوغرافي، ويمتد ليشمل المنظر الإجمالي المحيط، كما يراعي الظروف المناخية، ويلجأ إلى استخدام خامات ومواد البناء الأصلية التي يسهل تحديدها في داخل كل حضارة محلية, والأبعاد الموجودة في نطاق الاهتمام في والإفادة منها، والتفكير في التعامل مع نوعية البناء فيما يتعلق بالمعطيات الثقافية والاجتماعية والبيئية[25].وإذا كانت العمارة القديمة: "ما هي إلا شكل من الأنماط لتلبية حاجيات الإنسان المختلفة واستجابة لممارساته الاجتماعية"[26]، فإن العمارة الحديثة تتجه إلى تيارين رئيسيين متقطعين هما : التيار الدولي والتيار المحلي.

1- التيار الدولي فهو ذو طابع إجمالي وتوحيدي ودولي: بدأ في أوربا يدعوا إلى التخلص والتحرر من أساليب العمارة الكلاسيكية، وربط عرى التقارب والتشابه بين مختلف المجموعات الإنسانية في العالم، وخاصة في مجالات البيئة العمرانية، في كافة المستويات في المدينة إلى حتى أصغر تفاصيل الأبنية المنفردة، وموادها الإنشائية وطرق تركيبها وتشييدها، وأصبحت لها لغة خاصة في التصميم المعماري، ومصطلحات نقدية تقيميه محددة. فلابد أنّ المجتمعات الإنسانية بغض النظر عن خصائصها الجغرافية والبيئية أن تخضع وتشترك جميعها في نمط معيشي موحد وفي بيئات متشابهة نتيجة حتمية عقلانية واقتصادية للدور الذي تلعبه التكنولوجيا الحديثة في تحرير الإنسان، والمصمم المعماري يجب أن يتحرر من قيود الطبيعة والإمكانات الإنشائية والتنفيذية، المحدودة التي كانت تشكل عقبات كبيرة في طريق التقدم الإنساني[27].

---

[24] سيدي محمد الغوتي بسنوسي، الأصول العميقة لمعايير التناسق في العمارة الدينية بالمغرب العربي، رسالة دكتوراه دولة، قسم الثقافة الشعبية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، سنة 2000، ص 85.

[25] Philippe Bouden, Architecture et Architecturelogie , Paris, 1975,PP(89-90).

[26] بالحاج معروف، العمارة الإسلامية – مساجد ميزاب ومصلياته الجنائزية–، دار قرطبة، الجزائر، ط01، سنة 1428هـ/2007، ص16.

[27] محمد حسين جودي، العمارة العربية الإسلامية، المرجع السابق، ص ص(29-30).

2- التيار المحلي: ويميل هذا التيار إلى الحفاظ على المحلية القومية في الفن والعمارة، والشوق والحنين إلى الماضي وأيامه الذهبية، والوقوف أمام ماجاءت به التكنولوجيا الحديثة من مشاكل بيئية وإنسانية واجتماعية[28].

أما تسمية العمارة الإسلامية فتطلق على: "كل ما يبنى على وجه الأرض بهدف التنمية العمرانية التي تسعى إلى خدمة الفرد والمجتمع، وتستجيب لكافة متطلباته، سكنية وإدارية وثقافية...الخ، ولا تتعارض مع العقيدة الإسلامية"[29]. وانتشرت هذه العمارة في المنطقة الممتدة من المحيط الأطلسي غربا إلى الصين شرقا، ويكفي النظر إلى أن الإسلام طبع مظاهر الحياة العمرانية بتأسيس المسجد الجامع كنواة لجميع المدن الإسلامية، ومركزا لتخطيطها واتساعها، وموضعا للتطوّر والتوسّع الذي يتماشى مع اتساع المدن وكثرة عمرانها، وموضعا لإبداع المهندسين في التخطيط، فقد فرضت الصلوات في المسجد دون غيره[30].وهذا ما جعل آرنست كونل يعترف: "أن الإسلام قضى على الفوارق الناشئة على خلاف الأجناس والتقاليد وعني بتوجيه الفكر والأدب، والعادات والتقاليد في مختلف البلاد، وكان الأمر بنشر القرآن بلغته العربية وحدها، مما جعل لها وللتعاليم القرآنية سيادة مطلقة في العالم الإسلامي، فكان ذلك في مقدمة العوامل التي أدت إلى ابتداع كثير من الفنون وازدهارها"[31].

ورغم أن فن العمارة قديم نشأ مع الإنسان منذ وجد، وتطور مع وسائل حياته عبر القرون، ولما جاء الإسلام صاغ حياة المسلمين وفق منهجية، تدخل في كل صغيرة وكبيرة، ليرشد إلى السبيل الأقوم، وكان لابد أن يظهر أثره في كل جوانب الحياة الاجتماعية، في أسلوبها وشكلها، في المدينة والمسجد والمسكن والطريق ...

---

[28] محمد حسين جودي، العمارة العربية الإسلامية، المرجع السابق، ص ص(30-31).

[29] المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، موسوعة المفاهيم الإسلامية العامة، مصر، ص64.

[30] عثمان عثمان إسماعيل، تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى، ج01، سلسلة حضارة المغرب الإسلامي، ط01، سنة 1992، ص ص(118-119).

[31] أرنست كونل، الفن الإسلامي، ترجمة: أحمد موسى، دار صادر، بيروت، ط02، سنة 1966م، ص101.

وقد أدّى فن المعمار وظيفة، بدء من تلبية الضروريات، ووصولا إلى التحسينات والجماليات، بعد استكمال حاجياته وكان الأثر الإسلامي في هذا الفن عظيما في كل جوانبه، وخاصة في التصميم والتوزيع والزخرفة والتزيين[32].

وتميّز العرب والمسلمون في فن العمارة أكثر من أي مجال فني آخر، فقد كانت الأبنية هي أول الأمر وسيلة عبّر فيها المسلم عن أفكاره وعقيدته، لكونها ضرورة في حياة المسلم، ولهذا أودعها خلاصة أفكاره ومشاعره، وشيئا فشيئا أصبح يسخر باقي الفنون لخدمة العمارة الإسلامية مثل: الفسيفساء، والنقش على الخشب، والخط العربي، والنقش على المعادن وغيرها[33].

2- نشأة العمارة الإسلامية:

لقد ذهب بعض المستشرقين إل أنّ العرب البدو الرحل لم يكن لهم نشاط يذكر في العمارة قبل الإسلام، ويبدو أن قسما من أبحاثهم ومؤلفاتهم، واستنتاجاتهم يغلب عليها طابع التحيّز لغير العرب، بل أكد بعضهم إلى: "أن المسلمين في فن العمارة لم يكونوا إلا مقلدين ومستعيرين، وأنّهم لم تكن لهم عمارة خاصة بهم تستحق الذكر، وأنّ كثيرا من أساليب العمارة انتقلت إليهم عن أمم غير إسلامية"[34]. فكانت دراستهم تخلوا من الاهتمام بعمارة العرب قبل الإسلام وبعده.

والحقيقة أن العرب قد استوطنوا مناطق عديدة في شبه الجزيرة العربية، وأقاموا حضارات لها معالم وخصائص عربية، وهذا ما تشير إليه الدلائل الأثرية منذ العصور الحجرية، ونذكر على سبل المثال الآثار الباقية الشاخصة في الحجر ذات الواجهات المعمارية الضخمة المنحوتة، ومدينة البتراء قرب العقبة بالأردن، ومديان ومؤاب الجارتان الجنوبية والشمالية لأدوم[35].

---

[32] صالح أحمد الشامي، الفن الإسلامي –التزام وإبداع–، دار العلم، دمشق، ط01، سنة 1410هـ/1990م، ص ص (287-288).

[33] علياء عكاشة، العمارة الإسلامية في مصر، بردي للنشر، الجيزة، سنة 2008م، ص21.

[34] كريشي أرنولد بيجز، تراث الإسلام في الفنون الفرعية والتصوير، ترجمة: زكي محمود حسن، دار الكتاب العربي، دمشق، ط01، سنة1984م، ص112.

[35] محمد حسين جودي، العمارة العربية الإسلامية، المرجع السابق، ص ص(48-50).

لقد شكل الطراز المعماري العربي في قصور الحيرة[36] مثل: الخورنق[37] والسدير نمطا معماريا مستحدثا، أي لم يكن معروفا من قبل يسمى بالحيري، يذكر المسعودي في كتابه مروج الذهب أن: "أحد ملوك الحيرة من النعمانية من بني نصر أحدث بنيانا في دار قراره هي الحيرة، على صورة الحرب، وهيئته للهجته بها، وميله نحوها لئلا يغيب عنه ذكرها في سائر أحواله، فكان الرواق فيه مجلس الملك وهو الصدر والكمان ميمنة وميسرة"[38].

ولما اعتنق العرب الإسلام بعد بعثة النبي صلى الله عليه وسلم، شهدت العمارة الإسلامية مولدها في مسجد الرسول (ص) بالمدينة، وكان لوحدة العقيدة الدينية في مختلف مناطق العالم الإسلامي شرقا وغربا بما أشاعته من روح العدالة والإنصاف، ونبذ فوارق الجنس واللون، وما دفعت إليه من إمعان للنظر وإرهاف للحس، وما استهدفته من نوايا حضارية جليلة بتشريف الصناعات والصناع، وتوجيه للفكر والفن دون تمييز لطبقة أو جنس كان له أثر كبير في امتزاج الحضارة، وتميزت العمارة والفنون الإسلامية بكافة بقاع الدولة الإسلامية، بطابع موحد في التفكير والذوق والإبداع رغم بعض الفوارق المحلية[39].

يعدّ المسجد الذي بناه الرسول (ص) في المدينة المنورة سنة 622م وجعل جدرانه من اللبن، وسقفه من جريد النخيل، سواريه من جذوع النخل[40]. النموذج الأول لسائر المساجد الأخرى من حيث العناصر التخطيطية، فقد حدد المخطط لمسجد المستقبل بأجزائه الأساسية وهي الصحن الواسع جدا، والحرم ذو الأعمدة الذي يحاذي الصحن، ويكون مسقوفا وامتدادا له

---

[36] الحيرة مدينة بالعراق على بعد ثلاثة أميال من الكوفة، وسميت بذلك لأن النبي تبعا عليه السلام لما أقبل بجيوشه، ولما بلغ موضع الحيرة تاه دليله وتحير، سكنها قبائل مدحج وحمير وكليب وتيم، وكانت مسكن ملوك العرب في الجاهلية، أنظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج02، دار صادر، بيروت، ط02، سنة 1995، ص ص(32-34).

[37] الخورنق من قصور النعمان بظهر الحيرة، أنظر: أبو عبيد الله البكري، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، ج02، عالم الكتب، بيروت، ط03، سنة 1403هـ، ص515.

[38] المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج02، القاهرة، سنة 1948م، ص369.

[39] عثمان عثمان إسماعيل، تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى، ج01، المرجع السابق، ص141.

[40] نور الدين السمهودي، وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج01، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1419هـ، ص ص (257-259).

من جهة القبلة، قد أضيف إلى حرم المحراب. أما المنبر فقد استعمل منذ عهد الرسول (ص)[41]. فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه "كان الرسول (ص) يوم الجمعة يخطب في المسجد قائما، فقال تميم الداري[42]: ألا أعمل لك منبرا كما رأيت يصنع بالشام، فشاور الرسول (ص) المسلمين في ذلك، فرأوا أن يتخذه، فقال العباس بن عبد المطلب: لي غلاما يقال كلاب أعمل الناس، فقال الرسول (ص): مره أن يعمله، فأرسله إلى أثلة بالغابة فقطعها، ثم عمل منها درجتين ومقعدا، ثم جاء به فوضعه في موضعه اليوم، فجاء الرسول (ص)، فقام عليه، وقال: منبري هذا على ترعة من ترع الجنة، وقوائم منبري رواتب في الجنة، وقال: منبري على حوضي، وقال:مابين منبري وبيتي من رياض الجنة"[43].

ولما قويت دولة الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين وظهرت الفتوحات الإسلامية شرقا وغربا، دخل في الإسلام مختلف أبناء شعوب البلدان المفتوحة، وظل الإسلام في تلك الفترات الأولى عقيدة تهتم بالجانب الروحي، وانشغل الخلفاء الراشدون بنشر الإسلام، وظلت الروح الزاهدة البسيطة الخالية من الزخرفة هي الغالبة على عقل ونفس المعماري المسلم، فجاءت النماذج المعمارية مشابهة من حيث بساطتها لأبنية عصر الرسول (ص)[44].

---

[41] عفيف بهنسي، الفن الإسلامي في بداية تكونه، دار الفكر، دمشق، ط01، سنة 1413هـ/1983م، ص14.

[42] هو تميم بن أوس بن خارجة بن سواد بن جذيمة بن ذراع بن عدي بن الدار بن هانئ بن حبيب بن نمازة بن لخم بن عدي ابن سبأ ابن يعرب بن يشجب بن قحطان بن عمير بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام، كنيته أبو رقية، كان يختم القرآن الكريم في ركعة، وربما ردد الآية الواحدة الليل كله إلى الصباح، أسلم سنة 09 من الهجرة، سكن المدينة المنورة، ثم انتقل إلى الشام بعد مقتل عثمان رضي الله عنه، ومات وقبره ببيت جبرين من بلاد فلسطين. أنظر: محمد بن حسان البستي، الثقات، تحقيق: محمد بن عبد المعيد خان، ج03، دار المعارف العثمانية، حيدرأباد، ط01، سنة 1393هـ/1979م، ص ص(39-40).

-محمد بن إسحاق العبيدي، معرفة الصحابة، تحقيق: عامر حسين صبري، مطبوعات جامعة الإمارات العربية، ط01، سنة1426هـ/2005م، ص ص (316-318).

-يوسف بن عبد الله النميري القرطبي، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: علي محمد البجاوي، ج01، دار الجيل، بيروت، ط01، سنة 1412هـ/1992م، ص ص (193-194).

[43] محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطى، ج01، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1410هـ/ 1990م، ص192.

[44] علياء عكاشة، العمارة الإسلامية في مصر، المرجع السابق، ص21.

ولما استقر الإسلام في عهد بني أمية، وبلغت الدولة الإسلامية أقصى اتساع لها اقتبس المسلمون من الفنون التي سبقتهم كالفن الساساني والبيزنطي والروماني والقوطي[45]، وذلك لقلة التقاليد الفنية، فاقتبس الأمويون من الفنون البيزنطية التي وجدوها طرازا فنيا خاصا. وهذا حال الحضارات التي تتأثر فيما بينها، فلا يمكن لأي فن أن ينشأ من العدم، فلابد أن يستفيد الفن المستحدث من خبرات السابقين[46].

ويتميّز الطراز الأموي أنه ذو طابع دولي، انتشر في كل الأقطار التي خضعت لسلطان الدولة الأموية من حدود الهند شرقا إلى الأندلس غربا، وقد وقع البناء والتشييد في العهد الأموي تحت تأثيرات محلية متشابهة تتصل بالفن الهلينيستي الشرقي والبيزنطي والفن الساساني، ويلاحظ على هذا الفن أنه كان قريب الشبه بالفنون السابقة على الإسلام لأنه قريب العهد بها، وإن غلبت النواحي الإقليمية على مخلفات هذه المدرسة، فمثلا المباني التي شيّدت في الشام ظهرت فيها مسحة بيزنطية أقوى من تلك التي بنيت في العراق ذات المسحة الساسانية[47]. ومن أهم عناصره التخطيطية والمعمارية أن مساجده كانت مستطيلة الشكل تتكوّن من صحن مكشوف متجه إلى الشمال الغربي محاط بأروقة من ثلاث جهات أو أربع، يكون الرواق المتجه إلى الجنوب الشرقي واسعا ومسقوفا يدعى بالحرم، أما وضع المئذنة فإنها فكانت تنصب في منتصف الجدار الشمالي، وكانت بلاطة المحراب أوسع من البلاطات الأخرى تعلوها قبة، واستعملت هذه المدرسة المقرنصات، والأقواس كانت مدببة أو حدوية الشكل. ومن منجزات هذا الطراز نذكر على سبيل المثال لا الحصر، الجامع الأموي في دمشق، وقبة الصخرة في القدس، والجامع الأزهر في القاهرة، والمدرسة العادلية والظاهرية في دمشق، وقلعة حلب[48].

---

(45) George Marçais , L'Art Musulman, 1er Ed, Presse Universitaire de France, Paris, 1982 ,PP(08-10).

(46) بالحاج معروف، العمارة الإسلامية – مساجد ميزاب ومصلياته الجنائزية-، المرجع السابق، ص18.

(47) أنور الرفاعي، تاريخ الفن عند العرب والمسلمين، دار الفكر، بيروت، ط01،سنة 1398هـ/1977م، ص 54.

(48) حسنى محمد نويصر، الآثار الإسلامية، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، سنة 1997م، ص07.

ثم قامت الخلافة العباسية في العراق (132هـ– 656هـ) وفي ظل هذه الدولة نضج الفن الإسلامي، وأصبحت له سمة مميزة عن باقي الفنون، وعلى الجانب المعماري بالخصوص تغيّرت الأساليب المعمارية والزخرفية, فكان التأثير الفارسي واضحا، حيث اتجه البناءون إلى استعمال الآجر بدلا من الحجارة, و الدعامات بدلا من الأعمدة[49]، والعقود المدببة, وظهور المداخل الملتوية كأبواب مدببة, وإقامة قبتين على بلاط المحراب ابتداء من زيادة الأغالبة بالقيروان, والمآذن الحلزونية على هيئة برج حلزوني مصعده من الخارج, مثل مئذنة جامع سامراء (234 هـ – 235هـ), وجامع أبي دلف, وجامع ابن طولون بالقاهرة (263 هـ –266 هـّ)، والإقبال على تغطية الجدران بالجص بدلا من الفسيفساء, وابتكار طرز خاصة في زخرفة الجص ظهرت في منشآت ومباني سامراء[50].

وفي منتصف القرن الثالث الهجري بدأت حركات الاستقلال العباسية تظهر، وتتكون دويلات في المشرق و المغرب الإسلامي, مما أدى إلى تغيير عناصر كثيرة في عقيدة الطرز المعمارية والفنية. وما يمكن الجزم به أن المعماري المسلم اقتبس من فنون الحضارات السابقة ما يتلاءم مع بيئته، وما يتماشى مع تعاليم دينه, ويسد احتياجاته, وصاغ تلك الأساليب المعمارية وطورها, واستمر في ذلك حتى تخلص من جميع التأثيرات الأجنبية, وصار طرازا قائما بذاته, وأصبح من الصعب بما كان تمييز تأثيرات الفنون الأخرى[51].

وبلغت العمارة الإسلامية والفنون الإسلامية عصرها الذهبي مع ظهور الطراز المغربي الأندلسي التي تعود ملامحه إلى جامع قرطبة سنة (169 هـ / 785 م) الذي بناه عبد الرحمن الداخل, وهذا ما صرح به السيد عبد العزيز سالم: "يجمع مؤرخو الفن الأندلسي أن جميع الصور المتطورة لعناصر في مختلف أبنية الأندلس إنما تنبثق أصلا منم بنيان المسجد الجامع بقرطبة، ففيه تكمن المنابت الأولى للفن المغربي الأندلسي، التي أخذت في الظهور في عصر الخلافة الأموية

---

(49) بالحاج معروف، العمارة الإسلامية – مساجد ميزاب ومصلياته الجنائزية، المرجع السابق، ص ص (22-23).

(50) K.A.C Grezwell, AshortAccount of EarlyMuslim, First Published. 1958. P 134.

(51) بالحاج معروف، العمارة الإسلامية – مساجد ميزاب ومصلياته الجنائزية–، المرجع السابق، ص17.

بالأندلس، ثم ترعرعت بعد ذلك في عصر الطوائف، وتفتحت براعمها في عصر دولتي المرابطين والموحدين، وأثمرت في عصر دولة بني الأحمر. وجامع قرطبة يمثل المنبع الرئيسي الذي ارتوت منه فنون الإسلام في المغرب والأندلس في عصورها المختلفة. ولهذا أصبح هذا الجامع المثل الأعلى لمساجد المغرب والأندلس"[52]. ومن أهم الخصائص المعمارية لهذا الطراز استعمال الشرفات المسننة، القوس المتطاول لاسيما الحدوي منه، والأعمدة الرشيقة، والتيجان ذات المقرنصات، والفسيفساء الخزفية، أما المآذن فهي عموما مربعة[53].

وما يمكن استخلاصه عن نشأة العمارة الإسلامية أنها لم تقم على أساس أنّها تمثل فناً ابتغى المسلمون التميّز من خلاله، بل جاءت نتيجة حتمية لاحتياجات فعلية ملحة، حين ارتبطت في بدايتها بالمسجد، وإن تميزت بالبساطة، إلا أنها حددت الملامح التخطيطية والمعمارية للمنشآت المعمارية الإسلامية من حيث : الصحن الواسع والمحراب والمنبر، والتي بالطبع جاءت بما يتناسب مع الإمكانيات المادية المتاحة في بداية العصر الإسلامي.

3- خصوصية العمارة الإسلامية:

تميّزت المنشآت المعمارية الإسلامية بعدد من المميزات والتفاصيل التي تكررت في مختلف العمائر الإسلامية، حتى صارت من السمات الرئيسية فيها وأكسبتها شخصيتها المنفردة والمختلفة في الطرز الفنية الخاصة بالفنون السابقة.

لقد كانت للتعاليم التي نزل بها الدين الإسلامي أثرها في توجيه الفن المعماري، فاحتوت العمائر الإسلامية صحونا متسعة[54]. والصحن هو: "الفراغ المكشوف المحدد بواسطة الجدران أو المباني، وهو رمز الحياة، ومركز الجذب لكل العناصر المعمارية، لكي ينتظم وتطل عليه، وهو الحلقة الرابطة المميزة لكل العمائر الدينية أو المدنية الإسلامية"[55]. وتظهر وظيفته في أن يكون المسلم

---

(52) السيد عبد العزيزسالم، "العمارة الإسلامية في الأندلس وتطورها"، عالم الفكر، ج08، العدد: 01، جوان 1988م، وزارة الإعلام، الكويت، ص74.

(53) زكي محمد حسن، في الفنون الإسلامية، دار الرائد العربي، بيروت، سنة 1981، ص16.

(54) ثروت عكاشة، القيم الجمالية في العمارة الإسلامية، دار الشروق، القاهرة، ط01، سنة1944م، ص20.

(55) محمد حسين جودي، العمارة العربية الإسلامية، المرجع السابق، ص ص (61-63).

على اتصال دائم بالسماء من أجل الدعاء لله تعالى، فقد أدخل المعماري المسلم فكرة الرمز الكوني بالشكل المعماري، ناهيك عن الوظائف المختلفة الأخرى للصحن من تلطيف درجات الحرارة في المبنى، والسماح بدخول التيارات الهوائية الباردة، وأشعة الشمس من أجل الإضاءة والتدفئة، و الاتساع إلى عدد كبير من المصلين[56].

وقد حمل فن العمارة في ظل الإسلام تعبيرا معماريا جديدا، إذ ربط الفن المعماري بين المسجد والكعبة المكرمة، وذلك من خلال ابتكار المحراب الذي يتميّز بأنه عنصر معماري إسلامي بحث، لم يظهر في أي من الأساليب المعمارية قبل الإسلام، سواء من ناحية الشكل الفريد الذي اتخذه، أو من ناحية المدلول الرمزي لتوحيد المسلمين جميعا عند الصلاة في اتجاههم نحو الكعبة، بالإضافة إلى أنه عنصر معماري أساسي في عمارة المسجد[57].

والمحراب في العمارة الإسلامية هو:"مكان وقوف الإمام للصلاة، وهو عبارة عن تجويف، أو مشكاة في جدار القبلة، وكان دوره هو تحديد اتجاه القبلة، وأن يقوم بدور مضخم الصوت للإمام عند تكبيره، وتلاوته وركوعه وسجوده أثناء الصلاة"[58]. وقد اختلف في تاريخ ظهور هذا العنصر المعماري، وأن النبي صلى الله وسلم هو أول من حدد اتجاه القبلة في مسجده، رغم أن هذا المسجد لم يكن له محراب في عهده (ص)، ولا في عهد الخلفاء بعده، وأن أول من أحدثه عمر بن عبد العزيز في عهد الوليد بن عبد الملك[59]، وأقدم المحاريب المجوفة في الإسلام، فهو المحراب الموجود في الضلع الجنوبي من المثمن الخارجي لقبة الصخرة والمحراب الأوسط في الجامع الأموي بدمشق[60].

(56) المرجع نفسه، ص62.

(57) أنصار محمد عوض الله الرفاعي، المحتوى التعبيري للفن الإسلامي وفلسفته التربوية، رسالة ماجستير، كلية التربية الفنية، جامعة حلوان، القاهرة، سنة 1416هـ/1996م، ص158.

(58) رزق محمد عاصم، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، مكتبة مديولي، ط01، سنة 2000، ص 263.

(59) نور الدين السمهودي، وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج01، المصدر السابق، ص 281.

(60) محمد حسين جودي، العمارة العربية الإسلامية، المرجع السابق، ص 76.

وإذا كان الإسلام قد جمع المسلمين على عقيدة بعينها، لذا كان لابد من الاتجاه إلى مكان مقدس واحد، فاتجهوا أولا إلى بيت المقدس، ثم انصرفوا عنه إلى الاتجاه نحو الكعبة الشريفة فغدت قبلتهم إلى الأبد، فوجه المعماري المسلم جدران المسجد نحو الكعبة، وذلك بإنشاء محراب في الجدار المقابل للكعبة على شكل حنية تعلوها نصف قبة، وفكرته الرمزية أن المتعبّد إذا لم يستطع أن ينتهي إلى الكعبة بجسده، فلا أقل من أن ينتهي إليها بروحه من خلال المحراب[61].

وقد حقق المعماري المسلم فكرة الاتجاه إلى الأعلى بطريقة درامية في ابتكاره المئذنة، حتى يكون صوت المؤذن أعلى على ما عداه من أصوات. وتدوي كلمة " الله أكبر " في الآفاق إلى مدى بعيد، وهذا العنصر المعماري لم يكن موجودا في المساجد الأولى بدليل أن بلال بن رباح[62]كان يؤذن من فوق سقيفة أم زيد بنت ثابث[63]. وقد نقل رشيد بوروبية من أنه "كان في منزل عبد الله بن عمرو عمود مربع يقع جنوب مسجد النبي (ص)، كان بلال بن رباح يصعد عليه للآذان"[64].

ولعل القول الذي يؤرخ أن: "أقدم المآذن الأبراج التي كانت قائمة في المسجد الأموي بدمشق، وكانت على شكل أبراج مربعة، وقد انتقل هذا الطراز إلى شمال إفريقيا وسائر البلاد

---

[61]ثروت عكاشة، القيم الجمالية في العمارة الإسلامية،المرجع السابق، ص25.

[62] هو بلال بن رباح القرشي التميمي، أبو عبد الله، ويقال له أبو عبد الرحمن، ويقال له أبو عبد الكريم، ويقال له أبو عمرو المؤذن، مولى أبي بكر الصديق، شهد بدرا وأحدا، والمشاهد كلها مع رسول الله (ص)، وروى عن النبي (ص)، وسكن دمشق، وبها توفي سنة 90هـ. أنظر: يوسف بن عبد الرحمن القصاعي الكلبي المزري، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تحقيق: بشار عواد معروف، ج04، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط01، سنة1400هـ/1980م، ص ص(288-290).

-شمس الدين بن قيماز الذهبي، الكشاف في معرفة من له رواية في كتب السنة، تحقيق: محمد عوانه أحمد ومحمد بن الخطيب، دار القبلة للثقافة الإسلامية، حماة، ط01، سنة1413هـ/1992م، ص277.

-ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، ج01، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 11415هـ، ص ص (455-456).

-أحمد بن يحي البلاذري، جمل من أنساب الأشراف، تحقيق: سهيل زكار ورياض الزركلي، ج01، دار الفكر، بيروت، ط01، سنة 1417هـ/1996م، ص ص (184-190).

[63] محمد أمين بن عابدين، رد المختار على الدر المختار في شرح تنوير الأبصار، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، ج02، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1415هـ/1994م، ص148.

[64] Rachid Bourouiba, Apport De L'Algérie à L'Architecture Religieuse Arabo – Islamique , OPU, Alger,1986 ,P265.

الإسلامية[65]، يحتاج إلى تدقيق، وقد سبق ذكر العمود المربع الذي لا يؤذن عليه بلال بن رباح، أما في مصر فقد بنيت المآذن بأمر من معاوية بن أبي سفيان[66]، ولم تكن قبل ذلك، وأول من ارتقى منارة للآذان شرحبيل بن عامر المرادي. فلا يعقل أن يأمر معاوية ببناء المآذن في مصر دون دار الخلافة بدمشق، وعليه يمكن القول أن المآذن ظهر كعنصر معماري في بداية حكم الأمويين، ثم شاع استعمالها في بلاد الإسلام شرقا وغربا، وقد ظهرت المئذنة في المسجد النبوي عام (88هـ/700م)، لما أعيد بناؤه من طرف الخليفة الوليد بن عبد الملك[67]. ويرى كريسويل"أن مئذنة مسجد جامع القيروان أقدم مئذنة وصلت إلينا في البلدان الإسلامية جميعها، وأن الخليفة هشام بن عبد الملك هو الذي أمر ببناء هذه المئذنة، وأنها مستوحاة من فكرة أبراج الكنائس المسيحية التي كانت من العادات المتبعة في بلاد الشام قبل الإسلام"[68].ويرجع تاريخ تشييد مئذنة القيروان إلى حدود سنة 105هـ، لما كتب بشر بن صفوان إلى الخليفة هشام ابن عبد الملك يعلمه أنّ: "جامع القيروان يضيق بأهله وأن بجوفيه جنة كبيرة لقوم من فهر، فكتب إليه هشام يأمره بشرائها، وأن يدخلها في المسجد الجامع، ففعل وبنى الصومعة في بئر الجنان ونصب أساسها على الماء ... "[69].

ولعل شكل مئذنة القيروان الذي يشبه الأبراج الحربية، ونوافذها شمالا وغربا التي تأخذ شكل مرامي السهام، تؤكد أنها بنيت على يد بشر بعد صفوان، أي في عصر الولاة ذي الصبغة

---

(65) أبو صالح الألفي، الفن الإسلامي –أصوله وفلسفته ومدارسه-، دار المعارف، القاهرة، ط02، سنة 1967م، ص 126.

(66) هو معاوية ابن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، ولد قبل الهجرة بنحو 15 سنة، أسلم عام الفتح سنة 8هـ، وأصبح كاتبا من كتاب الوحي للرسول (ص)، شارك في حروب الردة وفتوح الشام، عينه عمر بن الخطاب واليا على الشام سنة 18هـ، تولى الخلافة سنة 41هـ، توفي عام 60هـ. أنظر: محمد البخاري، التاريخ الكبير، تحقيق: محمد عبد المعيد خان، ج07، دار المعارف العثمانية، حيدر أباد، ص ص (326-327).

-عبد الرحمن بن أبي حاتم، الجرح والتعديل، ج08، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط01، سنة 1952م، ص375.

-عبد الله البغوي، معجم الصحابة، تحقيق: محمد الأمين بن محمد الجكني، ج03، دار البيان، الكويت، ط01، سنة 1421هـ/2000م، ص ص (363-378).

(67) محمد بن حمو، العمارة والعمران من خلال كتب النوازل بالمغرب الإسلامي-دراسة في فقه العمران والعمارة الإسلامية-، أطروحة دكتوراه في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامع الجزائر، سنة 1432هـ2011م، ص150.

(68) K.AC Grezwell, EarlyMuslim Architecture, Umaayyads, EarlyAbbasids and Tulunidis, Vol 01, Oxford, Don Presse, 1932, P39.

(69) أبو عبد الله البكري، المسالك والممالك، ج02، المصدر السابق، ص673.

العسكرية. ذلك أن القيروان كانت عاصمة القسم الغربي من العالم الإسلامي، والمسجد الجامع هو صحن المسلمين، وملاذهم وقلعتهم[70].

وفي مقارنة أحمد فكري بين مئذنة جامع القيروان وأبراج الكنائس المسيحية التي سبقت الإسلام التي تظهر في هيئة الجمود، وتخلو نسبيا من مظاهر التوازن. أما مئذنة القيروان فإنها ترتسم في الفضاء كتلة تجمع بين الانسجام والاتزان، فإن تناسق نسب عرضها إلى ارتفاعها ليزيد عظمتها ظهورا[71]. وهذا ما يؤكد أن المسلمين لم يكونوا في العمارة الإسلامية سوى مقلدين مقتبسين من الفنون السابقة لهم، دون إضفاء صبغتهم المميزة المنفردة، فكانت إبداعاتهم المعمارية تستحق الإعجاب والتقدير لأن المعماري الهاوي المسلم استطاع أن ينفّذ فكرة الخالدة بمهارات فنية فائقة.

وهذا ما يؤكده أحمد فكري أنه يجب: " الاعتراف بأن ذكرى الأبراج السورية تتضاءل أمام شهرة مئذنة القيروان، وشخصيتها السبب الذي أدى برجال الفن والعمارة من المسلمين، باتخاذها نموذجا لمساجدهم في بلاد المغرب و الأندلس"[72].

كما أن وحدة الفن الإسلامي أدت إلى ارتباط المنشئات المعمارية، والمعالم الفنية بمعاني روحية تتعلق بتوجيهات الإسلام[73]، فعني بالزخرفة عناية بالغة، ومن أبرز مظاهرها الزخرفة النباتية المحورة، والتي يطلق عليها غالبا مصطلح الأرابسك أو الرقش العربي. فمن مظاهر التطور تبسيط العناصر النباتية القديمة، وتحويلها إلى عناصر زخرفية بعيدة عن الطبيعة. وهنا "لأول مرة في تاريخ الإنسانية اكتشف الفنان المسلم بشكل واع بأن هدف الفن ليس محاكاة الطبيعة، أو تقليد الكائنات الحية، وإنما إيجاد عالم مستقل من الأشكال والألوان للتعبير عن ما وراء الواقع، وبالتالي فالاتجاه إلى الزخرفة النباتية ناتج عن رغبة داخلية واعية، وعن نظرة فكرية وروحية نابعة من

---

[70] نجوى عثمان، مساجد القيروان ، دار عكرمة، دمشق، سنة 2000م، ص 67.

[71] أحمد فكري، مسجد القيروان، دار العالم الإسلامي، القاهرة، سنة 2009م، ص112.

[72] المرجع نفسه، ص112.

[73] T.Burckhard, L'Art De L'Islam –Langage et Signification, Sindbad, Paris ; 1983, P 84

الإسلام"[74]. فهذا يعبر عن رفض أن الواقع هو النهاية، ويعمل على تحرير الذات من حدود الحس وحده، والعين من إطار الطبيعة دون الأبعاد الأخرى وراءها[75].

واستخدم المعماري الخط العربي بأنواعه المختلفة في التزين، وتقننوا في اختيار الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة والحكم والأشعار للزخرفة بها، فظهر الخط العربي على واجهات العمائر الإسلامية بامتدادات والتواءات وتشابك، مما يزيد القوة الإبداعية ليدخل عنصر التشويق، وخاصة فيما يتعلق بحركة الحروف والوحدات الزخرفية النباتية وتفريعاتها، واستخدام التغير والتنوع بحركات إيقاعية متوالية[76]. ومن العبارات التي اشتهرت في الزخرفة الأندلسية: "لا غالب إلا الله"[77].

وابتعد المعماري عن التصوير ، وخاصة في العمائر الدينية كالمساجد، وذلك بتوجيه من الدين الإسلامي الحنيف، حيث كان الاهتمام موجها نحو الإبداع في تشيد مراكز العبادة والحكم، مع ما رافق ذلك من نطور للفن الزخرفي الداخلي لهذه الأبنية[78]. وكان الدافع من زخرفة وتزين العمائر الإسلامية يظهر في كراهية الفراغ، والرغبة في تغطية السطوح المعمارية ومساحاتها، لتخفيف الملل، والإحساس بالصلابة والقوة، وتزيد من تأكيد الكتلة المعمارية للبناية، وإبراز ملامحها الجمالية، لتبعث في نفس المتأمل النشوة والسرور[79].

وقد بلغ الشغف بالتزين في البلاد العربية والإسلامية إلى أن غشيت أعلي المداخل والأبواب والأواوين بالمقرنصات، التي هي:"عبارة عن حنايا زخرفية تشبه خلايا النحل، وتري في

---

(74) A.Papadopoul. « Sur L'Esthétique de L'Art Musulman », In Proccedings of The International Sympodiumheld in Istanbul, April 1983, Dar-El-Fiker, Damascus , 1989, P180.

(75) شاكر مصطفى، "عناصر الوحدة في الفن الإسلامي"، أعمال الندوة المنعقدة في اسطنبول، أفريل 1983، دار الفكر، دمشق، سنة 1989م، ص 140.

(76) محمد حسين جودي، العمارة العربية الإسلامية، المرجع السابق، ص ص (97-98).

(77) أنور الرفاعي، تاريخ الفن عند العرب والمسلمين، المرجع السابق، ص24.

(78) إيفا ويلسون، الزخارف الإسلامية، ترجمة:أمالمزيود، دار قابس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، دط، دت، ص05.

(79) حسين جودي، العمارة العربية الإسلامية، المرجع السابق، ص 84.

العمائر متدلية في طبقات بعضها فوق بعض، تستخدم للتدرج من الجزء المربع إلى سطح دائري ، أو مثمن تقوم عليه القبة"[80].

وما يمكن الجزم به أن الفن الإسلامي في أول نشأنه كان يعتمد على العناصر المعمارية والزخرفية التي تتفق مع تعاليم دينه، فجاءت منجزاته مشابهة في جميع الأقطار والأمصار، رغم شساعة مساحة الدولة الإسلامية، إلا مع قليل من الاختلاف والتباين الذي تحمله كل بيئة وتختص به من تأثيرات محلية.

[80] المرجع نفسه، ص 71.

الباب الأول:

الرحلة في بلاد المغرب من القرن 7 هـ إلى القرن 10 هـ.

- الفصل الأول: تطور الرحلة في المغرب الإسلامي.

-الفصل الثاني: أشهر رحالة القرن 7هـ.

-الفصل الثالث: أشهر حالة القرن 8هـ.

-الفصل الرابع: أشهر حالة القرنين9هو 10هـ. .

الفصل الأول:

تطور الرحلة في بلاد المغرب الإسلامي.

-المبحث الأول: مفهـوم الرحلــــــة.

-المبحث الثاني: دوافع الرحلة وأسبابها.

-المبحث الثالث: انتشــار الرحلات في المغرب الإسلامي.

شهد المغرب الإسلامي حركة نشيطة و واسعة من الرحلات خلال الفترة الممتدة من القرن 7 هـ إلى القرن 10هـ، و كانت مساهمة رحالة المغرب الإسلامي فعالة وكبيرة في تنشيط وإثراء الساحة العلمية والثقافية في المغرب الإسلامي بسبب الحمولة العلمية، والزاد المعرفي الذي كانوا يعودون به من المشرق، وهذا يدل على حرصهم على تحصيل السند العالي، والتبحر في مختلف أنواع العلوم والفنون، من أجل تكوين شخصية علمية موسوعية، و قد اجتهدنا لإعطاء مفهوم شامل للرحلة، ذاكرين الدوافع التي ساهمت في ازدهارها قي بلاد المغرب من القرن 7هـ حتى القرن 10هـ، وميول المغاربة لها من عوامل دينية وعلمية وسياسية، كالحج، وطلب العلم، والقيام بسفارات وغيرها.

المبحث الأول: مفهوم الرحلة

1- تعريف الرحلة لغة :

الرحلة مشتقة من الفعل رَحَلَ[81]، والرَّحْلُ: هو موكب البعير والناقة، وجمعه أَرْحُل ورِحَالُ. قال طُرْفَةُ:

جازت البيد إلى أرحالنا آخر الليل بتعْفُورٍ خَذِرُ

والرِّحَالَةُ ونَحْوَهُ كُلُّ مراكيب النساء.

والرَّحْلُ: منزل الرجُل ومسكنه. ويقال دَخَلْتُ عَلىَ الرَجُلِ رَحْلَهُ (أي منزله).

والرَحْلُ: مسكن الرجل وما يصحبه من الأثاث، وفي الحديث إذا ابتلت النعال فالصلاة في الرِّحَالِ أي صلوا ركبانا. والنعال هنا: الحذاء، واحدها نعلٌ.

قال ابن الأثير: والصلاة في الرحال يعني بها الدور والمساكن والمنازل، وهي جمع رَحْلٍ. قال ابن سيده: والرِّحَالَةُ في أشعار العرب هي السرج[82] .

قال الأعشى:

ورجراجة تغشي النواظر ضخمة وشعث على أكتافهن الرَّحَائِلُ.

---

(81) ابن منظور، لسان العرب، ج03، دار صادر، بيروت، سنة 1968م، ص1608.

(82) المصدر نفسه، ص 1609.

قال: والرِّحَالةُ سرج من جلود ليس فيه خشب، كانوا يتخذونه للركض الشديد والجمع الرَّحَائِلُ.

قال أبو ذؤيب:

تعدو به خوصاءُ يفصِم جريها　　　　حلق الرِحَالَةِ وهي رخو تَمْزَعُ.

يقول: يعدو فتزفر فَتفصِمُ حَلقَ الحِزام.

قال ابن سيده: ورَحَلَ البعير يَرْحَلُهُ رَحْلاً، فهو مَرْحُول ورَحِيلٌ، وارْتَحَلَهُ جعل عليه الرَّحْلَ، ورَحَلَهُ رِحْلَةً: شدَّ عليه أداتهُ[83].

قال المتقب العبدي: إذا ما قمت أرْحَالُهَا بليل تأَوَّهَ آهة الرجل الحزين.

وفي الحديث الشريف: "أن النبي عليه الصلاة و السلام سجد فركبه الحسنُ فأبطأ سجوده، فلما فرغ سئل عنه، فقال: إن ابني ارْتَحَلَنِي، فكرهت أن أعجله، أي جعلني كالرَّاحِلَةِ فركب ظهري".

رَحَلَ[84] عن البلد يَرْحَلُ رَحْلاً ورَحِيلاً وتِرْحَالاً، شخص وسار. وَرَحَلَ مِن المكان انتقل وَرَحَلهُ بسيفه رحْلاً عَلاَهُ. ورَحَلْتُ له نفسي أي صبرت على أذاه. يقال رَحَلَ الرجل[85] إذا سار، وأَرْحَلْتُهُ أنا، ورجلٌ رَحُولٌ وقوم رُحَّلٌ، أي يرْتَحِلُونَ كثيرا، ورجُلٌ رَحَّالٌ، أي مجيد لَهُ. وَإبِلٌ مرَحَّلَةٌ: عليها رِحَالُهَا، وهي أيضا التي وضعت عنها رِحَالُهَا، قال الشاعر:

سوى تَرْحِيلِ رَاحِلَةٍ وعين أكالئها مخافة أن تنام.

الرَّاحُلُ[86] الصالح لأن يَرْحَلَ، أي يوضع الرَّحْلُ(الرَّحُولَةُ والرَّحُولُ).

الرَّاحِلَةُ[87] من الإبل: البعير القوي على الأسفار والأحمال، وهي التي يختارها لمركبه ورَحْلِهِ، على النجابة وتمام الخَلْقَ وحسن المنظر، وإذا كانت في جماعة من الإبل تبينت وعرفت.

والرِّحَالُ[88]الطنافس الحيرية، ومنه قول الأعشى:

---

(83) ابن منظور، لسان العرب، المصدر السابق، ج03، ص 1609.

(84) بطرس البستاني ، قطر المحيط، المكتبة العربية بيروت، سنة 1869م، ص 738.

(85) ابن منظور، لسان العرب، المصدر السابق، ج03، ص 1609.

(86) بطرس البستاني، قطر المحيط، المصدر السابق، ص 738.

(87) ابن منظور، لسان العرب، المصدر السابق، ج03، ص 1610.

ومصاب غَادِيَة كأَنَّ تجارها نَشَرَت عليه برودها ورِحَالُهَا.

والمُرَحَّلُ: ضرب من برود اليمن،سمي مُرَحَّلاً لأن عليه تصاوير رُحْل.قال الفرزدق:

عليهن رَاحُولاَتُ كل قطيفة من الخز أو من قَيْصرَانَ علامها.

قال: الرَّحُولاَتُ الرَّحْلُ الموشي، وقيصران ضرب من الثياب الموشية ومرط مرحلٌ عليه تصاوير الرِّحَالْ.

وناقةٌ رَحِيلَةٌ، أي شديدة قوية على السير، و كذلك حمل رَحِيلٍ، وبَعِيرٌ ذو رُحْلَةٍ ورِحْلَةٍ، أي ذو قوة على السير، وفي نوادر الأعراب: ناقةٌ رَحِيلَةٌ وَرَحِيلٌ[89] ومُرْحَلَةٌ ومسْتَرْحِلَةٌ، أي نجيبة، وبعيرٌ مُرْحِلٌ إذا كان سمينا، وإن لم يكن نحيفا، وبعير ذو رِحْلَةٍ ورِحْلَةٍ إذا كان قادرا على أن يَرْحَلَ، وارْتَحَلَ البعيرُ رِحْلَةً: سار فمضى، ثم جرى ذلك في المنطق، حتى قيل ارْتَحَلَ القوم عن المكان ارْتِحَالاً. ورَحَلَ عن المكان يَرْحَلُ، وهو رَاحِلٌ من قوم رُحَّلٍ: (انتقل). قال الشاعر في هذا الشأن:

لا يَرْحَلُ الشَّيب عن دار يحل بها حتى يُرَحَّلَ منها صاحب الدارِ.

والتَّرَحُّلُ[90]والارْتِحَالُ: الانتقال، وهو الرِّحْلَةُ. والرِّحْلَةُ: اسم للارتحال للمسير، يقال: دنت رِحْلَتُنَا ورَحَلَ فلان وارْتَحَلَ، وتَرَحَّلَ بمعنى الرُّحْلَةُ بالضم الوجه الذي تأخذ فيه و تُرِيدُهُ، تقول أنتم رُحْلَتِي، أي الذين أَرْتَحِلُ إليهم.

وأَرْحَلَتِ[91] الإبلُ: سمنت بعد هزال، فأطاقت الرِّحْلَةَ. ورَاحَلْتُ فلاناً إذا عاونته على رِحْلَتِهِ.وأَرْحَلْتُهُ إذا أعطيته رَاحِلَةً، ورَحَّلْتُهُ بالتشديد، إذا أظعنته من مكانه و أرسلتُهُ. ورجل مُرحِلٌ أي لهُ رَوَاحِلٌ كثيرةٌ.

والمُرْتَحَلُ [92]: نقيض المحَل. أنشد الأعشى:

إن محلا وإنَّ مُرْتَحَلاً يريد إنَّ ارْتِحَالاً وإنَّ حلولاً.

---

[88] المصدر نفسه، ص 1610.

[89] ابن منظور، لسان العرب، المصدر السابق، ج03، ص 1610.

[90] المصدر نفسه، ص 1611.

[91] بطرس البستاني، قطر المحيط، المصدر السابق، ص 738.

[12] ابن منظور، لسان العرب، المصدر السابق ج03، ص 1611.

قال: وقد يكون المُرْتَحَلُ اسم الموضع الذي يحل فيه. وشاةٌ رَحْلاَءُ: سوداء ببيضاء موضع مركب الراكب من مآخر كتفها، وإن ابيضت واسود ظهرها فهي رَحْلَاءُ.وفرس أرْحَلُ: أبيض الظهر، ولم يصل البياض إلى البطن وإلى العجز ولا إلى العنق.

والرَّحِيلُ: منزل بين مكة والبصرة. وراحِيلُ: اسم أم يوسف على نبينا الصلاة والسلام. ورِحْلَةُ: قصبة معروفة.

والمرْحَلَةُ: واحدة المرَاحِلِ، يقال بيني وبين كذا مَرْحَلَةٌ ومَرْحَلَتَانِ. والمـرْحَلَةُ المنزلة يُرْتَحَلُ منها، وما بين المنزلتين مَرْحَلَةٌ .

2- تعريف الرحلة اصطلاحا:

عرف الإمام الغزالي السفر والرحلة بأنهما نوع حركة ومخالطة. أو نوع مخالطة مع زيادة تعب ومشقة، وذكر أن: "البواعث على السفر لا تخلو من هرب أو طلب، وأن الإنسان لا يسافر إلا في غرض، والغرض هو المحرك"[(93)].

وهناك تعريف آخر للرحلة: هو "أن يترك الإنسان موطنه وينتقل إلى مكان آخر، أي سافر من موطنه وقصد جهة أخرى غيره، وسار إليها، لذا كان لفظ رحلة أعم وأشمل ما يطلق على المسافر من مكان إلى آخر، فالرحال صفة مشتقة من الفعل الذي قام والرحلة"[(94)].

وفي تعريف آخر تعتبر الرحلة: "هي إنجاز أو فعل فردي، أو جماعي لما يعنيه اختراق حاجز المسافة، وإسقاط الفاصل المعين بين المكان والمكان الآخر، ويتأتى هذا الانجاز من أجل هدف معين، يجاوب هذا الهدف إرادة الإنسان وحركة الحياة على الأرض بشكل مباشر وغير مباشر...،وقد تكون الرحلة هواية تشبع حاجة الإنسان وترضية، وقد تكون احتراف يخدم حاجة

[(93)] أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، مكتبة الدعوة الإسلامية، القاهرة، (د ط)، (د ت)، ص 245.

[(14)]عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز من القرنين 7هـ و 8هـ ، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، سنة 1996م، ص ص (40- 41).

الإنسان و يشبعه، ولكنها في الحالتين استجابة مباشرة لحوافز ودوافع محددة تدعو بكل الإلحاح للحركة والتنقل[95].

ومن الطبيعي أن يعرف الأدباء أدب الرحلات بأنه: "مجموعة من الآثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلته في بلاد ما، وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات وتقاليد، وسلوك وأخلاق، وتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها، أو يسرد مراحل رحلته مرحلة مرحلة، أو يجمع بين كل هذا في آن واحد" [96].

وإذا أردنا تعريف الرحلة بأدبية أسلوبها، ومما يميزها عن الرحلات الأخرى ذات الأهداف العلمية، يمكن تعريفها على أنها: "ذلك الأدب الذي يصور فيه الكاتب ما جرى له، من أحداث ومن أمور أخرى أثناء رحلة قام بها لأحد البلدان"[97].

لعل من بين القواسم المشتركة بين بعض هذه التعريفات، أن الرحلة في مجموعها حركة، وهي مكافئة للتنقل من مكان لآخر، أو التفكير في ترك الأرض التي ضاقت به، أو البيت الذي ملّ الإقامة به، وإذا كان الذهاب يقتضي العودة ثانية فإن ذلك تحرك دائم، وفي كل حال –ذهاب أو عودة– فإن تلك الحركة [98]. ولأن الرحلة حركة أصيلة فإن الرحالين يتغاضون عن وصف فترات التوقف والسكون العارض لعذر قاهر أو غير قاهر، بل إن كثيرا منهم يذكر المكان الذي يتملكه جراء طول المقام في مكانٍ واحد[99].

وإذا أجمعت جل التعريفات على أن الرحلة في جوهرها حركة، فإن هذه الحركة ذات هدف قد يتحقق وقد لا يتحقق، كطلب العلم، وأداء فريضة الحج، أو التجارة، ونشر الإسلام، ونقل البريد، وجباية الخراج... الخ.

---

[95] عبد الرازق الموافى، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن 4هـ، مطابع الوفاء، المنصورة، ط01، سنة 1410هـ/ 1996م ، ص ص (25-20).

[96] عبد الله بن أحمد بن حامد آل حمادي، آداب الرحلة في المملكة العربية السعودية، مذكرة ماجستير، جامعة أم القرى، سنة 1998م، ص 08.

[97] عبد الله بن أحمد بن حامد آل حمادي، آداب الرحلة في المملكة العربية السعودية، ص 08.

[98] M.A. Michel Travel Quest, London, 1950 , p 289.

[99] محمد عبد الرازق الموافى، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن 4هـ، المرجع السابق، ص 25.

أما عن مكانة أدب الرحلة بين العلوم المختلفة فهناك خلاف، إذ يرى المؤرخون على أنه جزء من علم التاريخ، إذ أن الرحالة يسرد تواريخ أمم وأفراد ومناظر مختلفة [100]،والجغرافيون يدخلونه ضمن علم الجغرافيا، ذلك أن المكان حجر الزاوية في الرحلة التي تنتمي إلى الأدب الجغرافي التي تتداخل فيه المسافة والمدينة، إنها جغرافية جديدة يزاوج فيها الرحالة بين تاريخ المكان أو موقعه الجغرافي في العالم، وبين تاريخيه الشخصي[101]. ويجمع دارسو الأدب على أنه مصدر من مصادر التاريخ للأدب.

أدب الرحلة فن من فنون النثر العربي، لما احتاج المسلمون إلى معرفة الطرق المؤدية إلى البلدان التي فتحوها لنشر الدعوة الإسلامية، ولقد عرفت الرحلة تطورا ملحوظا في العصر العباسي، بسبب انتشار الترجمة، فأصبحت الرحلة فنا أدبيا قائما بذاته، فتسابق الأدباء والعلماء والحجاج في تدوين رحلاتهم[102].

إن طريقة تدوين الرحلات هي التي تصنف النصوص بين الجغرافيا الوصفية والأدب الجغرافي وأدب الرحلة، فإذا اختفت العناصر الأدبية والذاتية (أو ندرت)، صنف النص على أنه جغرافية وصفية، وإذا حاول الرحال أن يوازن بين الموضوع والذات فإن عمله يصنف على أنه أدب جغرافي، وإذا طغت العناصر الأدبية الذاتية فإن عمله يصنف على أنه (أدب رحلة) يتتبع خط سير الرحلة، ونادرا ما نجد تحديد هذه المصطلحات الثلاث[103].

وفي الأخير يمكن القول أن أدب الرحلة له صلة وثيقة مع كثير من العلوم كالجغرافية الوصفية، ويشتركان في اعتمادهما على الدراسة الميدانية، ويكون التسجيل في صورتين:

- الصورة الأولى: كتاب يهتم صراحة بالرحلة، ويحتوي بالفعل حديثا يتناول كل ما يحصر الكاتب على تسجيله.

---

(100) عبد الرحمن مؤذن، أدبية الرحلة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، سنة 1417هـ/ 1996م، ص 13.

(101) عبد الرحمن مؤذن، أدبية الرحلة، المرجع السابق، ص ص (12- 13).

(102) عبد الصمد عزوزي، أداب الرحالة الجزائريين في الخمسية الهجرية الثانية، ماجستير جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان،سنة 1429هـ/ 2003 م، ص ص (6-7).

(103) عبد الرزاق الموافي، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن 4هـ، المرجع السابق، ص31.

– الصورة الثانية: يكون التسجيل في كتاب جغرافي يهتم بالجغرافية الوصفية، ويلتقط من حصاد الرحلة ما يناسب الصورة الوصفية الجغرافية[104].

والصلة التي تربط أدب الرحلة بالتاريخ يمكن تلخيصها في اهتمامه بحياة الأمم وأنماط معيشتهم، كما لخصت الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية السائدة فيها، وتأريخ بعض الأحداث التاريخية التي اعترضت حيزها الزمني والمكاني، بالإضافة إلى تدوين سير الملوك والأمراء، وإظهار التواصل بين الحضارات ذات القيم والعادات المختلفة، وتأثيرها إيجابيا أو سلبا على الهوية الإسلامية العربية، وإبراز القنوات الاتصالية المتعددة مما يسهل في كشف الجوانب النافعة في هذه المجتمعات للاستفادة منها، وبيان خطورة الظواهر الاجتماعية التي تضر بقيم المجتمع الإسلامي، وتهدد أخلاقياته[105].

يعد أدب الرحلة من أهم المصادر التي تؤرخ للأدب العربي في جميع الأقطار من خلال تراجم العلماء والأدباء والملوك والأمراء والوزراء، ونصوص شعرية ونثرية ذات قيمة أدبية رفيعة في مختلف العصور والأزمان، ووصف مجالس العلماء والأدباء والمناظرات والنقاشات الأدبية والعلمية التي دارت بينهم، مع تقديم الجانب الببيوغرافي من خلال المرجعية المتعلقة بالمكان والمعرفة والتاريخ والوجدان، إنها الكتابة الأركيولوجية على حد تعبير أحد الباحثين[106].

وعلى المستوى الفني فإن الرحلة تمثل لونا أدبيا فريدا يجمع بين خصائص القصة والرواية والسيرة الذاتية، ويستفيد من أدوات فنية مهمة كالصور والقصة، مما يجعله فنا ثريا، ويتيح له فرصة إيصال رسائله الفكرية والفنية على اختلاف تنوعها بصياغة جميلة ورائقة.

03 – أشهر رواد الرحلة الأوائل في بلاد المغرب الإسلامي:

لقد أجمعت روايات تاريخ المغرب الإسلامي عن توجه وفادة رحالين مغاربة إلى المشرق الإسلامي خاصة إلى مكة المكرمة يبحثون عن ذاتهم، وعن منابع أصولهم، ولأداء فريضة الحج. إذا

---

(104) المرجع نفسه، ص 37 .

(105) عبد الله بن محمد بن حامد آل حمادي، آداب الرحلة في المملكة العربية السعودية، المرجع السابق ، ص 09.

(106) Jean ClaudeBerchie, Voyage Ver Soi, Seuil Poétique, Paris 1983, P 92.

كان الإنسان المغربي يحس بأن الفضاء الذي يعيشه لم يكن كافيا لإرضاء كل رغباته، ولذلك فإن عليه أن يسعى لرؤية العالم الآخر: عالم المشرق الذي كان مصدر سعادته، والذي لم يكن يعني غير مراكز الإشعاع الروحي والفكري، التي كانت تتمثل فيها تلك السعادة التي تغمره طوال يومه وليله. وهناك مجموعة من رحالة المغرب الإسلامي كانوا يرون أن شخصيتهم إنما تكتمل عندما يذكرون أن لهم رحلة إلى المشرق، وأنهم قصدوا مكة المكرمة بالذات، وحرصوا على أن يأخذوا على شيوخها وعليه نجد أن كتب التراجم والفهارس حافلة بذكر طائفة من الرواد الذين طبعوا حياة المغرب الإسلامي بما نقلوه وبثوه في صدور الرجال[107].

سنخص بالذكر أشهر رحالة المغرب الإسلامي الذين كان لهم فضل الريادة في فن الرحلة فجابوا مختلف الأقطار والأمصار، ومنهم:

أ-يحي بن يحي الليثي[108]:حيث شد الرحال إلى الإمام مالك ولازمه، وروايته الموطأ مشهورة حتى أن أهل المشرق يسندون الموطأ من روايته كثيرا، مع تعدد رواة الموطأ، وكان يحي بن يحي ممن يروي الموطأ بقرطبة عن زياد بن عبد الرحمن اللخمي، وسمع من يحي بن مضر القيسي الأندلسي، ثم ارتحل إلى المشرق وهو ابن ثمان وعشرين سنة، فسمع من مالك بن أنس غير أن أبوابا في كتاب الاعتكاف شك في سماعها. فأثبت روايته فيها عن زياد، وذلك ما يدل على ورعه [109].

وسمع بمصر عن الليث ابن سعد، وبمكة المكرمة عن سفيان ابن عتبة، و من أكابر أصحاب الإمام مالك، وانتهت إليه الرياسة بالأندلس، وبه اشتهر مذهب الإمام مالك في تلك الديار، وتتلمذ على يده جماعة لا يحصون لا يحصون عددا، وروى عنه خلق كثير، وكان مع أمانته

---

[107]عبد الهادي التازي، مكة في مائة رحلة مغربية، مراجعة: عباس صالح طسكندي، ج04، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، الرياض، سنة 1426 هـ/ 2008 م، ص 25.

[108] هو يحي ابن يحي ابن كثير بن وسلاس، يكنى أبا محمد وأبوه محمد يكنى بأبي عيسى، وهو من مصمودة، سمي بالليثي لأن جدهم وسلاس أسلم على يد يزيد بن عامر الليثي ليث كنانة، بمجيئه إلى الأندلس انتشر المذهب المالكي، توفي سنة 234هـ أو 233هـ. أنظر: ابن فرحون المالكي، الديباج المذهب في معرفة علماء المذهب، تحقيق: محمد الأحمدي أبو الفدا، ج02، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة، (د ت)، ص ص (552- 553).

[109]أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيها لسان الدين ابن الخطيب، تحقيق إحسان عباس، ج02، دار صادر، بيروت، سنة 1408هـ/ 1988م، ص 09.

ودينه معظما عند الأمراء، يكنى عندهم عفيفا عن الولايات منزها، جلت رتبته عن القضاء، وكان أعلى من القضاة قدرا عند ولاة الأمر بالأندلس لرده القضاء وامتناعه[110].

ب- أبو عبد الله محمد بن عبد السلام القرطبي[111]: رحل قبل الأربعين ومائتين، فحج، وسمع بالبصرة عن محمد ابن بشار وأبي موسى الزمن ونصير الدين بن علي الجهضني، وأبي حاتم السجستاني والعباس ابن فرج الزياشي، وسمع ببغداد من أبي عبد القاسم ابن سلام، وبمكة من محمد ابن يحي العدني، وبمصر عن شلبي والبرقي وغيرها، وعاد إلى الأندلس بعلم كثير في الحديث واللغة والشعر، وكان فصيحا جزل المنطق صارما، أنوفا، منقبضا عن السلطان أراده عن القضاء فأبى، وقال له إباية إشفاق لا إباية عصيان، فأعفاه وكان ثقة مأمونا.

جـ- أبو عبد الله البكري [112]:يعتبر أكبر جغرافي أنجبته الأندلس في القرن الخامس هجري، فقد ألّف كتابين جليلين في الجغرافية أوّلهما "معجم ما استعجم من أسماء البلاد و المواضع"، وكتاب "المسالك و الممالك"، فالأول لغوي جغرافي يصف جزيرة العرب، ويتحرى ما فيها من المعالم والمشاهد والبلدان، والآثار والمحافل والمناهل والموارد، ويتتبع هجرة القبائل العربية من أوطانها وأضرابها وترددها بين مصايفها ومرابعها، ومبانيها وحواضرها، ويذكر أيامها ووقائعها وأنسابها وعشائرها. وهو أثر نفيس في صميم التراث الأدبي، والعلوم مما خلفه العرب إبان نضجهم العقلي، وارتقائهم العلمي، ولا نكاد نجد له نظيرا في معاجم البلدان، لغزارة موارده، وكثرة تفاصيله واكتمال عناصره، ودقة مناهجه، وتمام ضبطه، وجمال أسلوبه، وتحرير عباراته[113].

---

[110] المصدر نفسه، ص 10.

[111] هو أبو عبد الله محمد ابن عبد السلام القرطبي من ذرية تعلبة الحسني، صاحب رسول الله صلى الله عليه و سلم، نبغ في علم الحديث واللغة والشعر وعرف بفصاحة اللسان، توفي في رمضان سنة 286 ﻫ عن عمر يناهز 68 سنة. أنظر: أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج02، المصدر السابق، ص 236.

[112] هو أبو عبد الله ابن أبي مصعب عبد العزيز بن أبي زيد محمد بن أيوب بن عمر البكري الأندلسي، لغوي من الطراز الأول في الأفق الأندلسي، لغوي دقيق الحس كامل الأداة في النحو والصرف واللغة، ربان في علوم الرواية والأشعار والأخبار والأنتساب إلى علوم الدين والحديث والتفسير والفقه وغيرها، من أطراف الثقافة الإسلامية. توفي سنة (487 ﻫ/ 1094 م). أنظر: أبو عبد الله البكري، معجم ما أستعجم من أسماء البلاد و المواضع، تحقيق: مصطفى السقا، ج01، عالم الكتب، بيروت، (د ت)، مقدمة المحقق.

[113] المصدر نفسه، ص ج.

أما كتابه الثاني فهو "المسالك و الممالك" وهو الجزء المعروف بكتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، فتحدث البكري فيه كتابه عن دول المغرب الإسلامي، وتولي الخوارج الحكم في بعض الأقطار، مثل دولة بوغواطة التي اتخذ مدينة شالة[114] عاصمة لها، وكان لها صراع مستحكم مع دولة الأدارسة، وقد حرف بوغواطة الإسلام وابتكر آيات وغير الأحكام المتصلة بالمحارم والمحرمات وتعدد الزوجات.

كما تناول حديثه الدولة المدرارية[115] بقوله: قد أقامها الخوارج الصوفية في البلدة التي أنشاؤها سنة 140هـ، وسموها سجلماسة على سيف الصحراء بالمغرب، وحين استقر حكم البلاد في يد أبي القاسم سمعون ابن واسول المكناسي البربري الأصل الأندلسي المولد، والذي كان حدادا بأرباض قرطبة ويلقب بالمدرار، ووهب الملك لأولاد أحفاده [116].

وتطرق في حديثه إلى الدولة الرستمية فقال: "أقامها عبد الرحمن ابن رستم بن بهرام في المغرب الأوسط، ويصوغ له نسبا يصلته بملوك الساسان، وولايته على القيروان وانهزامه ضد الجيش العباسي بقيادة الأشعت سنة 144هـ، وتراجعه إلى المغرب الأوسط"[117] .

د- أبو بكر بن العربي[118]: رحل إلى المشرق مع أبيه في مستهل شهر ربيع الأول من سنة 485هـ، ودخل الشام والعراق وبغداد، وسمع من كبار العلماء، ثم قام بأداء فريضة الحج سنة 589 هـ، ثم عاد إلى بغداد، ثم صدر منها. خرج من دمشق راجعا إلى مقره سنة 491هـ، ولما غرب صنف "عارضة الأحودي"، ولقي بمصر والإسكندرية جملة من العلماء، ثم عاد إلى الأندلس

---

(114) مدينة تقع ضواحي مدينة الرباط.

(115) مؤسس الدولة المدرارية كان سودانيا أسود اللون يدعى ابن يزيد المكناسي، أسس سجلماسة، وقسم مبانيها وأمر بغرس النخيل بها.

(116) أحمد رمضان أحمد، الرحلة والراحلة المسلمون، دار البيان العربي، جدة، (د ت)، ص 149.

(117) المرجع نفسه، ص 149.

(118) هو الإمام العالم القاضي الشهير بفخر المغرب، أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي المغافري، قاضي إشبيلية، إمام في الأصول والفروع، نبغ في الشعر، توفي سنة 543هـ. أنظر: أحمد المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج02، المصدر السابق، ص 25.

سنة 493هـ، وقدم إلى إشبيلية بعلم غزير، وكان موصوفا بالفضل والكمال، ولي القضاء بإشبيلية[119].

هـ–الشريف الإدريسي[120]: بدأ في الإدريسي في الارتحال الذي ملك فؤاده منذ كان في السادسة عشرة من عمره، طاف بالأندلس وفرنسا وإنجلترا، وكذلك في أنحاء الشمال الإفريقي، ثم اتجه لأداء فريضة الحج، ثم واصل الارتحال إلى مصر وبلاد الشام ووصل إلى اليونان سنة 513هـ/ 1116م[121].

وقد عبر البحر عام 533هـ قاصدا جزيرة صقلية حيث بلاط ملكها روجرالثاني **ROGER II**، كما قضى في "بالرمو" **Palirmo** خمسة عشر عاما في إعداد ورسم ما عهد به إليه الملك برسم وتسجيل وإحصاء وتدوين كل ما رآه في رحلاته العديدة، وشاركه الملك الشغوف بالجغرافيا ومشاكلها وكتبها في عمله بنفسه، وكلّف الملك الموثوق بهم من موظفي المساحة العرب بالتجول في كل أنحاء إمبراطوريته لقياس مساحات المدن والأنهار والمرتفعات [122].

وفي أوائل عام سنة 1145م أتم الإدريسي عمله العظيم للملك الذي هدده المرض، وبات ينتظر نهاية سبعين خريطة، فاقت خريطة بطليموس الشهيرة في دقتها ووضوحها وقلة أخطائها. بيد أن عصارة عمله كانت خريطة العالم التي نحتها على لوح من الفضة قطره متران، ووزنه يعادل وزن

[119] المصدر نفسه، ص 25.

[120] هو محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس، ولد بسبتة سنة 499 هـ/ 1100م، وهو أحد أبناء عائلة الحموديين النبيلة، نظرا لصلة نسبه إلى النبي (ص)، حمل لقب بالشريف، توفي سنة 560هـ/1163م. أنظر: زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، دار الرائد العربي، بيروت، سنة 1401هـ/1981م، ص 64.

[121] محمد عوض مؤنس، الرحالة الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، مكتبة الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ط $_{01}$، سنة 1990م، ص 16.

[122] زيغريد مونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة: فاروق بيوض وكمال ديسوقي، مراجعة: هارون عيسى الخوري، دار الجيل، بيروت، ط$_{02}$، سنة 1993م، ص 418.

رجلين، وتوضيحا لخرائطه، وضع الإدريسي كتابه القيم في وصف الأرض، المعروف في العالم الإسلامي كتاب "نزهة المشتاق في اختراق الأفاق" [123].

ويري أحد المستشرقين أن الإدريسي على الرغم من خلفيته "الكوزمو بوليتيه" وأهميته كجغرافي، كان محل تجاهل جانب من المؤرخين وكتاب التراجم، وفسير ذلك أن الإدريسي قضى معظم سنوات شبابه في خدمة الملك النورماني "روجر الثاني" ملك صقلية، وأن إخلاصه لذلك الملك المسيحي وابتعاده عن عالم الإسلام، قد عاد عليه بعدم الاحترام واللامبالاة من جانب المعاصرين له. ويبدو أن هذا الرأي لا أساس له من الصحة على اعتبار ضياع سيرة الإدريسي، نجد نظيرا لها بالنسبة لعدد من الجغرافيين المسلمين من أولئك الذين لم يتصلوا بالعناصر المسيحية[124].

للإدريسي مؤلفات جغرافية مثل: كتابه "نزهة المشتاق في اختراق الأفاق" الذي يعد أشهر الكتب، وكتاب "أنس المهج وروض الفرج"، وكتاب "روضة الأنس ونزهة النفس"، وكتاب "جنى الأزهار من الروض المعطار في عجائب الأقطار"، بالإضافة إلى كتاب آخر في مجال علم النبات، و هو "الجامع لصفات أشتات النبات"، ولا ريب أن هذه المؤلفات تعكس موهبة الإدريسي التأليفية، وموسوعية تكوينه العقلي[125].

---

[123] المصدر نفسه، ص 418.

[124] محمد عوض مؤنس، الرحالة الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، المرجع السابق، ص ص (18-19).

[125] المرجع نفسه، ص 19.

المبحث الثاني: دوافع الرحلة و أسبابها عند المغاربة:

لما كان ولوج الأراضي وعبورها يقتضي معرفة طرقها ووصف حالتها، فقد دعت المغاربة ضرورة ترحالهم لتحديد مسافاتها ومساحات أقاليمها، ورصد مراحلها، واستعمال المقاييس للوقوف على أبعادها، خدمة لعلم تقويم البلدان. وباعتبار الأرض محوراً بارزا في كتاباتهم، فقد بحثوا في تربتها وخيراتها وأنعامها حتى خُيل إلى القارئ أن الرحالة أهم وأجمل خزانة، فحذقوا هذه الظواهر وتتبعوا منابع المياه وتربية المواشي، فصححوا أخطاء من تقدمهم حول البلدان، فأضفوا على رحلاتهم طابع الاحتراف العلمي بتصانيفهم التي تقاسمتها ثلاثة فنون منبثقة عن تنقلاتهم وهي:

1- تقويم البلدان أو أدب المسالك.

2- أدب الرحلة.

3- كتب العجائب والغرائب(126).

لقد تفوق الرحالة المغاربة في هذا الميدان نتيجة تضافر مجموعة من الدوافع والبواعث تكمن في ولوع المغاربة عامة بالسياحة، وارتيادهم لأقاصي البلاد، واستجابتهم لتقاليد الإسلام الذي أوجب فريضة الحج على من استطاع إليه سبيلا، وأمر بالسير والضرب في الأرض، ومن هنا كانت الرحلة إلى الحجاز لتأدية الفريضة وزيارة الأراضي المقدسة والاتصال بالمسلمين الحجاج عامة والعلماء خاصة، عمل مفروض لازم سلوك المغربي المسلم(127).

ومن هذا المقام يجب أن نذكر الأسباب والدوافع التي مهدت الطريق للرحالة لارتياد العالم، وهي كثيرة ومتنوعة، ولهذا لابد من ربط الرحلة بالظروف الاجتماعية والسياسية والثقافية وعدم فصلها عن الحياة العربية بصفة عامة، وحياة وبلاد المغرب خصوصا، واعتبار الرحلة وأنواعها نتيجة حتمية اتسم بها المغرب آنذاك، كما أن أتساع رقعة الدول الإسلامية التي امتدت من الصين شرقا حتى المحيط الأطلسي غربا، ساهمت في اعتناء المسلمين بعد الفتوحات الإسلامية بالبلاد التي

---

(126) محمد ماكمان: "أثر الرحالين في التقدم العلمي والحضاري"، مجلة فكر ونقد، عدد: 87، مارس 2007م، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ص 65.

(127) الحسن الشاهدي، أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، ج01، مطابع عكاظ، الرباط، ط 02، سنة 2000م، ص 63.

خضعت لهم وأصبحت جزءا من دولتهم، فدونوا لها الدواوين وعبدوا لها الطرق ونظموا لها البريد[128].وانطلاقا من هذا يمكننا أن نصنف هذه الدوافع في قائمة الأسباب الدينية والعلمية والسياسية إلى ما يلي:

1- الوازع الديني:

لقد عرفت بلاد المغرب في هذه الفترة جوا روحيا انطبعت به الحياة عامة، وبدت المقاييس الدينية متحكمة في كل مناحي الحياة، وهناك عوامل جديدة وظروفا طارئة هي التي جعلت كفة التفكير الديني والزهد في الحياة ترجح، ويصبح الدين هو الميزان الذي تقاس به المواقف والأشياء، وهو القاسم المشترك الذي تتحد عنده الآراء، وتتكتل الجهود ويمكن الإشارة إلى بعض مظاهر الحياة الروحية [129]:

أ– أداء فريضة الحج:

إذ يعد الحج إلى مكة المكرمة فريضة على كل مسلم ومسلمة، وكان المسلمون يتجشمون راضين كل مشقة في سبيل أداء هذه الفريضة، وزيارة قبر الرسول عليه الصلاة والسلام في المدينة المنورة، وذلك استجابة لقوله تعالى: "وللهِ عَلىَ النَاسِ حَجُّ البَيْتِ مَنْ استطاع إِلَيْهِ سَبِيلاَ"[130]، ومنه قوله تعالى: "وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَاتُوكَ رِجَالاً وَعَلىَ كُلِّ ضَامِرٍ ياتين مِن كُلِّ فَجٍ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَامٍ مَعْلُومَاتٍ"[131].

وعلى طول الطريق بين الغرب والشرق تقيم الدولة وأهل الخير الحبوس والربط معونة للحجاج، ويصف كثير من هؤلاء الحجاج طريقهم إلى الأماكن المقدسة في كتب أو في رحلات مختلفة [132].وكان الحج فرصة لزيارة الأقطار الإسلامية، وفرصة للقاء بعلمائها ومجالا خصبا لتباري أقلامهم، وفرصة ذهبية للتعارف بين مختلف شرائح المجتمعات الإسلامية، لا سيما وأن الرحلة

---

[128] أحمد رمضان أحمد، الرحلة و الرحالة المسلمون، دار البيان العربي للطباعة والنشر، جدة، ص ص (07- 08).

[129] الحسن ألشاهدي، أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، ج01،المرجع السابق، ص 64.

[130]سورة آل عمران، الآية: 97.

[131]سورة الحج، الآية: 28.

[132] شوقي ضيف، الرحلات، دار المعارف، القاهرة، ط 04، سنة 1987م، ص ص(08- 09).

حيث بين المغرب والمشرق كانت تستغرق شهورا عديدة، يتم خلالها التنقل في جو مفعم بالتلاقح الذي كان يرصص وحدة الفكر والصف، وهذا ما يعطينا صورة عن مدى إسهام الفكر العربي المسلم في دعم مقومات الكيان الإسلامي الذي هو من أبرز مفاخر تراثنا ومظاهر وحدتنا[133].

وقد كان أداء هذه الفريضة رغبة جميع سكان بلاد المغرب الإسلامي، يقول ابن عباد: "المشي إلى الحج في هذه الأزمنة مما يعظم حرص الناس عليه، وتميل نفوسهم إليه، و يؤثرون المشقة والقلة والغربة اللازمة له على الراحة والجدة والإقامة"[134].

ومما لاشك فيه أن المسلم المغربي كان لا يكتفي برحلة حج واحدة، ولكنه بمجرد العودة إلى أرضه، تنتابه نار الشوق فيشد الرحال من جديد وقد لا يكتفي بحجتين أو ثلاث، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر: يحي ابن محمد ابن يحي ابن عبد الله أبو زكريا الصنهاجي، وجيه المالكية وإمام في الفروع والأحكام، عالم بالحلال والحرام، مهتم بالعلم، أي اهتمام له،حج عشرة مرات، وقد جاوز الستين من عمره[135]. وشد الرحالة محمد ابن جبير ابن سعيد ابن جبير ابن محمد ابن عبد السلام الكتاني الأندلسي الرحال من الأندلس إلى المشرق ثلاثا، وحج في كل واحدة منها[136]. وطاف الرحالة المشهور: أبو عبد الله محمد ابن عبد الله ابن محمد ابن إبراهيم اللواتي الطنجي المشهور بابن بطوطة الأرض معتبرا، وطوى الأمصار مختبرا وباحث فرق الأمم، وسبر سير العرب والعجم، ثم ألقى عصى التسيار بهذه الحضرة العليا، وطوى المشارق إلى مطلع بدرها بالغرب، وآثرها على الأقطار إيثار التبر على الترب اختيارًا بعد طول اختيار البلاد والخلق، ومال للمغامرة والمجازفة وركوب البر والبحر، فكانت أول رحلة قام بها سنة 725هـ، حيث خرج للحج[137]. وهذا نزيل طيبة عبد العزيز ابن عبد الواحد اللمطي الفاسي الذي كان آية في التفنن

---

[133] عبد العزيز بن عبد الله، الرحلات من المغرب و إليه عبر التاريخ، دار نشر المعرفة، الرباط، ط01، سنة2001م، ص47.

[134]الحسن الشاهدي، أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، ج01، المرجع السابق، ص 69.

[135]أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، دار الأبحاث للترجمة و النشر و التوزيع، الجزائر، سنة 2011م، ص ص (658-659).

[136]ابن جبير، رحلة ابن جبير، دار الكتاب اللبناني، ومكتبة المدرسة، بيروت، ص 14.

[137]ابن بطوطة، مهذب رحلة ابن بطوطة، دار النهضة للنشر، الجزائر، سنة2005م، ص 14.

في العلوم مثل: البيان والمنطق والجدل والفرائض وغيرها من العلوم الأخرى، حج أزيد من ثلاثين حجة، وتوفي بالمدينة المنورة[138].

وكان الموت أو الاستشهاد حاضر في كل رحلة حجية، وهو أعز ما يطلب عند الحاج، ولذا كان يحرص على الطهارة وبراءة الذمة، وطلب الصفح والمغفرة من العدو والصديق، مجسدا في ذلك المستوى الرمزي للتطهير من كل الآثام، وصورة الموت أو الشهادة لا تغادره أثناء القيام بمناسك الحج، ويعد الحج عند المسلم المغربي أيضا بعث تجديد، وحياة متجددة استنادا إلى قوله صلى الله علية وسلم: "من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه"[139].

وقد خضعت قوافل الحجيج المغربية على مر الأزمان لملابسات الطريق وإكراهاته، فضلا عن تحولات الطريق برا وبحرا، وتحولات مراكز القوة التي تحكمت في طبيعة العلاقة بين الشعوب والأمم. ناهيك عن البعد عن المكان المقدس بآلاف الأميال، وما يكتنف الطريق من مخاطر ومغامرات سجلها العديد من الرحالين بسرود وتوصيفات مفصلة ومشوقة في آن واحد [140].

ب- نشر الإسلام و المذهب الفقهي :

وهذا العامل يكتسي صبغة دينية وعلمية، حيث كان للمغاربة فيه دور الريادة.وكان الدعاة للمغاربة يرحلون نحو أندونيسيا لنشر الإسلام وذلك في أواخر القرن 8هـ، وأوائل القرن 9هـ، وفي رحلة ابن بطوطة يجد القارئ أسماء مغاربة، منهم من ساهموا في نشر الإسلام في مناطق مختلفة مثل: قوام الدين السبتي الذي تولى منصب القضاء، حيث تعجب ابن بطوطة من اسمه فسأله: من أي البلاد هو؟. فرد عليه أنه من سبتة[141]، وذكر عدة أعلام التقى بهم في مختلف الأقطار المشرقية

[138]أحمد بابا التنبكتي، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، دار الأبحاث للترجمة و النشر و التوزيع، الجزائر، سنة 2011م، ص 173.

[139]رواه البخاري ومسلم.

[140] عبد الرحيم مؤذن، الرحلة في الأدب المغربي، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، سنة 2006م، ص ص (16-19).

[141] ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة في غرائب الأمصار وعجائب الأقطار، ج02، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، سنة 2003م، ص 348.

وغيرها من الإمارات الأسيوية. لقد حقق هؤلاء الدعاة التواصل مع الآخرين، وتركوا تأثيرهم الحضاري خارج وطنهم[142].

د- انتشار التصوف:

يكتسي هذا العامل طابعا دينيا وروحانيا يتمثل في العبادة، والزهاد والوعاظ الذين ساهموا في انتشار التصوف وشيوع الزهد والطرق الصوفية المختلفة في المغرب الإسلامي، الأمر الذي كان له الأثر الكبير على الحياة الاجتماعية، واهتمامات الناس، وتوجهاتهم ونظرتهم إلى الحياة، وتصورهم للسعادة الحقيقية[143]. وحسب ما ذكره الونشريسي أن هناك نوعان من التصوف في المغرب الإسلامي، أحدهما هو الغالب يمتاز أصحابه بالتطرف في أفكارهم وطقوسهم، وإحداثهم للبدع المنكرة، والثاني يتسم بالاعتدال والمساهمة في خدمة المجتمع المغربي[144].

لقد أشار الونشريسي إلى الطرق الصوفية المتطرفة الذين تسموا بالفقراء في العصر المريني، وكانت طقوسهم تتمثل في الرقص والغناء، فإذا فرغوا من ذلك أكلوا طعاما أعدوه للمبيت عليه، ثم يصلون بقراءة عشرة من القرآن الكريم، ثم يبكون ويزعمون من ذلك كله أنهم على مقربة وطاعة، ويدعون الناس إلى الاقتداء بهم، ويطعنون على من لم يأخذ بذلك من أهل العلم، ويضاف أن بعض النساء اقتفين أثرهم في ذلك[145]. ومن أشهر هذه الطرق نذكر على سبيل المثال الطريقة العكازية أو الفقرية لأن أتباعها كانوا من الفقراء الذين تتطرفوا في أفكارهم فاشتهروا بالإباحة وتحليل ما حرم الله واشتهروا بالزندقة[146]. وبين أن انتشار زوايا المتصوفة والغرباء في شتى

---

(142) محمد ماكمان: "أثر الرحالين في التقدم العلمي و الحضاري"، المرجع السابق، ص ص (66-65).

(143) الحسن الشاهدي، أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، ج01، المرجع السابق، ص 65.

(144) كمال السيد أبو مصطفى، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار المعرب للونشريسي، دار الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية، سنة 1996م، ص 105.

(145) أحمد بن يحي الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس، خرجه: جماعة من الفقهاء بأشراف محمد حاجي، ج11، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط01، سنة1981م، ص ص (20- 34).

(146) أحمد بن يحي الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية و الأندلس، خرجه: جماعة من الفقهاء بأشراف محمد حاجي، ج02، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط01، سنة1981م. ص 511.

أنحاء المغرب الإسلامي في أواخر عصر المرينيين والحفصيين، حيث كانوا يجتمعون فيها على الأكل والذكر ونظم الشعر، ثم يبكون و يرقصون طوال الليل حتى يقع بعضهم مغشيا عليه. والجدير بالذكر أن زوايا المتطرفين ترتكز غالبا في الحصون والقرى البعيدة عن الحواضر ليظهروا ما انطوى عليه باطنه في الضلال[147]، فيوهمون عوام المسلمين، ومن لا عقل له من النساء، إن هذه الطريقة التي يتبعونها هي طريقة أولياء الله الصالحين، وهي ما يتقرب به المرء إلى الله تعالى، فيظلون بافتراء ذلك على الله تعالى و شريعته و أوليائه [148].

أما عن الطرق المتصوفة المعتدلة، فيذكر الونشريسي وجود جماعات منهم في بعض البلدان المغربية، سخروا أنفسهم للعبادة من الصلاة والصيام وتلاوة القرآن الكريم، وتعليم أبناء المسلمين، والسعي في قضاء حوائجهم، ورعاية الأيتام والأرامل والمساكين، وإصلاح ذات بين المسلمين، مثابرين على ذلك، ومداومين عليه، وكان يرأس كل جماعة من تلك الجماعات شيخ "أي شيخ الطريقة"، يتخذونه قدوة لهم، حيث يمتاز عليهم بالعلم الوافر، وشدة الورع والتقوى، والتفقه في الدين،ومعرفة أحوال الصلحاء من أهل التصوف، وكان يجتمع بمريديه في المولد النبوي الشريف، وغير ذلك من المناسبات الدينية للوعظ والتذكير، ونظم الأشعار في مدح النبي عليه الصلاة والسلام، دون اجتماع النساء والرجال في المقام نفسه، وقد استحسن أهل الفتوى في المغرب تلك الطريقة المعتدلة، ووصفوا أتباعها بأنها حسنة مرضية شرعية، وأن اجتماعهم لما ذكر اجتماع على طاعة الله [149].

وتناولت إحدى نوازل الونشريسي أن بعض الأثرياء في المغرب كانوا يحبسون الوقف على فقراء الزوايا، ويحبسون عليها أوقاف كذلك من عقارات وبساتين للإنفاق على تلك الزوايا، كما كانوا يهادون المتصوفة بهداية يطلق عليها "هدايا الفقراء"، فهناك إشارة إلى رجل هاداهم بدار

---

(147) أحمد بن يحي الونشريسي،المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية و الأندلس، ج11، المصدر السابق، ص 511.

(148) كمال السيد أبو مصطفى، جوانب من الحياة الاجتماعية و الاقتصادية و العلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل و فتاوي المعيار المعرب للونشريسي، المرجع السابق، ص ص (106-107).

(149) أحمد بن يحي الونشريسي، المعيار المعرب و الجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية و الأندلس، ج11، المصدر السابق، ص ص (46-47).

وأصل توت، وأوصى في وثيقة تحبيسه أن تكون الدار للذكر، ومدح الرسول صلى الله عليه وسلم، أما التوت فهو للطعام يأكل منه أهل القرية في البيت بعد الذكر، ومدح الرسول صلى الله عليه وسلم، على صوت واحد[150].

وهناك أمثلة تدل على أن التصوف في المغرب الإسلامي، موجة عمت كل طبقات المجتمع وفئاته من علماء وفقهاء وعامة أيضا وملوك، فهذا ابن رضوان المالقي: "الذي كان محبا لأهل الدين معظما لهم، ولمن ينتسب للصوفية، قريب الذم لنفسه، لم أرى في طريقته مثله"[151]. وممن اهتموا بالتصوف نذكر على سبيل المثال لا الحصر: الشيخ العالم أبو عبد الله بن أبي بكر بن مرزوق المتوفي سنة 681هـ/ 1282م، الذي انكب على كتب التصوف وانقطع للعبادة، والشيخ أحمد المغربي صاحب أبي مدين شعيب الغوث الإشبيلي[152] الذي توفي سنة 554هـ، هو أول من أدخل التصوف لبلاد المغرب، ويعد أقدم شيخ الصوفية المنتشرة في بلاد المغرب الأوسط، والشيخ أبا محمد صالح وغيرهم، وكان ابن مرزوق يجتمع في جلسات عامة وأخرى خاصة، فالجلسات العامة كان يحضرها الجمهور ويجتمع فيها بعلماء المدينة البارزين، أما الجلسات الخاصة فكان يخصصها لأصحابه الذين ينتمون إلى فرقته، وكان سلاطين المغرب الإسلامي يعتقدون فيه، فقد أوصى يغمراسن أبنائه أن يدفن إلى جانبه، ولم يجرؤ السلطان الحفصي أن يداهم داره عند دخوله تلمسان [153]. وبحث المريد عن الشيخ وسياحته من أجل معرفة الحقيقة وتعلم الطريقة الصوفية، جعلت كل رحلة المتصوفة ضرورية ودائمة، ونتج عنها كثرة تراجم المتصوفة، وكذلك تحول مفردة

---

[150] أحمد بن يحي الونشريسي،المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية و الأندلس، خرجه: جماعة من الفقهاء بأشراف محمد حاجي، ج09، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط01، سنة1981م، ص 118.

[151] أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، المطبعة الحجرية الجديدة بفاس، طبعة حجرية، ص ص (145- 146).

[152] شعيب بن الحسن أبو مدين، شيخ المشايخ، قدوة العارفين، عرف بالزهد، خاض بحار الأحوال وأخذ المعارف من أقلام العلماء وحفاظ الحديث، توفي عام 554هـ بتلمسان. أنظر: الشيخ أبو مدين شعيب بن الحسن الإشبيلي، حياته وآثاره أنس الوحيد ونزهة المريد، تقديم وتحقيق: عبد الحميد حاجيات، دار المعرفة للنشر و التوزيع، الجزائر، سنة 2004م، ص ص (03-06).

[153] خالد بلعربي، الدولة الزيانية في عهد يغمراسن، دراسة تاريخية وحضارية 633هـ-681هـ، دار الألمعية للنشر و التوزيع، قسنطينة، ط01، سنة 2011م، ص 332.

"السفر" إلى مرادفات غنية أثرت المعجم الصوفي من جهة ومعجم الارتحال أو السفر من جهة أخرى، وبذلك أصبح من مردفات الصوفية العديدة المصطلحات ذات المرجعية الارتحالية، ومن أهم هذه العبارات نذكر: السائحون، السائرون، الزائرون، السالكون، الفارون، الغرباء، المرابطون، أصحاب الصراط، أصحاب الطريق، أصحاب المقامات، الطلاب، السعاة...[154].

2 – الباعث العلمي:

عرفت بلاد المغرب والأندلس حضارة مزدهرة فانتشرت فيها العلوم، وظهرت فيها المصنفات وامتدت علاقة علمائها إلى كثير من المراكز الإسلامية في العالم، مما أدى إلى الامتزاج والتلاقح في شتى الميادين المعرفية، وتشهد كتب التاريخ ما كان لهؤلاء العلماء من شغف بالعلم والدروس. وقد نبغ الكثير منهم في شتى علوم عصرهم، مما يسر لهم الرقي العلمي قيام معظمهم برحلات إلى سائر الأقطار الإسلامية لدعم الروابط الثقافية، والأخذ عن سائر العلام المعاصرين، والإسهام في تطوير المعرفة.

وقد كان هؤلاء العلماء محل إعجاب شيوخهم وزملائهم وطلبتهم الذين جمعتهم بهم مجالس العلماء في المشرق الإسلامي، فقد سرهم ما وجدوه لديهم من رغبة في العلم، ومن علو في الهمة وحذق في الطلب، وللثقافة المكتملة والعلم الواسع الذي حصلوه عن شيوخهم المغاربة، وقدرتهم على المناظرة والنقاش العلمي [155].

ويؤكد ابن خلدون على أن الرحلة في طلب العلم ولقاء المشايخ، تزيد من كمال التعلم، "وأن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما يتحلون به من المذاهب تارة علما وتعليما وإلقاء، وتارة أخرى محاكاة وتلقينا بالمباشرة، إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاما

---

[154] عبد الرحيم مؤذن، الرحلة في الأدب المغربي، المرجع السابق، ص ص (91-92).

[155] وفاء بنت عبد الله سليمان المزروع، إسهام الرحالة المجاورين الأندلسيين على الحياة العلمية بمكة المكرمة من القرن 02هـ حتى نهاية القرن 06 هـ، (د ط)، (د ت)، ص 7.

وأقوى رسوخا، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها، فالرحلة لا بد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ، ومباشرة الرجال"[156].

ومن هذا النص تتضح الأهمية التي كان يوليها علماء المغرب الإسلامي للرحلة العلمية، وذلك عملا بقوله صلى الله عليه وسلم: "من خرج من بيته ابتغاء العلم وضعت الملائكة أجنحتها له رضا بما يصنع"[157]. فكانوا يرحلون لسماع الحديث، وتلقي العلوم المختلفة، وتبادل الإجازات، وبذلك يوثقون الروابط الثقافية بين المراكز العلمية المترامية في أنحاء العالم الإسلامي، لذا كانوا يوسعون نطاق البلدان التي يقصدونها. فهم لا يقتصرون على الحرمين حتى يكثروا من الشيوخ، ويطلعون على أنواع مختلفة من التجارب والأساليب العلمية في النقاش والتلقي والمذاكرة[158].

ولعل من بين الرحلات المدونة التي اتسمت بالطابع العلمي التوثيقي نذكر رحلات ابن رشيد السبتي ومحمد العبدري، والتجيني والبلوي، وابن خلدون، والقلصادي، والعياشي... وغيرهم. وقد تشوق ابن رشيد السبتي[159] لأداء فريضة الحج وملاقاة علماء بلاد المشرق، لينبغ على يدهم في اختصاصه "علم الحديث"، وليحصل على أعالي الأسانيد، وعندما غادر بلده كانت حجته حافلة بشتى العلوم والفنون، فقد ناقش علماء ذاع صيتهم في الآفاق كابن دقيق العيد، واستطاع أن يرد على كثير من المسائل[160].

(156) عبد الرحمن **بن خلدون**، المقدمة، دار الفكر للطباعة والتوزيع، بيروت، ط01، سنة 1423هـ/ 2003م، ص ص (406-407).

(157) رواه أحمد.

(158) وفاء بنت أبو عبد الله سليمان المزروع،، إسهام الرحالة المجاورين الأندلسيين على الحياة العلمية بمكة المكرمة، المرجع السابق، ص ص (71-72).

(159) يكنى أبو عبد الله، ويعرف بابن رشيد الفهري من أهل سبته، قام العناية بصناعة الحديث محققا فيها، توفي سنة 721هـ، أنظر: محمد بن الطيب القادري، الإكليل والتاج في تذييل كفاية المحتاج، دار الأبحاث للنشر والتوزيع، الجزائر، ط01، سنة2011، ص ص (225-253).

(160) ابن رشيد السبتي، ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في وجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة و طيبة، ج03، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط01، سنة 1988م، ص 88.

لقد مر أبو سالم العياشي[161] بطور النشأة والتكوين التي ميزها حرصه على الأخذ من علماء بلده وفقهاء قطره، وخاصة منهم شيوخ الزاوية العياشية، قبل أن يشتدَّ عوده، فيؤثر رحلته إلى المشرق، فيقول: "وكان أَول معاناتي للطلب وتشبثي بأذيال الأدب، وكلفا بالرواية، ومستروحا إليها من أثقال الدراية، فأخذت من الأعلام الذين أدركتهم بالمغرب قليلا، فلم يشف ما لديهم مما أجد غليلا، ولأنهم اقتصروا من الكتب على ما اشتهر، واستغنوا بما غاب بما ظهر، دون المسلسلات والأجزاء الصغار وعوالي الإسناد، وغرائب الأخبار. فلما من الله تعالى بالرحلة إلى بلاد المشرقية أولا وثانيا، ولعنان العزم نحو الرواية ثانيا تتبعت ذلك عند مظانه وعند أربابه، ورميت، و الحمد لله بسهم مصيب مع أصحابه"[162].

فالرحلة عند الرحالة المغاربة كانت تعني طلب العلم والدراسة، وصار من المألوف أن تتجه الرحلة المغربية الأندلسية في أغلب الأحوال إلى الشرق للتتلمذ والأخذ عن علمائه، وهذا شيء طبيعي ومشروع. فالمشرق الذي شع منه قبس العلوم والمعرفة، ولهذا لا بد أن يكون الحجاز منتهى سفرهم[163]. ويقول ابن خلدون في هذا الصدد: "أهل المشرق على الجملة أرسخ في صناعة تعليم العلم، بل وفي سائر الصنائع، حتى إنه ليظن كثير من رحالة أهل المغرب إلى المشرق في طلب العلم أن عقولهم على الجملة، أكمل من عقول أهل المغرب، وأنهم أشد نباهة، وأعظم كيسا بفطرتهم الأولى، وأن نفوسهم الناطقة أكمل بفطرتها من نفوس أهل المغرب، ويعتقدون أن التفاوت بيننا وبينهم في حقيقة الإنسانية، ويشيعون لذلك ويولعون به، لما يرون من كيسهم في العلوم والصنائع"[164].

---

(161) هو عبد الله أبو سالم بن محمد بن أبي بكر العياشي، إمام فاضل وعلامة كبير، رحال جوال، علامة قوال، محقق الدراية واسع الرواية، ولد سنة 1073هـ، و توفي بالطاعون عام 1090هـ، بزاوية جبل أيت عياش. أنظر: محمد بن الطيب القادري، الإكليل والتاج في تذييل كفاية المحتاج، المصدر السابق، ص ص (135-136).

(162) عبد الله بن محمد العياشي، الرحلة العياشية، تحقيق: سعيد القاضي سليمان القرشي، ج01، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات العربية، ط01، سنة 2006م ، ص ص(29-28).

(163) الحسن الشاهدي، أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، ج01، المرجع السابق، ص80.

(164) ابن خلدون، المقدمة، المصدر السابق، ص 77.

فسر كثرة الرحلات المغربية إلى المشرق تكمن في أن الشخصية العلمية المغربية لا تكتمل إلا بالآخذ عن المشارقة، والتتلمذ عليهم، فالضرورة تدعو إلى شد الرحال إليهم، ولو أن بعد المكان، وطال الزمان. فلابد من ربط سندهم العلمي بهم إما بالمشافهة والدراسة عليهم، أو بالاستجازة، لهذا نجد بعض الرحال المغاربة، يحمل معه استدعاء لجمع إجازات علماء المشرق للمغاربة الذين لم يتمكنوا من الرحلة، فابن رشيد السبتي يستجيز لعلماء سبتة، وأحمد زروق يستجيز لعلماء جلة منهم: ابن غازي وولده، وأبو العباس الونشريسي.....،وهناك كثير من الأمثلة في كتب التراجم والتاريخ تبين تأثير المغربي في الشرق عامة ومصر خاصة، وفي مجال الفقه نجد أن لابن الربيع السبتي النحو الذي ترك أثرا في مصر، فها هو ابن النحاس يهتم بالاطلاع على مؤلفاته، وقد كان لابن محمد صالح مريدون متصوفة من المشرق، وإليه كتب الفخار الفارسي يسأله عن كيفية الوصول إلى الطريقة، وما الطريقة الشاذلية بمصر، إلا نتيجة لهذا التأثير المغربي في المشرق[165].

3- الباعث السياسي:

نظرا لأن الأوضاع السياسية هي التي كانت تتحكم وتوجه الحياة، فقد شد الكثير من رحالة المغرب الإسلامي الرحال لظروف أملتها الحياة السياسية، ومن أهم غايات هذه الرحلات نذكر ما يلي:

أ- القيام بسفارة:

ويمثل تبادل السفارات بين الدول الإسلامية، أو بينهم وبين الدول الأجنبية، وغالبا ما كان يسكت الرحالة عن الهدف الأساسي من سفارتهم، ويكتفون بالإشارة في استمرار السلام، والعلاقات الحسنة مع البلد المزور، وعقد الصفقات التجارية، وتحدثت كتب التاريخ عن العديد من السفراء، ودورهم في الدفاع عن بلدانهم، وتحديد مواقفهم من حضارة الآخر.

---

[165] الحسن الشاهدي، أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، ج01، المرجع السابق، ص 82.

ومن المغرب الإسلامي، نذكر على سبيل المثال رحلة السفير الأندلسي يحي بن الغزال، إلى بلاد النورماند والقسطنطينية، وذلك في منتصف القرن 9 ميلادي، ورحلة أبو بكر بن العربي المغافري[166]، وابنه اللذين توجها بعد معركة الزلاقة إلى الخليفة العباسي المستظهر بالله ابن المقتدي ببغداد عام 490هـ، وحضر مجالس الغزالي والتبريزي اللغوي، حيث طالت إقامته ببغداد، وأقبل على شيوخها يستمع ويناظر، ويجادل فخلف رحلته المعروفة بقانون التأويل[167]، ورحل الشيخ أبي مدين إلى مراكش عاصمة الموحدين بقرار والي بجاية سنة 594 هـ/ 1197م استجابة لطلب الخليفة الموحدي يعقوب المنصور، غير أن الشيخ أبا مدين لكبر سنه ومشقة السفر مرض في طريقه، واشتد مرضه فتوفي قرب تلمسان ودفن بقرية العباد[168]. ولما استولى أبو عنان على تلمسان دعا ابن مرزوق[169]إلى بلاطه، وألحقه بأكابر مجلسه، فارتفعت مكانته عنده، وفي سنة 758 هـ، بعثه إلى تونس في سفارة ليخطب بنت السلطان الراحل أبي يحي الحفصي المتوفي سنة 747هـ.

ومما لاشك فيه أن السفراء كان يتم انتقائهم عادة من العلماء ومن الطبقة الممتازة، مما جعل ملاحظاتهم وأفكارهم وتقاريرهم لها أهمية عظمى في التعرف على أحوال المجتمعات التي لها علاقة بهذه السفارات، ناهيك على المستوى العلمي الممتاز لهؤلاء الرحالة، والمناظرات والمناقشات والدروس والآثار العلمية التي يخلفها السفراء في البلدان التي زاروها، وبعد الانتهاء من السفارة كانوا

---

(166) هو أبو بكر عبد الله بن محمد بن العربي، ولد عام 486 هـ في مدينة إشبيلية، رحالة شهير وفقيه من أكبر فقهاء المالكية بالأندلس، يعتبر من مؤسسي أدب الرحلات بالأندلس، توفي عام 542 هـ بإشبيلية. أنظر: فؤاد قنديل، أدب الرحلات في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، سنة 2002م، ص ص (335- 337).

(167) فؤاد قنديل،أدب الرحلات في التراث العربي، المرجع السابق، ص 336.

(168) الشيخ أبو مدين شعيب بن الحسن الإشبيلي، حياته و آثاره أنس الوحيد ونزهة المريد، المصدر السابق، ص 6.

(169) هو محمد الرابع بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق العجيسي التلمساني،كنيته أبو عبد الله ولقبه شمس الدين، عرف بالخطيب الأكبر، الجد، والرئيس، ولد في تلمسان سنة 710هـ، ومن مؤلفاته المسند الصحيح الحسن، توفي سنة 781هـ، بالقاهرة. أنظر: أحمد المقري، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب و ذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق إحسان عباس، ج05، دار صادر، لبنان، سنة 1969م، ص 390.

يخصصون وقتا للثقافة يتفرغون فيه للعلم والعلماء، ويتصلون برجال الفكر والأدب ويبحثون فيه في الكتب والمصنفات(170).

ب– مصاحبة الملوك:

في هذا النوع من الرحلة تكون الغاية منها تدوين وتسجيل الأحداث المختلفة صحبة الملوك والوزراء ورجال الدولة والمسؤولين، وتدوين كل مراحل هذه الرحلة الرسمية. فإذا كان المسؤول قد توجه في حملة تأديبية، فإن الرحالة يحرص على تسجيل كل ما اعترض هذا المسؤول في طريق رحلته، من عقبات ونكبات أو ما أحرزه من انتصارات، فمهمته تشبه إلى حد كبير مهمة الصحافي الذي يرصد الحدث ويقدم تقريرا شاملا عنه في مراحله المختلفة (171).

ويمكن إعطاء بعض الأمثلة عن هذا النوع من الرحلة، فقد وصف لسان الدين بن الخطيب(172)الرحلة التي رافق فيها سلطان غرناطة أبا الحجاج يوسف بن نصر سنه (733هـ-755هـ/ 1333م- 1354م) ليتفقد الجانب الشرقي لمملكة غرناطة، تتقدمه الألوية الحمراء، وشعار دولة بني الأحمر، وقد عنون هذه الرحلة "خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف"، في السابع عشر من محرم سنة 748هـ إلى 08 صفر عام 748هـ، حيث دامت الرحلة حوالي 20 يوما قطع الركب فيها حوالي 200 كيلومتر(173).

وهذا أبو الفضل محمد(174) أحد أعلام البيت التيجاني، خدم الدولة الحفصية بآرائه وقلمه أيام السلطان الحفصي أبي عصيدة، ثم السلطان أبي يحى زكريا اللّحياني(175)، ثم ابنه السلطان محمد

(170) الحسن الشاهدي، أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، ج01، المرجع السابق، ص 100.

(171)الحسن الشاهدي، أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، ج01، المرجع السابق، ص95.

(172) هو أبو عبد الله محمد ابن عبد الله ابن سعيد ابن علي السلماني (713هـ- 776هـ)، وزير ملوك بني الأحمر في غرناطة، شخصية موسوعية، وكاتب مسترسل وشاعر فحل. أنظر: محمد الخزعلي: "لسان الدين بن الخطيب و أدب الرحلة"، مجلة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، ج 18، عدد 39، سنة 1424هـ، ص 412.

(173)المرجع نفسه، ص ص (313،314).

(174)هو محمد أبو الفضل بن أبي الحسن علي بن إبراهيم بن محمد بن أبي القاسم التيجاني، اشتهر بالأدب وتميز في فن الرسائل، توفي سنة 718هـ. أنظر: أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التيجاني، رحلة التيجاني، تحقيق: حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، تونس، سنة 1981م، ص ص (ي– و).

الملقب "بأبي ضربة" المستبد بأمر إفريقية بعد والده، فكان أبو الفضل كاتب سره ومدبر أمره، وقد صحب مخدومة لما زحف السلطان أبو بكر الحفصي صاحب المملكة الغربية على تونس، فأوقع بأبي ضربة، وقتل جماعة من أنصاره ومن بينهم أمير سره أبو الفضل محمد لتيجاني سنة 718هـ[176]، ولقد فعل الشيء نفسه أبو الحسن علي ابن رزين التجيبي الأندلسي حينما أتيح له أن يرافق ولي العهد الحفصي الأمير أبا فارس عبد العزيز في رحلاته وحركاته، فسجل زحفه بجيشه على قسنطينة في الرحلة التي عنونها: "الدرر الثمينة في خبر القل وفتح قسنطينة" بحيث تعد تسجيل رسمي لهذه الحركة ووصف دقيق لمراحلها ومنازلها[177].

جـ- الرحلة الاضطرارية:

هي الرحلة التي لم يتبقى لصاحبها سوى الهرب والبحث عن مكان يطمئن فيه، لما أحاط به من مشاكل، وهذا يدل على عدم استقرار الأوضاع السياسية والاجتماعية والأمنية في بلاد المغرب الإسلامي في الفترة المدروسة، وخاصة في بلاد الأندلس إذ ساد الشعور بأنها دار حرب، وبأنها ضعيفة أمام عن الزحف الإفرنجي، فكان المسلم لا يطمئن على دينه ونفسه وماله، فمن الأفضل الفرار بالدين والمال والنفس إلى البلاد الإسلامية شرقا وغربا، وعلى الأخص بلدان شمال البحر الأبيض المتوسط. وكانت هذه الهجرات عند اختلال التوازن ورجحان كفة المسحيين ابتداء من واقعة العقاب حيث بدأت مملكات الطوائف تسقط في يد العدو واحدة تلوى الأخرى، فأضطر أهلها إلى الرحلات الاضطرارية نحو بلدان المغرب[178].

---

(175) هو السلطان زكريا بن أحمد بن يحى بن عمر اللحياني، صاحب تونس، حكم سنة 670 هـ ، لقب بالقائم بأمر الله، توفي سنة 727هـ. أنظر: أحمد بن القاضي، ذرة الحجال في أسماء الرجال، تحقيق: محمد أبو النور، ج01، دار التراث، القاهرة، سنة 1970هـ، ص 393.

(176) أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التيجاني، رحلة التيجاني، المصدر السابق، ج01، ص ص (ي-و).

(177) الحسن الشاهدي، أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، ج01، المرجع السابق،ص 99.

(178) المرجع نفسه، ص 103.

وقد اضطر حازم القرطاجني[179] ككثير من مواطنيه إلى مغادرة وطنه ومسقط رأسه مهاجرا إلى المغرب في السنة التي سقطت فيها قاعدة الأمويين بالأندلس بيد النصارى واحتل الأسبان قرطبة سنة 633هـ/ 1236م، وتوالت إثر ذلك الفتن والمحن وعرفت نفس المصير على التعاقب مدن بياسة سنة 634هـ/ 1237م، وبلنسية سنة 636هـ/ 1238م، وشاطبة ودانية سنة 638هـ/ 1240م، غير أن إقامته كانت قصيرة بمراكش، ويمكن حصرها ما بين سنتي 633 هـ- 639هـ متوجها نحو تونس[180]. ومن الرحالة الأندلسيين الشيخ الفاضل أبو عبد الله محمد بن يوسف الأنصاري[181] الذي شد الرحالة إلى مصر.

وهناك نوع آخر من الرحلات الاضطرارية، كان سببها الصراع والتنافس بين دول المغرب الإسلامي، فكلما واجهت عالما مشكلة مع سلطان بلاده، يرحل إلى الخصم فيحتمي به، ومن هنا يظهر ذلك الدور الكبير الذي كان يلعبه العلماء في تغيير مجريات الأحداث في القرون المدروسة، ويظهر ذلك جليا في مشاركتهم في عقد الصلح الذي جرى بين المتوكل الزياني وابن عمر عثمان الحفصي سنة 868هـ/ 1463م، وكذلك وساطتهم في فك الحصار الحفصي المضروب على تلمسان سنة 870هـ/1465م، وهناك من كان له خلاف مع السلطان كأمثال الونشريسي الذي كان له خلاف مع السلطان الزياني أدى إلى انتهاب داره من جهة السلطان في شهر محرم عام 874هـ/ 1469م، مما اضطره الرحيل إلى فاس لقضاء بقية حياته[182].

---

[179] هو حازم بن محمد بن حسن بن خلف بن حازم الأنصاري القرطاجني النحوي، أبو الحسن، شيخ البلاغة والأدب كان أوحد زمانه في النظم والنثر والنحو، واللغة، و العروض وعلم البيان، من أشهر مؤلفاته: كتاب سراج البلغاء، وكتاب القوافي، ولد سنة 608 هـ، وتوفي سنة 684 هـ بتونس. أنظر: أحمد المقري التلمساني، أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، مطبعة فضالة، (د ط)، (د ت)، ص 171.

[180] حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط02، سنة 1981م، ص ص(53-56).

[181] هو الشيخ الفاضل أبو عبد الله محمد بن يوسف ابن محمد بن يوسف الأنصاري، الشاطبي الأصل البلنسي، ولد سنة 601هـ، توفي سنة 684 هـ بالقاهرة. أنظر: أحمد المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج02، المصدر السابق، ص 374.

[182] أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، إشراف وتقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ط01، سنة 1989م، ص 135.

أما الشيخ عبد الكريم المغيلي[183]، فقد كان من مدبري انقلاب سنة 870هـ/ 1465م[184] الذي راح ضحيته احد الوزراء المقربين من السلطان الزياني المتوكل، حيث رحل على إثرها الشيخ محمد عبد الكريم المغيلي مضطرا إلى توات[185]في السنة نفسها[186].

كما رحل الأديب الغرناطي أبا عبد الله محمد بن جزي كاتب رحلة ابن بطوطة الموسومة "غرائب الأمصار و عجائب الأسفار"، إلى العدوة الأندلسية (فاس) بعد أن اضطره سلطانه أبي الحجاج [187]، ملتجئا إلى السلطان أبي عنان سنة 753هـ/ 1352م[188]، لاقيا الترحيب والتكريم والتعظيم. ونفس التكريم والترحيب لقيه السلطان الغني بالله بعد أن فقد عرشه سنة 760هـ/1358م، ولحق لسان الدين بن الخطيب سلطانه بعد نجاح سفارة السفير المغربي أبو القاسم التلمساني لدى سلطان غرناطة الجديد إسماعيل أخو السلطان الغني بالله، في رحلة اضطرارية، وصل لسان الدين ابن الخطيب مع الركب إلى فاس سنة 761هـ، فاستقبلهم السلطان أبو سالم أجمل استقبال، واحتفل بقدومهم في يوم مشهود[189]. وقد دون تفاصيل هذه الرحلة

---

[183] هو أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي التلمساني، ينتسب إلى قبيلة مغيلة، توفي سنة 909هـ /1503م، ومن أشهر مؤلفاته: رسالة الرد على المعتزلة، وكتاب مصباح الأرواح من أصول الفلاح. أنظر: ابن مريم الشريف المديوني التلمساني، البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان، مراجعة محمد ابن أبي شنب، المطبعة الثعالبية، الجزائر، سنة 1908م، ص203.

[184] محمود بوعنان، "رحالة مصري يزور الجزائر في القرن 9هـ"، مجلة الأصالة، وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، العدد 24، سنة 1975.

[185] توات هي مجموعة من واحات الصحراء بالمغرب الأوسط، تقع في الجهة الجنوبية الغربية، أنظر: عبد الحميد بكري، النبذة في تاريخ توات وأعلامها خلال القرن 9هـ، شركة الهدى للطباعة و النشر، عين ميلة، الجزائر ، ط01، سنة 2005، ص 17.

[186] ياسين شبايبي، الفكر السياسي عند الشيخ المغيلي التلمساني، مذكرة ماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، سنة 2008م، ص 48.

[187] هو السلطان يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن نصر الأنصاري الخزرجي، أعظم ملوك غرناطة، توفي سنة 733هـ/ 1332م ، توفي قتيلا مع ولده الأكبر في الواقعة التي هزم فيها المسلمون بقيادة السلطان أبي الحجاج، وسقطت على إثرها طريف والجزيرة الخضراء في يد النصارى. أنظر: لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان،ج01، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط02، 1392هـ/ 1973م، ص ص (20-21).

[188] لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة،ج02، المصدر السابق، ص06.

[189] لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة،ج02، المصدر السابق، ص ص (24-28).

فوصف ما مر به من بلدان وطرق، وتحدث عن العلماء الذين التقى بهم، وتعرض لأحداث الأندلس، وجمع كل ذلك في كتابه "نفاضة الجراب".

المبحث الثالث: انتشار الرحلات في بلاد المغرب .

تعد الرحلة أكثر المدارس تثقيفا للإنسان، فالاختلاط والحياة والتواصل مع الشعوب المختلفة، بالإضافة إلى الاجتهاد في دراسة أخلاقهم وطباعهم ودياناتهم ونظم حكمهم غالبا ما تخلق مجالا للمقاربة، فالرحلة ليست وسيلة اكتشاف فحسب، بل ساهمت في ترسيخ العوامل والمفاهيم التي بنيت عليها مسألة وحدة البشر على الأرض[190].

1- ميل علماء المغرب الإسلامي إلى الرحلة :

رحلة المغاربة إلى المشرق على العموم، أكثر من رحلة المشارقة إلى الغرب، فمركز الحج بالمشرق، كما أن رغبة رحالي المغرب الإسلامي في لقاء الشيوخ والأساتذة، وطلب العلم والسعي إلى تحصيله، كان مطلب الجميع [191]، والدليل على ذلك أن كتب التاريخ والأدب والتراجم والسير، تعرف بهم وبإنتاجهم الفكري، وتتبع رحلاتهم، فأحمد المقري التلمساني[192] قد خصص المجلد الثاني من كتابه نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للتعريف بمن رحل من الأندلس إلى بلاد المشرق، ومدح جماعة من أولئك الأعلام ذوي العقول الراجحة والأحلام، لشامة وجنة الأرض دمشق الشام، وما اقتضته المناسبة من كلام أعيانها وأرباب بنانها ذوي السؤدد والاحتشام، معتبرا: "أن حصر أهل الارتحال لا يمكن بوجه ولا بحال، ولا يعلم ذلك على الإحاطة إلا علام الغيوب الشديد المحال، ولو أطلقنا عنان الأقلام فمن عرفناه فقط من هؤلاء الأعلام، لطال الكتاب وكثر الكلام، ونذكر منهم من لمع على وجه التوسط، من غير إطناب داع إلى الملال،

---

(190) حسن محمد فهيم، أدب الرحلات، عالم المعرفة، الكويت، سنة 1990م، ص ص (17-18).

(191) حسن مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، مكتبة مديولي، القاهرة، ط02، سنة 1986م، ص 11.

(192) أبو العباس أحمد ابن محمد ابن أحمد ابن يحي بن عبد الرحمن بن أبي القيس ابن محمد المقري القرشي، ولد بتلمسان سنة 986ه ، وبها تلقى العلم، ورحل إلى فاس، ثم قصد الحج عام 1027ه، ثم انتقل إلى مصر سنة 1028ه، وزار بيت المقدس سنة 1039ه، توفي سنة 1041ه بمصر. أنظر: أحمد المقري التلمساني، روضة الآس العاطرة الأنفاس، المكتبة الملكية، الرباط، ط02، سنة 1983م، ص ج.

واختصار مؤد للكمال"[193]. وقد أحصى المقري في هذا المجلد ثلاثمائة وثمانية رحال، ذاكرا تراجمهم معتمدا في ذلك على ذاكرته بعيدا عن مصادره ومراجعه. في حين أورد في المجلد الثالث من نفس المصدر ست و ثمانون رحالا، ممن وفدوا على الأندلس من أهل المشرق[194]، وهو عدد قليل مقارنة بالعدد الأول.

وأخرج العلامة المحقق: عبد الهادي التازي كتابه الموسوم "رحلة الرحلات مكة في مائة رحلة مغربية و رحلة"، يتضمن عددا من رسائل المسلمين القدماء من علماء المغرب العربي وحجاجه الذين شدوا الرحال وحجوا إلى بيت الله الحرام، ودونوا مشاهداتهم ومشاعرهم ورحلاتهم بعد عودتهم إلى بلاد المغرب، معتزين بالسند الذي جاءوا به من مكة المكرمة، ويرددونه في مجالسهم العلمية [195]. فكان المغاربة يعودون بحمولة مهمة من الزاد العلمي والمعرفي، وكانت مكة المكرمة المرجعية التي يشحنون إزائها بوجدانهم وآمالهم، باعتبارها الفضاء الذي عاش فيه النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته وخلفائه الراشدين رضوان الله عليهم جميعا وعلماء الإسلام من مختلف الأقطار والأمصار[196].

ويرى كراتشكوفسكي: "أن شخصيات لامعة كالبكري والإدريسي وابن جبير لا تستغرق حلقة من مؤلفي المغرب. إذ نلتقي إلى جانبهم بمصنفات أقل شهرة منهم، ولكن لا تخلوا أحيانا ببعض الصلة بهم"[197]. مما يدل أن الرحالة المغاربة قد أحرزوا درجة عالية في السبق في أدب الرحلات، ومما لا شك فيه أن الموقع الجغرافي للمغرب الإسلامي ساعد في تنمية الاهتمام والرغبة في الرحلة عند المغاربة وذلك ببعده عن الشرق والحجاز وإطلاله على القارة الأوروبية من جهة

---

(193) أحمد المقري التلمساني،نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، ج02، المصدر السابق، ص 08.

(194) أحمد المقري التلمساني،أحمد المقري، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: إحسان عباس، ج03، دار صادر، لبنان، سنة 1969م،، ص ص (119-221).

(195) عبد الهادي التازي،رحلة الرحلات مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة، المرجع السابق، ص ص (12-11).

(196) المرجع نفسه، ص 14.

(197) كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم، مطبعة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، سنة 1987م، ص 301.

الغرب، ولهذا انتظمت رحلات المغاربة إلى الأقطار المختلفة شرقا وغربا، وإن كان الحجاز يستهويهم ويجذبهم نحوه أكثر[198].

وقد ضرب العلماء الأندلسيون أروع الأمثلة في طول الغياب، وتحمل الغربة عن بلادهم من أجل العلم، ولجأوا لتخفيف عبئ الرحلة الفردية ومشاقها إلى الرحلة الجماعية، وكانت رحلاتهم تستغرق مدة طويلة يقضونها في البحث والدرس وبعضهم كانت له أكثر من رحلة للمشرق، وهذا دليل على رغبتهم الشديدة بإثراء معرفتهم العلمية وهمتهم العالية، وكانوا يحرصون على نيل نصيبهم من المجاورة في مكة أو في المدينة للاستفادة، وتبادل العلم والمعرفة[199].غير أن بعض هؤلاء العلماء طالت مجاورته، إما على تواصل غير مقطوع، أو على دفعات، فعظمت استفادته كما عظمت إفادته، فكان له مساهمات علمية كثيرة في مختلف الأقطار الإسلامية.

وأطال بعض المغاربة مقامهم بمكة أو بالمدينة لمدة طويلة أو بهما معاً، وذلك لشدة تعلقه بالحجاز، من الذين عرفوا بالمجاورة من أهل بلاد المغرب، نذكر على سبيل المثال: والد ابن مرزوق الخطيب التلمساني (710هـ-781هـ) الذي صاحب ابنه سنة 718هـ في رحلة إلى الشرق[200]، وعرف الشيخ الصالح الفاضل أحمد بن محمد بن مرزوق بكثرة العبادة والصوم والصلاة بمسجد رسول الله صلى الله علية و سلم، وكان صابرا محتسبا مجاورا بمكة المكرمة "رآه ابن بطوطة سنة 728هـ، وهو أكثر الناس طوافا وعجب من ملازمته الطواف مع شدة الحر بالمطاف. ومن المجاورين بالمدينة المنورة الشيخ الصالح العابد السعيد المراكشي الكفيف، ومنهم أبو مهدي بمكة وعيسى المكناسي[201]. والفقيه الصالح الزاهد أبو الحسن علي ابن رزق الله الأنجزي من أهل قطر طنجة من كبار الصالحين، جاور بمكة سنين وبها وافته المنية، وكانت بينه وبين والدي الرحالة

---

[198] الحسن الشاهدي، أدب الرحلة المغربية في العصر المريني،ج01، المرجع السابق، ص 48.

[199] وفاء بنت عبد الله سليمان المزروع،، إسهام الرحالة المجاورين الأندلسيين على الحياة العلمية بمكة المكرمة، المرجع السابق، ص72.

[200] أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، المصدر السابق، ص 460.

[201] ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة في غرائب الأمصار وعجائب الأقطار، المصدر السابق، ص 686.

الشهيرة ابن بطوطة صحبة قديمة،و كان له بيت بالمدرسة المظفرية يعلم العلم فيها نهاراً، ويأوي بالليل إلى مسكنه برباط ربيع، وهو من أحسن الرباطات بمكة[202].

وقد نزحت أسرة إبراهيم ابن علي ابن فرحون المتوفي سنة 799هـ إلى المدينة المنورة، حيث توفي والده علي ابن محمد بن أبي القاسم ابن محمد ابن فرحون بالمدينة المنورة سنة 746هـ، وهناك ولد ابنه إبراهيم صاحب كتاب "الديباج المذهب"، ونسب إلى يعمر ابن ملك[203].أما محمد ابن علي تقي الدين الفاسي المتوفي سنة 842 هـ، فقد سمع بالمدينة المنورة من إبراهيم ابن فرحون، والفقيه على ابن عم أبيه عبد الرحمن ابن الخير وغيرهم، وقد أذنوا له بالإفتاء والتدريس، وكان منشؤه في المدينة ولكن أصله مغربي، وألف تاريخا حافلا سماه "شفاء الغرام بأخبار بلد الله الحرام"، وله كتاب "العقدة الثمين في تاريخ البلد الأمين" مدون في أربع مجلدات، وله كتاب "ذيل على سير البلاد"[204].

2- ازدهار الرحلة في بلاد المغرب.

بعد الفتوحات الإسلامية، واتساع رقعة الدولة الإسلامية، أصبح الاهتمام بالرقعة المفتوحة جزءا هاما من العمل الإداري، وصار وصف الأقاليم جزء من أخبار الفتوحات والمغازي والتنظيم، وأولى الأمراء العناية بالمنطقة من حيث ثرواتها ومقدرتها على دفع الزكاة والخراج والضرائب، وهذا ما اصطلح عليه الجغرافية الإدارية، وباستقرار الدولة الإسلامية، وكثرة تنقل الحجاج والتجار وأهل العلم والرحالين الذين يهتمون بتدوين ما يرون ويشاهدون ويسمعون، أخذت العناية بالجغرافية تتبلور حول دراسة الأقاليم والمناطق دراسة وافية[205].

ومن المهم اعتبار القرن الذي أعقب الغزو المغولي ازدهرت فيه أوصاف الرحلات المغربية الأندلسية التي تتفاوت من حيث قيمتها، فأبو الحسن الغرناطي الذي اشتهر بابن سعيد، الذي صحب أباه في رحلة أولى إلى الحج عام 638هـ، فزار شمال إفريقيا ومصر، وفي طريق العودة توفي

[202] ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة في غرائب الأمصار و عجائب الأقطار، المصدر السابق، ص 685.

[203] ابن القنفذ القسنطيني، الوفيات، تحقيق عادل نوهض، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط04، سنة 1983م، ص 348.

[204] أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، المصدر السابق، ص 534.

[205] نقولا زيادة، الجغرافية و الرحلات عند العرب، دار الكتاب اللبنانية، بيروت، سنة 1978م، ص ص (11-18).

والده بالإسكندرية عام 640هـ، فبقي فيها حتى سنة 648هـ، ثم غادرها إلى الشام، وأقام بالموصل وبغداد والبصرة حينا من الزمن، ثم رحل إلى حلب ودمشق صحبة المؤرخ المشهور ابن النديم، وحج إلى مكة مرة ثانية، وتواجد عام 653هـ، ببلاط أمير تونس، وفي سنة 666هـ خرج في رحلة أخرى إلى الإسكندرية وحلب متجها إلى أرمينيا.

أما نشاطه في محيط الجغرافيا فإنه لا يتصل بالأدب بقدر ما يتصل بالاتجاه الديني ويمثله الإدريسي، ويتضح ذلك من خلال مصنفه "كتاب جغرافيا الأقاليم السبعة"، غير أن عدم وجود طبعة لهذا الكتاب حتى يومنا هذا تقف حجرة عثرة في سبيل دراسته دراسة صحيحة[206].

و من الأسماء التي ظهرت في محيط الأدب الجغرافي في نهاية القرن الثالث عشر واكتسبت أهمية معينة في محيطها الخاص، نذكر الرحالة أبو محمد العبدري، الذي خرج في رحلة بصحبة ابنه متوجها إلى مكة المكرمة ماراً بشمال إفريقيا، ومن مصر رافق قافلة الحجيج ثم رجع عن طريق فلسطين ماكثا بعض الوقت بالقاهرة والإسكندرية، وغادرها عائدا إلى وطنه ماراً في طريقه بتلمسان وفاس ومكناس حتى بلغ أزمور على المحيط، وهناك بدأ في التدوين وهو في تلمسان، حيث وصف فيها المدن الكبرى الكثيرة بشمال إفريقيا، ذاكرا المحيطات الجغرافية بدقة وصحة متناهيتين، مع تفاصيل وافية عن الآثار القديمة وأخلاق السكان المحليين، ويتميز عرضه بالصدق والدقة في الراوية والحيوية والرشاقة في الأسلوب[207].

وما يلفت الانتباه مصنفان لمحمد ابن رشيد الفهري الأندلسي، ولكنهما يحملان اسماً جامعا هو "الرحلة"، فيصف في الأولى طريقه لأداء فريضة الحج، و عنوانها تغلب عليه الصنعة وهو يعكس بحق مضمون هذه الرحلة، وهو "ملء العيبة في ما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة". أما الرحلة الثانية فيتناول فيها الكلام عن أهل الحديث

---

[206] كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، المصدر السابق، ص ص (354-356).

[207] المصدر نفسه، ص 368.

والفقهاء الأندلسيين، وقد فرغ من تأليفها حوالي عام 689هـ/1290م، ومما يلفت الانتباه فيها أن المؤلف إلى جانب اهتمامه بالأدب اعتنى كذلك بالتاريخ الطبيعي[208].

وإلى العصر نفسه بالتقريب ترجع رحلة محمد بن أحمد التجاني، الذي لا علم لنا بتفاصيل سيرة حياته، والذي خرج من تونس لأداء فريضة الحج سنة 806هـ /1309م بصحبة أمير من بني حفص، هو يحي بن زكريا و فيما بعد عندما أصبح الأمير حاكما على تونس ، صار التجاني من عماله والمقربين إليه، ولما كان سير الرحلة بطيئاً ومجالها محدوداً، تمكن المؤلف من الوقوف عند كل ما يمكن ملاحظته في طريق سيره القصير، وقد برهنت رحلته على أهميتها الكبرى، وذلك لاحتوائها على معلومات وافية عن جميع المناطق التي زارها وعن الأصقاع المجاورة لها. وهي تناول مسائل جغرافية ومسائل التاريخ الطبيعي وبوجه خاص التاريخ البشري، والاستشهادات من الوثائق. أما أسلوبه في العرض فإنه أدبي صرف، ولكنه لا يثقله بالانطباعات الشخصية، أو بمحاولة الاستدلال على صحة معارفه ومهارته[209].

ليس هذا فحسب بل إن ما يستدعي الانتباه حقا هو أن آخر رجاله كبير، انتظم محيط رحلاته العالم الإسلامي بأجمعه. أنما ينتمي إلى القرن 14م هو ابن بطوطة [210]. هو ذلك الرجل الذي كانت أسفاره تطالع بالمدارس الثانوية بالبلاد العربية إلى عهد قريب، والذي يرد المثقفون العرب حين التساؤل بابتسامة، وهو الذي لا يستغنى عن الرجوع إليه في تاريخ آسيا الوسطى، فمن المستحيل إنكار أنه كان آخر جغرافي من الناحية العلمية، وقد جاوز تجواله مقدار مائة وخمس و سبعين ألف ميل[211].

---

[208] كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، المصدر السابق، ص،383.

[209] المصدر نفسه، ص 383.

[210] هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن إبراهيم بن يوسف اللواتي الطنجي الملقب في المشرق بشمس، ولد بطنجة عام 703هـ/1304م، انحدر من بيت مشهور بالعلم والقضاء، رحالة مشهور، توفي سنه 779هـ/13777م. أنظر : تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق عبد الهادي التازي، ج01 ، أكاديمية المملكة المغربية ، الرباط، سنة 1997م، ص ص (80-85).

[211] كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، المصدر السابق، ص42.

وقد ازدهرت الرحلة في بلاد المغرب في عهد المرينيين وخاصة في عهد أبي الحسن المريني سنة (731-749هـ/1331-1348م)، وأبي عنان(749- 759هـ/ 1348- 1358م)، وقد عد بنوا مرين أنفسهم ورثة الحضارة الأندلسية، وعلى الرغم من استقرار الدول العربية الإسلامية بالأندلس بسبب تقلص مساحتها بشكل ملحوظ، فقاموا بتشجيع الأدب والعلم، وقد حفظت الآثار المعمارية لعصرهم نماذج فنية عظيمة، كما اجتذب بلاطهم عددا كبيرا من العلماء، فعاش في كنفهم ابن خلدون وابن الخطيب وكلاهما معاصرا لابن بطوطة [212].

فابن خلدون[213] سبق عددا من الجغرافيين في رسم صورة المجتمعات والدول والمراحل التي تمر بها، فهو يسرف في وصف جغرافية العالم بصورة خاصة معتمدا على المهارات، ويبرز دوره في تجميع المادة الجغرافية وتنسيقها وإضافات وتعليقات محدودة، متبعا أسلوب الوصف المستمد معظمه من المصادر، يعد هذا استعراضا أو استطراديا، وجمع قوانين يتم الاستدلال عليها بإتباع أسلوب المقارنة والتحليل والابتكار[214]. وقد طرق ابن خلدون جغرافية الأمصار، فتحدث عن المدينة كمركز حضاري تقطنها الجماعات البشرية، التي تعود في أصلها إلى البداوة، لتكون هذه المدن الدولة. وتحدث أيضا عن طبيعة العلاقة بين المدينة والدولة، وعن الظروف التاريخية والقوانين التي تتحكم في نشأة المدن وتطورها، ثم تدهورها وانحلالها، مبينا أن المدن العظيمة والهياكل المرتفعة إنما يشيدها الملك[215].

كما تجدر الإشارة إلى أن العلامة عبد الرحمن ابن خلدون لم يدون رحلته في كتاب مستقل، بل أوردها في القسم الذي ترجم فيه لنفسه وسماه "التعريف بابن خلدون"، وذكر فيه

---

[212] الحسن الشاهدي، أدب الرحلة المغربية في العصر المريني، ج01، المرجع السابق، ص 188.

[213] هو أبو زيد ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، ينحدر من أسرة أصلها من حضر موت، استقرت بالأندلس إثر الفتح الإسلامي، ولد بتونس عام 732هـ/1332م، اشتهر بتحصيل العلم والتنقل بين دروسه، توفي سنة 808هـ بالقاهرة. أنظر: عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ و الخبر، تحقيق: خليل شحادة وسهيل زكار، ج01، دار الفكر اللبنانية، سنة 1989م، بيروت، ص ص(03- 09).

[214] عبد علي الخفاف محمد أحمد عقلة المومني، دراسات في التراث العربي الإسلامي، دار الكندي للنشر والتوزيع، الأردن، سنة 1420هـ/2000م،ص63..

[215] المرجع نفسه، ص65.

رحلاته شرقا وغربا في الملحق الذي وضعه في آخر كتابه "العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر". على الرغم من أن هذا الكتاب لا يمثل مصنفا جغرافيا، بل هو ترجمة لسيرة حياته بقلمه بكل ما يحمله هذا اللفظ من معنى، وفيها يتعرض ابن خلدون لجميع تنقلاته والحوادث التي مرت به دون إظهار شخصيته في ضوء ملائم لها، مما يشهد له بالأمانة وشرف الضمير[216]. وعليه يمكن استجلاء الآراء الجغرافية لابن خلدون اعتمادا على الرحلة، بل من المؤلف التاريخي السالف الذكر (كتاب العبر).

والجدير بالذكر أن نهاية القرن الخامس عشر 15م/ 9 هـ شهد معجما جغرافيا، من تلك السلسلة من المعاجم الجغرافية التي بلغت أوجها في اسم ياقوت، ذلكم "الروض المعطار في خبر الأقطار" لعبد الله محمد بن عبد المنعم الحميري[217].الذي كشف عنه ونشره ليفي بروفنسال، ويتفق هذا المعجم مع معجم (البلدان) لياقوت الحموي أنه يحتوي على مجموعة التعليقات التي تتفاوت طولا وقصرا، وتعالج الكلام عن المدن والمواضع والجبال والأقطار، يرتبه وفق حروف المعجم، وقد يمثل في نفس الوقت رسالة في الجغرافية الوصفية، ومجموعة من العجائب، وتاريخها سياسيا لفترة معينة عن الزمان تكون خزانة أدبية من الشعر والنثر ورواياته عن المشرق العربي، لا تبلغ حجم مادته عن إفريقيا والمغرب والأندلس[218].

ومن الأسماء الذين بزغ نجمهم في محيط الجغرافية العربية في بلاد المغرب نذكر: ليون إفريقيا[219]من خلال مؤلفه:"وصف إفريقيا" الذي اعتمد في معظم مادته العلمية من مشاهداته

---

[216]كراتشكوفسكي، المصدر السابق، ص ص(440-441).

[217]هو عبد الله محمد بن عبد المنعم الحميري، توفي سنة 900هـ/1493م، تمتعت أسرته بنفوذ كبير في سبته. أنظر: المصدر نفسه، ص 457..

[218] المصدر نفسه، ص 459.

[219]هو الحسن بن محمد الوزان الفاسي، شخصية عربية إسلامية ، ينتسب إلى قبيلة بني زيات الزناتية، وقد اختلف المؤرخون في تاريخ ولادته ، فجعلها البعض سنة 901هـ، وبعضهم 906هـ، عاشت أسترته حقبا من الزمن في الفردوس المفقود، اشتهر بالرحلات ، فهو كاتب وشاعر، يجيد الرسائل، وينظم الشعر. توفي سنة: 957هـ. أنظر: الحسن الوزان، وصف إفريقية، ج01، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، سنة 1983، ص ص(05-08).

وخبراته الشخصية ، مع الاعتماد على بعض مصادر المؤلفين مثل: الرقيق القيرواني، وعبد الرحمن ابن خلدون، والبكري والشريف الإدريسي وابن فضل الله العمري وأمثالهم.

فاستفاد حسن الوزان من عمله الإداري، وصلته ببلاطي: الوطاسيين والسعديين في تحديد عباراته عند ما كتب عن القبائل المغربية، فأتى بإحصاءات شبه مدققة عن عدد المدن والقرى والتقسيمات السياسية في مختلف الجهات، وبمال الخراج الذي يدخل بيت المال، وكان كتابه ذو أهمية علمية وموضوعية، لأنه لم يتأثر بعاطفة قرابة أو دين أو وطن[220]. وينقسم هذا المصنف إلى تسعة أقسام. فالأول: يتناول الحديث عن إفريقيا بصورة عامة وعن سكانها من البدو والرحل، أما الثاني:فيصف نواحي مراكش ومدنها وجبالها، بينما أفرد الثالث لمدينة فاس، والرابع لمدينة تلمسان، والخامس لمدينة بجاية وتونس، والسادس لمدينة طرابلس، أما السابع فلدول السودان، والثامن لمصر، بينما يقدم التاسع وصفا موجزا للحيوانات والأسماك والطيور والنباتات والمعادن الموجودة بإفريقيا[221].

3- ضياع الرحلات:

ما وصل إليه البحث في مجال الرحلة لا يشكل إلا نسبة ضئيلة من عدد الرحلات، بسبب إحجام معظم الرحالين عن التدوين، فلم يسجلوا ما شاهدوه في تلك البلدان، ولم يقيدوا ما سمعوه من أخبار وعلوم وأسانيد عالية. بالإضافة إلى تعرض عدد كبير من المؤلفات والمصادر ومنها الرحلات للضياع والتلف، فكل مطلع على الحركة النشيطة والمستمرة للرحلات التي اتسم بها أهل هذا العصر من المغرب الإسلامي، يدرك بأن كثيرا من الرحلات مازال مفقودا، فكيف يعقل أن لا يدون العالم ما يمر به في رحلته من مشاهد وأخبار ولقاءات مع العلماء، وما يحصل عليه من

[220] الحسن الوزان، وصف إفريقية، ج01، المصدر السابق، ص ص (14-18)
-كراتشكوفسكي، المصدر السابق، ص ص (455-456).
[221] المصدر نفسه، ص 453.

أسانيد وإجازات رغم الحرص الشديد على السند العالي والأخذ عن الشيوخ، فيتحمل الرحالة من أجلها المشقة ويواجه الأخطار والمتاعب[222].

ويجدر بالذكر أن العلماء والكتاب والفقهاء كانوا يسلكون معظمهم ركب الحجاج، المحمل بالهدايا إلى ملوك الشرق والحرمين، ومنها المصحف الشريف الذي يتفنن في كتابته وترصيع غلافه بأنواع اليواقيت الجواهر[223]. كما أنه لا يمكن تقبل بالسهولة انعدام تسجيل نصوص ما كان يقوم به الملوك من أسفار وتحركات، فلا نجد رحلات رسمية يصف فيها أصحابها مواكبا للملوك بما عرفت من فخامة وروعة وجمالا، بتدوين الأخبار والموافق، وإذا وجدنا تدوين البعض لهذه الرحلات، فليس من المستبعد أن رحلات أخرى لم تصلنا. ويؤكد هذا أن كثيرا من العلماء الذين صاحبوا أبا الحسن المريني[224]، مثل: عبد الرحمن ابن خلدون الذي رافق موكب السلطان من تونس حتى نزوله بالجزائر وما دار بينه وبين أبي ثابت من حروب، ولحوقه بعد الهزيمة بالمغرب، مؤرخا لهذه الأحداث التاريخية، مسجلا ما وقع من مسامرات ومجالس علمية وأدبية[225]. خصوصا أن موكب أبي الحسن كان في حملته جماعة من فضلاء المغرب وأعيانه من أمثال: أبي عبد الله السليماني، ومحمد ابن سليمان السطحي، وأبي محمد عبد المهيمن الحضرمي، وأبي العباس أحمد الزواوي، وأبي عبد الله الآبلي، وأبي القاسم بن رضوان، وأبي عبد الله الصباغ.

وإذا حاولنا أن نناقش الافتراض الذي يذهب إلى أن المغاربة كان اهتمامهم بالتأليف ضعيفا، فإنه كان في بلاد المغرب من الفقهاء والأعلام الأجلة أعيان الأنام ما ليس في غيرها من بلدان الإسلام، إذ هي دار العلم والأدب، ولكن أهلها أهملوا ذكر محاسن علمائهم اغفلوا تخليد مفاخر

---

[222] الحسن الشاهدي، أدب الرحلة المغربية في العصر المريني، المرجع السابق، ج01، ص 53.

([223])أحمد بن خالد الناصري السلامي ، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، ج 3، ص83.

[224] هو أبو الحسن بن سعيد العبسي ابن مالك ابن المرحل ابن أبو بكر ابن عبد الله ابن الخطاب، حكم دولة بني مرين (731هـ – 749هـ). أنظر: محمد ابن مرزوق التلمساني، المسند الصحيح الحسن، تحقيق: ماريا جيسوس بيغيرا، تقديم: محمد بوعياد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، سنة 1984م، ص ص(106–108).

[225] عبد الرحمن ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج07، تحقيق: خليل شحادة وسهيل زكار، دار الفكر، بيروت، سنة 2000م، ص ص ،(158–159).

فقهائهم. فالاعتناء بالأخبار والوقائع والمسانيد كان ضعيفا جدا عند علماء بلاد المغرب، فغلب عليهم في باب العلم الاعتناء بالدراية دون الرواية، وفيها سوى ذلك لأهمية لهم[226].

وقد ساد اتجاه بين علماء بلاد المغرب الإسلامي يرى أن الاشتغال بتعليم الطلبة ، والأخذ عن الشيوخ، والتلقين يعتري الأهمية العظمى مقارنة بالتأليف الذي هو مضيعة للوقت بالنسبة لهم، فيذهب الآبلي: "إنما افسد العلم كثرة التأليف وأذهبه بنيان المدارس، وكان ينتصف من المؤلفين والبنائين ......، وذلك لأن التأليف هو نسخ الرحلة التي هي أصل جمع العلم، فكان الرجل ينفق فيها مالا كثيرا، وقد لا يحصل له من العلم إلا نزر يسير، لأن عنايته على قدر مشقته في طلبه، ثم يشتري أكبر ديوان بأبخس ثمن فلا يقع منه أكثر من موقع ما عوض عنه......، وقد أدى ذلك لذهاب العلم بهذه المدن المغربية التي هي بلاد العلم من قديم الزمان كفاس وتلمسان وبجاية، حتى صار الإقراء على كراسيها من لا يعرف فن الرسالة أصلا، فضلا على غيرها بل من لم يفتح كتابا بالقراءة، فصار ذلك ضحكة، وسبب ذلك أنها صارت بالثورات والرئاسات"[227].

وفي هذا الصدد قال المقري: "لقد استباح الناس النقل من المختصرات الغربية أربابها، ونسبوا ظاهر ما فيها لأمهاتها، وقد نبه عبد الحق، في التعقيب على منع ذلك. ولو كان ممن يسمع"[228]. وهذا الاقتناع بمصادر التأليف هو سبب عدم وجود كتب الآبلي، رغم أنه تخرج علي يده جماعة من العلماء ممن ذاع صيتهم في بلاد المغرب خاصة، بل في جميع بلدان العالم، كابن الصباغ المكناسي، والشريف التلمساني، والشريف الزرهوني، وابن مرزوق الجد، وأبي عثمان العقباني، وابن عرفة، والولي بن عباد، وابن خلدون في خلق أجلاء[229].

وهناك عامل آخر جعل التأليف في الرحلات خاصة قليلا، هو نظرتهم إلى ما يجب الاعتناء به من العلوم والتصانيف، كونها نافعة للأديان والأبدان، لذلك اعتبر علم الجغرافية وما له

---

[226] الحسن الشاهدي، أدب الرحلة المغربية في العصر المريني، ج01، المرجع السابق، ص 55.

[227]أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، المصدر السابق، ص419.

[228] المصدر نفسه،ص420.

[229]أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، المصدر السابق، ص 420.

صلة من وصف البلدان والمناطق لا فائدة منه[230]. يقول في هذا الصدد محمد ابن عبد المنعم الحميري، في مقدمة معجمه: "وبعد فإني قصدت في هذا المجموع ذكر المواضع المشهورة عند الناس من العربية والعجمية، والأصقاع التي تعلقت بها قصة، أو كان ذكرها فائدة، أو كلام فيه حكمة، أولها خبر طريق، أو معنى يستملح أو يستغرب ويحسن إيراده، أما ما كان غريبا عن الناس ولم يتعلق بذكره فائدة، ولا خبر له بحسن إيراده، فلم ألم بذكره، ولا أتعرض له غالبا استغناء عنه واشتغالا لذكره، ولو ذهبت إلى إيراد المواضيع والبقاع على الاستقصاء لطال الكتاب، وقل إمتاعه، فاقتصرت لذلك على المشهور من البقاع وما في ذكره فائدة ونكتفي عما سوى ذلك...، ومع هذا فقد لمت نفسي على التشاغل بهذا الوضع الصاد عن الاشتغال، بما لا يغني عن أمر الآخرة والمهم عن العلم المؤلف عند الله تعالى، وقلت هذا من شأن البطالين وشغل من لا يهمه وقته، ثم رأيت ذلك من قبيل ما فيه ترويح لهذه النفوس ومن حسن تعليلها بالمباح لمن ينشط إلى ما هي به غنى، ثم هو سبيل يسلكه الناس وأعني به طائفة من العلماء، وقيده جماعة من أهل التحصيل، فلا حرج بالإقتداء بهم، بل أقول : أعوذ بالله من علم لا ينفع وأستغفره وأستقبله وأسأله التجاوز عن الهفوات والصفح عن الاشتغال بما لا يفيد في الآخرة"[231].

ولا يخلو أن نلاحظ من خلال سياق عبارات المقدمة، كيف أن المؤلف حاول أن يبرر اشتغاله بالمسائل الجغرافية مستشهدا في ذلك بالآيات القرآنية، شأنه في ذلك شأن ياقوت الحموي تماماً[232].رغم أن هذا المصنف قد نال أهمية كبيرة لدى المؤلفين المتأخرين، ولو أنه يقف بالطبع عند حدود بلاد المغرب وحدها بالتقريب، فيمكن أنهم استعملوا مسودته الأولى، نذكر منهم المقري، ومقديش، وناصر السلامي، وكل هذا يقف بالطبع دليلا قاطعا على قيمة المادة العلمية التي جمعها الحميري.

---

[230] الحسن الشاهدي، أدب الرحلة المغربية في العصر المريني، ج01، المرجع السابق، ص 56.

[231] محمد بن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: ليفي بروفنسال، دار الفكر العربي، بيروت، ص ص (02-03).

[232] كراتشكوفسكي، المصدر السابق، ص (449-4500).

وبما أن الرحلة هي أقرب إلى الجغرافية في وصف البلدان والطرق والمجتمعات، فإن الرحالة لم يكن متحمسا للإفصاح عن كل ما آتى به وتدوينه في مصنف خاص بالرحلة، وما جمعه فيها من أخبار، وما توصل إليه من استنتاجات، إذا كان الجو العلمي الديني يقتضي أن يكون المؤلف والمصنف به إضافة جديدة في كل الميادين التي يهتم بها الحقل التعليمي الديني. وهكذا اتسم الرحالة بالتريث والتأني في إعلان ما يخص رحلته إلى آية جهة كانت، وإن كانت الرحلة العلمية لا تجعل صاحبها متردداً ومتريثا نظرا لكونها إضافة جديدة في الميادين العلمية المختلفة.

الفصل الثاني :

أشهر رحالة المغرب الإسلامي في القرن 7هـ.

- المبحث الأول: ابــن جــبيـــر.

-المبحث الثاني: ابن سعيد المغربي.

-المبحث الثالث: محمد العبدري.

لعلنا لا نستطيع حصر جميع الرحالة المغاربة من القرن 7 هـ إلى القرن 10 هـ، بسبب كثرة عددهم، ولازدهار الرحلة في هذه الفترة الزمنية، ولأن معظمهم لم يسجلوا تفاصيل رحلاتهم في كتب مستقلة يجعلنا نقتصر على ما اشتهر منها. وقد اخترنا في القرن 7هـ ثلاث شخصيات مشهورة ممن ذاع صيتها في أدب الرحلة، وحازت قصب السبق فيه، وتنوعت رحلاتها شرقا وغربا، وهي: ابن جبير وابن سعيد المغربي ومحمد العبدري، فتحدثنا عن رحلاتهم بشيء من التفصيل متطرقين لسيرهم الذاتية والأساتذة الذين تتلمذوا على يدهم ذاكرين أهم مؤلفاتهم العلمية.

المبحث الأول: ابن جبير (540 هـ-614 هـ):

يعد ابن جبير أعظم رحالة المغرب نهاية القرن 6 هـ وبداية القرن 7 هـ اللذين اهتموا بجغرافية البلدان المفتوحة، وما يجاورها من البلاد، وتأليفهم للكتب في الجغرافيا الوصفية بدافع حب الرحلة، وتدوين مشاهدات، وقد يتساءل البعض لماذا أدرجنا هذا الرحالة مع رواد رحلة المغرب الإسلامي من القرن 7 هـ، رغم أن حياته قضاها في القرن 6 هـ، فيكون الجواب لأننا اعتبرنا سنة الوفاة في تصنيف رحالة القرن 7 هـ.

1- ترجمته:

هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير بن سعيد بن جبير بن سعيد بن جبير بن محمد بن مروان بن عبد السلام بن مروان بن عبد السلام بن جبير الكناني[233].وهو من ولد ضمرة بن بكر بن عبد مناف بن كنانة. دخل جده عبد السلام ابن جبير الأندلس في طالعة بلج ابن بشر ابن عياط

---

[233] أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج02، المصدر السابق، ص ص (381-382).

-أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأنصار، تحقيق: عبد الله بن يحيى الشريجي، ج07، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات العربية، سنة 2003م، ص 311.

-لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج02، المصدر السابق، ص ص(230-233).

-ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، المصدر السابق، ج07، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، ج08، دار ابن كثير، بيروت، سنة 1996م،ص 111.

-جمال الدين الآتابكي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر القاهرة، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، ج06، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة 1992م/1413هـ، ص 190.

القشري في محرم سنة 123 هـ، وكان نزوله بكورة شذونة[234]. ونزل شاطبة[235].ولد الرحالة ابن جبير ليلة السبت عاشر ربيع الأول سنة 640 هـ ببلنسية[236].

كان أبوه أحمد من كتاب شاطبة ورؤساءها، وله منزلة اجتماعية مرموقة، وأراد هذا الأب أن يصوغ هذا الابن على مثاله، فرعاه رعاية تامة فكان هو أول أستاذ أخذ عنه العلم والشؤون المعرفية، ثم دفع به إلى الأساتذة المحترفين[237]. نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: أبا الحسن بن محمد بن أبي العيش الذي أخذ عنه القراءات، وأخذ العربية عن أبي الحجاج بن بيقا بن يسعون، وروى بسنده عن أبي عبد الله بن عيسى التميني السبتي، وأجاز له إبراهيم بن عبد الله الغساني التونسي.

ولما بلغ ابن جبير السنة التي يستطيع فيها أن ينفرد بحياته، ويطلع بأعبائها كان القدر يخبئ له الانتقال عن طريق الرحلة إلى حلقة ثقافية أوسع، وقد كفل له تردده إلى مصر والشام والعراق والحجاز لقاء عدد كبير من علماء هذه البلاد، ومن العلماء الوافدين عليها من أقطار العالم الإسلامي[238]: كأبي الحجاج يوسف ابن أحمد ابن علي ابن إبراهيم ابن محمد البغدادي، وأبو حفص عمر بن عبد المجيد بن عمر القرشي المبانجي نزيل مكة، والعالم الحافظ المتدبر في الفلك أبو الفرج، وصدر الدين أبو محمد عبد اللطيف الحجري رئيس الشافعية بأصبهان[239]. وبدمشق أبو

---

[234]شذونة مدينة بالأندلس تتصل نواحيها بمدينة موزور من أعمال الأندلس. أنظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج03، المصدر السابق، ص 328.

[235] شاطبة مدينة في شرق الأندلس وشرقي قرطبة، وهي مدينة أندلسية كبيرة وقديمة. أنظر: المصدر نفسه، ص ص (309-310).

[236] بلنسية كورة ومدينة مشهورة بالأندلس، متصلة بحوزة كورة تدمير، وهي شرقي تدمير وشرقي قرطبة، وهي برية بحرية ذات أشجار وأنهار، تعرف بمدينة التراب، وتتصل بها مدن تعد في جملتها. أنظر: ياقوت الحموي معجم البلدان،ج01، المصدر السابق، ص ص (390-391).

[237] علي محسن مال الله: "العراق في رحلة ابن جبير خاصة ورحلات العرب الأخرى"، مجلة الموارد، ج18، وزارة الثقافة والإعلام العراق، عدد 04، سنة 1989م، ص 59.

[238]إحسان عباس، دراسة في الرحالة ابن جبير الأندلسي البلنسي الكتاني وآثاره الشعرية والنثرية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط01، سنة 2001م، ص 14.

[239]أصبهان مدينة عظيمة مشهورة، طولها 86° درجة و عرضها 36° درجة، وهي مركب من "الأصب" البلد بلسان الفرس، و"هان" اسم الفارس. أنظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج01، المصدر السابق، ص ص (206-210).

الحسن أحمد ابن حمزة بن علي بن عبد الله بن عباس السلمي الجواري، وأبو سعيد عبد الله محمد بن أبي عسرون وغيرهم[240].

كان ابن جبير على جانب عظيم من المزايا الفاضلة، والخلق الرفيع، فوصفه لسان الدين بن الخطيب في قوله: "كان أديبا بارعا، شاعرا مجيدا، سنيا فاضلا، سري النفس، كريم الأخلاق، أنيق الطريقة في الخط، كتب بسبتة لأبي سعيد عثمان بن عبد المؤمن الذي كان واليا عن سبتة وطنجة سنة 549 هـ، وبغرناطة عن غيره من ذوي قرابة"[241].

وفي 11 شعبان سنة 570هـ زفت إليه في مدينة جييان[242]عائكة أم المجد ابنة الوزير الحسيب أبي جعفر أحمد بن عبد الرحمن الوقشي، فكان زواجا ناجحا لأنه وصل بين كفأين، ربط بينهما الاحترام المتبادل، ورعاية الحقوق، وقد تجسدت بركة هذا الزواج في حياة هادئة واعدة زادت من حمد ابن جبير لله تعالى على ما حباه من توفيق في ظل الحياة الزوجية السعيدة، ومحبة الاستقرار والهدوء والرضا بما كان[243]. وشكر ابن جبير الله -عز وجل- مسخرا نفسه في خدمة الناس، وقضاء حوائجهم، حتى بلغ به الحماس في إسداء المعروف والعمل الصالح حتى في أوقات النوم، إنها نفحة إنسانية خالصة تجاوزت الحدود لتضرب للإنسانية أمثالا رائعة، وعبرا قيمة، يقول المقري: " كان ابن جبير من أهل المروءات، عاشقا في قضاء الحوائج والسعي في حقوق الإخوان، والمبادرة لإيناس الغرباء، في ذلك يقول بن جبير:

يحب الناس بأني متعب   في الشفاعات وتكليف الدرى
والذي يتعبهم في ذاك لي   راحة في غيرها لن أفكر
وبودي لو أقضي العمر في   خدمة الطلب حتى الثرى[244].

---

[240] لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج02، المصدر السابق، ص ص (232-233).

[241] المصدر نفسه، ص 231.

[242] جييان مدينة لها كورة واسعة بالأندلس تتصل بكورة ألبيرا، مائلة عنها إلى ناحية الجوف في شرقي قرطبة، بينها وبين قرطبة 17 فرسخا، وهي كورة كبيرة تجمع قرى وبلدان كبيرة تتصل بكورة تدمير، وكورة طليطلة. أنظر:ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج02، المصدر السابق، ص ص (159-196).

[243] إحسان عباس، دراسة الرحالة ابن جبير وآثاره الشعرية والنثرية، المرجع السابق، ص 17.

[244] أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج02، المصدر السابق، ص 488.

2- مؤلفاته الشعرية والنثرية:

نشأ ابن جير في أول أمره كاتبا حسن الخط، قديرا على الترسل، وقد كان لهذه النشأة أثرها في طبيعة نثره شعره، وقد انصرف في نثره إلى الكتابة الديوانية، لدى ولاة الموحدين في غرناطة، وقد كفل له البقاء في هذه الوظيفة الإتقان الأسلوبي، واعتماده على السجع الذي لم يفرط فيه كثيرا، حيث وجد نفسه متحررا من قيود الدواوين، حيث كان يصوغ في رحلته عبارات حكمية بليغة[245].

كما أن نشأته في معالجة النثر جعلته يصوغ أقوالا وردت لديه منثورة، في شكل شعر منظوم، وقد يحس القارئ أن معظم مقاطعه المحولة من نثر إلى شعر ينقصها كثير من الوضوح. أما عن شعره فقد نشأ الرجل مداحا لولاة الموحدين، وقد استعمله وسيلة لكسب رزقه، ولكنه كف عن هذا كله، فتجدد شعره في التشوق إلى طيبة ومكة وغيرهما من الأماكن المقدسة، وأصبحت مشاعره مرتبطة، بمناظر الوداع واللقاء، والشوق إلى السفر أو العودة إلى شرق الأندلس، وهناك موضوع آخر توجه إليه الشاعر التقي الورع هو موضوع النصائح والحث على مكارم الأخلاق، وقد كان يرى أن الأدب التعليمي جزء لا يتجزأ من رسالته في الحياة، ويجدر بالذكر أن ابن جبير كان لا يمل من خدمة الناس، وتحقيق مصالحهم، وكان كثير التذمر من تغير الإخوان[246].

وأسرف ابن جبير في ذم الفلاسفة في مقطوعاته، وخص ابن رشد الحفيد الفيلسوف بقسط كبير منها، وهذا نابع من نظرته الدينية للفلسفة، وأنها تمثل مروقا عن الدين، وهو في هذا غير شاد عن أكثر علماء بلده، لأن معاداة الفلسفة اكتوى بنارها الفكر المشرقي والمغربي على حد السواء في العصور الوسطى. وقد أحصى لسان الدين الخطيب شعر ونثر ابن جبير نقلا عن ابن عبد المالك المراكشي صاحب كتاب "الذيل و التكملة" في ما يلي:

- ديوان الشعر، رأى منه المراكشي مجلدا متوسطا يكون بقدر ديوان أبي تمام الذي جمعه الصولي.

---

[245] إحسان عباس، دراسة الرحالة بن جبير وآثاره الشعرية والنثرية، المرجع السابق، ص ص (20-21).

[246] المرجع نفسه، ص ص (20-21).

- مرثية في زوجته أم المجد سماه: "نتيجة وجد الحوائج في تأبين القرين الصالح".
- خمس موشحات في رثاء زوجته أم المجد جعلها في آخر "نتيجة وجد الحوائج في تأبين القرين الصالح".
- "نظم الجمان في التشكي من إخوان الزمان" (247).
- كتاب الرحلة المعروف باسم "تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار" قام بنشره وطبعه المستشرق الإنجليزي ويليام رايت(WillamRight) في أول من سنة 1852م، ثم راجعه من بعده المستشرق الهولندي ديغويه (De Goeje) سنة 1907م في الجزء الخامس من سلسلة حب نصب التذكارية تحت عنوان:

(248)"Travels Of Ibn Jubayr E, W, GibfMem. series ,v 1907

هذه الرحلة تمثل أول رحلة قام بها بن جبير رفقة صديقه أبو جعفر ابن حسان(249)، مع أنه قام برحلتين بعد ذلك، ولم يكتب تجربتهما، ولعل سبب يرجع في ذلك أنه لم يغير كثيرا في الأمكنة التي زارها في الرحلة الأولى.

وتعد رحلة ابن جبير طليعة أدب جغرافي متميز بالمعنى الفني، وتتميز بأسلوب سهل جميل مع ميل إلى التفصيلات وخاصة في وصف العمران، وهذا ما يهمنا في موضوع بحثنا، واهتم المؤلف بتصوير المعالم البارزة في مصر و الشام و العراق وشبه الجزيرة العربية ومدن الأندلس(250).

وقد اعتبر أغناطيوس كراتشكوفسكي رحلة ابن جبير ذروة ما بلغه نمط الرحلة في الأدب العربي من الناحية الفنية، وإذا كان وصفه المفصل للأبنية مملا للقارئ العادي فإن أسلوبه يمتاز بكثير من الحيوية وسهولة التعبير...، أما عرضه العام فيستهدف الصنعة والأناقة. وهو كثيرا ما

---

(247) لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج02، المصدر السابق، ص 234.

(248) ابن جبير، رحلة ابن جبير، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة بيروت، د ط، د ت، ص 05.

(249) هو أبو جعفر أحمد ابن الحسن بن أحمد بن الحسن القضاعي، وأصله من أندرة من بلنسية، رحل مع بن جبير فأدى الفريضة وأجاز لهما أبو محمد بن أبو عمرون، وأبو محمد القاسم بن عساكر وغيرهم .كان أبو جعفر متحققا بعلم الطب وله فيه تقييد مفيد، مع المشاركة الكاملة في فنون العلم، توفي بمراكش سنة 598 هـ أو 599هـ ولم يبلغ الخمسين في سنه. أنظر: أحمد المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج02، المصدر السابق، ص 383.

(250) إحسان عباس، دراسة الرحالة ابن جبير وآثاره الشعرية والنثرية، المرجع السابق، ص ص (24-25).

يلجأ إلى السجع الذي يعالجه بكثير من المهارة دون أن يبالغ فيه، أو يضر القارئ إلى تكلف الجهد في تفهمه...، ويعد بهذا مصنف رفيع الأسلوب يختم بجدارة حلقة الجغرافيين الأندلسيين لهذا العصر[251].

وصنف الأستاذ حسين مؤنس رحلة بن جبير مقاما متميزا في أدب الرحلات لأنه كان دقيق الملاحظة في كل ما يتصل بالمظاهر الجغرافية من عرض وبحار ورؤوس وأنهار ورياح وأمطار وشروق وغروب وفصول السنة، وأجناس الناس وألسنهم وصناعاتهم وزراعاتهم ومتاعهم وما إلى ذلك. يقول حسين مؤنس: "وإذا كانت الرحلات للمشاهدة والملاحظة والدراسة تعبير من عمد العلم الجغرافي، فإن ابن جبير يحتل عن جدارة مكانا صدرا في تاريخ الجغرافيا في الأندلس على هذا الأساس لم تكن مادة جغرافية صرفة، بل إن التاريخ والآثار هما الغالبان عليها"[252].ويضيف أيضا: " أن تقييد الرجل لخطوات رحلته وتسجيله لأحداثها يدل على أنه كان يشعر أنها أمر هام جدير بأن يسجل ويوصف، وأنها ليست نزهة يقوم بها. وفرض يؤديه لأنه واجب فحسب...، وهذا هو الذي جعل لهذه الرحلة تلك القيمة العلمية والأدبية الكبرى"[253].

وقد أصبحت رحلة ابن جبير مصدرا هاما لما جاء بعده من الرحالين وغيرهم، و لعل أول من استفاد بها هو الشريشي أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن تلميذ الرحالة ابن جبير، إذ اقتبس منها نصوص كثيرة في شرحه لمقامات الحريري، وفي العصر الحديث ترجمها شيكياباريلي SchiaBarelli إلى اللغة الإيطالية ترجمة جيدة، كما ترجمة إلى الإسبانية وكتب عنها مترجمها دراسة في مقدمة كل ترجمة[254].

3- رحلاته:

أ- الرحلة الأولى: غادر ابن جبير غرناطة وهو ما يزال في ريعان الشباب لأداء فريضة الحج برفقة أحد الأطباء هو أبو جعفر بن حسان، واستغرقت هذه الرحلة من فبراير 1183 م الموافق

[251]أغناطيوس كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، المصدر السابق، ص 301.

[252]حسن مؤنس، تاريخ الجغرافيا و الجغرافيين في الأندلس، المرجع السابق، ص 438.

[253] المرجع نفسه، ص 438.

[254] إحسان عباس، دراسة الرحالة ابن جبير وآثاره الشعرية والنثرية، المرجع السابق، ص 27.

لـ 8 شوال 578 هـ إلى غاية أبريل سنة 1185 م الموافق لـ محرم سنة 581 هـ، وهي أكثر من عامين وثلاثة أشهر بحسابه[255]. وقد حملت هذه الرحلة عناوين مختلفة مثل: "كتاب اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك"، وعنوان: "تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار"، والعنوان الثالث: "رحلة ابن جبير".

أما عن سبب رحلته فمصدرها أحمد المقري وملخصها أن الأمير الموحدين أبا سعيد بن عبد المؤمن استدعى الشيخ ابن جبير ليكتب عنه كتابا وهو في حالة سكر، فأراد أن يمازح ابن جبير فمد له يده بكأس من النبيذ، فاعتذر عن قبولها وأبى، وعز على هذا الأمير أن ترد دعوته فأقسم على ابن جبير أن يشرب منها سبعا، فخاف الرحالة وشربها اتقاء لما هو أسوء، فملأ له الأمير الكأس بدنانير سبع مرات، وصب ذلك في حجره، فأزمع ابن جبير أن يجعل كفارة شربه الخمر الحج بتلك الدنانير[256].

فبدأ رحلته من غرناطة حيث أقلع في شهر شوال سنة 578 هـ، فمر عل مجموعة من الجزر في البحر الأبيض المتوسط (ميورقة، منورقة، سردانية[257]، صقلية[258]وأقريطش[259])، ثم نزل بالإسكندرية واستغرقت الرحلة ثلاثين يوما، وصف فيها عواصف البحر التي تهب بشكل متقطع، وما تعرض له المركب من الأهوال والمخاطر.

---

(255) فلاح شاكر أسود: "ابن جبير في رحلته قراءة في الجوانب الجغرافية للرحلة"، مجلة الموارد، مجلة تراثية المحكمة، ج18، العدد 04، سنة 1989م /1410 هـ، ص 72.

(256)أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج02، المصدر السابق، ص ص (385-386).

(257)سردانية هي جزيرة في بحر المغرب كبيرة ليس هناك بعد الأندلس وصقلية وإقريطش أكبر منها، فتحها المسلمون سنة 92 هـ بجيش موسى بن نصير.أنظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج03، المصدر السابق، ص 209.

(258)صقلية هي جزيرة من جزر بحر المغرب وهي مقابلة لأفريقيا، وهي مثلثة الشكل من كل زاوية والأخرى بمسيرة سبعة أيام، وهي مقابلة لمدينة رييو وبين صقلية وبحر أفريقيا 140 ميلا. أنظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج03، المصدر السابق، ص ص (416-419).

(259)أقريطش هي جزيرة في بحر المغرب يقابلها من بر أفريقيا لوبيا، وهي جزيرة كبيرة فيها مدن وقرى فتحهاابن أبي أمية الأسدي بعد فتحه جزيرة أوراد سنة 54 هـ أيام معاوية بن أبي سفيان. أنظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج01، المصدر السابق، ص 236.

ثم رحل ابن جبير من الإسكندرية يوم الأحد 08 ذي الحجة إلى القاهرة حيث نزل بفندق أبي الثناء بزقاق القناديل قرب جامع عمر بن العاص[260]، ثم غادر القاهرة عبر نهر النيل إلى قوص[261]، فعبر مدن الصعيد دون أن ينزل بأحدها، ما عدا المدن التي توقف المركب عندها بأمر من السلطات المحلية. ثم تجمع الحجاج والتجار في منطقة واسعة تسمى المبرز تحيط بها أشجار النخيل، فاستبدلوا وسيلة النقل المائية بوسيلة النقل البرية وهي الجمال، فوزنوا حاجياتهم وتهيئوا لقطع الصحراء بين قوص وعيذاب[262] وهي صحراء قاحلة.

ووصل ابن جبير عيذاب ليعبر البحر الأحمر منها إلى جدة، فاكترى مكانا في إحدى السفن المخصصة لنقل الحجاج، واستغرق في العبور 8 أيام بسبب أهوال الرياح والسحاب رغم قدرة رواد البحر وخبرتهم الدقيقة لمعرفة المسالك والطرق[263].ثم فصل من جدة[264]، يوم 11 ربيع الثاني سنة 579هـ، قاصدا مكة المكرمة فوصلها بعد ثلاثة أيام، ودخلها من باب العمرة وطاف بالكعبة طواف القدوم، وأقام بها ثلاثة أشهر وثلث الشهر، حيث دخلها يوم 13 عشر ربيع الثاني سنة 579 هـ، ورحل عنها في 22 ذي الحجة 579هـ، وعاد مع قافلة الأمير العراقي من مكة بطريق صحراء البادية إلى بغداد، وقد مرت القافلة من واد بطن ثم عسفان[265]، ثم خليص ثم شعب علي حتى المدينة المنورة ومنها إلى الكوفة والحلة وبغداد، بعد أن مرت القافلة ضمن طريق واضح متبعة موارد المياه الجوفية[266].ومن بغداد سلك الطريق الموازي لنهر دجلة إلى

---

[260]ابن جبير، رحلة بن جبير، المصدر السابق، ص 07.

[261]قوص مدينة كبيرة عظيمة، واسعة خصبة بصعيد مصر، بينها وبين الفسطاط 12 يوما، وطولها 25° و30'، وعرضها 24° و30'. أنظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج04، المصدر السابق، ص 314.

[262]عيذاب بلدة على ضفة بحر القازمي، وهي مرسى المراكب التي تقدم من المدن إلى الصعيد. أنظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج04، المصدر السابق، ص 171.

[263]ابن جبير، رحلة ابن جبير، المصدر السابق، ص ص (9-10).

[264]جدة هي بلد على ساحل اليمن، و هي قريبة من مكة بينها وبين مكة ثلاثة ليالي، طولها 64° و30'، عرضها 11° و45'. أنظر: ياقوت الحموي، ج02، المصدر السابق، ص 114.

[265]عسفان سميت بهذا الاسم لتعسف السير فيها، وهي منهلة من مناهي الطريق بين الحجنة ومكة. أنظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج04، المصدر السابق، ص 221.

[266]فلاح شاكر أسود: "ابن جبير في رحلته قراءة في الجوانب الجغرافية للرحلة"، المرجع السابق، ص 74.

سمراء وتكريت والموصل، ثم مدينة رأس العين وحراث ومنبع وحلب وحماة وحمص ودمشق وعكا وصور، ثم عاد إلى عكة حيث أخذ مركبا عبر البحر المتوسط إلى بر الأندلس، ثم إلى غرناطة موطنه الذي خرج منه. (الشكل 01).

ب- الرحلة الثانية: بدأها من غرناطة سنة 558 هـ-1189 م، عندما شاع الخبر البهيج لفتح بيت المقدس[267] سنة 583هـ من طرف السلطان صلاح الدين الأيوبي[268]، مقررا مرة أخرى الذهاب إلى الشرق من أجل أن يشاهد المناطق الإسلامية بعد أن تم تحريرها من قبضة الغزاة الصليبيين، وعاد إلى بلاده سنة 587 هـ - 1191 م[269].

ج-الرحلة الثالثة: أما الرحلة الثالثة فيختلف الباحثون في دوافعها، فالبعض يرى أنه لما توفيت زوجته عاتكة أم المجد بنت الوزير أبو الجعفر الوقشي، وكان يحبها حبا شديدا، ولا أدل على ذلك أنه نظم ديوانا من الشعر في رثائها، فأراد تغيير المكان أن يجد راحته، فرح رحلته الثالثة في سنة 601 هـ-1204 م، واستغرقت 10 أعوام متنقلا بين مكة وبيت المقدس والقاهرة، مشتغلا بالتدريس والأدب. حتى توفي بالإسكندرية سنة 614 هـ-1217 م. وهذا ما جعل بعض الباحثين يعتقدون أنه لم يقم برحلته الثالثة من أجل حزنه على زوجته، وإنما من أجل حب البحث والمعرفة[270].

[267] بيت المقدس أي البيت المقدس المطهر الذي يتطهر من الذنوب، وهي الأرض المقدسة المباركة بفلسطين. أنظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج01، ص ص (166-173).

[268] هو السلطان صلاح الدين يوسف بن الأمير نجم الدين أيوب بن شادي بن مروان، حكم مصر من سنة 567هـ حتى 586 هـ. أنظر: جمال الدين الآتابكي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر القاهرة، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، ج06، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1992م، ص ص (03-08).

[269] محمد مؤنس عوض، الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، المرجع السابق، ص 284.

[270] محمد مؤنس عوض، الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، المرجع السابق، ص 284.

المبحث الثاني: ابن سعيد المغربي: (610هـ -685 هـ):

ينحدر ابن سعيد المغربي من أسرة لعبة دورا مرموقا في تاريخ الأندلس الثقافي والسياسي، وخاصة في عهد الموحدين، وهي أسرة ارتبطت بتاريخ الكفاح الإسلامي المبكر ضد مشركي قريش عندما اضطهدوا النبي (ص) وأصحابه قبل الهجرة، ونسب هذه الأسرة ينتهي إلى الصحابي الشريف عمار ابن ياسر الذي احتمل هو ووالداه حر الهجر في مكة تحت سياط القرشيين حتى استحقوا قول الرسول (ص):"صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة"، كما خلف مقتله جدلا عنيفا بين أنصار علي كرم الله وجهه، وأتباع معاوية بن أبي سفيان حول تفسير العبارة المنسوبة للنبي (ص):"تقتلك الفئة الباغية"، وقد قدم أحد أحفاده هو عبد الله بن سعد بن عمار، وحل بالقلعة التي ستعرف بقلعة "بني سعيد".[271]

1- ترجمته:

هو علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد بن خلف بن سعيد بن محمد بن عبد الله بن سعد بن عمار بن ياسر بن كنانة بن قيس بن الحسين العنسي المدلجي[272]. من أهل قلعة يحصب، غرناطي قلعي يكنى بأبي الحسن، وهي كنية تطلق على كل من يسمى عليا. كان مولده ليلة عيد الفطر سنة عشر وستمائة 610 هـ بغرناطة، حيث تولى محمد بن عبد الملك بن سعيد والد موسى أعمال غرناطة نحو 20 سنة من مولد علي، وأن أخاه أبا جعفر أحمد بن عبد الملك خلفه في منصبه حيث استوزره عثمان بن عبد المؤمن صاحب غرناطة، وأن ابنه موسى بقي مع عمه أحمد قائما لبعض أعمال الكتابة.

---

(271) قلعة بني سعيد هي عبارة عن إقطاعية كبيرة في ريف غرناطة تتكون من القلعة السعيدية أكبر حصن بها، ومن حصني القبذاقي والمقبين، وتعرف أيضا بقلعة يحصد. أنظر: علي بن موسى بن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، ج02، تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، سنة 1953م، ص 160.

(272) المصدر نفسه، ص 172.

-أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج02، المصدر السابق، ص ص (262-289).

-الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، ج02، دار الفكر بيروت، ط02، سنة 1997م، ص 209.

قضى ابن سعيد سنوات طفولته الأولى بغرناطة، حتى اصطحبه والده معه إلى إشبيلية التي كانت تعتبر مركز الثقافة الأعظم بالأندلس في تلك الفترة، وفيها تلقى ابن سعيد علومه على يد مجموعة من علماء الأدب والنحو من أمثال: ابن علي الشلوبين النحوي، ابن يحيى بن هشام الكاتب، والأعلم البطليوسي وابن الحسن الدباج مقرئ الأدب، وإمام جامع العدبس.[273]

كما تعود ابن سعيد منذ صغره على مخالطة رجال العلم والأدب في ظل والده الذي تعود معه على الرحلات، فقام برحلة إلى مراكش[274] ضمن حاشية الملك الموحي العادل[275]، الذي خدمه والده، ففي سنة 624 هـ اضطر العادل للذهاب إلى مراكش بسبب امتناع كثير من المدن الأندلسية من مبايعته، وقد صحبه رهط من علماء الأندلس وشعرائها المقربين ومن بينهم موسى والد بن سعيد، وأبو المعالي أحمد القجاطي من رجالات جيان، وابن حسن الإشبيلي، وأبو عمار بن الحكم القبطلي. وقد أتاحت له هذه الرحلة الملكية الاجتماع بعدد كبير من الشخصيات الأندلسية والمغربية، ومشاهدة حاضرة الدولة الموحدية والتعرف على بيئة المغرب التي تختلف عن عدة أوجه عن الأندلس. وقد مكث موسى وابنه في المغرب مدة من الزمن تقارب السنتين لجمع المادة التاريخية الشعرية الخاصة بمراكش لكتاب المغرب، رغم أنه كتب رسالة التهنئة وهو بمراكش إلى أبي العلاء إدريس المأمون[276]الذي أخذ البيعة لنفسه بإشبيلية، عرفانا بالعلاقة التي تربطه به قبل توليه الخلافة.

---

[273]محمد الأنصاري، ابن سعيد المغربي حياته وآثاره، أطروحة ماجيستير، الدائرة العربية بالجامعة الأمريكية، بيروت، ماي 1977، ص 66.

[274]مراكش حاضرة بلاد المغرب ودار مملكتها، وهي مدينة عظيمة في بسط الأرض، أسسها يوسف بن أبي تاشفين سنة 459 هـ، واختط سورها ولده علي سنة 514 هـ. أنظر: العباس بن إبراهيم السمالي، الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، ج01، المطبعة الملكية، الرباط، ط02، سنة 1997م، ص ص (57-60).

[275]عبد الله العادل بن يعقوب المنصور الموحدي، بويع بمرسية سنة 621 هـ، وتلقب بالعادل في أحكام الله، ثم بايعه كافة الموحدين، مات مخنوقا من طرف الموحدين الذين بايعوا أخاه إدريس المأمون سنة 642 هـ. أنظر: العباس بن إبراهيم السمالي، الإعلام بمن حل بمراكش و أغمات من الأعلام، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، ج02، المطبعة الملكية، الرباط، ط02، سنة 1997م،ص ص (216-218).

[276]هو إدريس بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي الملقب بالمأمون، مأمون الموحدين، بويع بإشبيلية سنة 624 هـ، وبايعه أهل الأندلس و الموحدون، كان فصيح اللسان، فقيها حافظا للحديث وضابطا للرواية، عارفا بالقراءة، حسن الصوت والتلاوة، مقدما

ولما تولى والده موسى إمرة الجزيرة الخضراء – من أعمال مملكة إشبيلية– بحسن وساطة الوزير أفلح اللخمي، كانت فرصة لابن سعيد أن يعود فيها لدرسه ولهوه معا، فقد ناب عن أبيه فترة في أعمال الجزيرة، ومازج الأدباء، ودون كثيرا من نظمه مما يدل على نضجه وحسن تحمله للمسؤولية في تلك السن المبكرة، وهي سن الحادية والعشرين[(277)].

وفي الفترة الحرجة من تاريخ الأندلس، وخاصة لما بدأت مدنها وقواعدها تسقط واحدة تلوى الأخرى في قبضة الإسبان، وعلى رأسها مدينة قرطبة سنة 633 هـ، أدرك موسى وولده ابن سعيد أن الأندلس لم تعد بالمكان الصالح للإقامة. فشدا الرحال لتونس مرورا بالمدن الأندلسية الواقعة في الطريق بين إشبيلية والساحل الجنوبي الشرقي من الأندلس[(278)]. ولعل من بين أسباب اختيار تونس ملجآ أولا لهما في ظل الإمارة الحفصية التي استطاعت أن تظهر بمظهر الإمارة القوية المستقرة المشجعة للعلم والمعرفة، وتجدر الإشارة إلى أن أغلب رجال العلم الأندلسيين اتجهوا نحو تونس بعد النكبة، وكان هذا السبب هاما لانجذاب ابن سعيد ووالده نحوها. ناهيك أن أحد بني سعيد كان قائدا بارزا في الدولة الناشئة، وهو أبو عبد الله بن الحسين، ثم دخل في خدمة أميرها الحفصي أبي زكرياء، وفي هذه الفترة تولى ابن سعيد قراءة المظالم للأمير الحفصي بفضل وساطة ابن عمه أبي عبد الله بن الحسين بن سعيد، قائد الأمير الذي سرعان ما انقلب عليه، وأخذ يسعى ضده حتى نجح في تأخيره عن وظيفته[(279)].

يقول ابن سعيد:" وكان السبب في التغيير بيني وبين ابن عمي الرئيس المذكور، أن ملك أفريقية استوزر لأشغال الموحدين أبا العلاء إدريس بن علي بن أبي العلاء بن جامع، فاشتمل علي، وأولاني من البر ما قيدني، وأمال قلبي إليه، مع تأكيد ما بينه وبين ابن عمي من الصحبة، فلم يزل ينهض بي، ويرفع أمداحي للملك، ويوصل إليه رسائلي، منبها على ذلك مرشحا، إلى أن

في اللغة و الآداب، كاتبا بليغا حسن التوقيع، توفي سنة 630 هـ. أنظر: العباس بن إبراهيم السملالي، الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام، ج02، المصدر السابق، ص ص (05-12).

(277) أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج02، المصدر السابق، ص271.

(278) علي بن موسى ابن سعيد المغربي ، المغرب في حلى المغرب، ج02، المصدر السابق، ص 171.

(279) أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج02، المصدر السابق، ص277.

قبض الملك على كاتب عسكره، وكان يقرأ بين يديه كتب المظالم، فاحتيج إلى من يخلفه في ذلك، فنبه الوزير علي، وارتهن في مع أنني كنت من كتاب المملكة، فقلدني قراءة المظالم المذكورة، وسفر لي الوزير عنده في دار المؤخر، فأنعم بها، فوجد الوشاة مكانا متسعا للقول، فقالوا وزوروا من الأقاويل ما مال بها حيث مالوا وظهر منه مخايل التغيير، فجعلت أداريه واستعطفه، فلم ينفع فيه قليل ولا كثير، إلى أن ساع في تأخير والدي عن الكتب للأمير الأسعد أبي يحيى ابن ملك أفريقية، ثم سعى في تأخيري، فأخرت عن الكتابة وعن قراءة المظالم..."[280].

وفي هذه الفترة التي قضاها ابن سعيد في تونس جمع المادة العلمية التي استفاد منها في تصنيف كتابه "القدح المعلى" حيث اجتمع بابن الأبار[281] الذي يعتبر كبار مصنفي القرن السابع هجري في المغرب، ولعل ابن سعيد اغتنم فرصة عدم لقاءه بابن الأبار في الأندلس، فقد كان يعتمد عليه في بعض الروايات الهامة في المغرب، ويوردها باعتبارها روايات شفوية لا نقولا من الكتب، بما يدل على أنه استقاها مباشرة أثناء تلك الجلسات[282].

ومن الشخصيات العلمية التي صاحبها ابن سعيد المغربي في هذه الفترة، الكاتب الأديب أبي العباس أحمد ابن إبراهيم الغساني، الذي كان يتولى الكتابة للأمير الحفصي أبي زكرياء الذي وصفه ابن سعيد المغربي بأنه "لسان الدولة العلية، وكاتب سرها، والمعول عليه في شعرها ونثرها".

---

(280)المصدر نفسه، ص ص(277-278).

(281)هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي، البلنسي، هو حافظ متفنن، له في الحديث تصانيف، وله كتاب في متخير الأشعار سماه " قطع الرياض"، و"تكملة الصلة" لابن بشكوال، و"هدية المعترف في المؤلف والمختلف"، وكتاب التاريخ الذي بسببه قتله صاحب أفريقية، وله كتاب "تحفة القادم من شعراء الأندلس"، و"الحلة السيراء في أشعار الأمراء"، توفي سنة 658 هـ رميا بالرماح. أنظر: أحمد المقري التلمسانى، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج02، المصدر السابق، ص ص (589-592).

- علي بن موسى ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، ج02، المصدر السابق، ص 309.

- أبو العباس أحمد الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق: عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط01،سنة 1979م ، ص ص (309-313).

(282)محمد الأنصاري، ابن سعيد المغربي، حياته و آثاره، المرجع السابق، ص ص (73-74).

2 – أساتذته:

كان ابن سعيد يميل شخصيا إلى صفة الأديب الرواية، وقد ساهم جو أسرته في تكوين شخصيته العلمية، وتوسيع حدود علمه حتى نبغ بالإضافة إلى الأدب في الجغرافيا والتاريخ، ومن بين الأساتذة الذين تتلمذ عليهم نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر:

أ– أبو علي عمر بن محمد الشلوبين (563هـ–645 هـ): هو عمر بن محمد بن عبد الله الأستاذ أبو علي الإشبيلي الأزدي المعروف بالشلوبين[283]، كان إمام العربية في عصره بدون بلا مدافع، آخر أئمة هذا الشأن بالمشرق والمغرب، ذا معرفة بنقد الشعر وغيره، بارعا في التعليم، ناصحا، أبقى الله به ما بأيدي أهل المغرب من العربية لازم أبا بكر محمد بن خضر بن صاف حتى أحكم الفن، وأخذ عن ابن ملكون وغيره، وقرأ حوالي ستين سنة، وعلى صيته، واشتهر ذكره، وبرع من طلبته جملة.

صنف تعليقا عن كتاب سيبويه، وشرحين على الجزولية، وله كتاب في النحو سماه "التوطئة"، وكتاب سماه "القوانين"، مولده كان سنة 562 هـ. ومات في العشر الأخير من سفر سنة 645هـ.

ب– أبو الحسن علي بن جابر الدباج الإشبيلي (566 هـ–646 هـ): هو العلامة أبو الحسن علي بن جابر الدباج[284]، النحوي، المقرئ، شيخ الأندلس، أخذ القراءات عن أبي بكر بن صاف، والعربية عن أبي ركب الخشني، وساد عصره في العربية، فكان إلى جانب منزلته العالية في الأدب أمتن الناس دينا، حتى أن أهل إشبيلية جعلوه إماما لجامع العدبس، الذي كان مركزا مهما من مراكز الثقافة فيها في ذلك الوقت، وقد كان للدباج فضلا في توجيه ابن سعيد نحو الاهتمام

---

(283)الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، ج02، المصدر السابق، ص ص (224- 225).

–ابن فرحون، الديباج المذهب، ج02، المصدر السابق، ص ص(78–79).

–جمال الدين الآتابكي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر القاهرة، ج06، المصدر السابق، ص 317.

–ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، ج07، دار ابن كثير، بيروت، ص 403.

(284)ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج07، ص 407.

بتذوق الشعر، أثناء دراسته لمصنفات الأدب.ولد سنة ست وستين وخمسمائة 566 هـ، توفي بإشبيلية بعد أن أخذ الروم الملاعين لها في شعبان بعد جمعة، فإنه هاله نطق الناقوس وخرس الآذان، فمازال يتلهف ويتأسف ويضطرب إلى أن قضى نحبه.

ج- أبو الحسن علي- ابن عصفور - (597 هـ-669 هـ): هو الشيخ الفقيه، الأستاذ النحوي التاريخين المحصل الجليل، الفاضل أبو الحسن علي بن مؤمن بن محمد بن علي الحضرمي الإشبيلي، عرف بان عصفور[285]، شهير الذكر، رفيع القدر، من أهل إشبيلية، حامل لواء اللغة العربية بالأندلس، أخذ عن الأستاذ أبي الحسن الدباج، ثم عن الأستاذ أبي علي الشلوبين، وتصدى للاشتغال مدة ولازم الشلوبين عشر سنين، إلى أن ختم عليه كتاب سبويه، وكان اصبر الناس عن المطالعة، لا يمل من ذلك. فحصل على ما لم يحصل غيره وكل من قرأ على أبي علي الشلوبين نجب، وأجلهم رجلان، الأستاذ: أبو الحسن هذا، والأستاذ: أبو الحسن أبي الربيع، وأجل الأستاذين، الأستاذ: أبو الحسن بن عصفور، وما أعتقد في المتأخرين من الأسانيد أجل منه، جمع رحمه الله بين الحفظ والإتقان، والتصور وفصاحة اللسان. هو حافظ متصور لما حفظ، قادر على التعبير عن محفوظه... و قل أن يجمع مثل هذا إلا الآحاد.

وتأليف أبي الحسن رحمه الله في اللغة العربية من أحسن التصانيف، ومن أجل الموضوعات والتأليف، له كتاب "المقرب" وهو كتاب بارع والشروحات عليه وعلى الجمل، وله على "الإيضاح"، وله شرح أبيات الإيضاح و لم يسبقه أحد بمثله. وقد شرح جزء من كتاب الله العزيز، وسلك فيه مسلكا لم يسبق إليه أحد من الإيراد والإصدار، لما يتعلق بالألفاظ، ثم بالمعاني ثم بإيرادالأسئلة الأدبية على أنحاء المستحسنة، وصنف الممتع في التصريف، شرح الجزولية، ومختصر

---

(285)أحمد الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من علماء المائة السابعة في بجاية، المصدر السابق، ص ص (317-319).

-الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ج02، المصدر السابق، ص 210.

-ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج07، ص ص (575-576).

-صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط01، سنة 2000م، ص ص (109-111).

المحتسب، وثلاث شروح على الجمل، شرح الأشعار الستة، وغير ذلك[286]. ولد سنة سبع وتسعين وخمسمائة (597 هـ) بإشبيلية، وتوفي سنة تسع وستين وستمائة (669 هـ) بتونس.

د- الأعلم البطليوسي ت 669 هـ: هو إبراهيم بن قاسم أبو إسحاق البطليوسي النحوي[287]، ويعرف بالأعلم، وليس بالأعلم المشهور، فذلك اسمه يوسف، أديب شاعر، أخد النحو عن الأستاذ هديل وبرع فيه، قرأ عليه أبو الحسن علي بن سعيد.

صنف تصانيف كثيرة منها: "الجمع بين الصحاح" للجوهري، و"الغريب المصنف تاريخ بطليوس"، وكان صعب الخلق، يطير الذباب فيغضب، وأما من تبسم من أدى حركاته فلا بد أن يضرب. توفي سنة اثنتين، وقيل ست وأربعين و ستمائة 642هـ أو 646هـ. ومن شعره:

يا حمص لازالت دار   لكل بؤس وساحة

ما فيك موضع راحة   إلا وما فيه راحــة.

3- مؤلفاته:

اعتمد ابن سعيد في تأليفه منهجا علميا يقوم على الوصف الأدبي المطعم بإشارات جغرافية، وما يندرج تحت أدب الرحلة، ما يعتبر تصنيفا علميا في نطاق الجغرافيا الخالصة، ومن مؤلفاته نذكر:

أ- المشرق في حلى المشرق والمغرب في حلى المغرب: هناك سبب لاعتبار السفرين كتابا واحدا، لأنهما يقومان على المنهج ذاته، ويهدفان نحو تحقيق غرض واحد، ويكملان بعضهما البعض في مجال تقديم موسوعي شامل للعالم الإسلامي مغربه ومشرقه[288].

ب- عنوان المرقصات والمطربات: جعله ابن سعيد المغربي مقدمة لكتاب " المشرق في حلى المشرق، والمغرب في حلى المغرب"، لما كثر الطلب على هذين السفرين، وأخد الناس يستعجلون في شأنهما[289].

---

(286) الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ج02، المصدر السابق، ص 210.

(287) الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ج01، المصدر السابق، ص 338.

-إسماعيل البغدادي، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج01، المصدر السابق، ص 11.

(288) محمد الأنصاري، ابن سعيد المغربي، حياته وآثاره، المرجع السابق، ص ص (136-137).

جـ- رايات المبرزين وغايات المميزين: يحتوي هذا الكتاب على مجموعة من أشعار أهل المغرب بطلب من الأمير موسى بن يغمور، وقسم الكتاب تقسيما مكانيا حسب الأقاليم، وزمانيا حسب القرون، واجتماعيا حسب المكانة الاجتماعية، إلا أنه تصنيف اقتصر على القرون الثلاثة السابقة لزمانه، وقد انتهى من هذا الكتاب سنة 641هـ أثناء إقامته بمصر، وهو شامل لثلاثمائة وأربعة عشر نموذجا من الشعر[290].

د- المقتطف من أزهار الطرف: أعلب مادة هذا الكتاب من "المرقص" و"الرايات"، وهو يشتمل أحاديث نبوية شريفة وحكم ورسائل وحكايات وأشعرا، وموشحات وأزجالا، والكتاب مقسم بحسب الموضوع، لا بحسب منهج ابن سعيد السابق، ومما لاشك فيه أن هذه المادة المجتمعة لديه جزء مما جمعه في تنقيبه وبحثه لكتابي "المغرب والمشرق"[291].

هـ- القدح المعلى في التاريخ المحلى: حاول ابن سعيد المغربي من خلال هذا الكتاب تصنيف موسوعة تاريخية أدبية، تتناول تاريخ الأمم والرجال من العصر الجاهلي حتى القرن السابع هجري. يتكون هذا الكتاب من قسمين: قسم يتحدث عن تاريخ الأمم الأعجمية، يمكن أن يكون "لذة الأحلام في تاريخ الأعجام"[292]. والقسم الثاني: هو الأعظم من كتاب "القدح المعلى" ويشتمل على كتابين، "كتاب نشوء الطرب في تاريخ جاهلية العرب"، و"كتاب مصابيح الظلام في تاريخ ملة الإسلام".

و- الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة: هو كتاب تراجم الشعراء والأدباء والعلماء من المشرق والمغرب الذين شهدوا القرن السابع هجري، وقد انتهى ابن سعيد من مصنفه هذا عهد إقامته في تونس سنة 657هـ[293].

---

[289] المرجعنفسه، ص 147.

[290] المرجع نفسه، ص 149.

[291] المرجع نفسه، ص151.

[292] علي بن موسى ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، تحقيق: ولد السالم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 2013، ص04.

[293] محمد الأنصاري، ابن سعيد المغربي، حياته و آثاره، المرجع السابق، ص158

ز- كتاب الجغرافيا: وهناك عناوين مختلفة لهذا الكتاب مثل: "كتاب جغرافية الأقاليم السبعة"، وكتاب بسط الأرض في طولها والعرض". تهدف مادة هذا الكتاب إلى إعطاء صورة كاملة عن البلدان، بما فيها من خواص نباتية ومعدنية، مع تحديد مواقع مدنهما وقراها بالدرجة والدقيقة ضمن خطوط الطول والعرض. كما أنه يذكر صفات سكان كل إقليم عند الحديث عنه، ويشير أحيانا إلى العادات والتقاليد خاصة إذا كانت غريبة، كما يهتم بذكر الغرائب، وتقوم خطة هذا الكتاب على تقسيم العالم إلى سبعة أقاليم، تقع كلها إلى الشمال من خط الاستواء، كما تضيف إلى ذلك إقليمين هما: "المعمور خلف خط الاستواء إلى الجنوب"، و" المعمور في شمالي الأقاليم السبعة"[294].

ح- ذكر أحمد المقري التلمساني في ترجمته لابن سعيد المغربي ديوانا: "كنت وقفت على بعض ديوان شعره المعتمد في الأسفار، ونقلت منه قوله..."[295]. ففي النفح عددا لابأس به من قصائده ومقطوعاته، وقد رتب هذا الديوان حسب حروف المعجم.

ط- عدة المستنجز وقلة المستوفز: أثناء رحلته الثانية إلى المشرق، أورد أخبارا عما أنزله المغول بأصدقائه كالناصر الأيوبي وبني العديم.

ط- الطالع السعيد في تاريخ بني سعيد: ذكره لسان الدين ابن الخطيب والمقري، وهو تاريخ عن أهله وبلده[296].

وهناك كتب أخرى لابن سعيد المغربي منها: كنوز المطالب في آل أبي طالب، النفحة المسكية في الرحلة المكية، كتاب ملوك الشعر، نتائج القرائح في مختار المراثي والمدائح، ريحانة الأدب في المحاضرة، الغراميات، وحل الرسائل، كتاب المحلى بالأشعار، حيا المحل وحنى النحل، تاريخ

---

[294]علي بن موسى ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، المصدر السابق، ص ص(09-11).

[295]أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج02، المصدر السابق، ص 274.

[296]المصدر نفسه، ص 271.

مرتب على السينين، المعرب في سيرة ملوك أهل العرب، الملتقط من السلك من حلى العروس الأندلسية، العزة الطالعة من شعراء المائة السابعة(297).

4- رحلاته:

أ – <u>الرحلة الأولى</u>: وصل ابن سعيد ووالده إلى الإسكندرية سنة 639هـ، وكان سلطان مصر عندئذ الصالح الأيوبي ت 647هـ(298)، ويبدو أن والد ابن سعيد أنهكه السفر، فتركه في الإسكندرية، ورحل إلى القاهرة مركز الحركة العلمية والثقافية ودار السلطة، إلا أنه اضطر إلى العودة إلى الإسكندرية لأن المرض اشتد بوالده، فصهر على تمريضه حتى وافته المنية عام 640هـ(299). وعاد الابن أدراجه إلى القاهرة حيث احتك بكثير من شعرائها البارزين.

وكانت فترة السنوات الثلاث التي قضاها ابن سعيد في مصر في مصر فترة حاسمة في حياته، فقد واجه لأول مرة في حياته مجتمعا شرقيا تختلف تقاليده عن المجتمع المغربي، وفقد والده في هذه الفترة موجهه وناصحه في ديار الغربية، وهو ابن تسع وعشرين سنة(300). فقد جمع ابن سعيد المغربي خلال فترة إقامته بالقاهرة المادة العلمية الخاصة بمصر من كتاب "المغرب في حلى المغرب"، واستطاع أن يدخل مجتمع مصر الأدبي، ويكون صداقات مع شعرائها وأعيانها وعلمائها من أمثال: ابن الحسن الجزار، وسيف الدين بن سابق، والبهاء زهير، وجمال الدين بن مطروح، وابن يغمور، وكانت له معهم جلسات زالت عنها الكلفة، ومساجلات في الغزل والوصف، بالرغم من شعوره بالغربة الشديدة، وشوقه الشديد لإشبيلية وبلاد الأندلس، وفي ذلك نظم مجموعة من القصائد(301).

---

(297)علي بن موسى ابن سعيد المغربي ،كتاب الجغرافيا، المصدر السابق، ص04.

(298) تقي الدين المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: عبد القادر عطاء، ج01، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1997م/1418 هـ، ص 441.

(299)أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج02، المصدر السابق، ص ص (334-335).

(300)محمد الأنصاري، ابن سعيد المغربي، حياته و آثاره، المرجع السابق، ص78.

(301)أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج02، المصدر السابق، ص ص (315-318).

ثم رحل مع ابن العديم[302] الحلبي إلى حلب لينزل ضيفا في بلاط سلطانها الملك الناصر (634هـ-659هـ) مرورا ببيت المقدس ومدينة الخليل، وما إن تعرف إلى الملك الناصر وأصبح من مجالسيه الدين يتحدث إليهم في خلواته العلمية والشعرية، ويداعبهم ويتبادل معهم النوادر، فقد أولى الناصر موضوع تصنيفه "المشرق في حلى المشرق" اهتماما خاصا، وأشار عليه أن يصنف مؤلف موجز شامل هو: "المقتطف من أزهار الطرف"، وفتح أمامه خزائنه العلمية الخاصة، ووعده بالمساعدة في الاطلاع على خزائن الموصل وبغداد، "وتبعه من الدنانير والخلع والتواقيع بالأرزاق ما لا يوصف"[303].

ثم زار بن سعيد المغربي دمشق، وهناك التقى بسلطانها توران شاه المعظم[304]، وحظر مجالس شعره، والتقى من فيها من أهل الأدب والعلم، وكان ذلك بين سنتي 647هـ-684هـ. ثم اتجه إلى العراق، ودخل بغداد أيام الخليفة أبي أحمد المستعصم[305]، واجتمع بشعرائها وأدبائها

[302] هو عمر بن أحمد بن هبة الله بن محمد بن هبة الله بن أحمد بن يحي بن زهير بن هارون بن موسى بن عيسى بن عبد الله بن محمد ابن أبي جرادة، يعرف بابن العديم، ويكنى أبا القاسم، ويلقب كمال الدين، من أعيان مدينة حلب وفضلائهم، كان محدثا حافظا، ومؤرخا صادقا، وفقيها مفتيا منشأ، وبليغا كاتبا مجودا، درس وأفتى وصنف، وترسل عن الملوك، وله من التصانيف الدراري في معرفة الذراري ، وضوء الصباح في الحث على السماح، والأخبار المستفادة في ذكر بني أبي جرادة، ودفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري، وتبريد حرارة الأكباد في محفة تشد، ولد سنة 586هـ، توفي سنة 666هـ. أنظر: صلاح الدين بن أيبك الصفدي، فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس، ج03، دار صادر، بيروت، ط01، سنة 1974م، ص ص (126-129) .

- صلاح الدين بن أيبك الصفدي، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، ج22، دار إحياء التراث، بيروت، سنة 1420هـ/2000م، ص ص (259-262).

-زين الدين أبو الفداء السودوني، تاج التراجم، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، دار القلم، دمشق، ط01، سنة 1413هـ/1992م، ص ص (222-223).

[303] علي بن موسى ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، ج02، المصدر السابق، ص 174.

[304] هو السلطان توران شاه بن محمد الملك المعظم، بن الملك نجم الدين، بن السلطان الكامل، بن السلطان العادل، تولى الملك بعد وفاة والده بنحو أربعة أشهر، توفي سنة 684هـ، أنظر: يوسف بن تغرى الظاهري الحنفي، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق: محمد أمين ومحمد عبد الفتاح عاشور، ج04، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ص ص (183-184).

-صلاح الدين بن أيبك الصفدي، فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس، ج01، دار صادر، بيروت، ط01، سنة 1974، ص ص (263-265).

[305] هو الخليفة أبو أحمد عبد الله ابن المستنصر بالله ابن الظاهر محمد ابن الناصر أحمد بن المستضيء الهاشمي العباسي، ولد سنة 609هـ، تولى الخلافة سنة 640هـ، بعد وفاة والده، كان متدينا متمسكا بمذهب أهل السنة والجماعة، وكانت مدة خلافته 15 عاما و08 أشهر، قتله هولاكو، واختلفوا في طريقة قتله، قيل أن هولاكو أمر بخنقه، وقيل رفس حتى مات، قيل غرق، وقيل لف في بساط

وعلمائها من أمثال: الشاعر النجم بن شجير البغدادي، القاضي فخر الدين بن قاضي القضاة الدمغاني، ثم زار مدينة البصرة.

ثم قصد الحج مارا بمدينة أرجان[306] الفارسية، وتمكن من الوصول إلى مكة المكرمة بعد حوالي 15 سنة من مغادرته الأندلس، مؤديا فريضة الحج سنة 651هـ، وبعدها زار الحضرة النبوية بالمدينة المنورة. ثم رجع إلى تونس حيث صنف كتابه " الغصون"، وكتاب "جامع طبقات الشعراء" الذي ترجم فيه لكثير من شعراء المشرق المعاصرين له[307].

ب- الرحلة الثانية: بعد إقامته في تونس التي استغرقت 14 عاما، من سنة 652هـ، إلى سنة 666هـ، يذكر المقري أنه ارتحل من تونس، فيروي عنه أخبارا من حصيلة رحلته الثانية[308]، والجدير بالذكر أن المصادر التاريخية لا تتناول هذه الرحلة بإسهاب، ويبدوا أن بن سعيد أراد من خلالها أن يكمل مشاهداته لبلدان المشرق، وأن يطلع على المصادر العربية ببلاد المشرق وفارس التي كان يود الاعتماد عليها في مصنفات كان يود تأليفها[309].

وخنق. أنظر: صلاح الدين بن أيبك الصفدي، فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس، ج02، دار صادر، بيروت، ط01، سنة 1974م، ص ص (230-233).

-شمس الدين بن قيماز الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراق شعيب الأرناؤوط، ج23، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط03، سنة 1408هـ/1988م، ص ص (174-183).

-تقي الدين المقريزي، السلوك في معرفة دولة الملك، تحقيق: عبد القادر عطا، ج01، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1418هـ/1997م، ص501.

[306]أرجان مدينة بناها قباذ بن فيروز، لأنه لما استرجع الملك من أخيه جاماسف غزا الروم، ففتتح مدينتين من مدن الجزيرة، واحدة تسمى آمد، والثانية ميارقين، وأمر فبنيت مدينة في حد فاصل بين فارس والأهواز، سماها أبرقباذ، وهي التي تدعى أرجان. أنظر: محمد ابن أسحق الهمداني المدعو بابن الفقيه، البلدان، تحقيق: يوسف الهادي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1416هـ/1996م، ص406.

[307] محمد الأنصاري، ابن سعيد المغربي، حياته و آثاره، المرجع السابق، ص ص (79-82).

[308] أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج03، المصدر السابق، ص130.

[309]محمد الأنصاري، ابن سعيد المغربي، حياته و آثاره، المرجع السابق، ص ص (82-83).

المبحث الثالث: محمد العبدري

1- ترجمته:

هو محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن مسعود العبدري[310]،يكنى بأبي عبد الله، ينتمي في الأصل إلى مدينة بلنسية، وينتسب إلى بني عبد الدار من ببني قصي بن كلاب، الذي تنسب الأسطورة الفصل إليه في توحيد قبيلة قريش[311]. في حين يشير محمد الفاسي في مقالة نشرها بمجلة الدراسات الإسلامية، أنه "عربي الأصل، بربري يحسن اللغة الأمازيغية"[312].

أما المعلومات التاريخية عن سيرته وحياته فهي قليلة، فهي لا تذكر تاريخ ميلاده ووفاته، وكل ما تشير إليه، أنه قام برحلته في 25 ذي القعدة عام 688هـ، تاركا أسرته مع قبيلة حاحة[313] وكان بصحبته ابنه.

ولا يذكر العبدري شيئا عن دراسته الأولى وبداية تكوينه الثقافي، إلا أن محقق رحلته لا يستبعد أنه تتلمذ على يد والده، وحفظ القرآن الكريم في الكتاب، وتعلم العمليات الحسابية، إلى أن أصبح من صف الطلاب، فانتقل إلى مراكش، فأخذ عن معظم علمائها من أمثال محمد بن علي بن يحي الشريف[314].

---

(310) العباس بن إبراهيم السمالي، الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، تقديم: عبد الوهاب بن منصور، ج04، المطبعة الملكية، الرباط، ط 02،سنة 1413هـ/1993م، ص ص (287-331).

-أحمد بن القاضي، جذوة الاقتباس، المصدر السابق، ص ص (286-288).

-خير الدين الزركلي، الأعلام، ج07، دار الملايين، بيروت، ط 01، سنة 2002، ص02.

- شكيب أرسلان، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية،ج03، مكتبة الحياة، بيروت، ص 148.

- كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، المصدر السابق، ص ص (367-368).

-حسن مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، المرجع السابق، ص 51.

-نقولا زيادة، الجغرافية والرحلات عند العرب، المرجع السابق، ص ص (171-180).

-محمد العبدري، رحلة العبدري، تحقيق: علي إبراهيم كردي، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط 02 ، سنة 2005، ص07.

(311) كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، المصدر السابق، ص 367.

(312) محمد الفاسي: "رحلة العبدري"، مجلة الدراسات الإسلامية، ج09، مدريد، ص ص (09-14).

(313) حاحة: قبيلة مغربية تقع على المحيط الأطلسي بإقليمي أسفي وأكادير، بين قبائل الشاطبة ومتركة ودمسيرة وادزيكي وبنانة وقسيمة. أنظر: أحمد بن القاضي، جذوة الاقتباس، المصدر السابق، ص27.

(314) محمد العبدري، رحلة العبدري، المصدر السابق، ص08.

2- أساتذته :

لقد تحدث العبدري في رحلته عن كثرة الشيوخ الذين تتلمذ على يدهم، وتنوع ثقافاتهم وإحداقهم مختلف أنواع، وهذا ماساهم في تكوين شخصيته العلمية الرفيعة، التي تميزت بحفظه للقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وإتقانه فنون الأدب العربي من شعره ونثره وخطبه ورسائله، ومصطلحات علم الأدب والبلاغة والعروض، وعلمه بأيام العرب وغزواتهم، وبلغاتهم، وإدراكه الأسماء والألقاب، وعلم الجغرافيا. ومن شيوخه نخص بالذكر:

أ- محمد بن صالح بن أحمد الشاطبي الكناني (614هـ-699هـ): هو أبو عبد الله محمد بن صالح ابن أحمد الكناني[315] من أهل شاطبة، رحل إلى العدوة واستوطن بجاية، واستجاز وأجاز، وروى وقرأ، واستمتع واستنفع به خلق كثير، كان عالما بالقراءات متقنا مجيدا لها، وله علم باللغة العربية والأدب والنحو، وله رواية متسعة في علم الحديث وغيره، ولي النظر في الأنكحة نائبا عن قاضيها مدة، ولي إقامة الفريضة والخطبة بجامعها الأعظم ما يزيد عن ثلاثين عاما.

لقي جملة من المشايخ منهم: أبو بكر بن محرز، وأبو المطرف بن عميرة، وأبو بكر بن سيد الناس، وابن قطرال، وأبو القاسم الولي، وأبو عثمان ابن زاهر، وأبو محمد بن برطلة، وأبو عبد الله الأبار، وأبو الحسن ابن السراج، وأبو الحسن ابن فتوح وغيرهم.

ولد بشاطبة في 29 ذي القعدة عام 614هـ، وتوفي ببجاية سنة 699هـ. درس العبدري أثناء مدة إقامته ببجاية التي لم تطل، ورغم كثرة الهموم والشواغل أخذ عنه سائر كتاب الموطأ عن رواية يحي بن كثير بن وسلان[316]، وبعض كتابي "التسيير" في القراءات السبع الذي يشتمل على

---

[315] أحمد الغبريني،، عنوان الدراية، المصدر السابق، ص ص (79-83).

-ابن القنفد القسنطيني، الوفيات، تحقيق: علي نويهض، دار الآفاق، بيروت، ط04، سنة 1983، ص 335.

-أحمد بن القاصي المكناسي، درة الحجال في معرفة أسماء الرجال، ج06، المصدر السابق، ص18.

- محمد العبدري، رحلة العبدري، المصدر السابق، ص83.

[316] هو يحي بن يحي بن كثير بن وسلاس ابن شمال بن منغايا الليثي، أصله من البربر من قبيلة مصمودة، تولى بني ليث فنسب إليهم، وكني جده أبا عيسى، وهو الداخل إلى الأندلس، وسكن قرطبة، وسماه بها من زياد بن عبد الرحمن بن زياد اللخمي، ومن يحي بن مصر القيسي الأندلسي، ثم رحل إلى المشرق وهو ابن 28سنة، فسمع من مالك بن أنس الموطأ غير أبواب في الاعتكاف شك في سماعها

مذاهب القراء السبعة في الأمصار وما اشتهر من الروايات، و"المقنع" في رسم المصحف، الذي يبين كيفية نقطه، وأحكام ضبطه على وجه الإيجاز والاختصار للإمام أبي عمرو الداني، وقرأ قصيدة الشيخ الإمام أبي القاسم قاسم بن قيرة الرعيني الشاطبي في القراءات[317].

وقرأ عليه أيضا بعض كتاب " السائل " للترمذي , وبعض كتاب "رياضة المتعلمين " للحافظ أبي نعيم, وناوله كتاب " المفردات " لأبي عمرو, وكتاب " فضل قيام الليل "، وكتاب "فضل تلاوة القرآن " لأبي بكر الأجوي , وأجازه إجازة عامة, مكتوبة بخط يده, وقيد له جملة من أسماء شيوخه ومروياته [318].

ب– إبراهيم بن يخلف التنسي : هو إبراهيم بن يخلف بن عبد السلام التنسي[319] المطماطي , يكنى أبا إسحاق. انتهت إليه رياسة التدريس والفتوى في أقطار المغرب كلها, ترد عليه أسئلة من تلمسان وبلاد إفريقيا كلها، شرح كتاب " الملقين " لعبد الوهاب في عشرة أسفار, فضاع الشرح في حصار تلمسان, ومازال السلطان يغمراسن يخطبه للورود على تلمسان, فيتمتع، بل يرد زائر ويقيم أشهرا وينصرف إلى تنس.ثم لما كان شأن مغراوة رحل لتلمسان فطلب منه الفقهاء والسلطان البقاء بها، فأجابهم فاستوطنها ودرس بها، وانتفع به خلق لا حصون، وإليه كانت الرحلة شرقا وغربا، وكان من أولياء الجامعين بين علمي الباطن والظاهر، ومن تلاميذه الشيخ "أبو عبد الله "الحاج صاحب المدخل.

من، فأثبت روايته فيها عن زياد، وقد عاد إلى الأندلس، ومنه انتشر مذهب مالك في تلك البلاد. توفي عام 234هـ. أنظر:ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أهل الزمان، تحقيق: إحسان عباس، ج06، دار صادر، بيروت، ص ص(143-146).

-أبي إسحاق الشيرازي، طبقات الفقهاء، تحقيق: إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت، سنة 1970م، ص152.

-ابن فرحون، الديباج المذهب، ج02، المصدر السابق، ص ص (352-354).

(317) محمد العبدري، رحلة العبدري، المصدر السابق، ص ص(84-85).

-الحميدي، جذوة المقتبس، المصدر السابق،ص ص(382-384).

- الحافظ الذهبي، العبر في أخبار من غبر، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد بسيوني زغلول،ج01، دار الكتب العلمية، بيروت، ص 333.

318) محمد العبدري، رحلة العبدري، المصدر السابق، ص86.

(319) أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص ص (16-17).

-ابن مريم، البستان، المصدر السابق، ص ص(66-67).

-محمد العبدري، رحلة العبدري، المصدر السابق، ص52.

لقي في رحلته أعلاما بمصر والشام، وروي عن أبي كحيلي، وناصر الدين المشادلي، ودرس بالقاهرة المحصول على الأصبهاني، والجدل والمنطق على القرافي، وحضر على السيف الحنفي الإرشاد للعميدي حتى ختمه، ولقي الرحالة محمد العبدري الحاصي بمصر لما كان متوجها إلى الحج مع أخيه أبي الحسن. ذكر العبدري " أن الشيخ أبو إسحاق التنسي وأخوه فقيهين مشاركين في العلم مع مروءة تامة ودين متين ، .... أما بلاد يكون فيها مثل أبي إسحاق التنسي فما خلت من العلم "[320].

ج- <u>ابن دقيق (625هـ-702هـ):</u> هو محمد بن علي بن وهب بن مطيع ، تقي الدين أبو الفتح ابن الإمام مجد الدين المعروف بابن دقيق العيد القشيري المنفلوطي[321] المصري المالكي الشافعي.درس عن ابن المقبر, وابن الجميزي, ابن رواح, وسمع من ابن عبد الدائم, والرزين خالد بدمشق, وكان إماما في فنونه, غماما فيما يرسله من الفوائد في كلامه وعيونه, مفسرا، محدثا، فقيها مدققا، قام بفروع المذهبين، أصوليا، أشعريا، حقيقا بإنفراده في ذلك حريا، نحويا أدبيا، ناظما ناثرا عجيبا، لا يباريه في كل فنونه مبار، ولا يجاريه في مضمارها مجاز. ولد في شعبان سنة 526هـ، وتفقه على والده بقوص، وكان والده مالكي المذهب، ثم تفقه على يد الشيخ عز الدين بن عبد السلام، فحقن المذهبين، تولى القضاء بمصر ودرس بالشافعي ودار الحديث الكاملية، وصنف التصانيف المشهورة "كالإلمام"[322]، و"الإمام" شرحه ولم يكمل، ولو كمل لم يكن للإسلام مثله، وكان يجيء في خمسة وعشرين مجلدا، وله كتاب "علوم الحديث" والذي أملاه على ابن

---

[320] محمد العبدري، رحلة العبدري، المصدر السابق، 53.

[321] صلاح الدين بن أيبك الصفدي، أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق: علي أبوزيد ونبيل أبو عشمة ومحمد موعد، ج04، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط01، سنة 1418هـ/1998م، ص ص (576-600).

-ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، بيروت، ط01، سنة 1416هـ/1996م، ص ص(11-13).

- صلاح الدين بن أيبك الصفدي، الوافي بالوفيات، ج04، المصدر السابق، ص ص(137-138).

-تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: محمود محمد الطناجي وعبد الفتاح محمد الحلو، ج09، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط02،سنة 1413هـ، ص ص (209-219).

-محمد مجاهد القيسي الدمشقي، الرد الوافر، المكتب الإسلامي، بيروت، ط01،سنة 1393هـ، ص ص (58-59).

[322] علق عليه الأستاذ محمد سعيد مولوي، وطبع بدمشق.

الكبير في شرح عمدة الأحكام ، و"فاضل العصر" وهو إملاء وشرح مقدمة المطرز في أصول الفقه، وألف "الأربعين في رواية عن رب العالمين"، وشرح بعض "مختصر ابن الحاجب".

وقد أجاز الرحالة محمد العبدري الحاحي بجميع ما حدث به من مسموعاته، وجميع ما صدر عنه من نظم ونثر، وكذلك أجاز ولده محمدا، وقيد له ذلك بخط يده، وقيد له بخطه مولده، وأنه كان من ينبع من البلاد الحجازية[323]. توفي في صفر عام 702هـ، بالقاهرة، ودفن بالقرافة .

د- الدباغ القيرواني (605هـ- 699هـ): هو عبد الرحمن بن محمد بن علي ابن عبد الله الأنصاري الأسيدي من ولد أسيد بن حضير[324]، يعرف بالدباغ[325] .

قال محمد العبدري في رحلته :"الشيخ الفقيه المحدث، الرواية المتقن لقيته يوم ورودنا القيروان، فرأيت شيخا ذكيا حصيفا ذا سمت وهيئة وسكون ظاهر، محبا لأهل العلم حسن الرجاء، برّ اللقاء لم يؤثر الكبر في جسمه على علّو سنه، ولا تغير شيء من ذهنه وحواسه، مولده سنة 605هـ، من أهل الاهتمام والعناية بالعلم، موطأ الأكناف، لين الجانب، جميل العشرة على سنن

---

(323) محمد العبدري، رحلة العبدري، المصدر السابق، ص 301.

(324) هو أسيد بن حصير بن سماك بن عتيك بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل، ويكنى أبا يحي، وكان يكنى أيضا أبا الحضير، صحابي جليل، كان إسلامه مع سعد بن معاذ على يدي مصعب بن عمير يوم أحد، وشهد أسيد العقبة مع السبعين في روايتهم جميعا، وكان أحد النقباء الاثني عشر، وشهد أحدا وجرح سبع جرحات، وشهد الخندق والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، توفي في شعبان سنة 20هـ، ودفن بالبقيع. أنظر: محمد بن سعد البغدادي، الطبقات الكبرى، تحقيق: محمد عطا، ج03، دار الكتب العلمية، بيروت،ط01، سنة 1414هـ/1994م، (453-456).

-محمد بن المغيرة البخاري، التاريخ الكبير، تحقيق: محمد عبد المعيد خان، ج 02، دار المعارف العلمية، حيد أباد، ص47.

-ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تميز الصحابة، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، ج01، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة 1415هـ، ص ص(234-235).

-محمد بن زير الربعي، تاريخ مولد العلماء ووفياتهم، تحقيق: عبد الله أحمد بن سليمان الحمد، ج01، دار العاصمة، الرياض، ط01، سنة 1414هـ، ص 106.

(325) أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص 231.

-صلاح الدين بن أيبك الصفدي، الوافي بالوفيات، ، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، ج18، دار إحياء التراث، بيروت، سنة 1420هـ/ 2000م، ص ص (155-156).

-محمد العبدري، رحلة العبدري، المصدر السابق، ص ص (163-170).

أهل العلم والفضل، أوحد وقته رواية ودراية، لقيت من بره وحسن خلقه ورقة شمائله ، ما لم أحل مثله باقيّا ..."[326].

أجاز له بن رواج وابن الجميزي، وسبط السلفي وجماعة، وسمع منه خلق كثير منهم: الوادي آشي، ومحمد العبدري وابن دقيق وغيرهم، وله نظم جيد كثير، ومشاركة في العلوم النقلية والعقلية، أشهر تصانيفه: "معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان"[327] طبع في أربعة أجزاء مع زيادات عليه لابن ناجي، وكان اسمه قبلها "معالم الإيمان وروضات الرضوان في مناقب المشهورين من صلحاء القيروان"[328]، ومن كتبه " برنامج " في شيوخه وهم نيف وثمانون، وكتاب "الأحاديث الأربعين في عموم رحمة الله لسائر المؤمنين"، و"مشارق أنوار القلوب ومفاتيح أسرار الغيوب "، وله "تاريخ الأمم"، وكتاب "جلاء الأفكار في مناقب الأنصار"[329].

وقد أجاز الرحالة محمد العبدري في كل ما تضمنه، وما شد عليه رواياته، وكتب له بذلك بخط يده، كما أجاز ابنه محمدا، وأوصاه "إذا قضى الله لك حاجتك وحجت ، فلا تقم في البلاد فإني كثير الشفقة على والدك، فقد أوقع الله حبه في قلبي منذ ذكرته لي"[330]، توفي سنة 699هـ.

هـ- ابن خميس التلمساني ت 708هـ: هو محمد بن عمر بن محمد بن محمد بن عمر بن محمد الحجري، نسبة إلى حجر ذي رعين، وهو من أهل تلمسان ، يكنى أبا عبد الله ، ويعرف بابن خميس[331].

---

[326] محمد العبدري، رحلة العبدري، ص 164.

[327] خير الدين الزركلي، الأعلام، ج03، دار الملايين، ط15، سنة 200، ص 324.

[328] لقد ذكر محمد بن علي بن وهب المعروف بابن دقيق إمام دار مصر أنه كلف الفقيه أبا العباس الغماري التونسي استنساخ هذا الكتاب حين صدر من المشرق، وأنه لما وصل إلى تونس اعتنى باستنساخه له حتى كمل، ثم اعتنى بتصحيحه ومقابلته، فلما فرغ توفي فبيع في تركته، وأثنى على مؤلفه الدباغ المذكور كما ينبغي. أنظر: محمد بن محمد الأندلسي، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، مطبعة الدولة التونسية، تونس، ط01، سنة1287هـ، ص90.

[329] المصدر نفسه،ص ص (89-90).

[330] محمد العبدري، رحلة العبدري، المصدر السابق، ص 164.

[331] أحمد المقري التلمساني، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد العظيم شلبي، ج02، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، سنة 1355هـ/1934م، ص ص (31-32).

-لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج02، المصدر السابق، ص ص (376-404).

قال لسان الدين ابن الخطيب: "كان نسيج وحده زاهدا وانقباضا، وأدبا وهمة، حسن الشيبة، جميل الهيئة، سليم الصدر، قليل التصنع، بعيدا عن الرّياء، والهوادة عاملا على السياحة والعزلة، عالما بالمعارف القديمة، مطلعا بتفاريق النّحل، قائما على صناعة العربية والأصلين، طبقة الوقت في الشعر، وفحل النظم المطولة، أقدر الناس على اجتلاب الغريب، مزج الحركة بالسلاسة، ووضع الألفاظ البيانية مواضعها، شديد الانتقاء والإرجاء، خامد نار الروية منافسا في الطريقة منافسة كبيرة"[332] .

كتب بتلمسان عن ملوكها بني زيان ثم فر منهم، وقد أوجس منهم خيفة لبعض ما يجري بأبواب الملوك. ولما قدم البلاد الأندلسية استقر بحضارة غرناطة لإقراء العربية، بعد أن أحسن الوزير أبي عبد الله ابن الحكيم مثواه، ومت إليه بالوسيلة العلمية واجتذبه بخطبة التلميذ، واستفزه بتأنيسه وبره، وأقعده للإقراء بجواره، وكان يروم الرحلة، وينوي السفر والقضاء يمنعه.

وقد جمع شعره ودونه في ديوان سماه "الدر النفيس في سفر ابن خميس" ، وكانت وفاته يوم وفاة مخدومه الوزير ابن الحكيم يوم مستهل شوال سنة 708هـ[333].

<u>و_ منصور بن أحمد المشادلي : (631هـ– 731هـ):</u> هو أبو علي الشيخ الفقيه، المحصل المتقن، المجيد المتقن، منصور أحمد بن عبد الحق المشادلي[334]، نسبة إلى مشادلة وهي بطن من بطون زواوة، كان فقيها محصلا متقنا، رحل للمشرق صغيرا مع والده، وجد ودرس، وسمع بالشام ومصر، وأقام في رحلته نيفا وعشرين عاما، ولزم العز ابن عبد السلام كثيرا وانتفع بعلمه واهتدى بهديه.

–ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج04، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ص 113.

–محمد العبدري، رحلة العبدري، المصدر السابق، ص35.

–محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، المصدر السابق، ص ص (375–380).

[332] لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج02، المصدر السابق، ص376.

[333] محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، المصدر السابق، ص376.

[334] أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص ص (634–635).

–ابن القنفذ القسنطيني، الوفيات، المصدر السابق، ص ص (344–345).

–أحمد الغبريني، ، عنوان الدراية،المصدر السابق، ص ص(229–230).

–ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج04، المصدر السابق، ص363.

والتقى بغيره من الأئمة كالشيخ صدر الدين سليمان الحنفي، وشرف الدين بن السبكي، وشمس الدين الاصبهاني، والرضي، والواسطي المجتهد وغيرهم.

جمع بين معرفة الفقه وأصوله وهو من أهل الشورى والفتوى، وله مشاركة في علم المنطق والجدل، وأحكم حظا وافر من العربية، وكل هذه الفنون كانت تدرس على يده. وقد أطلع على مذهب الأئمة الأربعة، خصوصا مذهب الإمام مالك، فإنه انفرد بمعرفته، والقيام بتقريبه ونصرته، يصور ويحرر ويمهد ويقرر، يزيف ويرجع، مع ثقوب ذهنه وصحة استنباط وفهم.

قال الخطيب ابن مرزوق الجد: "وقد وصل شيخنا أبو علي درجة الاجتهاد سمعته جماعة من أصحابه كالفقيه المسفر، والفقيه محمد بن الكاتب، والفقيه عمران المشادلي، وغيرهم، وكان السامع مضطلعا بالعلوم بما يدرك تفننه في تأليفه، وأجوبته في النوازل المختلفة والفنون المتباينة"[335].

له شرح على رسالة أبي محمد أبي زيد[336]، ولم يستكمله ، كان مولده سنة 631هـ، وتوفي في بجاية سنة 731هـ، عن عمر يناهز 100سنة.

3 – مؤلفاته :

يعد كتاب "الرحلة " لمحمد العبدري، في حجه من المغرب الأقصى ووصفه البلدان التي مرّ بها، وذكر من لقي من العلماء والأدباء، في ذهابه وإيابه "(688هـ – 689هـ)، المؤلف الوحيد للعبدري الحاحي الذي تم نفض الغبار عليه، وتوجد نسخة مصورة من هذا المخطوط في دار الكتب المصرية "2218 تاريخ تيمور"، أقتنى خير الدين الزركلي نسخة منها[337].

ويذكر عبد الحي الكتاني صاحب كتاب "فهرس الفهارس واثبات ومعجم المعاجم المشيخات والمسلسلات" إنه يروي فهرسة العبدري ، عن طريقتين : أولهما عن أبي القاسم بن رضوان عنه، ومن طريق أبي زكرياء السراج عن أبي عبد الله ابن حياتي الغافقي عنه"، وذكر أن

---

[335] المصدر نفسه، ص363.

[336] هو عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي زيد القيرواني، إمام المالكية، توفي سنة386هـ. أنظر: أحمد الغبريني، عنوان الدراية، المصدر السابق، ص230.

[337] خير الدين الزركلي، الأعلام، ج03،المصدر السابق، ص309.

رحلته عنده في مجلد من أنفس ما كتبه المغاربة قلما وشجاعة واتساع رواية، وبالجملة فهي رحلة جامعة. وقد اختصرها ابن القنفذ القسنطيني[338] صاحب كتاب " الوفيات"[339].

بدأ محمد العبدري تقييده لهذه الرحلة في تلمسان، ووقف عليها شيوخه بمصر، وغيرها، واستحسن ما وقف عليه منها شيخه زين الدين ابن المنير[340]. ويبدو أن جزء من إنتاجه الأدبي لهذا الرحالة قد ضاع بسب عوائد الدهر، وما يؤكد هذا أن العبدري قد أورد بيتا مفردا في رحلته وقال: "وقد كان هذا المعنى غرض لي قديما، فنظمته في بيت من قصيدة".

شبابي وال شيبي بعزله فقام بأعلى رأسي أي خطيب[341].

وأورد البلوي في رحلته قصيدة العبدري التائهة التي عارض فيها القاضي في كتابه الشفاء، والتي مطلعها:

يا ساكني دار الحبيب عليكم مني سلام طيب النفحات[342].

---

[338] هو أحمد بن حسن بن علي بن الخطيب ابن قنفذ الفسنطيني الشهير بابن الخطيب وابن القنفذ، وكنيته أبو العباس، العلم المتفنن، القاضي الفاضل، المحدث المصنف، رحل إلى المغرب عام 753هـ، وبقي هناك 18 عاما، له مؤلفات كثيرة: كشرح الرسالة في04 أسفار، وأصلي ابن الحاجب، وتلخيص ابن البنا، وألفية ابن مالك، وجمل الخونجي، وتسيير المطالب في تعديل الكواكب، وبغية الفارض في الحساب والفرائض، وتحفة الوارد في اختصاص الشرف من جهة الوالد، ووسيلة الإسلام، وكتاب الوفيات، وجزء في ترجمة الشيخ أبي مدين وأصحابه، ولد في حدود عام 740هـ، توفي عام 810هـ. أنظر: أحمد بابا التنبكتي، كفاية المحتاج، المصدر السابق، ص ص (33-34).

- أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص ص (93-94).

-أحمد ابن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس، المصدر السابق، ص ص (154-155).

[339] محمد عبد الحي الكتاني، فهرس الفهارس والإثبات ومعجم المعاجم والمشيبخات والمسلسلات، تحقيق: إحسان عباس، ج02، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط02،سنة 1982م، ص309.

[340] هو علي بن محمد بن منصور بن أبي القاسم بن مختار بن أبي بكر، القاضي الأوحد زين الدين، أبو الحسن ابن القاضي أبي المعالي الجدامي الإسكندراني ابن المنير، ولي القضاء مدة، ودرس وأفتى وصنف، ولد في ربيع الأول سنة 629هـ، وروى الأربعين السلفية عن يوسف ابن المغيلي، توفي سنة 696هـ. أنظر: صلاح الدين بن أيبك الصفدي، أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق: علي أبوزيد ونبيل أبو عشمة ومحمد موعد، ج03،دار الفكر المعاصر، بيروت،ط01، سنة 1418هـ/1998م، ص ص (335-350).

-شمس الدين بن قيماز الذهبي، معجم الشيوخ الكبير، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، ج02،مكتبة الصديق، الطائف،ط01، سنة 1408هـ/1988م، ص50.

-ابن فرحون، الديباج المذهب، ج02، المصدر السابق، ص ص (123-124).

[341] محمد العبدري، رحلة العبدري، المصدر السابق، ص09.

[342] خالد البلوي، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، تحقيق: الحسن السائح، ج02،المطبعة المحمدية، المغرب، ص 109.

ومن مؤلفات العبدري "مدخل الشرع الشريف على المذاهب الأربعة" مطبوع في ثلاث مجلدات، و"شمس الأنوار وكنوز الأسرار في علم الحروف وروحانيته"[343].

4- رحلته :

لاشك أن السبب الرئيسي الذي دفع الرحالة محمد العبدري إلى القيام برحلة هو : أداء فريضة الحج، وزيارة الأماكن المقدسة ورغبته في لقاء العلماء والمشايخ والأخذ عندهم، حالة حال علماء بلاد المغرب الذين يعتقدون أن شخصيتهم العلمية لا تكمل، ما لم يتصلوا بعلماء المشرق ويأخذوا عنهم، وكان حريصا على البحث عن السند العالي فيما أخذه عن هؤلاء العلماء والمحدثين، وقد صرح الرحالة محمد العبدري أنه كان ينوي الإقامة بمكة المكرمة، والمجاورة بها، وأعد العدّة لما يلزم لذلك من كراء المنزل وتجهيزه، لكن وقوع الفتنة أرغمته على الرحيل[344]. أما مدّة رحلته فقد استمرت أكثر من سنتين، وكان سفره في 25 ذي القعدة عام 688هـ، ومبدؤه من حاحة، وكان على طريق بلاد القبلة، رفقة ابنه محمد، واجتاز شمال افريقية مارّا بالسوس الأوسط حتى وصل إلى المغرب الأوسط، حيث كان خاضعا لحكم دولة بني عبد الواد التي أسسها يغمراسن بن زيان الذي استقل بالحكم منذ سقوط دولة الموحدين سنة (668هـ/1269م)، واجتاز شمال إفريقية بعد زيارته تلمسان والجزائر، بجاية، قسنطينة، وتونس، وسار بعد ذلك مجتازا ليبيا حتى وصل إلى الإسكندرية وتتبع الطريق البري من الإسكندرية إلى مكة[345]. وأقام بعد الحج فترة من الزمن بفلسطين، ثم قفل معرجا على الإسكندرية، وعاد كما فعل في طريق الذهاب[346]. (شكل 03)، وقد أمضى ثلاث سنوات في رحلته.

وتكمن أهمية رحلة العبدري، في وصفه البلدان وصفا دقيقا بمبانيها وآثارها، وكثيرا ما كان يعرج على أهلها فيصف عاداتهم وتقاليدهم، ولباسهم، ومستواهم العلمي, ولم يكن متساهلا في نقد ما كان يراه غير طبيعي، الأمر الذي جعل كراتشكوفسكي يعتقد في كتابه تاريخ الأدب

---

(343) فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، المرجع السابق، ص467.

(344) محمد العبدري، رحلة العبدري، المصدر السابق، ص10.

(345) نقولا زيادة، الجغرافية والرحلات عند العرب، المرجع السابق، ص171.

(346) زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، المرجع السابق، ص132.

الجغرافي العربي "أن الرحلة نفسها تمثل لونا جديدا عند مقارنتها بمن سبقوه في هذا المضمار، وهي تحفل في واقع الأمر بكمية كبيرة من المعطيات الجغرافية إذ يقدّم لنا المؤلف وصفا دقيقا وصحيحا للمواضع والبقاع المختلفة مع تفاصيل وافية على الآثار القديمة، وأخلاق السكان المحليين"[347].

وهذا ما يؤكده العبدري في مقدمة رحلته بقوله: "وبعد فإني قاصد بعد استخارة الله سبحانه، إلى تقييد ما أمكن تقييده، ورسم ما تيسر رسمه وتسديده، مما سما إليه الناظر المطرق في خبر الرحلة إلى بلد المشرق، من ذكر أوصاف البلدان، وأحوال من بها من القطان، حسبما أدركه الحسّ والعيان، وقام عليه بالمشاهدة شاهد البرهان، من غير تورية ولا تلويح، ولا تقبيح حسن، ولا تحسين قبيح، بلفظ قاصد لا يُحجم مفردا، ولا يجمح فيتعدى المدى، مسفرا لما رأيته بالعيان، مقررا له بأوضح بيان، حتى يكون السامع لذلك كالمبصر، وتلحق بالسبابة الخصر، فتشفى به نفس المطلع المتشوق..."[348].

وذكر الرحالة العبدري الأخبار التي اقتبسها من المصادر والمراجع السابقة له، مشيرا إلى الأمانة العلمية، ومن أمثلة ذلك أنه نقل وصفه للمسجد الأقصى من كتاب المسالك والممالك لأبي عبيد الله البكري، وذلك في قوله: " وذكر عبيد الله البكري أن طول المسجد الأقصى سبع مائة واثنان وخمسون ذراعا بالمالكي، وهو ثلاثة أشبار، وطوله من الجنوب إلى الشمال، وعرضه أربع مائة وخمس وثلاثون وهو من الشرق إلى الغرب ..."[349]. ثم يعود ويذكر : "أن عبد الله البكري مع تحققه وفرط اعتنائه ونبل تواليفه فقد أودع في مسالكه من الغلط في صفات البلدان وتحديدها"[350].فمن ذلك وصفه بيت المقدس بقوله : " إن الجبال محيطة بها"، والواقع أن ليس بالقرب منها جبل إلاّ رواب وتلال[351]. وأظنه سمع بما دار حولها من الوعر فظنها جبالا. فقد

---

[347]كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، المصدر السابق، ص367.

[348]محمد العبدري، رحلة العبدري، المصدر السابق، ص28.

[349]المصدر نفسه، ص469.

[350]أحمد مختار العبادي، "نظرة أهل المغرب والأندلس نحو المقدس"، الرحالة العرب والمسلمون اكتشاف الآخر. المغرب منطلقا وموئلا، أعمال ندوة من 14 إلى 17 جوان 2003، وزارة الثقافة، الرباط، ط01، ص118.

[351]محمد العبدري، رحلة العبدري، المصدر السابق، ص846.

وصف كراتشكوفسكي عرضه نقلا عن أحد العلماء الإسبان "أنه يتميز بالصدق والدقة في الرواية، والحيوية والرشاقة في الأسلوب"[352].

كما أن أهمية الرحلة العلمية تكمن في أن الاهتمام الرئيسي اتجه إلى الحديث عن العلماء الذين التقى بهم الرحالة، أو تتلمذ على يدهم فترة من الزمن في الأماكن التي يقيمون بها، وخاصة المحدثين الذين سمع منهم الكثير من الأحاديث النبوية الشريفة، وأثبت بعضها معتنيا بالسند العالي عناية كبيرة[353]. وهو يغتنم أمثال هذه المناسبات في سرده ليبين مهاراته الأدبية، فيسوق بعصا من قصائده، أو يصوغ الوصف في نثر مسجوع، فأسلوبه لا يخلو من التكلف، إلا أنه يكتب في نفس الوقت بحرية ويسر. ومن المؤكد أنه كان على معرفة تامة بمن سبقوه في هذا الاتجاه، عندما يتضمن وصفه المسعودي أو البكري، أو يقتبس في بعض الأحيان عن ابن جبير، ويورد أشعاره[354].

تتضمن رحلة العبدري معلومات جغرافية وتاريخية وأدبية واجتماعية متنوعة، بالإضافة إلى الفقهية، وقد تنوعت مصادره تنوعا كبيرا، وهو يعتمد عموما على المشاهدة التي بدت واضحة في القسم الخاص بالجغرافية عن البلدان والمناطق التي زارها، وخصائصها العمرانية، وتضاريسها.

- الرواية الشفوية وتظهر في القسم الخاص بالقضايا العلمية التي أخدها عن صدور العلماء مشافهة، وقيدها في رحلته.

- المصنفات المختلفة التي اقتبس منها العبدري، وقد لجأ إليها مستعينا بما لم يشاهده، أوشاهده ولكنه يريد التأكد والتوضيح والاستدلال[355].

ومما تجدر الإشارة إليه أن نصوص الرحلة الخاصة برحالة القرن 7هـ تميزت بدرجة عالية من الفن والصياغة الأدبية، وينتمي أصحابها إلى طبقة الكتاب والأدباء من رجال الدواوين، التي

---

[352] كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، المصدر السابق، ص367.

[353] محمد العبدري، رحلة العبدري، المصدر السابق، ص13.

[354] كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، المصدر السابق، ص368.

[355] محمد العبدري، رحلة العبدري، المصدر السابق، ص14.

ساهمت في تطوير الأدب الجغرافي بصفة خاصة، واشتملت نصوص رحلاتهم على الوصف المفصل للأبنية والعمائر المختلفة بأسلوب امتاز بكثير من الحيوية وسهولة التعبير.

الفصل الثالث :

أشهر رحالة المغرب الإسلامي في القرن 8هـ.

-المبحث الأول: ابن بـــطوطـــــة.

-المبحث الثاني: ابن مــرزوق الخطيــب.

-البحث الثالث: عبد الرحمن ابن خلدون.

لقد بدأ اهتمام المغاربة في القرن 8هـ يتجاوز اهتمام الأندلسيين في مجال الرحلة، كون أن غرناطة بقيت تمثل المركز الوحيد للعرب في شبه جزيرة إيبريا في هذا القرن، وقد بلغ أدب الرحلة ذروته مع رحلات ابن بطوطة الذي نالت رحلاته شهرة عالمية، كما شهد هذا القرن ثلاثة مؤرخين ورحالة كبار موسوعي الثقافة هم: لسان الدين ابن الخطيب، وابن مرزوق الخطيب، وعبد الرحمن ابن خلدون.

المبحث الأول: ابن بطوطة (703 هـ-779 هـ):

يعد ابن بطوطة أشهر رحالة مغربي ينتمي إلى القرن الثامن هجري، حيت اتسمت رحلاته بالعالمية، وحظيت بالأهمية الجغرافية والأدبية، مما جعله يتفوق على معاصريه، فقضى ثماني وعشرين سنة من حياته يتنقل بين أجزاء العالم، فتحمله أسفاره من طنجة إلى مصر عبر شمال إفريقية، ثم إلى الشام. وبعد أن يؤدي فريضة الحج يزور إيران، وبلاد العرب، وشرق إفريقية، ويدخل حوض الفولغا الأدنى ويعرج عن القسطنطينية. وبعد هذا كله يمعن في الرحلة شرقا إلى خوارزم وبخارى وكردستان وأفغانستان والهند والصين وجزر الهند الشرقية، وجزر المالديف، بعد أن يعود إلى وطنه يعاوده الحنين إلى السفر فيزور الأندلس والسودان، ويقطع في أسفاره ما لا يقل على 120 ألف كلم. فاستحق بحق لقب شيخ الرحالين العرب، وسيد الرحالين إطلاقا في عصره أي القرن الثامن هجري.

1- ترجمته:

هو أبو عبد الله محمد ابن عبد الله محمد ابن إبراهيم ابن يوسف اللواتي الطنجي[356]. وقد لقب باللواتي نسبة إلى قبيلة لواتة البربرية، كما لقب بشمس، الدين في المشرق، ولكنه اشتهر

---

(356) لسان الدين ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبد الله عنان، ج03، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط01، سنة 1348هـ/الموافق 1987م ، ص ص (273-274).

-ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق عبد الهادي التازي، ج01، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، سنة 1997م، ص 80.

- كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، المصدر السابق، ص ص (221-222).

-شوقي ضيف، الرحلات، المرجع السابق، ص 90.

- خير الدين الزركلي، الأعلام، ج6، دار الملايين، بيروت، سنة 2002 ، ص ص (235-236).

وعرف بابن بطوطة، وكان من اسرة عريقة المقام أتيح لكثير من أبنائها اعتلاء منصب القضاء والتوفق في العلوم الشرعية، ولد بطنجة يوم الاثنين 17 رجب 703هـ/ الموافق 24 فبراير 1304م.

والدليل على أن اسرة ابن بطوطة احتلت مكانة اجتماعية ودينية وعلمي مرموقة وكان لها اسهام فكري، قول ابن بطوطة عندما سأل من طرف ملك الهند عن كونه يصلح للوزارة أو الكتابة أو الأمارة، أو القضاء أو المشيخة : "... أما الوزارة أو الكتابة فليست شغلي، وأما القضاء والمشيخة فشغلي وشغل آبائي، وأما الامارة فتعلمون أن الأعاجم ما أسلمت إلا بسيوف العرب، فلما بلغ ذلك إلى السلطان أعجبه كلامي..."[357]. ويتضمن حديثه عن رحلته إلى الأندلس لما وصل إلى جبل الفتح إلى مدينة رندة التي كانت تعد من أحصن معاقل المسلمين بالأندلس وكان قائدها أنذك الشيخ أبو الربيع سليمان بن داوود العسكري وقاضيها ابن عمر الرحالة ابو القاسم بن يحي بن بطوطة.[358]

ومما يؤكد أيضا التكوين العلمي الرفيع للرحالة مالقيه من مظاهر الاحترام والتبجيل أينما حل وارتحل، وما شغله من مناصب كبيرة كالقضاء في كل من دهلي وجزر ديبة، وكذا المراكز العلمية الرفيعة من خلال اتصاله بالعلماء في جولاته الكبرى، وأخذه عنهم، واستفادته منهم، فملاحظاته، وتفصيلاته، ومناقشته التي لازمته طيلة رحلته لا يمكن أن تتيسر إلا لذكي مثقف له الإلمام بالفقه، ومذاهبه، واللغة العربية وتفصيلاتها، وقدرة على الغوص في الأفكار بتتبع الخلافات والآراء في القضية الواحدة.[359]

-أحمد رمضان أحمد، الرحلة والرحالة المسلمون، المرجع السابق، ص 369.

- نقولا زيادة، الجغرافية والرحلات عند العرب، المرجع السابق، ص187.

-فؤاد قنديل، أدب الرحلات في التراث العربي، المرجع السابق، ص 488.

- زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، المرجع السابق، ص 136.

- الحسن الشاهدي، أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، ج01،المرجع السابق، ص 224.

[357]ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار و عجائب الأقطار، المصدر السابق، ص 580.

[358]ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، المصدر السابق، ص653.

[359]الحسن الشاهدي، أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، ج01، المرجع السابق، ص 251.

وإذا كان مترجموه قد أهملوا الحديث عن ظروف وفاته، فإن ابن حجر العسقلاني في الدرر الكامنة يذكر أن ابن بطوطة عاش 72 سنة، وأدركته وفاته، وهو متول لمنصب القضاء بتامسكا. أي سنة وفاته 776هـ[360].

2 – رحلاته:

أقدم ابن بطوطة على رحلة طويلة طاف خلالها معظم بلاد المسكونة من الكرة الأرضية والمعروفة في ذلك الوقت وقبل سبعة قرون، ماعدا البلاد الأوربية. وكان اتصاله بالسلطان المريني، وإعجابه بقصصه من أحاديث السبب في تكليف كاتبه محمد ابن جزي الكلبي [361]، بتدوين ما يمليه عليه هذا الرحالة، وتولي الكاتب رواية الرحلة وتلخيصها وترتيبها وإضافة بعض الأشعار إليها وتحقيق بعض أجزائها، ثم سماها "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، وفرع منها سنة 757هـ/ 1356م [362].

قال ابن جزي في خاتمه هذا الكتاب: "انتهى ما لخصته من تقيد الشيخ أبي عبد الله محمد ابن بطوطة، أكرمه الله، ولا يخفى على ذي عقل، أن هذا الشيخ هو رحال العصر، ومن قال: رحال هذه الملة، لم يبتعد، ولم يجعل بلاد الدنيا للرحلة. اتخذ مدينة فاس مقرا ومستوطنا بعد طول جولاته... هذه الحضرة التي اختارها الشيخ بعد رحلة خمسة وعشرين عاما"[363].

وقد انتظمت رحلات وأسفار ابن بطوطة في ثلاث رحلات:

أ– **الرحلة الأولى** : حيث غادر طنجة سنة 725هـ/1326م، وطاف بأنحاء المغرب الأقصى، ثم اتجه نحو الشرق عبر الجزائر، أو المغرب الأوسط، ثم تونس وليبيا، وانتهى به المطاف

---

[360] ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، المصدر السابق، ص 81.

[361] محمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن يحي بن عبد الرحمن بن يوسف بن جزي الكلبي، من أهل غرناطة وأعلامها، يكنى بأبي عبد الله، من أعلام الشهرة في الفتوى، تبريزا في الأدب، واضطلاعا بمعاني الشعر، واتقان الخط، وايضاحا للأحاجي والملغزات، نشا في غرناطة، ثم انتقل إلى المغرب فاسقر بباب ملكه، توفي سنة 758هـ. أنظر: لسان الدين ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج02، المصدر السابق، ص ص (256–265).

– أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، المصدر السابق، ص 403.

[362] زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، المرجع السابق، ص137.

[363] ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار ، المصدر السابق، ص 681.

في مصر. ومن الإسكندرية اتجه جنوبا إلى القاهرة، ثم إلى الصعيد حتى وصل ميناء عيذاب على ساحل البحر الأحمر. ولكنه اضطر إلى العودة إلى القاهرة بسبب الحرب، ومتابعة رحلته إلى مكة المكرة عن طريق بلاد الشام[364].

قال ابن بطوطة: "كان خروجي من طنجة مسقط رأسي في يوم الخميس الثاني من شهر رجب الفرد، عام خمسة وعشرين وسبعمائة، معتمدا حج بيت الله الحرام، وزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، منفردا عن رفيق آنس بصحبته، وركب أكون في جملته لباعث شديد العزائم، وشوق إلى تلك المعاهد الشريفة، كأمن الحيازم..."[365].

وبعد أداء فريضة الحج اتجه إلى العراق وإيران وبلاد الأناضول، ثم عاد إلى الحجاز وحج للمرة الثانية، وبقي مجاورا لمدة سنتين، وفي سنة 730هـ/1392م غادر الحجاز متجها نحو الجنوب، فزار اليمن، وبلاد الخليج العربي. ثم اتجه إلى الدولة البيزنطية عبر مصر والشام[366].

وبعد أن ترك بلاد الشام ذهب إلى آسيا الصغرى، حيث استقر في مدينة القسطنطينية، ومن هذه الأخيرة اتجه إلى أقصى المشرق، حيث زار خوارزم وخرسان وبخارى التي أعجب بها[367].

ومن إيران ذهب إلى غزنه وكابل، ثم دخل بلاد الهند، وذلك في سنة 734هـ/1333م واتصل بسلطانها محمد شاه، وتوطدت العلاقة بينها، فولي ابن بطوطة منصب القضاء في دهلي، التي أقام بها قرابة ثماني سنوات، وكان طبيعيا أن تنال هذه المدينة حظا وافرا من وصف ابن بطوطة. وبعد اعتزاله منصب القضاء أرسله سلطان الهند في سفارة إلى ملك الصين تحمل هدية ثمينة، وقد وقع اختياره على ابن بطوطة لقيادة هذه السفارة، وذلك لحبه للأسفار والرحلات[368].

---

[364]أحمد المقري التلمساني، أزهار الرياض في عياض. تحيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأمين وعبد الحفيظ شلبي، ج03، مطبعة فضالة، المغرب، ص ص (184-185).

[365]ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، المصدر السابق، ص10.

[366]أحمد رمضان أحمد، الرحلة والرحالة المسلمون، المرجع السابق، ص ص(370-371).

[367]أحمد رمضان أحمد، الرحلة والرحالة المسلمون، المرجع السابق، ص 373.

[368]المرجع نفسه، ص ص (374-375).

وعاد ابن بطوطة من رحلته الأولى الطويلة إلى مكة حيث حج للمرة الثالثة، وواصل سيره عائدا إلى بلاده عبر مصر وتونس والجزائر، ثم وصل إلى فاس في المغرب الأقصى سنة 750هـ/ 1349م.(شكل02).

ب- الرحلة الثانية : لم يطل نزول الرحالة ابن بطوطة ببلاط السلطان المريني أبي عنان، حتى ودعه، ملقيا عصى الترحال مهيأ العدة لرحلة أخرى، فهو بطنجة زائرا فبر والدته، وعرج على مدينة سبته فمرض ثلاثة أشهر(369).

أما عن الدافع لهذه الرحلة، واختيار ابن بطوطة إقليم الأندلس ليكون مسرحا لها، فهو يختلف عما ألفناه في الرحلات الأخرى، فالسبب ليس سياحيا أو علميا أو تصوفيا، ولكنه جهادي. فخرج في الرحالة مجاهدا في سبيل الله، وفي هذا الصدد يقول ابن بطوطة: "...قصدت زيارة قبر الوالدة، فوصلت إلى طنجة، وتوجهت إلى مدينة سبته، فأقمت بها شهرا، وأصابني بها المرض ثلاثة أشهر، ثم عافاني الله، فأردت أن يكون لي حظ من الجهاد والرباط، فركبت البحر من سبته لأهل أصيلا، فوصلت إلى بلاد الأندلس..."(370).

ويصف ابن بطوطة رحلته إلى الأندلس، حيث خرج من جبل الفتح "طارق" إلى مدينة رندة، ثم إلى مدينة مربلة، وسهيل على الساحل الشرقي لشبه جزيرة إيبريا، وفي نفس المدينة تعرضت التي سيركبها لغارة بحرية، واستطاع اللجوء إلى برج المدينة فاحتمى فيه(371). قال ابن بطوطة: "ثم خرجت من جبل الفتح إلى مدينة رندة، وهي أمنع معاقل المسلمين، وأجملها وضعا..."(372). "...وأقمت بها (مدينة رندة) خمسة أيام، ثم سافرت منها إلى مدينة مربلة، ووجدت الطريق فيما بينهما صعب شديد الوعورة، مربلة بلدة حسنة خصبة، وجدت فيها جماعة من الفرسان متوجهين إلى مالقة..."(373).

---

(369)زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، المرجع السابق، صص (163-164)

(370)ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، المصدر السابق، ص ص(650-651)

(371)أحمد رمضان أحمد، الرحلة و الرحالة المسلمون، المرجع السابق، ص380.

(372)ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، المصدر السابق، ص653.

(373)المصدر نفسه، ص 654.

وبعدما اتجه الرحالة إلى مدينة مالقة التي كانت على مستوى رفيع من التقدم والحضارة. "فوصلنا إلى مدينة مالقة إحدى قواعد الأندلس وبلادها الحسان، جامعة بين مرافق البر والبحر، كثيرة الخيرات والفواكه...، وبمالقة يصنع الفخار المذهب العجيب، ويجلب من أقاصي البلاد..."[374].

ثم غادر مدينة مالقة إلى العاصمة، إلى مدينة غرناطة، وهناك حاول مقابلة السلطان أبي يوسف الأول، ولكنه لم يوفق في زيارته لأنه كان مريضا، وإن كانت والدة السلطان قد بعثت إليه بدنانير ذهبية كرسم للزيارة[375].يقول ابن بطوطة في هذا الصدد: " ثم سافرت منها إلى مدينة غرناطة قاعدة بلاد الأندلس، وعروس مدنها، وخارجها لا نظير له في بلاد الدنيا..."[376].

وفي هذ الرحلة التقى بعلماء جله أبدوا اهتمامهم بما يحكي من غرائب الرحلة وعجائبها، ومن هؤلاء أبي القاسم السبتي، وأبو عبد الله بن إبراهيم البياني، وأبو سعيد فرح بن قاسم الشهير بابن لب، وأبو البركات محمد البلفيفي، وكان معظمهم أثناء هذا الاجتماع مع كاتب الرحلة أبو عبد الله محمد بن جزي، فقال: "..كنت معهم في ذلك البستان، وأمتعنا الشيخ أبو عبد الله بأخبار رحلته، وقيدت عنه أسماء الأعلام الذين لقيهم واستفدنا منه الفوائد العجيبة، وكان معنا جملة من وجوه أهل غرناطة، منهم الشاعر المجيد الغريب الشأن أبو جعفر أحمد بن رضوان بن عبد العظيم الحدابي..."[377].

غير أن مقام ابن بطوطة لم يطل في غرناطة، ولم يتوغل في البلاد الأندلسية، فلم يتجاوز في رحلته الجنوب الأندلسي، وقد يرجع السبب في ذلك إلى انعدام حالة الأمن، كما أشار إلى ذلك في الطريق بين مربلة ومالقة[378].

---

[374] المصدر نفسه، ص ص (654-655).

[375] أحمد رمضان أحمد، الرحلة والرحالة المسلمون، المرجع السابق، ص380.

[376] ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، المصدر السابق، ص555.

[377] ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، المصدر السابق، ص556.

[378] الحسن الشاهدي، أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، ج01، المرجع السابق، ص274.

جـ– الرحلة الثالثة : عقد ابن بطوطة العزم على السفر في رحلة ثالثة، ليزور ما كان يسمى بالسودان، وقيل أن الأمر كان يتعلق بسفارة رسمية ومهمة كلفه إياها أبي عنان المريني(379). فاتجه إلى سجلماسة، وانظم إلى قافلة جماعة من التجار، وبدأت الرحلة عبر الصحراء الكبرى، في أول سنة 753هـ/فبراير 1352م، ووصلت القافلة إلى مدينة تغازى حيث يستخرج الملح، ولاحظ ابن بطوطة أن أهل السودان يتعاملون بالملح، كما يتعامل غيرهم بالذهب والفضة(380).

ذكر الرحالة: " ...توجهت برسم السفر إلى بلاد السودان، فوصلت إلى مدينة سجلماسة، وهي أحسن المدن، وبها التمر الكثير الطيب...، ثم سافرت في غرة شهر الله المحرم ستة ثلاث وخمسين رفقة مقدمها، وفيها جماعة من تجار سجلماسة وغيرهم، فوصلنا بعد خمسة وعشرين يوما إلى تغازى، وهي قرية لا خير منها، ومن عجائبها أن بناء بيوتها ومسجدها من حجارة الملح..."(381).

ومنها وصلت القافلة إلى "تاسرهلا"، ومنها يبعث التكشيف إلى مدينة إيوالاتن ، وقد شرح ابن بطوطة أن التكشيف من قبيلة مسبوقة، يكتريه أهل القافلة، فتقدم إلى إيوالاتن بكتب من المسافرين إلى أصحابهم بها، ليكتروا، ويخرجوا للقائهم بالماء مسيرة أربع ليال(382).

يقول ابن بطوطة: "...ووصلت القافلة بعد شهرين كاملين من السفر سجلماسة إلى مدينة إيوالاتن، وكانت الإقامة بها مدة خمسين يوما..."(383). وتقوده رحلته إلى مدينة تنبكتو الذي يحدد موقعها، بأن بينها وبين النيل أربعة أميال، وقد توهم أن نهر النيجر هو نهر النيل، ومن هذه المدينة يسلك الطريق النهري، الذي يخترق القرى الكثرة من بلاد السودان إلى أن يصل مدينة تكيدا، الذي لاحظ أن أهلها يشتغلون بالتجارة(384).

المبحث الثاني: ابن مرزوق الخطيب (711 هـ-781 هـ):

---

(379) عبد الله كنون، النبوغ المغربي في الأدب العربي، ج03، ص213.

(380) زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، المرجع السابق، ص ص (164-165).

(381) ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، المصدر السابق، ص658.

(382) زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، المرجع السابق، ص165.

(383) ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، المصدر السابق، ص661

(384) الحسن الشاهدي، أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، ج01، المرجع السابق، ص274.

ينحدر ابن مرزوق من عائلة كبيرة أصلها من القيروان، وعندما نزل بنو هلال فيها، هاجرت من هناك، واستقرت في تلمسان في أواخر القرن الخامس هجري (11م)، في عهد المرابطين، وآل مرزوق هم أهل صلاح وعلم ودين ووجاهة يحترفون بالفلاحة[385].

وقد أدرك ليفي بروفنسال أهمية ابن مرزوق الخطيب التلمساني كمؤرخ بعد انكباب علمي، فقد أقر في سنة 1953م، أن المؤرخين الثلاثة الأساسيين لبلاد المغرب في نهاية العصور الوسطى هم: لسان الدين ابن الخطيب، وابن مرزوق الخطيب التلمساني، وعبد الرحمن بن خلدون[386].

1- ترجمته:

هو محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق العجيسي[387]التلمساني، كنيته: أبو عبد الله، كان يلقب بـ: "شمس الدين"، اشتهر بالخطيب[388] الأكبر، الجد الرئيس، ولد بتلمسان سنة 711هـ/1311م، ومات بالقاهرة سنة 781هـ/1379م[389].

---

(385)يحي ابن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحيق: عبد الحميد حاجيات، مطبعة بيير فوسطانا الشرقية، الجزائر، سنة 1903م، ص ص (48-49).

(386) LévéProvençal, LeVoyage d'Iben Battuta dans le Royaume de Grenada(1356), Melangeswillion Marçais, Paris, 1950,P250.

(387)وتلقيبه بالعجيسي يدل على أن أسرته كانت تنتسب إلى العجيسة، وهي قبيلة بربرية استقرت في أواخر القرن 8هـ/14م في جنوب بجاية، في ضواحي قلعة بني حماد. أنظر: G. Marçais, Les Arabes en Berbère

(388)عرف بالخطيب لأن عمه كان خطيبا بالعباد، ولما توفي ولاه السلطان ذلك المسجد، أنظر: أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، المصدر السابق، ص 460.

(389)ابن فرحون الديباج المذهب، ج02، المصدر السابق، ص ص (290-296).

-محمد ابن مرزوق التلمساني، المسند الصحيح الحسن، تحقيق: ماريا جيسوس بيغيرا، تقديم: محمد بوعياد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، سنة 1984م، ص19.

-ابن القنفذ القسنطيني، الوفيات، المصدر السابق، ص ص (373-374).

-أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، المصدر السابق، ص (260-265).

-أحمد بابا التنبكتي، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، المصدر السابق، ص ص (313-316).

-ابن مريم البستان، المصدر السابق، ص ص (201-214) .

-ابن الحجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج03، تحقيق: عدنان درويش، المنظمة العربية للشريعة والثقافة والعلوم، القاهرة، سنة 1996م، ص ص (260-263).

-ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، ج07، دار ابن كثير للطباعة والنشر، بيروت، ط01، سنة 1990م، ص ص (467-468).

قال ابن فرحون: " هذا الرجل أبقاه الله من طرف دهره، .... مليح الترسل، حسن اللقاء، مبذول البشر، كثير التودد، نظيف البزة، لطيف التأني، خير البيت، طلق الوجه، خلوب اللسان طيب الحديث، مقدر الألفاظ، عارفا بالأبواب، دربا على صحبة الملوك والأشراف، ممزوج الدعابة بالوقار، والفكاهة بالنسك، والحشمة بالبسط، عظيم المشاركة لأهل وده، والتعصب لإخوانه، ألفا مألوفا، كثير الأتباع، مجدي الجاه، غاص المنزل بالطلبة، بارع الخط أنيقه، متسع الرواية، مشاركا في فنون وأصول وفروع وتفسير...، يكتب ويقيد ويؤلف ويشعر، فلا يهدوه السداد في ذلك، فارس منبر، غير جزوع ولا هياب..."[390].

نشأ ابن مرزوق في تلمسان، وارتحل مع أبيه إلى المشرق، فقرر أبوه المجاورة بالحرمين، فرجع هو إلى القاهرة، وأقام بها وتلمذ على يد برهان الدين الصفاقسي المالكي[391] وأخيه، وبرع في الطب، وكان يجيد الخط، ثم رجع سنة 735هـ إلى المغرب، ولقي السلطان أبا الحسن المريني في تلمسان، وشيد مسجدا عظيما بالعباد، وكان عمه محمد ابن مرزوق خطيبا به على عادتهم في العباد، ولما توفي ولاه السلطان خطابة ذلك المسجد، مكان عمه[392].

سمعه يخطب على المنبر ويشيد بذكره والثناء عليه، فحلي بعينه وقربه إليه، وهو مع ذلك يلازم مجلس الشيخين ابني الإمام، ويأخذ نفسه بلقاء الفضلاء ، والأكابر والأخذ عنهم، والسلطان في كل يوم يزيده رتبة، فكان يستعمله في السفارة عنه إلى صاحب الأندلس[393].

2- شيوخه:

---

(390)ابن فرحون الديباج المذهب، ج02، المصدر السابق، ص 290.

(391)هو إبراهيم بن محمد القيسي الصفاقسي، ولقبه برهان الدين، له مؤلف كتاب إعراب القرآن الكريم، بمشاركة أخيه شمس الدين، ولد ببجاية هام 697هـ، له بعض التواليف في نوال الفقه، توفي عام 743هـ، أنظر: عبد الرحمن ابن خلدون، رحلة ابن خلدون، تحقيق محمد بن تاوريت الطنجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط02 ،سنة 2009، ص61.

(392)المصدر نفسه، ص 61.

(393)أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، المصدر السابق، ص ص(20-24).

-أحمد بابا التنبكتي، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، المصدر السابق، ص ص(65-68).

-ابن فرحون الديباج المذهب، ج02، المصدر السابق، ص ص (279-288).

-ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج01، تحقيق عدنان درويش، المنظمة العربية للشريعة والثقافة والعلوم، القاهرة، سنة 1996م، ص55.

لقد عرف ابن مرزوق الخطيب بالمشرق حقه، وشيوخه الذين أخذ عنهم العلم، وروى عنهم الحديث، مذكورون في مشيخته المسماة: " عجالة المستوفى المستجاز في ذكر من سمع من دون من أجاز، من أئمة المغرب والشام والحجاز". قال ابن مرزوق: "...وقرأت على نحو مائتين وخمسين شيخا والله ما أعلمه"(394).

ومن شيوخه بالمدينة المنورة نذكر:

أ-عز الدين أبو محمد الحسن بن على بن إسماعيل الواسطي (671هـ/1256م -741هـ/ 1340م)(395): هو الحسن بن علي بن إسماعيل بن إبراهيم الواسطي عز الدين أبو محمد، ولد بمدينة واسط سنة 654هـ، قرأ القرآن، وقدم إلى مصر سنة 691هـ، وصحب شمس الدين الرفاعي، وانتفع به، وحج البيت الحرام عدة مرات، أخذ عنه أبو عبد الله بن مرزوق وأثنى عليه كثيرا، توفي في شعبان سنة 741هـ.

ب-جمال الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن خلف بن عيسى الخزجي المطري (671هـ/ 1272م- 741هـ/ 1340م)(396).

ج- محي الدين أبو زكرياء يحي بن محمد المغراوي التونسي: هو يحي بن محمد المغراوي التونسي، ذكره ابن مرزوق مشيخته، وقال صالح مخلف معمر، حدث عن النووي بالأربعين النووية بساعه لها منه(397).

د- شهاب الدين أحمد بن محمد الصنعاني ت: 726هـ/1325م(398): هو أحمد بن محمد الصنعاني الذي رحل إلى المدينة فقطنها، وناب في الحكم الخطبة ، ودرس وحدث بكتاب المصابيح، وجامع الأصول بإسنادين، ذكره ابن مرزوق في مشيخته، توفي سنة726هـ/1325م.

---

(394)أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، المصدر السابق، ص463.

(395)ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج02، تحقيق: عدنان درويش، المنظمة العربية للشريعة والثقافة والعلوم، القاهرة، سنة 1996م، ص20.

(396)محمد ابن مرزوق التلمساني، المسند الصحيح الحسن، المصدر السابق، ص33.

(397)ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج04، تحقيق: عدنان درويش، المنظمة العربية للشريعة والثقافة والعلوم، القاهرة، سنة 1996م، ص428.

أما عن شيوخه في مكة المكرمة فنخص بالذكر:

أ- شرف الدين أبو عبد الله بن عيسى بن عبد الله الحجيبي المكي (641هـ/1243م – 740هـ /1340م)[399]: هو عيسى بن عبد الله بن عبد العزيز بن عيسى بن محمد بن عمران الفارسي، المعروف بالحجيبي وأبي عبد الله، ولد بمكة المكرمة سنة 641هـ، توفي محرم سنة 740هـ بواد نخلة من أعمال مكة، المكنى بها، وصلي عليه ودفن هناك.

ب- زين الدين أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن أبي بكر الطبري المكي (673هـ/ 1274م-770هـ/1368م)[400]: هو أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله الطبري المكي، الملقب بزين الدين بن جعفر الحافظ محب الدبن، ولد سنة 673هـ، وسمع من يعقوب بن أبي بكر الطبري، توفي سنة 770هـ.

ج- شرف الدين خضر بن عبد الرحمن العجمي[401].

د- برهان الدين إبراهيم بن مسعود بن إبراهيم الأربلي (662هـ-745هـ)[402]: هو إبراهيم بن مسعود ابن إبراهيم بن سعيد الأربلي، المعروف بابن الحايي والبسروري، ولد سنة 662هـ، وأقام بالمدينة المنورة، وانتفع به جماعة في إقراء القراءات، وكان شيخا مهيبا، وحسن السمت، نال في الخطابة والإمامة، وكف في آخر عمره، توفي عام 745هـ.

هـ- عفيف الدين أبو محمد عبد الله بن أسعد اليافعي(698هـ/1298م- 768هـ/1367)[403]: هو عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان بن فلاح اليافعي الشافعي

---

(398) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج01، المصدر السابق،ص310.

(399) تقي الدين أبي المعالي محمد بن رافع السلامي، الوفيات، تحقيق: صالح مهدي عباس وبشار عواد معروف، ج02، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص290.

-ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج02، المصدر السابق،ص205.

(400) تقي الدين أبي المعالي محمد بن رافع السلامي، الوفيات، تحقيق: صالح مهدي عباس وبشار عواد معروف، ج01، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص ص (414-417).

-ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج01، المصدر السابق، ص ص (242-243).

(401) محمد ابن مرزوق الخطيب، المسند الصحيح الحسن، المصدر السابق، ص36.

(402) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج01، المصدر السابق، ص 83.

(403) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ، ج03، المصدر السابق، ص ص (247-249).

اليمني، المكنى عفيف الدين أبو السعدات، وأبو عبد الرحمن، ولد قبل السبعمائة بسنتين أو ثلاث، لازم مشايخ العلم مثل: نجم الدين الطبري، وحسين الحاكي، ومحمد المرشدي، توفي سنة 676هـ.

وتلمذ في القاهرة على شلة من الشيوخ نذكر منهم:

أ- تقي الدين محمد الأخناتي المتوفى سنة 750هـ/1394م[404].

ب- محمد بن نباته الفارقي المتوفى سنة 768هـ/1366م:)[405] هو محمد بن محمد بن محمد بن محمد ابن الحسن بن نباته، بلقب بمحي الدين، تعانى الأدب فظم وسلط ، وكتب النسخ، وقلم الحاشية، وقدم القاهرة بعد التسعين، مات بالقرب من ذلك.

جـ- أحمد الجوهري الحلبي المتوفى سنة738هـ/1337م[406]: هو أحمد بن منصور بن إبراهيم بن منصور بن رشيد الجوهري الحلبي، الأصل المصري، القاضي شهاب الدين، أبو العباس بن أبي الفتح، ولد سنة 660هـ، وكان خيرا محبا لأهل الحديث، وله تبث بمسموعاته، وكان من بيت الرياسة، توفي سنة 738هـ.

د- يحي المقدسي بن المصري المتوفى سنة 737هـ[407]: هو أبو زكريا يحي بن يوسف بن أبي محمد بن أبي الفتوح المقدسي، المعروف بابن المصري، الملقب بشرف الدين، حدث بالكثير من الكتب والأجزاء، وخرج له بعض المحدثين جزءا، وحدث به، وكان يشهد بالإصطبل السلطاني، توفي سنة 737هـ، ودفن بالقرافة.

---

(404)- محمد ابن مرزوق الخطيب، المسند الصحيح الحسن، المصدر السابق، ص37.

(405) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج04، المصدر السابق، ص 229.

(406) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج01،ص 314.

-تفي الدين أبي المعالي محمد بن رافع السلامي، الوفيات،ج01' المصدر السابق، ص ص (211-212).

(407)-تفي الدين أبي المعالي محمد بن رافع السلامي، الوفيات،ج02' المصدر السابق، ص 156.

-ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، ج08، دار ابن كثير، بيروت، سنة 1996م، ص 204.

هـ- محسن القرشي (664هـ/1266م-738هـ/1337م)[408]: هو العلامة ركن الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن يوسف بن عبد الرحمن بن عبد الجليل الجعفري التونسي المالكي، المعروف بابن القويع، ولد سنة 664هـ بتونس. اشتهر بتفننه واستحضاره واطلاعه وإتقانه في الأصول والحديث والفقه والأدب واللغة والنحو والعروض وأسماء الرجال والتاريخ والشعر والطب والحكمة ومعرفة أنواع الخطوط، توفي عام 738هـ بالقاهرة.

ونذكر من شيوخه في بجاية :

أ- أبو علي ناصر الدين المشادلي المتوفي سنة 731هـ/1331م[409]: هو الشيخ أبو علي منصور بن أحمد بن عبد الحق المشادلي، له علم بالفقه وأصول الدين، وله مشاركة في علم المنطق، وعلم العربية ، يحب التنقل والترحال، وتكلم عن تفسير كتاب الله وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. توفي عام 731هـ.

ب- محمد بن عبد الله زواوي [410].

جـ- محمد المصفر المتوفي سنة 743هـ / 1342م:[411] هو محمد بن يحي الباهلي البجائي، عرف بابن المسفر، الشيخ الإمام العالم المدرس المفتي الصالح الشهير، قاضي الجماعة ببجاية، المصنف الأوحد نادرة العصر توفي سنة 743هـ أو السنة التي تليها.

أما عن شيوخه في مدينة تلمسان فنختص منهم بالذكر:

---

(408) صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، ج01، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط01، سنة 2000م، ص ص (188-194).

-تفي الدين أبي المعالي محمد بن رافع السلامي، الوفيات، ج01' المصدر السابق، ص ص (234-235).

(409) أحمد الغبريني، ، عنوان الدراية، المصدر السابق، ص ص (229-230).

-أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، المصدر السابق، ص ص (634-635).

(410) محمد ابن مرزوق التلمساني، المسند الصحيح الحسن، المصدر السابق، ص 43.

(411) أحمد القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس، ج01 ، دار المنصور للطباعة و الوراقة، الرباط، سنة 1973م، ص ص (263-274).

- أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، المصدر السابق، ص ص (406-407).

-ابن مريم البستان، المصدر السابق، ص227.

- ابن فرحون، الديباج المذهب، المصدر السابق، ص 332.

أ- عبد الله بن عبد الواحد المجاصي البكاء[412]: هو عبد الله ابن ابراهيم المجاصي الشهير بالبكاء، أيام مجاورته بمكة المكرمة أخذ عنه بن مرزوق الجد والإمام المقري.

ب- محمد بن علي بن إبراهيم الآبلي (681هـ/757هـ)[413]: هو محمد بن علي بن إبراهيم بن أحمد العبدلي التلمساني، الشهير بالآبلي، أعلم خلق الله في فنون المعقول، ولد سنة 681هـ ومن تلاميذه ابن مرزوق الخطيب، توفي سنة 757هـ

جـ- سعيد بن إبراهيم ابن علي ابو اسحاق الخياط

د- عبد الرحمن ابن الإمام المتوفي سنة 743هـ /1342م[414]: هو الإمام عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن الإمام أبو زيد التلمساني، المشهور مع أخيه أبو موسى عيسى، من تواليفه، شرح عظيم عن الإمام بن الحاجب الفرعي توفي سنة 743هـ ، كان فقيه مجاورا أوضع القدر، بارع الأدب، عارف بالوثيقة ناقدا، صاحب دراية و رواية، ولي القضاء.

هـ- حسن بن يوسف بن يحي[415]

---

[412] أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، المصدر السابق، ص 205.

- أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج01، المصدر السابق، ص 230.

[413] ابن مريم، البستان، ترجمة: عبد القادر بوباية، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط01، سنة 2011، ص ص (345-351)

- أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، المصدر السابق، ص ص (416-422)

- أحمد القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس، ج02، دار المنصور للطباعة و الوراقة، الرباط، سنة 1973م، ص 231.

[414] ابن مريم، البستان، المصدر السابق، ص ص (222-229).

- أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، المصدر السابق، ص ص (236-239).

- ابن فرحون، الدباج المذهب، ج01، المصدر السابق، ص 486.

- ابن خلدون، كتاب العبر ديوان المبتدأ والخبر ، المصدر السابق، ص ص (2047-2048)

[415] محمد ابن مرزوق الخطيب، المسند الصحيح الحسن، المصدر السابق، ص41.

3- مؤلفاته:

لقد ترك ابن مرزوق الخطيب ثروة هائلة من المؤلفات والمصنفات، جعلته يعتلي مرتبة الريادة بن مؤرخي بلاد المغرب في القرن الثامن هجري، ولكن مما يؤسف أن معظمها قد ضاع، وبقي بعضها مخطوطا يحتاج إلى تحقيق ومراجعة، ومن أهم مؤلفاته نخص بالذكر:

أ-شرح عمدة الأحكام عن سيد الأنام: من تأليف تقي الدين الجمائلي، المتوفي سنة 600هـ/1203م. وهذا الكتاب سماه " تيسير المرام في شرح عمدة الأحكام"[416]، في خمسة أسفار، جمع فيه شرحي العمدة لمحمد بن دقيق (625هـ/1256م-702هـ/1302م)[417].وعمر الفاكهاني (654هـ/1256م -734هـ/1333م) [418].

ب- عجالة المستوفر أو "المستوفى" المستجاز في ذكر من سمع من المشايخ دون من أجاز من أئمة المغرب والشام والحجاز: سجل فيه ابن مرزوق قائمة طويلة بأسماء كل الشخصيات الذين تتلمذ علهم بصفة دائمة، أو الذين استمع إلى بعض شروحهم بصفة متقطعة[419].

---

[416] إسماعيل باشا البغدادي، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج01، دار إحياء التراث العربي، بيروت سنة 1451هـ، ص 170.

[417] هو شيخ الإسلام تقي الدين أبو الفتح محمد بن علي بن وهب بن مطيع أبي الطاع القشيري المنفلوطي، الشافعي المالكي المصري، ابن دقيق العيد، ولد سنة 625هـ. كان والده مالكي المذهب، تم تفقهه على الشيخ عز الدين ابن عبد السلام، فحقق المذهبين وأفتي بهما، وسمع الحديث عن جماعة، ولي القضاء بالديار المصرية، ودرس بالشافعي ، ودار الحديث الكاملية وغيرهما، شرح مختصر ابن الحاجب، وعمدة الأحكام، توفي عام 702هـ. أنظر: ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، ج08، دار ابن كثير، بيروت، ص ص (11-13)

[418] هو علي بن علي بن سالم بن صدقة اللخمي الإسكندري، تاج الدين الفاكهاني، تفقه لمالك، مهر في العربية والفنون، صنف شرح العمدة وغيرها من تصانيفه، توفي بالإسكندرية عام 734هـ، دفن بها قرب باب البحر. أنظر: ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج03، تحقيق: عدنان درويش، المنظمة العربية للشريعة والثقافة والعلوم، القاهرة، سنة 1996م، ص ص (178-179).

[419] محمد ابن مرزوق الخطيب، المسند الصحيح الحسن، المصدر السابق، ص ص (49-50).

جـ-المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن: والذي ألفه بدافع الشكر والامتنان للسلطان أبي الحسن المريني، ذاكرا الخصال الحميدة التي كان يتصف بها، مشيدا بأعماله وفضائله كما سجل فيه بعض رحلاته إلى المشرق ثم المغرب[420].

د- شرح الأحكام الصغرى: شرح كتاب الأحكام الصغرى لعبد الحق بن عربي الإشبيلي[421].

هـ- برج الحفاء في شرح الشفاء: وهذا العمل هو شرح كتاب الشفاء للقاضي عياض المتوفى سنه 544هـ/1149م. ويبدو أنه العمل الخاص الذي يعتز به ابن مرزوق على الرغم من أنه لم يكمله، وقد أطلع ابن مرزوق الحفيد ابن حجر العسقلاني في القاهرة على النسخة المكتوبة بيد جده[422]، وهذه النسخة محفوظة في مكتبة غوطة gotha، وتقع في خمس مجلدات[423].

و- جنى الجنتين في فضل الليلتين: قصيدة في شرح فضائل ليلة المولد النبوي الشريف وليلة القدر[424].

4- رحلته:

لقد صاحب ابن مرزوق الخطيب والده في رحلة الى المشرق وعمره ثماني عشرة سنة، فحج وجاور ولقي الجلة من العلماء سواء في مكة المكرمة، أو المدينة المنورة، وقد ذكرنا تراجم بعضهم عندما تحدثنا عن شويخ ابن مرزوق، ولما طلب منه والده الذي قرر المكوث بالحجاز العودة الى تلمسان ليكون بجوار عمه، فمر بطريقه بالشام، ثم اتجه نحو الديار المصرية فأقام بالقاهرة مدة يأخذ العلم عن عدد من علمائها. وبعد مروره بالإسكندرية توجه صوب مقصده، فمر بطرابلس الغرب ثم تونس ولما دخل الجزائر، جائه كتاب عمه يستحثه على الاسراع في المسير. ففي شهر رمضان سنة

---

(420) المصدر نفسه، ص 48.

(421) أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، المصدر السابق، ص465.

(422) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج03، المصدر السابق، ص 362.

(423) محمد ابن مرزوق الخطيب، المسند الصحيح الحسن، المصدر السابق، ص48.

(424) محمد ابن مرزوق الخطيب، المسند الصحيح الحسن، المصدر السابق، ص 51.

733هـ/1332م دخل إلى تلمسان فوجد السلطان أبا الحسن المريني قد افتكها من بني عبد الواد. وكان السلطان قد أمر بإنشاء مسجد في ضاحية العباد، فأوكل هذا العمل الى ابن مرزوق وعمه[(425)] واختاره السلطان أبي الحسن المريني ليكون رسولا إلى ملوك الأندلس للمفاوضة في إطلاق سراح الأسرى فنجح في هذه السفارة سنة 748هـ، وقام بها أحسن قيام. وعند عودته من هذه السفارة إلى فاس استأذن السلطان في العودة إلى تلمسان ليتفرغ للدراسة والتعليم والتأليف[(426)].

ورحل بعد وفاة أبو الحسن المريني إلى الأندلس فاجتذبه سلطانها، وقلده الخطبة في مسجدها، وذلك في سنة 752هـ، وعين خطيبا للحضرة، ومدرسا للمدرسة البلاطية، وهنالك التقي بالوزير لسان الدين ابن الخطيب[(427)].

المبحث الثالث: عبد الرحمن بن خلدون (732 هـ-803 هـ):

1- ترجمته:

هو عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي التونسي المولد، الإمام ولي الدين أبو زيد قاضي القضاة[(428)]. ينحدر من أسرة عريقة يرجع نسبها إلى حضر موت[(429)]، ومن غرب اليمن إلى وائل بن حجر بن أفيال العرب، استقرت بالأندلس بعد الفتح الإسلامي[(430)].

---

(425) المصدر نفسه، ص48.

(426) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج03، المصدر السابق، ص361.

(427) ابن فرحون، الديباج المذهب، ج01، المصدر السابق، ص 294.

(428) عبد الرحمن بن خلدون، التعريف بابن خلدون، المصدر السابق، ص03.

-أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، المصدر السابق، ص242.

-عبد الرحمن ابن خلدون، رحلة ابن خلدون، المصدر السابق، ص27.

- أحمد بابا التنبكتي، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، المصد السابق، ص154.

(429) حضرموت تقع بين 72° درجة طولا، و 12° عرضا، وهي ناحية واسعة شرقي عدن، بقرب البحر، حولها رمال كثيرة تعرف بالأحقاف. أنظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج02، المصدر السابق، ص ص (264-270).

(430) عبد الرحمن ابن خلدون، رحلة ابن خلدون، المصدر السابق، ص27.

ولد عبد الرحمن بن خلدون بتونس في رمضان عام اثنين وثلاثين وسبعمائة (732هـ/ 1332م)، حفظ القرآن الكريم على الأستاذ المكتب أبي عبد الله بن سعد بن بزال الأنصاري[431]، الذي أصله من جالية الأندلس ، وكان إماما في القراءات لا يلحق شانه، وتعلم القراءات السبع المشهورة وأتقنها إفرادا، أي يتلو القرآن الكريم كله أو جزء منه برواية واحدة لأحد القراء السبعة أو العشرة المشهورة، وجمعا أي يجمع عند قراءة بين روايتين فأكثر، وختم ابن خلدون القرآن الكريم إحدى وعشرين ختمة[432]. ودرس كتبا كثيرة من كتاب التمهيد على الموطأ[433]، مقتصرا على الأحاديث فقط، وكتاب التسهيل لابن مالك[434]، ومختصر ابن الحاجب [435] في الفقه، وتعلم صناعة اللغة العربية على والده، ومجموعة من الأساتذة في تونس، منهم: أبو عبد الله بن العربي الحصايري، الذي كان إماما في النحو، وله شرح مستوفى على كتاب "التسهيل"، ومنهم أبو عبد الله أبو عبد الله محمد بن الشواش الزرزالي، ومنهم أبو العباس أحمد بن القصار الذي كان بارعا في صناعة النحو، وله شرح على قصيدة "البردة" المشهورة في مدح الجناب النبوي.

وأخذ الفقه بتونس عن جماعة من العلماء منهم: أبو عبد الله محمد بن عبد الله محمد بن عبد الله الجيان، وأبو محمد القصير الذي قرأ عليه كتاب "التهذيب" لأبي سعيد البرادعي، مختصر المدونة،

---

[431]هو أبو عبد الله محمد بن الحسين بن عبد الله القرشي الزبيدي، توفي عام 740هـ. أنظر: محمد بن عبد الرحمن السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج04، القاهرة، سنة 1353هـ،ص145.

[432]عبد الرحمن ابن خلدون، رحلة ابن خلدون، المصدر السابق، ص ص (36-37)

[433]كتاب التمهيد في الموطأ من المعاني والأسانيد، شرح على الموطأ، رتبه على أسماء شيوخ مالك على حروف المعجم، بدار الكتب الظاهرية بدمشق أجزاء منه، وبدار الكتب المصرية حفظت أجزاء منه كذلك. أنظر: عبد الرحمن ابن خلدون، رحلة ابن خلدون، المصدر السابق، ص37.

[434]هو محمد بن عبد الله بن مالك، العلامة جال الدين أبو عبد الله الطائي الجياني، الشافعي النحوي، نزيل دمشق، إمام النحاة، وحافظ اللغة، ولد سنة 600هـ، له مجموع يسمى الفوائد في النحو، هو الذي لخص منه كتاب تسهيل الفوائد، جمع في إيجاز قواعد النحو، وفد عني بهذا الكتاب أعلام النحو قراءة، وشرحا، توفي في شعبان سنة 672هـ. أنظر: السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين و النحاة، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، ج01، دار الفكر بيروت، ط02، سنة 1997م، ص ص (130-136).

[435] هو عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس، الإمام العلامة المتقن، المحقق، جمال الدين أبو عمرو بن الحاجب الكردي الدويني الأصل، المقرئ، النحوي، الأصولي، الفقيه، ولد سنة 570هـ، توفي سنة 646هـ، من مصنفاته مختصر الحاجب في الأصول، ومصنف في الفروع للمالكية. أنظر: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، الوافي بالوفيات، ج 19،تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط01، سنة 2000م، ص ص (321-326).

وكتاب المالكية، وتفقه على يديه، وكان يحضر مجلس قاضي الجماعة أبي عبد الله محمد بن عبد السلام[436]، وسمع عليه أثناء ذلك كتاب الموطأ للإمام مالك، وكانت له طرق عالية.

وقد اتسم ابن خلدون بصفات حميدة، كحسن الخلق، وكان جم الفضل باهر الخصال، رفيع القدر، ظهور الحياء، وقور المجلس، عالية الهمة قوي الجأش. طامحا لفن الرئاسة، وتقدما في الفنون العقلية والنقلية، متعدد البحث، كثير الحفظ، صحيح التصور، بارع الخط مغربي بالتجلة، جواد الكف، حسن العشرة، بدول المشاركة[437].

ولما أهلك الطاعون الجارف كل المشيخة، وذهب بالأعيان والصدور، وفد على تونس أبو السلطان أبي الحسن المريني سنة 748هـ، ومعه جماعة من أهل العلم، وكان يلزمهم شهود مجلسه ويتجمل بمكانهم فيه، كان ابن خلدون ينتاب مجلسه ينهل من علومه[438].

2- شيوخه:

عدد شيوخ ابن خلدون كثير، يصعب أن يعد أو يحصى، فمنهم من سماه بنفسه، عندما عرف ننفسه، وهناك من وفدوا مع أبي الحسن المريني. وسنحاول تقديم مجموعة منهم، غير أولئك الذين عرفنا بهم في متن الرسالة:

أ- عبد المهيمن بن محمد بن عبد المهيمن بن محمد بن محمد بن عبدالله الحضرمي[439]: ويكنى أبا محمد، كان خاتمة الصدور، وصاحب القلم الأعلى بفاس، وعظيم الرؤساء ذاتا وسلفا ونزاهة وجلالة، اشتهر في علم الحديث والأدب والتاريخ واللغة والعروض،

---

[436] هو محمد بن عبد السلام الهواري التونسي، قاضي الجماعة وعلامتها، شيخ الإسلام، الإمام المحقق المشهور، انتحل فنون العلم، وفتح مختومها، فهو فقيه الأوان وعلامة الزمان، والمشار إليه بالبنان والبيان، ما قرن به فاضل من العلماء إلا رجحه، ولا ألقى بسهم من العلوم إلا كشف وأوضح، عدلا في أحكامه، مولده سنة 676هـ، توفي عام 749هـ. أنظر: أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، المصدر السابق، ص ص (410-411).

[437] المصدر نفسه، ص ص (242-243).

[438] عبد الرحمن ابن خلدون، رحلة ابن خلدون، المصدر السابق، ص40.

[439] أحمد القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس، ج01 ،المصدر السابق ص ص (352-353).

متصل الاجتهاد لا يفتقر له علم، ولد بسبته[440] عام 676هـ. ولي كتابة الانشاء لأبي الحسن المريني، حتى توفي في عام الطاعون الجارف 749هـ، وهو في موكب مخدومه بتونس التي دفن بها، وقد لازم ابن خلدون مجلسه ، وأخذ عنه سماعا وإجازة الأمهات الست، وكتاب الموطأ، والسير لابن إسحاق، ومقدمة ابن الصلاح في الحديث.

ب- الوادي آشي[441]: هو محمد بن جابر بن محمد بن قاسم بن محمد بن أحمد بن إبراهيم بن حسان القيسي الوادي آشي الأندلسي، شمس الدين، ثم التونسي، ثم المالكي، ولد بتونس عام 673هـ، تفقه على مذهب المالكية، كان حسن المشاركة، عارفا بالنحو واللغة والحديث والقراءة، توفي بتونس في شهر ربيع الأول عام الطاعون 749هـ. وقد وصفه ابن خلدون بصاحب الرحلتين لأنه رحل إلى المشرق مرتين، وسمع عليه كتاب المسلم بن الحجاج، إلا فوتا يسيرا من كتاب الصيد ، وكتاب الموطأ من أوله إلى آخره، وبعضا من كتاب الأمهات الخمس. وأجاز له الرواية عنه في كتب كثيرة في العربية والفقه، وأجاز له إجازة عامة[442].

جـ- محمد بن إبراهيم الآبلي[443]:هو محمد بن إبراهيم بن أحمد العبدري التلمساني عرف بالآبلي، الإمام المجمع على إمامته، أعلم خلق الله بفنون المعقول، ولد سنة 681هـ بتلمسان، أصله من جالية آبلة[444] من بلاد الجرف، نشأ في كفالة جده القاضي بتلمسان، فانتحل العلم وتفقه واستعمل فمهر في العلوم العقلية والعقلية حتى فاق أقرانه في ذلك، ولما أراد أبو حمو موسى الأول، إكراه على العمل الإداري فرّ إلى فاس وبها توفي سنة 757 هـ، وقد ساهم الآبلي في تكوين شخصية ابن خلدون العلمية، و لما قدم إلى تونس في موكب أبي الحسن المريني، وضمه في

---

[440] سبتة بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب ومرساها، أجود مرسى على البحر، وهي على مرسى البربر تقابل جزيرة الأندلس، وهي مدينة حصينة تشبه مدينة المهدية بإفريقية لأنها ضاربة في البحر، داخلة كدخول كف على زند. أنظر:ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج03، المصدر السابق، ص 209.

[441] ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج03، المصدر السابق، (413-414).

[442] عبد الرحمن ابن خلدون، رحلة ابن خلدون، المصدر السابق، ص 39.

[443] ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج03، المصدر السابق، (288-289).

- أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، المصدر السابق، ص ص (416-426).

[444] آبلة قرية كبيرة في غوطة دمشق، من ناحية الوادي. أنظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، المصدر السابق، ج03، ص50.

جملة العلماء في مجلسه، وهو في خلال ذلك يتقن العلوم العقلية، ويبثها في أهل المغرب، حتى حذق فيها الكثير من سائري أمصارها، وألحق الأصاغر بالأكابر في تعليمهم، وأخذ عنه ابن خلدون الأصلين، والمنطق، وسائر الفنون الحكمية والتعليمية وكان يشهد له بالتبريز في ذلك[445].

د- أبو القاسم عبد الله ابن يوسف ابن رضوان المالقي[446]: مؤلف السياسة السلطانية، ولد بالأندلس عام 718 هـ، اشتهر بالتفقه في النحو واللغة وإتقان الرواية، وفنون النثر، وحسن الهيئة والخلق، يجتهد في حوائج من لجأ إليه، محبا لأهل الدين، قريب الدمعة، كثير الذم لنفسه، عمل بديوان الإنشاء في عهد أبي الحسن المريني، ثم عيّن في وظيفة الإنشاء في عهد أبي سالم، وبقي على ذلك حتى وفاته، وكان صاحب العلامة التي توضع عن السلطان أسفل المراسيم والمخاطبات، وبعضها يضعه السلطان بخطه.وقد اتسم ابن رضوان ببراعة خطه، وكثرة علمه، وحسن سمعته، وإجازته في فقه الوثائق، والبلاغة، والترسل عن السلطان، وحوك الشعر، رغم أن ابن خلدون اتخذه صديقه لمقاربة السن بينهما، وقد أفاد منه[447].

3- مؤلفاته:

لقد اشتهر ابن خلدون بكتابه تاريخ ابن خلدون، المسمى "ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"، يرتب هذا الكتاب على النحو التالي:

مقدمة في فصل التاريخ، ثم ثلاثة كتب:

- الكتاب الأول في العمران.
- الكتاب الثاني في أخبار العرب.
- الكتاب الثالث في أخبار البربر[448].

---

(445) عبد الرحمن ابن خلدون، رحلة ابن خلدون، المصدر السابق، ص 41.

(446) أحمد بابا التنبكتي، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، المصدر السابق، ص ص (133-134).

- أحمد بن خالد الناصري السلامي ، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، ج 4، ص39.

(447) عبد الرحمن ابن خلدون، رحلة ابن خلدون، المصدر السابق، ص 42.

(448) سعد زغلول: "ابن خلدون مؤرخا في تاريخ العرب والبربر في كتاب العبر"، ج14، عالم الفكر، وزارة الثقافة الكويت، عدد02، جويلية، أوت1983م، ص 12.

وهو يشير بعد ذلك إلى التعريف بنفسه، ويذكر رحلاته شرقا وغربا.

ومن المعروف أن الجزء الأول من العبر الذي اشتهر باسم " مقدمة ابن خلدون" والذي أذاع صيت هذا المؤرخ المغربي الكبير، و رفعه بحق إلى مصاف الفلاسفة، وكبار المفكرين، وقد رفع جوتيه في كتابه المعنون "ماضي إفريقيا الشمالية المعتم"، ابن خلدون إلى مرتبة القدّيس أغسطين، وقال: "إن القارة الإفريقية فقيرة في الرجال من طراز أغسطين وابن خلدون"[449].أما أرنولد تويني، مؤرخ الحضارات المعاصرة، فقد وصف مقدمة ابن خلدون بأنها: "عمل لم يقم بمثله إنسان في أي زمان ولا مكان"[450]. ولو أن تويني يقارن في نفس هذا البحث بين ابن خلدون، وكل من تيودور ميكافيلّي وغيرهما من المؤرخين العالميين، والغرض من هذه المقارنة أن اكتشاف المقدمة في القرن التاسع عشر ميلادي، بعدما قام دسلان، الذي شهر منصب المترجم الرسمي للجيش الفرنسي بترجمة الأقسام الخاصة بتاريخ البربر من كتاب العبر إلى اللغة الفرنسية، كما ترجم الجزء الأول كذلك إلى نفس اللغة تحت عنوان: "مقدمات ابن خلدون"، وافق هذا التطور علم التاريخ وعلم الاجتماع، حيث أصبح التفكير التاريخي عقليا ماديا، بشكل لا يتوافق مع التفكير الديني[451].

تعتبر المقدمة مؤلفا موسوعيا الطابع، وهي كتاب تفكير وجهد، وهي جزء من سبعة أجزاء، يتكون منها كتاب العبر، وهي عمل تركيبي قائم على تجميع عناصر التراث الإسلامي المختلفة في فترة فقد فيها كثيرا بريقه، واستيعاب تلك العناصر في أطرها التاريخية، ثم تمثلها على شكل نظريات عامة يمكن أن تفسر كيفية مسار المجتمع في حياته اليومية المعتادة عبر الزمن، وبذلك يصبح التاريخ أبا للعلوم[452].

ويكون التاريخ علما تقليديا عاديا، وهو في الستة الباقية من الأجزاء من كتاب العبر، وهو أشبه ما يكون بتواريخ سابقين من المسلمين، فطريقته في كتاب تاريخ البربر تتمثل في تبويب الوقائع

---

[449] E.F. Gautier , Le Passer de l'Afrique de Nord, Les Siècles Obscurs, Paris, 1942, p80.

[450] محمد عبد الله عنان، ابن خلدون، القاهرة، ط 03، سنة 1965، ص 141.

[451] سعد زغلول، "ابن خلدون مؤرخا في تاريخ العرب والبربر في كتاب العبر"، المرجع السابق، ص 40.

[452] المرجع نفسه، ص 39.

في فصول تتعلق بمختلف السلالات الحاكمة، والاهتمام الأكبر ينصب على الأحداث العسكرية، وإن أهمل بعض قواعد النقد التاريخي التي أصّر عليها في المقدمة، لم يطبق دوما نظرياته في قيام الدولة والعمران، ويكتفي برواية الأحداث التاريخية، ويعد التاريخ في كتاب العبر بحق عملا ينسجم مع عبقرية صاحبه، مع الاهتمام بالبلاغة ووفرة الوقائع، ونقل الأخبار التقليدية والروايات الشفهية والأسطورية[(453)].

كما نظم ابن خلدون قصائد عديدة في مدح الملوك، والأمراء الذين خدمهم، أو في الأعياد، أو في استعطافهم، وله مراسلات شعرية مع الوزير لسان الدين ابن الخطيب، وله رسائل وخطب أجاد فيها في تدبيجها، وتعتبر رسائله للسان الدين الخطيب، أجود الرسائل التي عرفها النثر العربي.

4- رحلاته شرقا وغربا:

لقد دوّن ابن خلدون سيرته الذاتية، ورحلاته، خلال الحديث عن نفسه في الملحق الذي ختم به كتابه العبر، وعنونها بـ "التعريف بابن خلدون و رحلاته شرقا وغربا".ومما لا شك فيه أن التكوين العلمي كان يهيئ ابن خلدون إلى تولي الوظائف الإدارية، التي يشغلها أعوان الأمراء والسلاطين في الحكم، ونظرا لشخصيته الطموحة وذكاء فذ كان يتمتع به مؤرخنا، جعله يترقى في سلم الوظائف العلمية وهولم يبلغ العشرين من عمره، وسنحاول تتبع مراحل رحلاته منذ خروجه من تونس التي سببها:

- الطاعون الجارف الذي أودى بحياة والده سنة 749 هـ، ومعظم المشيخة، وكان الآبلي من القلائل الذين نجو منه، فاستمر ابن خلدون في ملازمة مجلسه والاعتكاف على القراءة عليه مدة ثلاث سنين، إلى أن استدعاه السلطان أبو عنان[(454)]إلى المغرب فارتحل إليه[(455)].

---

(453)0المرجع نفسه، ص 40.

(454) أبو عنان أحد سلاطين الدولة المرينية، تسلم الحكم بعد أن هزم أبي الحسن المريني في معركة وادي أم الربيع سنة 751 هـ، وضيّق عليه بجبال هنتاتة، وتنازل له عن العرش واستمر في الحكم إلى سنة 759 هـ. أنظر : عبد الحميد حاجيات، أبو حمو موسى الزياني، حياته وآثاره، المرجع السابق، ص ص (28-34).

(455)عبد الرحمن ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، المصدر السابق، ص 2055.

- دخول ابن خلدون في خدمة السلطان أبي إسحاق[456] صاحب تونس ووزيره المستبد بأمر تونس أبي محمد بن تافراكين. مما أدى بابن خلدون بالمسارعة إلى قبول وظيفة "كتابة العلامة" للسلطان، وهي وضع عبارة " الحمد لله و الشكر لله" بالقلم الغليظ ما بين البسملة وما بعدها من مرسوم.[457] قال ابن خلدون: "فلما عيّنت إلى هذه الوظيفة سارعت إلى الإجابة، لتحصيل غرض من اللحاق من المغرب، وكان كذلك"[458].

أ-الرحلة إلى المغرب الأقصى: في أول سنة 753 هـ الموافق لـ فبراير 1352م، خرج ابن خلدون مع سلطانه ومن انظم إليه من عرب أبي الليل للقاء الخصوم، أي حفيد السلطان أبي يحي الحفصي[459]، صاحب قسنطينة[460]، الأمير أبي زيد عبد الرحمن، ولما شعر ابن خلدون بالهزيمة ترك معسكره، ناجيا بنفسه نحو قفصة، ثم إلى بسكرة، ثم ارتحل ناويا شد الرحال إلى تلمسان للوفود على أبي عنان، ولكن ابن أبي عمرو صاحب السلطان تلقاه بما لم يحتسبه، ورده إلى بجاية، حيث قضى شتاء سنة 754 هـ/ 1353م، و في السنة التالية 755هـ/1354م، كان الحاجب يستدعيه إلى فاس ويضمه إلى أهل مجلسه العلمي، ويلزمه شهود الصلوات معه، ويستعمله في كتابه والتوقيع بين يديه على كره من ابن خلدون. وعكف على النظر والقراءة ولقاء المشيخة من أهل المغرب والأندلس والوافدين في غرض السفارة وحصل على الإفادة منهم[461]. كانت مدة سنتين

---

[456] أبو إسحاق أحد سلاطين الحفصيين نزل عليه بتونس أبي محمد بن تافراكين فأكرم نزوله، وولاه الخطابة بجامع الموحدين بتونس، إلى أن اهلك السلطان أبو إسحاق وابنه خالد سنة 770 هـ .أنظر:عبد الرحمن ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، المصدر السابق، ص 2055.

[457] عبد الرحمن ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، المصدر السابق، ص 2056.

[458] المصدر نفسه، ص 2056.

[459] أبو يحي الحفصي أحد سلاطين الدولة الحفصية، الذي عقد حلفا مع المرنيين بن أبي الحسن المريني، مع إحدى الأميرات الحفصيات، استولى على مدينة بجاية سنة 733هـ، توفي سنة 747 هـ. أنظر: عبد الحميد حاجيات، أبو حمو موسى الزياني، حياته وآثاره، المرجع السابق، ص ص (18-23).

[460] قسنطينة" الزاب" كلمة بربرية معناها السبخة، و هي كورة عظيمة ونهر جرار بأرض المغرب على البر الأعظم عليه بلاد واسعة، وقرى متواطئة بين تلمسان وسجلماسة، يحصد زرعها مرتين في السنة. أنظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج02، المصدر السابق، ص 124.

[461] عبد الرحمن ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، المصدر السابق، ص 2056.

من دخوله حاشية السلطان العلمية وكتابته بين يدي الحاجب محمد ابن أبي عمر، كافية ليوثق ابن خلدون صلته بالسلطان أبي عنان. ويصبح كاتبه المقرب الأمر الذي أثار غيرة المنافسين، وفي أواخر سنة 756 هـ/ 1356م، بينما كان أبو عنان يعاني مرضه الذي مات فيه، نمي أن الأمير محمد أبي عبد الله [462]صاحب بجاية[463]، معتمل في الفرار ليسترجع بلده، و أن ابن خلدون داخله في ذلك الأمر، فبادر السلطان أبي عنان بالقبض عليهما، وامتحن بالعذاب والسجن.ومع أن الأمير محمد أطلق سراحه بعد فترة وجيزة، ظل ابن خلدون في الاعتقال حتى اضطر إلى مخاطبة السلطان قبل وفاته بقصيدة مديح طويلة في نحو 200 بيتا، ومات السلطان أبو عنان سنة 759هـ/1358م، ولكن الوزير الحسن بن عمر أفرج عنه[464].

ولما وصل السلطان أبو سالم [465]إلى الحكم عين ابن خلدون في كتابة "السر والترسيل عنه والإنشاء لمخاطبته"، وقد انفرد ابن خلدون بأسلوب الكلام المرسل الواضح في الكتابة، بدلا مما كان متعارفا عند الكتاب من استعمال الكلام المسجوع الخفي المعاني. ثم ولي ابن خلدون آخر أيام دولة أبي سالم "خطة المظالم"، وقد أخلص في عمله كثيرا، ولم يزل ابن مرزوق آخذا في سعايته بابن خلدون، وأمثاله من أهل الدولة غيرة ومنافسة، إلى أن انقلب الأمر على السلطان بسببه، وثار الوزير عمر بن عبد الله بدار الملك، وصار الناس إليه، وكان في ذلك هلاكه[466].

<u>ب-الرحلة إلى الأندلس:</u> في عام 764هـ اختار ابن خلدون الرحلة إلى الأندلس، بعدما صرف ولداه وأمهم إلى أخوالهم بقسنطينة، ثم سار إلى سبته، حيث نزل بيت أبي العباس أحمد بن الشريف الحسني، ومن سبتة نزل إلى جبل الفتح، ومنه انتقل إلى غرناطة،حيث رحب به سلطانها

---

[462]هو أبو عبد الله محمد ابن الأمير أبي زكرياء، ولاّه أبو عنان إقليم بجاية ليقف في وجه ملوك تونس. أنظر: عبد الرحمن ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، المصدر السابق، ص 1982.

[463]بجاية مدينة على ساحل البحر بين إفريقيا والمغرب، كان أول من اختطها الناصر بن ملناس بن حماد زيري بن مناد بن بلكين في حدود سنة 457هـ. أنظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج01، المصدر السابق، ص239.

[464]عبد الرحمن ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، المصدر السابق، ص 73.

[465]أبو سالم هو أخو السلطان أبي عنان كان منفيا في الأندلس، حكم المرنيين بعد الانقسام والاضطراب الذي حدث بعد وفاة أبي عنان. أنظر: المصدر نفسه، ص74.

[466]المصدر نفسه، ص ص (75-80).

ابن الأحمر[467]، ووزيره لسان الدين ابن الخطيب، الذي رحب به، وهنئه بالقدوم، وبدأه بقصيدة مطلعها:

حللت حلول الغيث بالبلد المحل   على الطائر الميمون والرحب والسهل

بمينا بمــن تعنــوا الوجوه لوجـــه   من الشيخ والطفل المهـــدإ والكهل

لقد نشأت عندي للقياك غبطـة   تنسي اغتبـاطـي بالشيبــة والأكـــل

وودي لا يحتـــاج فيه لشاهــد   وتقديري المعلوم ضــرب من الجهــل[468].

وفي سنة 765هـ/1363م خرج اين خلدون بنيابة عن سلطان غرناطة إلى ملك قشتالة[469] في إشبيلية في سفارة من أجل الصلح، فنجح في سفارته نجاحا كبيرا، وقام بزيارة البلاد التي عرقت أمجاد أسلافه، كما التقى بالطبيب اليهودي إبراهيم بن زرزر الذي أتي ليعالج السلطان أبا عنان في فاس عندما مرض، ثم رجع إلى غرناطة[470].

ثم لم يلبث الأعداء وأهل السعايات أن خيلوا الوزير ابن الخطيب من تقرب ابن خلدون من السلطان، واشتماله عليه، وحركوا له جواد الغيرة فتنكر، ومن حسن حظ ابن خلدون أن صاحبه أبا عبد الله صاحب بجاية نجح في استعادتها في رمضان 765هـ/1364م، فاستأذن ابن خلدون ابن الأحمر صاحب غرناطة في الرحيل فأذن له، بمرسوم التسجيع كتبه ابن الخطيب، يفيض مدحا وثناء عليه، وتأسف لفراقه أسفا كبيرا[471].

---

[467]هو السلطان يوسف إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن نصر الأنصاري الخزرجي، أمير المسلمين بالأندلس، ولي الملك بعد أخيه عام 733هـ. أنظر: أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج05، المصدر السابق، ص ص (80-81).

[468]عبد الرحمن ابن خلدون، رحلة ابن خلدون، المصدر السابق، ص 84.

[469]قشتالة: إقليم عظيم بالأندلس، فصبته اليوم طليطلة، وجميعه اليوم بيد الإفرنج. أنظر:ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج04، المصدر السابق، ص.352.

[470]عبد الرحمن ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، المصدر السابق، ص 85.

[471]الرحمن ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، المصدر السابق، ص 91.

جـ- الرحلة إلى بجاية: ركب ابن خلدون البحر من ساحل ألميرية[472] في منتصف سنة 766هـ/مارس 1365م، فتهافت أهل بجاية من كل أوب، يمسحون أعطافه، واحتفل السلطان بقدومه، وأركب أهل دولته للقائه، وعهد إليه بخطة الحجابة، وفي ذلك يقول ابن خلدون: "وقد أمر السلطان أهل الدولة بمباركة بابي، واستقللت بحمل ملكه، واستفرغت جهدي في سياسة أموره وتدبير سلطانه، وأنا مع ذلك عاكف – بعد انصرافي من تدبير الملك عنوة- إلى تدريس العلم أثناء النهار بجامع القصبة لا أنفك عن ذلك"[473].

وقد أحسن الخدمة لسلطانه أبي عبد الله خصوصا بعد أن ساد الشقاق بينه، وبين ابن عمه أبي العباس، بسبب عرب أوطانهم من الدواودة، فبعد انهزام أميره الذي كان قد بدد ما جمعه له ابن خلدون من الأموال الكثيرة، التي أنفقها في الحرب. خرج ابن خلدون إلى قبائل البربر بالجبال، فاستباح حماهم وأخذ رهنهم عن الطاعة، حتى استوفى منهم الجباية التي كانوا ممتنعين منها منذ سنين، ولما انتهى الصراع بمقتل أبي عبد الله على يد ابن عمه أبي العباس بمداخلة من أهل بجاية، ووصل الخبر ابن خلدون، وهو مقيم بقصور السلطان بالقصبة، وطلب منه البعض أن يبايع من أهل القتيل، ولكن فضل استقبال المنتصر وتمكينه من البلد، وطلب الإذن في ترك الوظيفة والخروج من بجاية، وكان له ذلك فسار إلى بسكرة. لصداقة كانت بينه وبين شيخها أحمد بن يوسف بن مزني، فأكرمه وبره[474].

د- الرحلة إلى مصر: انطلق ابن خلدون إلى ميناء تونس[475]، فوجد بالمرسى سفينة لتجار الإسكندرية ، يصف ابن خلدون ذلك قائلا: "...خرجت إلى المرسى والناس متسايلون على

---

[472] ألميرية مدينة تقع على شاطئ واسع وعميق، يعرف اليوم باسم خليج ألميرية، يمتد مابين رأس قابطة بيني أسود شرقا، ورأس سابينال غربا، يحدها من جهة الغرب الركائز الأخيرة من جبال ألميرية، أما من جهة الشرق فتمد قفص مثلث الشكل، وهي مدينة حصينة، تحيط بها الجبال من كل الجهات عدا الجهة الجنوبية والقفص الشرقي، وكلها جبال صخرية. أنظر:

Torres Baladas, Almeria Islamica,PP(411-412).

[473] عبد الرحمن ابن خلدون، رحلة ابن خلدون، المصدر السابق، ص 95.

[474] المصدر نفسه، ص 96.

[475] تونس مدينة كبيرة محدثة بإفريقية على ساحل بحر الروم، عمرت من أنقاض مدينة كبيرة بالقرب منها يقال "قرطاجنة". أنظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج02، المصدر السابق، ص 60.

أثري، من أعيان الدولة والبلد وطلب العلم، فودعتهم، وركبت البحر في متصف شعبان من السنة"[476].

ووصل ابن خلدون إلى الإسكندرية، وأقام بها شهرا، يهيأ أسباب الحج، فلم يتم له ذلك، فقرر السفر إلى القاهرة[477] في أواخر من سنة 784هـ. يقول ابن خلدون: " فانتقلت إلى القاهرة أول ذي القعدة، فرأيت حضرة الدنيا، وبستان العالم، ومحشر الأمم، ومدرج العز من البشر، وإيوان الإسلام، وكرسي الملك، وتلوح القصور والأواوين، وتزهو الخوانك، والمدارس بآفاقه، وتضيء البدور والكواكب من علمائه، فقد مثل بشاطئ بحر النيل، فهو الجنة... ومررت في سلك المدينة تغص بزحام المارة، وأسواقها تزحم بالنعم"[478].

ومازلنا نحدث عن هذا البلد ، وبعد مداه في العمران، واتساع الأحوال، ولما هلك بعض المدرسين بالمدرسة القمحية[479]، فولاه السلطان التدريس بها، غير أن السلطان الظاهر برقوق[480]سخط على قاضي المالكية جمال الدين عبد الرحمن بن خير المالكي لبعض النزاعات سنة 785هـ، اختص السلطان بان خلدون لهذه الولاية، فقام ابن خلدون بما دفع السلطان إليه من ذلك المقام المحمود وفي جهده في تطبيق أحكام الله لا تأخذه في الحق لومة لائم، مساويا في ذلك بين الخصمين، آخذا بحق الضعيف من الحكمين.

وأراد ابن خلدون أن يستقدم أولاده من تونس، لما استقر به الحال، وبينما هم في طريقهم إلى الإسكندرية في البحر، غرقت السفينة التي أصابها عاصف من الريح، فماتت زوجته وأولاده جميعا،

---

[476]عبد الرحمن ابن خلدون، رحلة ابن خلدون، المصدر السابق، ص 199.

[477]القاهرة مدينة بجنب الفسطاط يجمعهما سور واحد وهي اليوم المدينة العظمى بمصر، وكان أول من احدثها جوهر غلام المعز بن أبي تميم معد بن إسماعيل. أنظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج04، المصدر السابق، ص 301.

[478]عبد الرحمن ابن خلدون، رحلة ابن خلدون، المصدر السابق، ص ص (199-200).

[479]تسمى بهذا الاسم لأن لها أوقافا من ضيعة الفيوم التي تغل قمحا، كان مدرسوها يقتسمونه، وهي تقع بجوار جامع عمرو بن العاص. أنظر: عبد الرحمن ابن خلدون، رحلة ابن خلدون، المصدر السابق، ص 204.

[480]هو السلطان الظاهر سيف الدين، أبو سعيد برقوق، بن أيمن الجركسي العثماني اليلبغاوي، جلبه الخوجة فخر الدين عثمان بن مسافر إلى مصر، فاشتراه الأمير يلبغا العمري الخاكصي وأعتقه، وسمي برقوق لنتوء في عينيه، ولد سنة 741هـ، تولى الملك سنة 784هـ، توفي سنة 801هـ. أنظر: تقي الدين المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق عبد القادر عطاء، ج01، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1998م/1414 هـ، ص ص (141-142).

واعتزم التخلي عن منصب القضاء، وطلب من السلطان تخلية سبيله من هذه العهدة التي لم يطق حملها، فأعفاه وردها إلى صاحبها الأول، فعكف ابن خلدون على تدريس علم، أو قراءة كتاب، أو إعمال قلم في تدوين أو تأليف[481].

هـ-الرحلة إلى الحجاز: مكث ابن خلدون مدة بعد عزله من القضاء، واعتزم أداء فريضة الحج، فودع السلطان والأمراء الذين أعانوه فوق الكفاية، وخرج من القاهرة في منتصف رمضان سنة 789هـ، إلى مرسى الطور[482]، بالجانب الشرقي من بحر السويس، وركب البحر حتى وصل إلى مدينة الينبع[483]، ثم من هناك اتجه إلى مكة المكرمة، ودخلها في ثاني ذي الحجة من نفس العام، فأدى فريضة الحج، وعاد إلى مصر في جمادى سنة 790هـ ، وبقي معتزلا الحياة العامة، متمتعا بالعافية، عاكفا على قراءة العلم وتدريسه[484].

وما نخلص إليه أن تركيز كل من المؤرخين عبد الرحمن ابن خلدون وابن مرزوق الخطيب على العمارة والتشييد كان كبيرا. فاهتم الأول بنظريات العمران، والعوامل المتحكمة في قيام الدول وتطورها ثم اضمحلالها، باستعمال أسلوب يعتمد على التلخيص، واستدراك الثغرات مع تقريب المعاني باستعمال الأسلوب المرسل، البعيد عن السجع والصنعة. وتتبع الثاني سيرة السلطان أبي الحسن المريني، واصفا منجزاته المعمارية وصفا دقيقا مبسطا، يغلب عليه الأسلوب الأدبي.

---

[481] عبد الرحمن ابن خلدون، رحلة ابن خلدون، المصدر السابق، ص ص (208-209).

[482] الطور مدينةعلى الساحل الغربي لشبه جزيرة سيناء. أنظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج04، المصدر السابق، ص ص (47-48).

[483] الينبع عرضها الشمالي 10^0و 14'، وطولها الشرقي 38^0 و 15'، مدينة من مدن الجزيرة العربية، تقع على الساحل الشرقي للبحر الأحمر. أنظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج05، المصدر السابق، ص ص (449-450)

[484] عبد الرحمن ابن خلدون، رحلة ابن خلدون، المصدر السابق، ص221.

الفصل الرابع :

أشهر رحالة المغرب الإسلامي في القرنين 9هـ و 10 هـ.

-المبحث الأول: أبو العباس الونشريسي.

-المبحث الثاني: الحسن ابن محمد الوزان.

-البحث الثالث: أحمد المقري التلمساني.

شهد القرنان 09هـ و10هـ أسماء كثيرة داع صيتها في مجال الرحلة والجغرافية في بلاد المغرب، مثل: عبد المنعم الحميري، ويحي الونشريسي، والحسن الوزان، وأحمد المقري التلمساني، خلقت مجموعة من المصنفات و المعاجم الجغرافية، واستطاع هؤلاء الرحالة أن يعرفوا بصورة جيدة بالمغرب وإفريقيا والأندلس والمشرق، ومختلف الأصقاع التي نزلوا بها من الجوانب الحضارية والعمرانية والاجتماعية والثقافية.

المبحث الأول: أبو العباس يحي الونشريسي:

1- ترجمته:

هو أبو العباس أحمد بن يحي بن محمد بن عبد الواحد بن علي الونشريسي، نسبة إلى جبال الونشريس بالغرب الجزائري، العالم العلامة المصنف الأبرع والفقيه الأكمل، البحر الزاخر والكوكب الباهر، حجة المغاربة على أهل الإقليم، وفخرهم الذي لا يجحده جاهل ولا عليم الفقه المالكي، حامل لواء المذهب على رأس المائة التاسعة، ولد حوالي 834هـ/1430م، تلقى دراسته بتلمسان على العديد من شيوخها كأبي الفضل قاسم بن سعيد العقباني، وولده القاضي أبو سالم العقباني، وحفيده القاضي، والعلم الخطيب الصالح بن مرزوق الكفيف، وأحمد بن زكري، والعالم أبي عبد الله الجلاب، ومحمد المريني، ومحمد بن عباس العبادي وغيرهم(485).

---

(485)الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية ولأندلس، خرجه: جماعة من الفقهاء بأشراف محمد حاجي، ج01، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط01، سنة1981م، ص ص (أ- ك).

- أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج05، المصدر السابق، ص ص (207-208).

- أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، المصدر السابق، ص ص (74-75).

- محمد بن محمد بن عمر بن قاسم بن مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، تحقيق: عبد المجيد خيالي، ج01، دار الكتاب العربي ، بيروت، ط01، سنة 1424هـ/2003م، ص ص (156-157).

- أحمد القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس،ج01، المصدر السابق، ص ص (156-157).

- ابن مريم، البستان، المصدر السابق، ص ص (53-54) .

- عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين وتراجم مصنفي الكتب العربية، ج02، دار إحياء التراث العربي، بيروت، سنة 1376هـ/1957م، ص205.

- إسماعيل باشا البغدادي، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج01، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط01، سنة 1992م، ص 138.

وفي أول محرم عام 874هـ اتهمه السلطان الزياني محمد الخامس بن ثابت بالتآمر عليه، بسبب مجاهرته بالحق، فألحق به الأذى وانتهبت داره، وفر إلى مدينة فاس فاستوطنها وتابع دراسته بها، فاستفاد من العديد من العلماء بها، وفي طليعتهم قاضي مكناس محمد بن أحمد اليفرني ومحمد القروي وغيرهم، فعد من العارفين بعلم الحديث والتفسير والتوحيد والمنطق، إلا أنه لازم تدريس الفقه حتى يقول من لا يعرفه لا يعرف غيره، وكان فصيح اللسان والقلم حتى كان بعض من يحضره، يقول: "لو حضر سيبويه لأخذ النحو عنه"، وواظب على التدريس بالقرويين أين سكن في دار حبس مجاورة للمسجد، ثم توسع نشاطه فانتقل التدريس في مساجد ومدارس أخرى، منها: المدرسة المصباحية التي قرأ بها المدونة.

كان الونشريسي محل احترام وتقدير من الخاصة والعامة، لتجنبه الخوض في السياسة، ومخالطته أولي الأمر، الأمر الذي سبب له حادثة تلمسان. والتزم التدريس وواظب على التدريس حتى وافته المنية يوم الثلاثاء 20 صفر عام 914هـ عن عمر يناهز الثمانين سنة، قضي منها أربعين سنة بتلمسان وأربعين سنة بفاس.[486]

- كمال أبو مصطفى، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوي المعيار المعرب للونشريسي، المرجع السابق، ص ص (05-09).
- خير الدين الزركلي، الأعلام، ج01، دار الملايين، بيروت، سنة 2002م، ص 969.
-محمد بن محمد الأندلسي الوزير السراج، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تحقيق: محمد حبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي بيروت، سنة 1985م،ص ص (634-635).
-أحمد القاضي المكناسي، درة الحجال في أسماء الرجال، تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور، ج01، دار التراث، القاهرة، ط01، سنة1981م، ص ص (91-92).
-إسماعيل باشا بن محمد بن أمين بن مير بن سليم، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج04، سنة 1413هـ/1992م، ص 517.

[486]ابن مريم، البستان، المصدر السابق، ص 121.

2- شيوخه:

أ-قاسم بن سعيد بن محمد العقباني المتوفي سنة 854هـ: هو قاسم بن سعيد بن محمد العقباني التلمساني،[487] الإمام أبو الفضل أبو القاسم، شيخ الإسلام، مفتي الأنام الفرد، العاملة الحافظ، القدوة العارف المجتهد المعمر، ملحق الأحفاد بالأجداد، القدوة الرحالة الحاج.

أخذ العلم عن والده الإمام أبي عثمان وغيره، وحصل العلوم حتى وصل درجة الاجتهاد، وله الاختيارات الخارجة عن المذهب، نازعه فيها كثيرا من معاصريه كالإمام ابن مرزوق الحفيد. ولي القضاء بتلمسان في صغره، ورأى أمله من ذريته في كبره، وأحرز قصب السبق في العلوم وحازه، وقطع فيه صدر العمر واستقبل أعجازه، عكف على تعليم العلوم وعلى تدريس المعدوم منها والمعلوم، فأفاد الإفراد واسع جهابذة الفقهاء، وأسمع كل الأسماع ما اشتهى وأراد، له تعليق عن ابن الحاجب الفرعي، وأرجوزة تتعلق بالصوفية، أخذ عنه جماعة منهم: أبو البركات النالي، وولده أبو القاسم العقباني، وحفيده محمد بن أحمد ، والعلامة بن زكري، والكفيف بن مرزوق، وأبو العباس الونشريسي. توفي في ذي القعدة عام 854هـ، حضر جنازته السلطان[488].

ب-أحمد العقابني المتوفي سنة 840هـ: هو أحمد بن قاسم العقباني[489]، قاضي تلمسان، والد الحفيد العقباني، نسبه " لعقبان" قرية من قرى الأندلس، ذكر شيخ الإسلام قاسم العقابني أنه توفي سنة 840هـ بتلمسان.

---

[487] أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، المصدر السابق، ص ص (368-369).
- أحمد بابا التنبكتي، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، المصدر السابق، ص ص(248-249).
-محمد بن محمد بن عمر بن قاسم بن مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ج01، المصدر السابق، ص 361.
- ابن مريم، البستان، المصدر السابق، ص ص (256-259).

[488] المصدر نفسه، ص ص (258-259).

[489] محمد بن الطيب القادري، الإكليل والتاج في تذييل كفاية المحتاج، المصدر السابق، ص 22.
- أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، المصدر السابق، ص ص (102-103).
- أحمد بابا التنبكتي، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، المصدر السابق، ص31.
- ابن مريم، البستان، المصدر السابق، ص116.

جـ-ابن مرزوق الكفيف (824هـ-901هـ): هو محمد ابن محمد بن أحمد بن الخطيب، الشهير محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق العجيسي التلمساني[490]، عرف بالكفيف، ولد الإمام أبي الفضل قطب المغرب حفيد بن مرزوق شارح المختصر العام، وكان ولده صاحب الترجمة إماما عالما علامة، وصفه ابن داوود البلاوي: "شيخنا الإمام علم الأعلام، فخر خطباء الإسلام سلالة الأولياء، وخلف الأتقياء، المسند الرواية، المتحدث، القدوة الحافل الكامل، ابن سيدنا شيخ الإسلام خاتمة العلماء، الحبر البحر الناقد، التحرير المشاور العمدة الكبير، ذوي التصانيف السديدة عبد الله ابن مرزوق".

أخذ العلم عن جماعة منهم: أبوه شيخ الإسلام، قرأ عليه الصحيحين والموطأ وغير ذلك مما كتب من تأليف، وتفقه عليه وأجاز له ما تجوز روايته، ومنهم: الإمام العالم النظار الحجة أبو الفضل إبراهيم بن أبي زيد بن الإمام، والإمام العلامة قاضي الجماعة قاسم بن سعيد العقباني، والأستاذ المقري العالم أحمد بن محمد بن عيسى اللحائي، والولي الصالح عبد الرحمن الثعالبي وغيرهم.

أخذ عنه جماعة منهم: أبو العباس الونشريسي، وابن أخت السيد الخطيب محمد بن مرزوق، والشيخ ابو عبد الله محمد بن الإمام بن العباس. كان مولده سنة 824هـ ليلة الثلاثاء غرة ذي الحجة توفي سنة 901هـ.

د-أحمد بن محمد بن يعقوب العجيسي: الشهير بالعبادي، يكنى أبا العباس، توفي بتلمسان سنة 868هـ[491].

هـ-أحمد بن محمد بن زكري المانوي التلمساني المتوفي سنة 899هـ: هو أحمد بن محمد بن زكري الفقيه[492]، الأصولي البياني المنطقي، العلامة المفتي العالم الحافظ المتقن، الإمام الأصولي النحوي

---

[490]أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، المصدر السابق، ص ص(594-596).

- أحمد بابا التنبكتي، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، المصدر السابق، ص ص(416-417).

- ابن مريم، البستان، المصدر السابق، ص ص (391-394).

- أحمد القاضي المكناسي، درة الحجال في أسماء الرجال، تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور، ج02، دار التراث، القاهرة، ط01، سنة1981م، ص 205.

[491]أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، المصدر السابق، ص106.

- ابن مريم، البستان، المصدر السابق، ص108.

المفسر الأبرع، المؤلف الناظم الناثر. أخذ عن الإمام بن مرزوق والمفتي الحجة قاسم العقباني، والعلامة الصالح زاغو، والعالم الأعرف المفتي محمد بن العباس.

كان مشتغلا بالعلم والتدريس يكرر المسألة الواحدة ثلاثة أيام، أو أربعة أيام، حتى يفهمها العام والخاص، وانتفع بيه المسلمون كلهم. له تآليف كثيرة منها: تأليف في مسائل القضاء والفتوى، وشرح عقيدة ابن الحاجب سماه" بغية الطالب في شرح عقيدة ابن الحاجب"، ومنظومته الكبرى في علم الكلام في أكثر من خمسمائة بيت، وشرح الورقات لإمام الحرمين أبي المعالي في أصول الفقه، وله فتاوى منقولة من معيار الونشريسي.

أخذ عنه خلق من أجلهم: الإمام أحمد رزوق، والخطيب العلامة محمد بن مرزوق حفيد الحفيد، وشيخ العالم أبو عبد الله الإمام محمد بن العباس، وسيد أحمد بن الحاج المناوي أصلا، الورنيدي دارا. توفي في صفر سنة تسعن وتسعين وثمانمائة، وقبره مشهور بروضة الشيخ السنوسي.

2- مؤلفاته:

ترك الونشريسي العديد من التصانيف جلها في الفقه ومسائل الشريعة ذكرها أصحاب التراجم، وقد عرف منها:

أ- أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر، وما يترتب عليه من العقوبات، وضعها في شكل رسالة أجاب فيها الفقيه الغرناطي محمد بن قطبة في شأن من بقي من المسلمين في الأندلس تحت حكم النصارى، أفتى فيها بمعصية من بقي بدار الكفر ولم يهاجر بعد تغلب النصارى على داره.

ب- الفائق في الوثائق أوالمنهج الفائق والمنهل الواثق والمعنى اللائق بأدب الموثق وأحكام الوثائق، وأفاد ابن مريم والتنبكتي أنه لم يقم بإتمامه ، وكان في صناعة التوثيق.

---

(492) أحمد القاضي المكناسي، درة الحجال في أسماء الرجال، ج01، المصدر السابق، ص90.

- ابن مريم البستان، المصدر السابق، ص ص(94-103).
- أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، المصدر السابق، ص ص (115-116).
- أحمد بابا التنبكتي، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، المصدر السابق، ص ص (49-50).

جـ- المختصر أحكام البرزلي[493] أختصر فيه نوازل البرزلي.

د- غنية المعاصر والتالي في شرح فقه وثائق أبي عبد الله القشتلي.

هـ- إيضاح السالك إلى قواعد الإمام مالك، ضمنه مائة وثماني عشر قاعدة اختلف في تفسيرها أصحاب المذهب المالكي.

و- عدة البروق في تلخيص ما في المذهب من الجموع والفروق.

ز- القصد الواجب في معرفة اصطلاح ابن حاجب وهو في ثلاثة أسفار.

ح- إضاءة الحلك والمرجع بالدرك على من أفتى من فقهاء فاس بتضمين الراعي المشترك، ادرجها في كتابه المعيار.

ط- تنبيه الحذق الندس على من سوى القرويين و الأندلس، وأدرجها في كتابه المعيار.

ي- تنبيه الطالب الدارك على توجيه الصلح بين ابن صعد والحباك، أدرجها في كتابه المعيار.

ك- المبدي لخطأ الحميدي.

ل- الأجوبة، وهي ردود على أسئلة ألقيت عليه.

م- الأسئلة والأجوبة، وهي أجوبة بتلمسان عن أسئلة لشيخه محمد القروي بفاس.

ن- شرح الخزرجية في العروض.

س- الولاية ، تناول فيها الخطط الشرعية في سبع عشرة ولاية.

ع- حل الرقبة عن أسير الصفقة، نسبه إليه محمد ميارة.

ف- الوفيات، ذيل فيه كتاب شرف الطالب في أسنى المطالب لابن قنفذ.

ص- فهرس وضعه برسم تلميذه القاضي ابن عبد الجبار.

- [493] هو أبو القاسم بن أحمد بن محمد البلوي القيرواني، المعروف بالبرزلي، أحد أئمة المالكية في المغرب، حج ومر بالقاهرة سنة 800هـ، وسكن تونس، وانتهت إليه الفتوى بها، وكان ينعت بشيخ الإسلام، وعمر طويلا، قال السخاوي: توفي بتونس سنة 844هـ، أو السنة التي قبلها عن مائة وثلاث سنين، ومن مؤلفاته: "جامع الأحكام مما نزل من القضايا للمفتين والحكام" في مجلدين، قد يكون مختصرا لكتابه "الفتاوى". أنظر:محمد بن عبد الرحمن السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج11، القاهرة، سنة 1353هـ، ص133.

-خير الدين الزركلي، الأعلام، ج05، دار الملايين، ط05، سنة 2000م، ص ص(171-173).

-عمر رضا كحاله، معجم المؤلفين، ج02، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ص158.

ق- أقضية المعيار في التاريخ.[494]

ر- المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، قال أحمد بابا التنبكتي في كتابه نيل الابتهاج "أنه في ستة أسفار"، وذكر ذلك أيضا الشريف التلمساني، وقال محمد ابن عساكر أنه في سبعة أسفار. وهو الآن في إثني عشرة مجلد دون مجلد الفهارس، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف الأستاذ محمد حجي، طبعة دار الغرب الإسلامي لعام 1401هـ/1981م.

ومواضيع هذا الكتاب حسب الترتيب الذي وضعه ناشروه لهذه الطبعة كالتالي:

الجزء الأول: نوازل الطهارة والصلاة والجنائز والزكاة والصيام والاعتكاف،والحج.

الجزء الثاني:- نوازل الصيد والذبائح والأشربة والضحايا.

-نوازل الإيمان والنذور.

-نوازل الدماء والحدود والتعزيرات.

الجزء الثالث: نوازل النكاح.

الجزء الرابع: - نوازل الخلع والنفقات والحضانة والرجعة.

-نوازل الإيلاء والظهار واللعان.

-نوازل التمليك والطلاق والعدة والاستبراء.

الجزء الخامس: نوازل المعاوضات والبيوع.

الجزء السدس:- مسالة الوصايا وضعت ببجاية.

-نوازل الرهن والصلح والحماية والحوالة والمديان والتفليس.

الجزء السابع: نوازل الأحباس.

الجزء الثامن: مسالة في المياه والمرافق.

-نوازل الشفعة والقسمة

---

[494] محمد بن حمو، العمران والعمارة من خلال نوازل الونشريسي، كنوز للإنتاج والنشر والتوزيع، تلمسان، سنة 2011م، ص ص (08-09).

- نوازل الإيجارات والأكرية والصناع.

- أسئلة مجموعة من السماسرة.

-بقية نوازل المياه.

- نوازل من الضرر والبنيان.

الجزء التاسع: -بقية نوازل الضرر.

-نوازل الوديعة والعارية.

-نوازل الهبات والصدقات والعتق.

-نوازل الوصايا وأحكام المحاجير.

-نوازل الغضب والإكراه والاستحقاق.

الجزء العاشر: نوازل الأقضية والشهادات والدعاوى والإيمان، نوازل الوكالات والإقرار والمديان.

الجزء الحادي عشر: نوازل الجامع، مواضيع مختلفة لا تدخل تحت أي باب من الأبواب السابقة في الكتاب.

الجزء الثاني عشر: كتاب فتح الباب ورفع الحجاب بتعقيب ما وقع في تواتر القرآن الكريم من السؤال والجواب.

- مسألة بيان تواتر القرآن والفرق بين القرآن والقراءات.

- أسئلة من التفسير وغيره.

- سؤال في علم الصرف.

- مسائل في التفسير.

الجزء الثالث عشر: خاص بالفهارس[495].

[495] محمد بن حمو، العمران والعمارة من خلال نوازل الونشريسي، المرجع السابق، ص ص(10-12).

المبحث الثاني: الحسن بن محمد الوزان:

1- ترجمته:

هو الحسن ابن محمد الوزان[496]، أبو علي، الغرناطي أصلا، الفاسي دارا، المسمّى في أسره يوحنى الأسد (JEAN LEON)، والمعروف عند الإفرنج باسم ليون الإفريقي(LÉON AFRICAIN)، جغرافي عظيم، رحالة مؤرخ أندلسي، ولد في غرناطة، ويختلف المؤرخون في تحديد سنة ولادته فيجعلها بعضهم عام (901هـ/1465م)[497]، وبعضهم قدرها عام (906هـ / 1500م)، ومنهم من أرخ ولادته بسنة (888هـ / 1483م)[498]. ينحدر من أسرة عربية عاشت في الأندلس في فترة حاسمة اشتهرت بكفاحها ضد القوى المسيحية. وقد بقيت في إسبانيا بعد سقوط غرناطة مدّة أربع أو خمس سنوات، ثم هاجرت إلى المغرب الأقصى حوالي عام 1497م، واستقرت في فاس[499]. أين تلقى الوزان علومه الأولى في مدارسها، وتعلم في جامع القرويين الذي كان يحج إليه الطلاب من كل أنحاء العالم الإسلامي، وقد أشار الوزان في كتابه إلى بعض رفاقه في التعليم،

---

[496] خيرالدين الزركلي، الأعلام، ج02، المصدر السابق، ص ص (219،247).

-عمر بن رضا كحالة، معجم المؤلفين، ج03، مكتبة المثنى، بيروت، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دط،دت، ص ص(291-292).

-كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، المصدر السابق، ص ص (450-455).

-الحسن الوزان، وصف إفريقية، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط02،سنة 1983، مواضع متعددة من الكتاب.

-شوقي عطا الله الجمل، "الحسن بن محمد الوزان وإنتاجه الفكري والمؤثرات التي تأثر بها"، مجلة المناهل، العدد 02، وزارة الثقافة المغربية، الرباط، مارس 1975م، ص ص (230-286).

-عبد القادر زمامة: "ليون الإفريقي"، مجلة اللقاء، العدد10، الرباط، يناير 1969م، ص ص (115-117).

-عبد العزيز عبد الله: " الرحالة العرب والمسلمون من المغرب وإليه"، الرحالة العرب والمسلمون اكتشاف الآخر- المغرب منطلقا وموئلا، أعمال ندوة من 14 إلى 17 جوان 2003م، مطبعة النجاح، الدار البيضاء،ط01، نوفمبر 2003، ص194.

[497] يذهب محمد المهدي الحجوي في البحث الذي قدمه في مؤتمر المستشرقين، المنعقد بفاس سنة 1939م، أن ميلاد الحسن الوزان كان سنة 901هـ، وزاد في تقدير وفاته سنة 957هـ، أنظر: محمد المهدي الحجوي: "حياة الحسن الوزان وآثاره"، مؤتمر المستشرقين، مطبعة المملكة المغربية، الرباط، سنة 1939م.

[498] أرخ Gregone أن ولادته كانت نحو سنة 888هـ، ووفاته نحو سنة 959هـ، أنظر: خير الدين الزركلي، الأعلام، ج02، المصدر السابق، ص238.

[499]شوقي عطا الله الجمل، "الحسن بن محمد الوزان وإنتاجه الفكري "، المرجع السابق، ص242.

ولكنه لم يذكر أساتذة، وإن كان قد أشار إلى عشرات من المفكرين والفلاسفة الذين قرأ لهم وتأثر بكتاباتهم مثل: ابن رشد، الفرابي، ابن سينا، عبد الرحمن ابن خلدون، عبد الله البيطار، البكري، الإدريسي، المسعودي وغيرهم، وهذا ما يدل أنه كان واسع الإطلاع على شتى العلوم المختلفة، من أمهات المصادر المعروفة في أوانه، إضافة إلى مجالسته للفقهاء والقضاة في المدن والقرى التي كان يزورها خلال رحلاته العديدة، يناظرهم ويناقشهم في النوازل الفقهية وفتاوى دقيقة، وكان شاعراً يحرر الرسائل، وينظم القصائد الشعرية، فكان محط إعجاب الرؤساء، وينال من عطاياهم، وكان ماهرا في الحساب يستخلص واجبات بيت المال من القبائل[500].

شغل الحسن ابن محمد الوزان في بداية حياته العلمية بعض الوظائف، فعمل لمدّة عامين ككاتب عدل في المستشفى الكبير بفاس. وبعد أن أصبح السفر والترحال كل همه في الدنيا، كان يعمل كقاض أو حكم في الخلافات بين الناس مقابل أشياء عينية، أو كاتبا لدى التجار يدوّن حساباتهم، ويفصل في المتاعب التي يواجهونها أثناء الطريق[501]. هذا النبوغ المبكر للحسن الوزان لفت إليه نظر سلطان فاس محمد الوطاسي[502]، ومحمد القائم بأمر الله السعدي[503]، فكان من المقربين إلى بلاط الواطاسيين, وأسند إليه محمد الوطاسي مهاما سياسية كبيرة في ظرف كان المغرب خلاله يشكو علّة التقسيم إلى مملكتين في الشمال، والجنوب، وإمارات مستقلة في الجهات النائية، واحتلال برتغالي إسباني لعدد من الثغور المطلة على البحر الأبيض المتوسط، والمحيط الأطلسي، وهذه

---

[500]الحسن الوزان، وصف إفريقية، ج01، المصدر السابق، مقدمة المترجم، ص07.

[501]شوقي عطا الله الجمل: "الحسن بن محمد الوزان وإنتاجه الفكري "، المرجع السابق، ص ص (243-244).

[502] هو محمد بن محمد بن يحي بن عمر الوطاسي (910هـ -931هـ)، أحد ملوك مدينة فاس، تولى الملك بعد وفاة أبيه محمد الشيخ أبي زكريا، ولم يزل على ملكه إلى أن توفي سنة 931هـ، ولقب بالبرتغالي، لأن البرتغال أسروه في مدينة أصيلا أيام أبيه، فمكث عندهم سبع سنوات، ولما افتداه أبوه رجع وهو يتقن اللغة البرتغالية، أنظر: أحمد بن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس،المصدر السابق، ص ص (211-212).

-أحمد الناصري السلاوي، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق، جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، دت، ص ص (140-149).

[503] هو أبو عبد الله محمد القائم بأمر الله السعدي، بايعه أهل السوس لما أحاط بهم البرتغال، وفشل بن وطاس، فأخذ يناوئهم حتى استولى على مدينة فاس عام 956هـ، وقبض على آخر الأمراء الوطاسيين وقتله سنة957هـ، واتخذ مدينة مراكش عاصمة لهم. أنظر: المصدر نفسه، ص ص(04-09).

المهام بالإضافة إلى النشاط التجاري لأسرته دفعته إلى القيام برحلات عديدة داخل المغرب وخارجه، وتسجيل مشاهداته في مذكرات شبه يومية[504].

2– مؤلفاته :

لقد اشتغل محمد الوزان في إيطاليا لتدريس اللغة العربية للخاصة من رجال الكنيسة في روما ونابولي، وعامة الطلبة في مدرسة بولونيا الشهيرة في عصر النهضة الأوروبية. ومن مؤلفات الوزان، صنف سلم من الضياع فوصل إلينا كاملا أو ناقصا، وصنف عفا عليه الزمن فلم نعرف عنه غير الاسم، ومن مؤلفاته نذكر :

أ– كتاب وصف إفريقيا : لقد ظهر هذا الكتاب لأول مرّة حين عثر عليه RAMUSIO من أسرة مؤسسة HAKLUYT في عام 1550م على النسخة الخطية الإيطالية للكتاب، ونشرها في ثلاث مجلدات، مع مقدمة له في مجموعة من الرحلات[505]. وأعيد طبعها بعد ذلك بالإيطالية عام 1554م، ولم يعثر على هذه الطبعات، بسبب الحريق الذي شبّ بعد ذلك وأتى على كثير من كتب تلك المؤسسة. وقام JEAN TEMPORAL بترجمة للكتاب إلى اللغة الفرنسية سنة 1556م، طبعها في مدينة ليون[506]، وذلك عن الطبعة الإيطالية لولي عهد فرنسا في ذلك الوقت، وأعيد طبع الكتاب للفرنسية في نفس السنة من طرف JONES FLORIANUES الذي ترجم الكتاب للغة اللاتينية في مدينة أنتورب، وقد لاقت هذه الطبعة رواجا كبيرا[507].

وفي سنة 1600م قام JOHN PORY بأول ترجمة عرفت الكتاب باللغة الإنجليزية[508]، وقد صحح PORY بعض أخطاء FLORIANNUS. وفي عام 1665م ظهرت في روتردام

(504) الحسن الوزان، وصف إفريقية، ج01، المصدر السابق، مقدمة المترجم، ص08.

(505) شوقي عطا الله الجمل: "الحسن بن محمد الوزان وإنتاجه الفكري "، المرجع السابق، ص 253.

(506) Jean Léon Africain , Historial Description de l'Afrique, Mise en Français : Jean Trempol, Lyon, 1556.

(507) شوقي عطا الله الجمل: "الحسن بن محمد الوزان وإنتاجه الفكري "، المرجع السابق، ص 255.

(508) Jhon Leo .A, Geographical Historie Africa, Londini,1600.

طبعة هولندية للكتاب, كما ظهرت ترجمة ألمانية له عام 1805 م, وترجمة إسبانية في سنة 1940م[509].

يحتوي كتاب وصف إفريقية على تسعة أقسام, أطلق الوزان على كل منها لفظ كتاب, وهي على الترتيب الآتي: 1 – وصف إفريقية وما فيها من أشياء تستحق الذكر, 2- مملكة مراكش , 3-مملكة فاس، 4 – مملكة تلمسان، 5- مملكة بجاية و مملكة تونس, 6- نوميديا, 7- بلاد السودان, 8- مصر, 9- الأنهار والحيوانات والنباتات بإفريقيا.

وقد تميز منهج هذا الكتاب: أن حسن الوزان اعتمد على الوصف التفصيلي الدقيق لبلاد المغرب بأقاليمها المتعددة, ومدنها المختلفة وبلاد السودان الغربي، وهذا ما أكده في خاتمة الكتاب: "والحاصل أن ذلك ما شاهدته من الأشياء التي علقت بذهني أن يوحنى ليون, عن جميع إفريقيا التي جبتها من أقصاها إلى أقصاها, وقد دونت بجد وعناية يوما بعد يوم كل ما رأيته يستحق الذكر, وما لم أشاهده أخبري به من يوثق به إخبارا صحيحا كاملا. ثم رتبت هذه المذكرات بقدر استطاعتي, وألفت منها كتابا، عندما كنت بروما في العام الميلادي 1526 م, في العاشر من مارس"[510].

يرى كراتشكوفيسكي أنه حتى وإن لم يشر الحسن الوزان إلى مصادره كثيرا, وهو حين يفعل ذلك يوردها أغلب الظن من الذاكرة, ومن المؤلفين المعروفين لنا يرد ذكر المسعودي, والبكري والإدريسيّ، وابن الخطيب, وابن بشكوال, ومن الجلي أن معرفته بالمؤلفين المغاربة كانت أقرب وهذا أمر طبيعي, وأكثر مؤلف يدين له ليون الإفريقي بتصنيفه الأصيل للقبائل البربرية وبقدر كبير من المعطيات المختلفة, بل بالإطار العام لمضمونه وذلك من الناحيتين التاريخية والأثنوغرافية هو ابن الرقيق[511]. وتجدر الإشارة إلى أن المنهج الذي اتبعه الحسن الوزان في كتابه، لا يمكن أن نرجعه لنمط الرحلات أو الزيارات، أي الرحلة بقصد الحج الذي اشتهر به غيره من الكتاب المغاربة، ولا يمكن وصفه بنمط الخطط أو المسالك، وهو ليس مؤلفا نقليا، وجامعا لعدّة علوم، ولكنه في الحقيقة

---

[509] شوقي عطا الله الجمل: "الحسن بن محمد الوزان وإنتاجه الفكري "، المرجع السابق، ص 255.

[510] الحسن الوزان، وصف إفريقية، ج02، المصدر السابق، ص288.

[511] كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، المصدر السابق، ص 453.

يجمع بين كل هذه الأنماط. كما يعكس صورة الثقافة المتعددة الجوانب[512]. والدليل على ذلك أنه كان للحسن الوزان تأثير قوي على العالم الأوربي، فمنذ بداية النصف الثاني من القرن السادس عشر على وجه التقريب، وعلى ممر ثلاثة قرون بعد ذلك لم يستطع أن يتجاهله كاتب أو عالم يود الكلام على إفريقيا[513]. وهو ما دفع المستشرق الفرنسي شفير SCHEFER بالثناء عليه في قوله: " إن ما يورده ليون الإفريقي من تفاصيل في وصف المغرب يتميّز بالدقة الشديدة، بل وقد أثبتت الأبحاث الأخيرة صدق قوله حتى في تلك المواضيع التي أثارت بعض الشك فيما مضى، وهناك إجماع على أن الحسن الوزان هو آخر الجغرافيين العرب المشهورين في تلك البلاد "[514].

ب- معجم عربي – عبري –لاتيني – طبي: ألفه من أجل طبيب يهودي صديق له يدعى يعقوب بن شمعون، وهو في 117 صفحة، لا تزال نسخة منه محفوظة في مكتبة الإسكوريال بإسبانيا. وختم قاموسه: "فرع من نسخ هذا الكتاب العبد الفقير إلى مؤلفه يوحنى الأسد في آخر يناير عام 1524م، وذلك بمدينة بولونيا من بلاد إيطاليا – برسم المعلم الحكيم الطبيب الماهر يعقوب بن شمعون الوفي اليهودي "[515].

جـ- كتاب التراجم: يذكر: MASSIGNON أن الحسن ألف كتاب التراجم، حيث عرّف بثلاثين شخصية بارزة من فلاسفة العرب والطب، انتهى من تأليفه عام 1527م[516]. وقد قام HOTTINGER بنشر هذا الكتاب عام 1664م ، زوليخ ، وهذا الكتاب له أهمية كبيرة في شرح تاريخ العلوم عند العرب.

---

(512) شوقي عطا الله الجمل: "الحسن بن محمد الوزان وإنتاجه الفكري "، المرجع السابق، ص 272.

(513) Cchéfer, Description de l'Afrique, 1, p : xxv.

(514) Ibid, p xxv.

(515) محمد المهدي الحجوي: "حياة الحسن الوزان وآثاره"، المرجع السابق، ص412.

(516) MessignonK, Leo Africanus,p 24.

د- كتاب الجغرافية: قد أشار الحسن الوزان في كتابه وصف إفريقية، أنه سجل مشاهداته في رحلاته في آسيا وأوربا، في كتاب آخر، لأنه يخصص كتابه هذا للقارة الإفريقية، إلا أنه ضاع ولم يبقى منه غير القسم الثالث الذي ترجمه حسن الوزان نفسه إلى اللغة الإيطالية(517).

هـ- مختصر تاريخ الإسلام: الذي أشار إليه وأحال عليه في كتاب وصف إفريقية، كلما أراد لتفادي ذكر تفاصيل الأحداث التاريخية التي تعرّضت لها(518).

و- أشعار الأضرحة: كتاب في أشعار الوعظ والزهد، مما جمعه من أشعار على الأضرحة والقبور في مختلف أنحاء بلاد المغرب التي زارها، وقال عنه: " أنه يقع في سفر صغير جمعته وأهديته لأخ السلطان الحالي عند وفاة أبيه". مشيرا إلى أحد أبناء السلطان محمد الشيخ الوطاسي المتوفي عام 910هـ(519).

ز- كتاب في العقائد والفقه المالكي، كما أشار إلى كتاب له في الأعياد الدينية الإسلامية(520).

وعليه يمكن الجزم أن تأليف الرحالة كان في فروع مختلف من العلوم كالرحلات، والجغرافيا والتاريخ، واللغة، والشعر، والعقيدة، والفقه، وغيرها. بالإضافة إلى إتقانه عدّة لغات يدل على سعة أفقه، وعلى علمه الواسع و إلمامه بكثير من ألوان المعرفة، مما جعله موسوعة الثقافة في عصره.

3- رحلاته :

تعددت أسفاره وتنوعت، فلم يعد يستقر في بلد معين لمدّة طويلة بسبب المهام السياسية المسندة إليه، والنشاط التجاري لأسرته، هي التي دفعته إلى القيام بكم هائل من الرحلات، سنذكر منها:

أ- رحلة إلى الشواطئ الغربية القريبة من فاس : واشترك في محاصرة مدينة أصيلة من طرف الوطاسيين، وكذلك في المعارك التي دارت فيها، وفي مدينة المعمورة التي وقعت تحت احتلال البرتغاليين وكان ذلك في سنة 914هـ(521).

---

(517) الحسن الوزان، وصف إفريقية، ج01، المصدر السابق، مقدمة المترجم، ص13.

(518) شوقي عطا الله الجمل: "الحسن بن محمد الوزان وإنتاجه الفكري "، المرجع السابق، ص 274.

(519) الحسن الوزان، وصف إفريقية، المصدر السابق، مقدمة المترجم، ص13.

(520) شوقي عطا الله الجمل: "الحسن بن محمد الوزان وإنتاجه الفكري "، المرجع السابق، ص 274.

(521) شوقي عطا الله الجمل: "الحسن بن محمد الوزان وإنتاجه الفكري "، المرجع السابق، ص244.

ب- الرحالة في الغرب عام 915هـ: لدراسة الشواهد التي على قبور بعض الشخصيات البارزة في شالة، ويبدو أنه اتخذ منها مادة لكتاب ألفه عن سيرة هذه الشخصيات فيما بعد. وهذه الدراسة إن دلت على شيء، أنّ الحسن الوزان كان كاتبا مفكرا مجداً، لا يقف عند حدود التقليد(522).

جـ- الرّحالة إلى بلاد السودان سنة 917هـ: صحب فيها عمه الذي كان مكلفا عام 917هـ بسفارة بين ملك فاس محمد الوطاسي البرتغالي، وملك سنغاي محمد أسكيا الكبير الذي يسميه ملك تمبكتو، والذي يذكر أنه ألزم معظم الأقاليم المجاورة على دفع ضرائب، وقد سلكوا في الذهاب الطريق الغربي عبر مراكش ودرعة، وفي الرجوع طريق سجلماسة وفاس، وفي هذه الرّحلة جمع المادة العلمية لكتابه السابع من وصف إفريقيا، فوصف عددا كبيرا من الممالك الإسلامية والزنجية الواقعة بغرب إفريقيا(523).

د- رحلاته إلى المشرق وأوربا: قام الحسن الوزان بثلاث رحلات إلى مصر، وأعطى وصفا دقيقا للأوضاع بها في ظل حكم المماليك، لكنه يذكر أنه زارها بعد أن فتحها السلطان سليم لها. وأنّ وجوده هناك وافق خروج السلطان سليم(524) من الإسكندرية، فكانت فترة الزيارة تمتد بين (921هـ/1515م – 923هـ/ 1517م)، وأنه زارها في طريقه إلى القسطنطينية، أو طريق العودة منها، أما الدوافع التي حفزته لمغادرته مراكش في عام 921هـ/ 1515م، والضرب في نواحي الأرض، فهي حسب كراتشكوفسكي غير واضحة، ويرجع الدافع الإسلامي منها إلى أداء فريضة

---

(522) المرجع نفسه، ص 245.

(523) الحسن الوزان، وصف إفريقية، ج01، المصدر السابق، مقدمة المترجم، ص09.

(524)هو السلطان سليم بن أبي يزيد بن محمد، تاسع ملوك بني عثمان، وهو أول الملوك العثمانيين الذين حكموا مصر، ولد سنة 875هـ، وتولى الخلافة بعد أبيه في حياته عام 920هـ، ثم تولى ابنه سليمان الحكم بعده.أنظر: عبد الملك بن حسين المكي، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل، تحقيق: أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، ج04، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1998م، ص ص(83-85).

-جلال الدين السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل، ج02، دار إحياء الكتب العلمية، القاهرة، ط01، سنة 1967م، ص122.

- ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: محمود الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، ج02، دار ابن كثير، دمشق، ط01، سنة 1986م، ص ص (198-203).

الحج[525]. ويضيف إلى أنه: "يجب الاعتراف بأن عدد البلاد التي زارها أمر لم يعهد من قبل، وقد زار على حسب قوله مصر وبلاد العرب وإيران والشام و أرمينيا، وبلغ في تجواله اسطنبول التي أخذت منه ذلك العين تجذب إليها بشكل مطرد أنظار العرب التي أخذت أوطانهم تدور في فلك الدولة العثمانية بطريق مباشر أو غير مباشر"[526].

وتجدر الإشارة إلى أن الحسن الوزان لم يشأ أن يتعرض لوصف هذه البلاد في كتابه " وصف إفريقيا" المخصص لأسفاره في إفريقية، حتى لا يبعده عن الموضوع الرئيسي للكتاب، ويذكر أنه إذا أمدّ الله في عمره سيقوم بوصف الأماكن الآسيوية التي زارها[527].

ومن المستحيل تحديد تواريخ تحركاته بصفة دقيقة، وعلى أية حال فقد انتهت رحلته نهاية محزنة في طريق العودة من اسطنبول، إذ وقع عند جزيرة جربة في أيدي قراصنة من جزيرة صقلية، الذين كانوا يجوبون البحر المتوسط قربة جزيرة جربة[528]. ويبدوا أنهم أدركوا أنّ الحسن الوزان ليس كباقي الذين يقعون بين أيديهم، فلم يبيعوه في أسواق النخاسة بل ساقوه إلى نابلي عام 1520م، ثم إلى روما حيث أهدوه مع زرافة إلى البابا ليون العاشر (1513- 1527م)[529]. الذي قام بتنصيره، وأطلق عليه اسم يوحنا الأسد. فعرف له مكانته وأضفى عليه رعايته وأطلق سراحه، كما أطلق عليه اسمه، وأتاح له فرصة الاجتماع بالعلماء والأدباء الذين كان يحضنهم، ويسر له الاشتغال بتدريس اللغة العربية، والتفرغ للنشاط العلمي بروما وبولونيا.

---

[525] كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، المصدر السابق، ص 451.

[526] المصدر نفسه، ص451.

[527] شوقي عطا الله الجمل: "الحسن بن محمد الوزان وإنتاجه الفكري "، المرجع السابق، ص246.

[528] هي جزيرة بالمغرب من ناحية إفريقية، قرب قابس يسكنها البربر، تغلب عليها صاغية صقلية عام529هـ، طولها 60 ميلا من المغرب إلى المشرق، وعرض الرأس الشرقي 15 ميلا، وخيراتها كثيرة، وفواكهها طيبة، وأرضها كريمة. أنظر: عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خير الأقطار، المصدر السابق، ص158.

-ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج02،المصدر السابق، ص118.

-أبو عبيد الله البكري، المسالك والممالك، ج02، دار الغرب الإسلامي، سنة 1992م، ص668.

[529] كان هذا البابا في حياته العادية يحمل اسم جيوفاني مديتشيGiovaniMadci، وهو ابن لورنسو الفاخر، أمير فلورنسه، وقد عرف باعتناقه لمذهب النزعة الإنسانية المستنيرة، بل عرف أيضا باطلاعه على المسألة الشرقية، حتى أنه بحث مع فرنسوا الأول ملك فرنسا عام 1515م مشروع حملة صليبية ضد الأتراك. أنظر:كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، المصدر السابق، ص451.

ولاشك أن اهتمام البابا (ليون العاشر) بالحسن الوزان بما يمكن أن ستفيده الدولة المسيحية في كفاحها ضد القوى الإسلامية من رحلاته، ومعلوماته التي كشف عنها، فليس الهدف علميا فحسب، خاصة وأن هذا البابا كانت له مواقف معروفة في التاريخ الأوربي حين اصطدم الدين بالتيارات الفكرية المعاصرة التي كانت نتاج عصر النهضة الأوروبية[530].

عاش الرحالة في روما حوالي ثماني سنوات زار خلالها عدّة مدن، وقام بتدريس اللغة العربية بكلية مدينة بولونيا، وقد أقام بروما صداقة بالقس VITERBO الذي أصبح فيما بعد كردينالا باسم CARDINAL EGIDANTONINI ، وعلّمه العربية، لكن بعد وفاة البابا ليو العاشر عام (927هـ/ 1521م)، لم يلق الوزان نفس المعاملة، فعاد إلى شمال إفريقية حيث لجأ إلى تونس أين قضى بقية حياته[531].

---

(530) عطا الله الجمل: "الحسن بن محمد الوزان وإنتاجه الفكري "، المرجع السابق، ص ص (247-248).

(531) المرجع نفسه، ص248.

المبحث الثالث: أحمد المقري التلمساني986هـ/1041هـ:

يستند المقري إلى عائلة ينحدر نسبها من أسرة كريمة شريفة، تركت سمعة طيبة في تاريخ الجزائر، بفضل نشاطها العلمي والتجاري، وهي عائلة أصولها الأولى قريشة، عاشت في قرية مقرة[532]، بولاية المسيلة حاليا، ثم هاجرت هذه الأسرة في وقت مبكر إلى تلمسان، بعد أن هاجر إليها أبو مدين شعيب بن الحسين أواخر القرن السادس هجري.

1- ترجمته:

هو جاحظ البيان، وحافظ العصر والأوان أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن يحي بن عبد الرحمن بن أبي العيش بن محمد المقري القريشي[533]، أصل سلفه من قرية زاب إفريقية، تدعى مقرة. ولد بتلمسان سنة 986هـ ، وكان قد مضى على احتلال الأتراك العثمانيين لهذه الحاضرة الكبرى ثلاثون سنة، فبدأت تفقد أهميتها العلمية والسياسية، وأخذ الكثير من علمائها وأدبائها وشرفائها يهاجرون إلى مدن المغرب الأقصى وخاصة إلى فاس.

وبتلمسان طلب أبو العباس المقري العلم وتلقاه من أفواه من بقي بها من العلماء الفقهاء والأدباء، مقيما ولم يهاجر، أين حفظ القرآن الكريم صغيرا، وكان عمدته في التعليم والتأدب عمه أبا عثمان سعيد المقري مفتي تلمسان، وكبير مشيختها، الذي أخذ عنه العلوم الدينية ومكملتها من علوم اللغة العربية، ففي جملة ما درس عنه صحيح البخاري سبع مرات، وروى عنه الكتب السته بسنده عن أبي عبد الله التنسي عن أبي عبد الله بن مرزوق عن أبي حيان عن أبي جعفر بن

---

[532] مقرة: بالفتح ثم السكون وتخفيف الراء، وكأنه إذا كان غريبا من الاستنقاع، يقول: مقرت السمكة في الماء والملح مقرا، إذا أنقعتها فيه، ومقرة مدينة في المغرب في بر البربر، قريبة من قلعة بني حماد، بينها وبين طبنة ثمانية فراسخ، وكان بها مسلحة للسلطان ضابطة للطريق، ينتسب إليها عبد الله بن محمد بن الحسن المقري، ذكره السلفي في تعاليقه. أنظر:ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج05، المصدر السابق، ص140.

[533]أحمد المقري التلمساني، روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس، المصدر السابق، ص ص (ج-ي).

- أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، ج01، دار صادر، بيروت، 1408هـ/ 1988م، ص ص(5-10).

- أحمد المقري التلمساني، إزهار الرياض في أخبار عياض، ج01، صندوق إحياء التراث العربي، الامرات العربية المتحدة، ص ج.

الزبير، عن أبي الربيع، عن القاضي عياض في كتابه "الشفاء في التعريف في حق المصطفى"، وكان سعيد هذا شيخ مسننا وقورا بادي الفضل والصلاح، غزير العلم مبرزا في فنونه، ولا سيما في الفقه و الحديث، وقد استمر مفتيا بتلمسان أزيد من ستين سنة.

كما اتصل بعلماء منطقته يومها فتلقا عنهم حتى استنفذ ميعة الصبي في ذلك، ولم يشد عن سيرة طلاب العلم يومها، وأنى له ذلك وهو ابن أسرة ورثت تقاليد التكوين العلمي، وحرصت على توريثها لمن يطقون أعبائها. فبدأ مرحلة الرحلة في طلب بغيته[534].

وكانت صلة عمه بفاس وشيوخ العلم بها وثيقة، والمراسلات بينه وبينهم في الشؤون العلمية غادية رائحة، وما منهم إلا رفيق وصديق له، عرفه أثناء انتقاله إلى فاس في صغره لطلب العلم، أو أثناء زيارة من الزيارات التي كان يقوم بها الناهون من طلبة إحدى الحاضرتين إلى الأخرى[535].

ولا ريب أن سعيدا المقري هذا هو الذي كان يزين لابن أخيه الرحلة إلى فاس، ويحببها إليه، ويرغبه أن يكمل بها المعارف والعلوم التي حصلها في بلده، ويروم بالإضافة إلى ذلك أن يبوئه مقعدا بديوان السلطان أبي العباس أحمد منصور الذهبي، الذي كانت شهرته طبقت يومئذ أفاق المغارب والمشارق وأروبا، ويحله منه مكانا يضمن له راحة النفس، وتفتح المواهب وبسطة الكف مثلما حصل لجده القاضي محمد مع السلطان أبي عنان، الذي صحبه معه عندما بويع بتلمسان إلى فاس، وولاه فضاء حضرته، وأشركه في أموره، وبنى له المدرسة المتوكلية الشهيرة بالطالعة الكبرى[536].

وفعلا فصل أبو العباس أحمد المقري عن تلمسان إلى فاس، فوصلها يوم 04 صفر عام 1009هـ، ولم يكمل الثلاثة والعشرين من عمره، فنزل بدار القاضي أبي مالك عبد الواحد الحميدي، وقصد يوم وصوله جامع القرويين، وحضر مجلس عمران السلامي، وناقشه في بعض المسائل الفقهية التي أشكلت عليه، وفي فاس مضى يطلب العلم على شيوخها إلى أن حل فيها

---

(534) محمد خيط، المقري العباس أحمد بن محمد، دار مدين للطباعة والنشر، الجزائر، ط01، سنة2012م، ص 88.

(535)أحمد المقري التلمساني، روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس، المصدر السابق، ص ي.

(536)أحمد المقري التلمساني، روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس، المصدر السابق، ص ي.

الفقيه إبراهيم بن محمد الآبسي، أحد قواد السلطان أحمد المنصور الذهبي، فأعجب بالمقري الشاب، وصحبه معه إلى مراكش وقدمه إلى السلطان، وهناك التقى بابن السلطان، وأحمد بابا التنبكتي صاحب "نيل الابتهاج"، وبغيرهما من علماء مراكش وبأذبائها ، وكانت هذه الرحلة مادة كتابه "روضة الآس"، الذي أخذ يؤلف كتابه حين عودته إلى فاس ومنها إلى تلمسان، ليقدمه إلى السلطان المنصور، ولكن السلطان توفي سنة 1012هـ، والمقري لايزال في بلده[537].

ورغم ذلك فإن الهجرة من تلمسان كانت قد ملكت تفكيره، فلم يلبث إلى غادر مسقط رأسه نهائيا إلى فاس سنة 1013هـ، وأقام فيها حوالي خمسة عشر عاما، يقول في النفح: "وارتحلت منها إلى فاس حيث ملك الأشراف ممتد الرواق، فاشتغلت بأمور الإمامة والفتوى والخطابة"[538].

وأصبح المقري من صدور العلماء المرموقين، ولكن اضطراب الأحوال في فاس بعد وفاة المنصور الذهبي، وصراع أبنائه على الحكم، وتعرض بلاد المعرب لغزوات الإسبان والبرتغاليين، وفي سنة 1017هـ، كان المقري يشهد على انقطاع آخر صلة ببلاد الأندلس، حيث تفوقت الجالية الأندلسية في بلاد المغرب، وبعد ثلاث سنوات كان الإسبان يستولون على مدينة العرائش بمواطأة الشيخ المأمون، أحد أبناء المنصور، ولقي هذا العمل استنكارا كبيرا من الناس، وتولى المقري منصب القضاء في فاس بعد وفاة شيخه محمد الهواري سنة 1022 هـ[539].

2 – شيوخه: نذكر منهم

أ– أحمد بابا بن أحمد التنبكتي (960هـ/1036هـ): هو أحمد بن أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت بن علي بن يحي بن كدالة بن مكي بن نيق بن لف ين يحي بن تشت بن تنفر بن حيرادى بن النيجر بن نصر أبي بكر بن عمر الصنهاجي المستوفى الماسني التكروري التنبكتي[540]، أبو العباس عرف ببابا السوداني، وليس هو من السودان، بل من صنهاجة من فبيلة يقال لها

[537] أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج01، المصدر السابق، ص 06.

[538] المصدر نفسه، ص06.

[539] أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج01، المصدر السابق ، ص ص (08-09).

[540] العباس بن إبراهيم السملالي، الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام،المصدر السابق، ص ص (301-307).

مسوفة، وبيته بيت علم وصلاح توارثت العلم فيه نحو خمسمائة سنة، وذكر في ذيل الديباج جماعة من أقاربه الذين تقدموا في العلم، وتولى منهم خطة القضاء جماعة ببلده.

ولد عام 960هـ، ونشأ في طلب العلم فحفظ بعض الأمهات، وقرأ النحو على عمه أبي بكر الشيخ الصالح، والتفسير والحديث والفقه والأصول والعربية والبيان والخطوط وغيرها على الشيخ بغبغ. وأخذ من والده الحديث سماعا والمنطق ومقامات الحريري تفقها على غيرهم، واشتهر بين الطلبة بالمهارة على كلال ومهل في الطلب.

ومن تلاميذه أحمد المقري نقل عنه في إزهار الرياض، وسيدي التهامي بن محمد بن أحمد بن رحمون العلمي وغيرهم. فمن تأليفه ذكر المقري :"شرحه على مختصر لم يكمل رأيته من الزكاة إلى النكاح في سفرين، وهو من تجزئة خمسة أسفار، وسماه المقصد".

- "تنبيه الواقف على مسألة".
- تعليق على الألفية مسمى " النكت الوفية لشرح الألفية".
- "فتح المحي في مسألة حي".
- المسلك الأنم إلى معرفة هلم.
- منور الحالك في شرح بيتي ابن مالك.
- نيل الأمل في تفضيل النية على العمل.
- غاية الأمل في تفضيل النية على العمل.
- اختصار شرح صغرى السنوسي.
- نيل الابتهاج بتطريز الديباج.
- كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج.
- المواقب القدوسية في المناقب السنوسية[541].

توفي رحمه الله بتنبكتو سنة ست وثلاثين وألف 1036هـ[542].

---

[541] أحمد المقري التلمساني، روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس، المصدر السابق، ص ص (304-303)

ب- سعيد المقري (930هـ/1011هـ): هو سعيد بن أحمد بن أبي يحي بن عبد الرحمن بن بلعيش المقري[543]، فقيه تلمسان وعالمها ومفتيها، وخطيبها بالجامع الأعظم خمسا وأربعين سنة، وهو حفيد حفدة سيدي محمد ابن مرزوق أبو الحسن.

حفظ القرآن الكريم على سيدي حاجي الوهراني، وأخذ منه لباس الخرقة الصوفية، وأخذ الفقه والأصول والمنطق على سيدي محمد بن عبد الرحمن الوغزاني، والعربية على سيدي عمر الراشدي، وأخذ على سيدي شقرون بن هبة الوجديجي، ومحمد أبو السدات المديوني.

تخرج عليه جماعة منهم محمد العشوي الندرومي ومحمد الشمور وأحمد بن أبي عبد الله اليرناستي وأحمد بن أبي مدين وأحمد بن رقبة المديوني ومحمد بن قاسم الحويل وأحمد بن محمد المقري ولد أخيه والحاج بن مالك العبادي، وخلق كثير.

له باع في حديث البخاري وغيره، وكان علامة في الفقه والتوحيد، ذا عفة وصيانة وقريحة، أتقن كل علم، حافظا للغة العربية، والشعر والأمثال، حسن المجلس، كثير الحكايات، ممتع المختصر، عذب الكلام، كثير الانصاف في البحث والمناظرة، إماما في العلوم العقلية كلها حسابا ومنطقا، وفرائضا وهندسة، وطبا وتشريحا، وتنجيما وفلاحة وبناء، وكثيرا من العلوم القديمة والحديثة. ولد بعد الثلاثين وتسعمائة 930هـ، وتوفي عام إحدى عشرة وألف 1011هـ.

جـ- أحمد بن محمد ابن القاضي المكناسي (960هـ/1020هـ): هو أحمد بن محمد بن محمد بن محمد ابن الفقيه قاضي مكناسة الزيتون أحمد بن علي بن عبد الرحمن بن القاضي الأعدل

---

[542] العباس بن إبراهيم السملالي، الإعلام بمن حل بمراكش و أغمات من الأعلام، ج02، المصدر السابق، ص 306.

[543] ابن مريم البستان، المصدر السابق، ص ص(195-196).

- محمد بن الطيب القادري، الإكليل والتاج في تذييل كفاية المحتاج، المصدر السابق، ص 112.

- أحمد القاضي المكناسي، درة الحجال في أسماء الرجال، ج02، المصدر السابق، ص ص (300-301).

- أحمد القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، ج02، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، سنة 1973م، ص ص (519-520).

- محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة بير فوتبانة، الجزائر الشرقية، سنة 1906م، ص155.

أبي العز بن أبي العافية، أبو العباس، الشهير بابن القاضي[544]. وهو من بيت عريق في الحضارة، بل ليس في بطون زناته في المغرب بفاس ومكناسه، وغيرهما: مثل أولاد بن القاضي من بني موسى بن أبي العافية، تقدم في الرياسة وتعدد الأئمة الأعلام، وتنوع الخطط والتمكن في الثروة.

ولد عام ستين وتسعمائة 960هـ بالمتناه، وكان حافظا أو ضابطا ومحققا ومؤرخا إخباريا ثقه، سيال القريحة بالشعر، حسن العبادة، لطيف الاشارة، مستجمعا لعلوم الأدب، ماهرا في معرفة علوم الأوائل، مشاركا في غير ذلك للأئمة الأمثال، وانفرد بعلم الحساب والفرائض في وقته شرقا وغربا، وكان له اعتناء بنشر العلم وتدريسه، يختم مختصر خليل في أربعة أشهر.

أخذ بفاس وغيرها من بلاد المغرب عن والده، وعن القصار، والمنجور، والسراج، ويعقوب البدري، وابن مجبر المساري، وابن جلال، وسيدي أحمد بابا التنبكتي وغيرهم. له تآليف عديدة منها: "درة الحجال، في أسماء الرجال"، و"المتلقى المقصور على مآثر أبي العباس المنصور"، و"درة السلوك فيمن حوى الملك من الملوك"، وشرحها "بدر الحلوك"، و"لفظ الفرائد من حقق الفوائد"، ذيل وفيات ابن القنفد القسنطيني ألفه عام 1000هـ بمراكش، وتقيد على جداول الحوفي، و"الفتح النبيل بما تضمنه من أسماء العدد التنزيل"، و"نظم تلخيص ابن البنا"، و"نظم منطق السعد"، و"جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس"، و"نيل الأمل فيما بين المالكية جرى العمل"، وفهرسته المسماة "رائد الصلاح"

3– مؤلفاته: كثيرة نذكر منها:

أ– <u>نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب</u>: وهو كتاب يتناول التعريف بالأندلس وأدبائها وعلمائها، والوزير لسان الدين ابن الخطيب، وقد دفعه لتأليف هذا الكتاب، بينما كان في دمشق يتذاكر مع أدبائها وأعلام علماء وأخبار الأدب والتاريخ، فينجر بهم الحديث إلى ذكر البلاد الأندلسية، ووصف رياضها، وتاريخها وأعلامها، حتى انتهى إلى ذكر لسان الدين بن الخطيب، فأفاض في مجالسه الدمشقية في أخبار الرجل وآثاره،

---

[544] أحمد المقري التلمساني، روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس، المصدر السابق، ص ص (300-239)

وشعره ونثره، وشيوخه وأتى بالعجب المطرب في ذلك. فاقترح عليه المولى أحمد بن شاهين أن يصنف في ذلك كتابا، فقبل المقري ذلك بعد إلحاح منه[545].

ب- روضة الآس العطرة الأنفاس في ذكر من لقية من أعلام الحضرتين مراكش وفاس، ألفه حوالي 1011هـ-1012هـ ليقدمه إلى المنصور الذهبي.

جـ- أزهار الرياض في أخبار عياض، ألفه أثناء إقامته بفاس حوالي 1013هـ - 1024هـ، ولم يطبع منه إلا ثلاثة أجزاء، بتحقيق الأساتذة مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي[546].

د- إضاءة الدجنة بعقائد أهل السنة، منظومة قام بتأليفها أثناء زيارته للحجاز سنة 1029هـ، ودرسها في الحرمين الشريفين، وأتمها في القاهرة سنة 1036هـ.

هـ- إتحاف المغرم المغرى في شرح السنوسية الصغرى.

و- أجوبة على مسائل أرسلها إليه أستاذه محمد بن أبي بكر الدلائي، سماها "إعمال الذهن والفكر في المسائل المتنوعة الأجناس.

ز- حاشية على شرح أم البراهين للسنوسي.

ح- عرف النشق من أخبار دمشق.

ط- شرح مقدمة ابن خلدون.

ي- قطف المهنصر في شرح المختصر، شرح على حاشية مختصر خليل[547].

ك- فتح المتعال في مدح النعال، وقد ختم هذا الكتاب برجز النعال، ثم أفرد في نسخة بعث بها إلى شيخه الدلائي.

للمقري أراجيز منها كثيره منها:

أ- أزهار الكمامة في شرف العمامة.

---

[545] محمد خيط، المقري العباس أحمد بن محمد، المرجع السابق، ص ص (136-137).

[546] أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج01، المصدر السابق، ص11.

[547] أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج01، المصدر السابق، ص12.

ب- الدر الثمين في أسماء الهادي الأمين.

جـ- نيل المرام المغتبط لطلب المخمس الحالي الوسط.

د- البلدة والنشأة.

هـ- الغث والسمين والرث والثمين.

و- حسن الثنا في العفو عمن جنى.

ز- الأصفياء.

ح- الشفاء في بديع الاكتفاء.

ط- القواعد السرية في حل مشكلات الشجرة النعمانية.

ي- النمط الأكمل في ذكر المستقبل.

ك- أرجوزة في الإمامة[548].

4- رحلاته:

انطلق المقري من تطوان قاصدا حج البيت الحرام مرورا بالجزائر وتونس، ووصولا إلى الإسكندرية، وذلك في أواخر رمضان سنة 1027هـ، فكانت رحلة صعبة وخطيرة، ويقر المقري بذلك: "... إلى أن ركبنا البحر، وحللنا منه بين السحر والنحر، وشاهدنا من أهواله، وتنافي أحواله، ما لا يعبر عنه، ...، فلما استقبلنا أمواجه بوجوه بواسر، وطارت إلينا شراعه عقبانا كواسر، فقد أزعجها أكف الريح عن وكرها، كما نبهت اللجج من كسرها، فلم تبق شيئا من قوتها ومكرها، فسمعنا للجبال صفيرا، وللرياح دويا عظيما وزفيرا، والموج يصفق لسماح الرياح فيطرب بل ويضطرب، فكأنه كأسه الجنون يشرب أو شرب، يبتعد ويقترب، فرقه تلتطم وتصفق، وتختلف ولا تكاد تتفف، فتخال الجو بأخذ بنواصيها..."[549]. ونظم من الشعر:

---

[548]المصدر نفسه، ص12.

[549]أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج01، المصدر السابق، ص33.

ثلاثــة لـــيس بـها أمــان   البـحر والسلـطان والزمـان[550].

وهكذا حل الشيخ المقري بمصر في جمادى الأولى من سنة 1028هـ، ودرس مادة الحديث والعقائد بالجامع الأزهر[551].

وبعد الإقامة بمصر مدة قصيرة، شد الرحال قاصدا زيارة الحرمين الشريفين، لأداء فريضة الحج، فاعتمر وحج وجاور مدة، ثم عاد إلى مصر في محرم من سنة 1029هـ، وقصد زيارة بيت المقدس في ربيع الثاني من نفس العام، ودخل المسجد الأقصى، وأبصر بدائعه التي لا تستقصى، فبهر بجماله، وشاهد المحل الذي أم فيه الرسول صلى الله عليه وسلم الرسل الكرام[552].

ثم رجع إلى القاهرة، وكرر منها الذهاب إلى البقاع المقدسة خمس مرات، وفي ذلك يقول المقري: " وكررت منها الذهاب إلى البقاع الطاهرة، وألفت مكة خمس مرات، وحصلت لي بالمجاورة فيها المسرات، وأمليت فيها على قصد التبرك دروسا عديدة، ...، ووفدت على طيبة ميمما مناهجها السديدة، سبع مرار، وأطفأت بالعود إليها ما بالأكباد الحرار، واستضأت بتلك الأنوار، وألفت بحضرته صلى الله عليه وسلم، بما من الله علي فيذلك الجوار، وأمليت الحديث بمرأى منه ومسمع...، ثم أبت إلى مصر مقوضا لله جميع الأمور، ملازما خدمة العلم الشريف بالأزهر المعمور، وكان عودي من الحجة الخامسة في صفر سنة 1037هـ"[553].

وفي أوائل رجب من سنة 1073هـ قرر العودة لزيارة بيت المقدس، فبلغه في أواسط رجب، وأقام به 25 يوما، وألقى عدة دروس بالجامع الأقصى وقبة الصخرة، وزار مقام إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام[554].

وعزم الرحلة إلى مدينة دمشق في منتصف شعبان عام 1037هـ، وأقام بها حتى أوائل شوال من سنة 1038هـ، ولما نزل بمنزله في حارة المغاربة، وكان غير لائق بفضله وعلمه، ولما علم

---

[550]المصدر نفسه، ص34.

[551]محمد خيط، المقري العباس أحمد بن محمد، المرجع السابق، ص91.

[552]أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج01، المصدر السابق، ص54.

[553]أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج01، المصدر السابق، ص ص (56-57).

[554]أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج01، المصدر السابق، ص57.

أحمد شاهين بهذا أنزله إلى المدرسة الجقمقية واعتنى به، وسهر على رعايته وراحته، وجمع له أدباء الشام وشعراءه في ذلك الوقت، فالتفوا حوله، وسمعوا منه، ورووا عنه، فشعر بالراحة والاطمئنان[555].

وبعد عودته إلى مصر في شوال 1038هـ وقع حادث طلاقه لزوجته الوفائية، ضاقت عليه مصر بما رحبت، وهذا ما جعله ينوي العودة لدمشق للإقامة بها، فاستقبل استقبالا حافلا[556].

ومما لا ريب فيه أن الرحالة أحمد المقري التلمساني اهتم بالتعريف بمختلف مدن الأندلس، وما تعلق بوصف لأرضها ومحاسنها، وقوة الخلافة بها، كما عرف بلسان الدين ابن الخطيب، ومجموعة من الشخصيات الأندلسية التي ارتحلت إلى المشرق. وقد اتسم أسلوبه بكثرة الاستعارات والسجع والجناس، وكان على قدر كبير من العلم والفضل والأدب. واستطاع الحسن الوزان من خلال رحلاته الكثيرة أن يعرف بصورة جيدة على إفريقيا، وقد تميز وصفه الجغرافي بالدقة الشديدة.

---

[555]محمدخيط، المقري العباس أحمد بن محمد، المرجع السابق، ص95.

[556]المرجع نفسه، ص96.

الباب الثاني:

النسيج العمراني للمدن الإسلامية من خلال كتب رحالة المغرب الإسلامي القرن 7هـ إلى القرن 10هـ.

-الفصل الأول: مـدن الأندلـــس.

-الفصل الثاني: مدن الحجاز وبلاد الشام والعراق.

-الفصل الثالث: مدن المغرب.

الفـــصل الأول

مــدن الأنـــدلـــس.

-المبحث الأول: مدينة قرطبــة.

-المبحث الثاني: مدينة غرناطــة.

-المبحث الثالث: مدينة إشبيلية.

لقد أدى الموقع الجغرافي لشبه جزيرة إيبيريا[557]، الذي يحيط بالطريق الغربي للبحر الأبيض المتوسط إلى انتقال المؤثرات الفنية الشرقية، وهذا بسبب وجود عوامل هوية مشتركة، ولعل أقواها، عامل الدين واللغة ، اللذان يعتبران القوى الربطة بين الشعوب، وتبقى هذه التأثيرات الشرقية التي نمت وأصبحت أسمى درجة، وأفسح مدى مما كانت عليه في بلدها الأصيل[558].

وقد تطوّر الفن الإسلامي الأندلسي، واتخذ طابعا أصيلا ومميزا، وشيّد المسلمون الآثار التي تنفرد بجمال لا يضاهى، وأصالة تحدد الشخصية المنفردة للمدرسة المغربية الأندلسية عن باقي مدارس العمارة الإسلامية، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر: قصور مدينة الزهراء في قرطبة، والجعفرية في سرقسطة، وقصر الحمراء في غرناطة الذي لا يزال محتفظا بحالته على نحو عجيب، على الرغم من رهافته الشديدة، وقد جمع من الأساليب الراقية في تخطيط العمارة والتشييد، والعناصر المعمارية والزخرفية المتناسقة، والمؤثرات الطبيعية من موقع وماء جاري وخضرة يانعة لتجعل منه لوحة فنية تعبر عن أعظم مشاهد العالم إلهامًا[559].

المبحث الأول: مدينة قرطبة

هي قاعدة الأندلس، وأهم مدائنها ومستقر خلافة الأمويين بها، وآثارهم بها ظاهرة، وفضائل قرطبة ومناقب خلفائها أشهر أن تذكر، وهم أعلام البلاد، وأعيان الناس، اشتهروا بصحة

---

[557] الأندلس جزيرة كبيرة فيها عامر وعامر، طولها نحو الشهر ونيف، وعشرون مرحلة تغلب عليها المياه الجارية والثمر والرخص والسعة في الأحوال. وهي جزيرة ذات ثلاثة أركان على شكل مثلث قد أحاط بها البحران، المحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط، أنظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج01، المصدر السابق، ص ص (262-264).

[558] ج س كولان، الأندلس، ترجمة: إبراهيم خور رشيد وعبد الحميد يونس وحسين عثمان، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط01، سنة 1980، ص ص (149-150).

[559] المرجع نفسه، ص ص (151-152).

المذهب، وطيب المكسب، وحسن الزي، وعلوّ الهمّة، وجميل الأخلاق، وكان فيها أعلام العلماء، وسادة الفضلاء، تجارها مياسير[560].

خصّ عبد الرحمن الداخل[561] مدينة قرطبة بعناية كبيرة، وحصّنها وزيّنها بالمنشآت المعمارية الفخمة، والرياض اليانعة، وأولى منجزاته المعمارية منية الرصافة، وقصرها المنيف. فأنشأ عبد الرحمن الداخل ضاحية ملكية في شمال غربي قرطبة، وجلب إليه مختلف البذور والأشجار من الشام وإفريقية، وجرّ الماء إلى هذه الجنة الغناء وغرس بها نخلة أتى بها من الشام، وقد حركت هذه النخلة مشاعر عبد الرحمن الداخل، فنظم بيتا من الشعر:

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي[562].

وقد حاول عبد الرحمن الداخل من خلال ذلك الإقتداء بأجداده في بلاد الشام، فالرصافة هي مدينة جانبية، مثل: رصافة بغداد الشرقية، وعلى أي حال فقد ورث عبد الرحمن من أجداده في المشرق اتخاذ قصور في الضواحي والصحاري بعيدا عن صخب المدن، سعيا إلى الهدوء، والراحة في الأماكن الخلوية حيث يمارسون الصيد والقنص، ثم يلجئون إلى قصور ظليلة ينعمون فيها بالاستجمام بعد يوم قائظ شاق يقضونه في مطاردة الهوام والطيور. بالإضافة إلى رغبة أجدادهم من التقرّب من أهل البادية أي القبائل، التي تربطهم بالخليفة روابط العشيرة أو العادات وما تمثله البادية من مدرسة للغة العربية الخالصة من الهجنة والرطانة الآرامية[563].

---

[560] عبد المنعم الحميري، صفة جزيرة الأندلس، تحقيق: ليفي بروفنصال، دار الجيل، بيروت، ط02، سنة 1408هـ/1988م، ص153.

[561] هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، أفلت من بني العباس بعد مقتل عبد الله بن علي بن مروان بن الحكم آخر خلفاء بني أمية سنة 132هـ، عرف بالداخل لأنه أول داخل من ملوك بني مروان الأندلس، وكان أبو جعفر المنصور يلقبه بصقر قريش، لأنه دخل الأندلس من غير عصابة ولا أنصار، فغلب أهلها على أمرهم، وتناول الملك من أيديهم بقوة وشكيمة، وكانت مدة ملكه 33سنة و04 أشهر (138هـ-172هـ)، وكان مولده سنة 119هـ. أنظر: أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج01، المصدر السابق، ص ص(327-333).

[562] عصام عبد الرءوف الفقي، تاريخ المغرب والأندلس، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، سنة 1990م، ص78.

[563] عفيف بهنسي، الفن الإسلامي في بداية تكونه، المرجع السابق، ص97.

يدرج ابن سعيد المغربي مدينة قرطبة في الإقليم الرابع الذي يعدّ من أعدل الأقاليم وأحسنها حيوانا ونباتا، والكلام في تفصيله يطول، وهو أوسط الأقاليم السبعة وخير الأمور أوسطها، وسكانه بين البياض والحمرة والسمرة والصفرة، عرض هذا الإقليم الرابع 36° درجة، ووسعه من شماله إلى جنوبه 06° درجات و17'دقيقة[564].

وهي تقع على ضفة النهر الأعظم متوسطة بين بلاد شرق الأندلس وبلاد غربها[565].وهي مدينة عظيمة أزلية منبنيان الأوائل طيبة الماء والهواء، أحدقت بها بساتين الزيتون والقرى والحصون والمياه والعيون من كل جانب، وبها المحرث العظيم الذي ليس في بلاد الأندلس مثله ولا أعظم منه بركة[566].

وكانت قرطبة في عزّها أعظم مدائن الأندلس وقد بلغ عدد مساجدها ألف وستمائة مسجدا، وحماماتها تسع مائة، وذكر آخرون أنه كان فيها مائة ألف دار، وثمانون ألف قصر، وقطرها ثلاثون ألف ذراع. يقول أحمد المقري هي: "أعظم مدينة بالأندلس، وليس بجميع المغرب لها عندي شبيه في كثرة أهل، وسعة محل، وفسحة أسواق، ونظافة حال، وعمارة مساجد، وكثرة حمامات وفنادق، ويزعم قوم من أهلها أنها كأحد جانبي بغداد، وإن لم تكن كأحد جانبي بغداد فهي قريبة من ذلك ولاحقه به، وهي مدينة حصينة ذات سور من الحجارة ومحال حسنة، وفيها كان سلاطينهم قديما، ودورهم داخل سورها المحيط بها، وأكثر أبواب القصر السلطاني من البلد، وجنوب قرطبة على نهرها"[567].

وهي ذاتها مدن خمسة يتلو بعضها بعضا بين المدينة والمدينة سور حاجز, وفي كل مدينة ما يكفيها من الأسواق والفنادق والحمامات وسائر الصناعات. وطولها من غربيها إلى شرقيها ثلاثة أميال, وكذلك عرضها من باب القنطرة إلى باب اليهود بشمالها ميل, وهي في سفح جبل مطل

---

[564] ابن سعيد المغربي، الجغرافيا، المصدر السابق ص ص (11-12).

[565] مجهول، تاريخ الأندلس، تحقيق: عبد القادر بوباية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط02، سنة 2009م، ص73.

[566] أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج01، المصدر السابق، ص459.

[567] المصدر نفسه، ص 460.

عليها يسمى جبل العروس, ومدينتها الوسطى التي فيها باب القنطرة, وفيها المسجد الجامع الذي ليس بمساجد المسلمين مثله, بنيته وتنسيقا وطولا وعرضا[568].

وتذكر المصادر التاريخية أن أول عمل معماري للمسلمين بقرطبة بعد الفتح الإسلامي كان في حدود سنة 101 هـ، عندما ولى الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز السمح بن مالك الخولاني[569] على الأندلس, فوجد المسلمون آثار قنطرة فوق نهرها, على حنايا وثاق الأركان من تأسيس الأمم الدائرة, قد هدمها مدود النهر على مر الأزمان, فتقدم إلى فصيلة النظر فيها عمر ابن عبد العزيز عندما اتصل به خبرها، فأمر السمح ببنائها فصنعت على أتم, وأعظم مما يبنى عليه جسر من حجارة المدينة.وفي سنة 101 هـ ورد كتاب الخليفة عمر ابن عبد العزيز على السمح ابن مالك بالأندلس يأمر ببناء القنطرة بصخر السور، وبناء السور باللبن و يأمره بإخراج خمس قرطبة[570](الصورة 01).

أما عن تقدير مساحة مدينة قرطبة فقد ورد في كتاب النفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب, وكتاب تاريخ الأندلس, لمؤلف مجهول الذي حققه الأستاذ عبد القادر بوباية، والذي رجح أن يكون مؤرخه ينتمي إلى النصف الثاني من القرن 08هـ / 14م، "إن تكسيرها ومساحتها التي دار سور عليها دون الأرباض طولا من القبلة إلى الجوف ألف وستمائة ذراع. واتصلت العمارة بها أيام بني أمية ثمانية فراسخ طولا، وفرسخين عرضا، وذلك من أميال أربعة وعشرون في الطول، وفي العرض ستة, وكل ذلك ديار وقصور ومساجد وبساتين وقيصريات وحانات وأسواق وحمامات بطول الوادي المسمى بالواد الكبير, وليس في الأندلس واد يسمى باسم عربي غيره"[571]. (شكل

---

(568) الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، سنة 1422هـ/2002م، ص 575.

(569) هو السمح بن مالك الخولاني، تولى خلافة الأندلس بعد أن غزلها عمر بن عبد العزيز عن ولاية إفريقية، اعتناء بأهلها وتهمما بشأنها، استشهد بطرشونة عندما عزم غزو الروم سنة 102هـ، وكانت وفاته يوم عرفة، ودامت خلافته سنتين و04 أشهر، وقيل: سنتين أشهر، وقيل: 03 سنين، أنظر: ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ليفي بروفنصال وج س كولان، ج02، دار الثقافة، بيروت، ط03، سنة1983م، ص26.

(570)المصدر نفسه، ص26.

(571)أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج01، المصدر السابق، ص459.

04)، ودور سور قرطبة بطول الأرض ثلاثة وثلاثون ألف ذراع، ودور قصر إمارتها ألف ومائة ذراع[572] .

ولها سبعة أبواب, أولها باب القنطرة وهو القبلي, ويخارج هذا الباب جنات كثيرة ونواعر وأرحية وبساتين متصلة, ثم باب الحديد وهو شرقي, ثم باب اليهود وهو جوفي, ثم باب عامر، وهو غربي وكان قد نزل قريبا منه عامر بن عمر بن وهب بن مصعب بن أبي عزيز زراره بن عمير ابن هاشم بن عبد مناف فنسب إليه, ثم باب العطارين وهو غربي أيضا, ثم باب عبد الجبار منسوب إلى عبد الجبار بن خطاب بن نذير مولى معاوية بن هارون، وكان قد نزل قريبا منه فنسب إليه, ثم باب الجوزة[573].

وأحواز قرطبة تنتهي في الغرب إلى أحواز إشبيلية، وتأخذ في الجوف ستين ميلا, وتختلط أحوازها في الشرق بأحواز جيان[574], وعلى الجملة فقد كانت أم البلاد، وواسطة عقد الأندلس, واحتوت الأكابر من أهل الدنيا والآخرة[575].

وعدد أرباضها واحد وعشرون ربضا, في كل ربض منها من المساجد والأسواق والحمامات ما يقوم بأهله ولا يحتاجون إلى غيره, ويخارج قرطبة ثلاثة آلاف قرية في كل واحدة منها منبر وفقيه مقلص تكون الفتوى في الأحكام والشرائع له، وكان لا يجعل القالص عندهم على رأسه إلا من حفظ الموطأ، وقيل: من حفظ عشرة آلاف حديث عن النبي (ص)، وحفظ المدونة، وكان هؤلاء المقلصون المجاورون لقرطبة يأتون يوم الجمعة للصلاة مع الخليفة, ويسلمون عليه ويطالعونه بأحوال بلدهم[576].

---

(572) مجهول، تاريخ الأندلس، المصدر السابق، ص76.

(573) المصدر نفسه، ص77.

(574) جيان مدينة لها كورة واسعة بالأندلس، تتصل بكورة ألبيرة مائلة عنها إلى ناحية الجوف، وهي في شرقي قرطبة، بينها وبين قرطبة 17 فرسخا. أنظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج01، المصدر السابق، ص190.

(575) عبد المنعم الحميري، صفة جزيرة الأندلس، المصدر السابق، ص185.

(576) أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج01، المصدر السابق، ص458.

من الأرباض القبلية بعدوة النهر: ربض شقندة، وربض منية عجب. وأما الغربية فتسعة: ربض حوانيت الريحان، وربض الرقاقين، وربض مسجد الكهف، وربض بلاط مغيث، وربض مسجد الشفاء، وربض حمام الألبيري، وربض مسجد المسرور، وربض الروضة، وربض السجن القديم، وأما الشمالية فثلاثة: ربض باب اليهود ، ربض مسجد أم سلمة، وربض الرصافة، وأما الشرقية منها سبعة: ربض شبلار، وربض فرن بريل، وربض البرج، وربض منية عبد الله، وربض منية المغيرة، وربض الزاهرة، وربض المدينة العتيقة[577].

ووسط هذه الأرباض قصبة قرطبة التي تختص بالسور دونها، وكانت هذه الأرباض دون سور، فلمّا كانت أيام الفتنة صنع لها خندقا يدور بجميعها، وحائط مانع، ذكر بن غالب أنّه دوّر هذا الحائط ألربعة عشر ميلا، وشقندة معدودة في المدينة لأنّها مدينة قديمة كانت مسورة[578].

1- جامع قرطبة:

وبها الجامع المشهور ذكره، من أجمل مصانع الدنيا(الصورة 02)، كبر مساحة، وإحكام صنعة وجمال الهيئة وإتقان بنية, تهمم به الخلفاء المروانيون فزادوا فيه زيادة بعد زيادة، وتنميما إثر تنميم، حتى بلغ العناية في الإتقان، فصار يحار فيه الطرف، ويعجز عن حسنه الوصف، وليس في مساجد المسلمين مثله تنسيقا، وطولا وعرضا[579].

يؤكد الوصف العام لجامع قرطبة، أنها بلغت ذروة التقدم الحضاري، من حيث كثرة المنشآت المعمارية، التي تعبّر عن الرخاء الاقتصادي والرفاهية، فقد كانت بحق أكبر وأجمل عواصم العالم آنذاك، وبالتالي صورة حقيقية لمظاهر البذخ والترف لذلك العصر[580].ونذكر بعض المصادر

---

(577) مجهول، تاريخ الأندلس، المصدر السابق، ص ص (76-77).

(578) أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج01، المصدر السابق، ص 466.

(579) عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، المصدر السابق، ص ص (457-458).

(580) خليل إبراهيم السمرائي وعبد الواحد طه دنون وناطق صلاح مطلوب، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، ط01، سنة 2000، ص 181.

التاريخية أنه: "ليس في بلاد الإسلام أعظم منه وأعجب بناء وأتقن صنعة، كلما اجتمعت أربع سواري كان رأسها واحد"[581].

أما عن تكلفة الجامع، فقد ذكر المقري روايتين مختلفتين في كتابه نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب نقلا عن بعض المؤرخين ، تشير الرواية الأولى : " أنه لما استقر أمره وعظم بنى القصر بقرطبة، وبنى المسجد الجامع، وأنفق عليه ثمانين ألف دينار، وبنى بقرطبة الرصافة تشبيها برصافة جده هشام بدمشق"[582].وتذكر الرواية الثانية : " أنه أنفق على الجامع ثمانين ألف دينار، واشترى موضعه إذا كان كنيسة بمائة ألف دينار، فالله أعلم "[583].

وقد وضع حجر تأسيس هذا الجامع عبد الرحمن الداخل، بعدما قايض المسيحيين سنة 168هـ/ 786م على ما بين أيديهم من الكنيسة المجاورة وأجزل له فيها العطاء وأوسع في الثمن، فباعوا له شريطة أن يسمح لهم ببناء كنيستهم التي خربوها بظاهر قرطبة، لكن عبد الرحمن الداخل توفي سنة 172هـ قبل إتمام بناءه ، فخلفه في ذلك ابنه هشام الأول[584] بن عبد الرحمن، وقد توالت الأمويين بالأندلس على هذا ترميم هذا المسجد، وتزيينه إما بالزيادة أو التجديد أو الترميم أو الزخرفة[585].

وكان الجامع الذي بناه عبد الرحمن الداخل يشتمل على قسمين: قسم مسقوف، وهو بيت الصلاة يشتمل على 09 بلاطات، تتجه عموديا على جدار القبلة، ممتدة على 12 قوسا، وقسم مكشوف وهو الصحن (الصورة رقم 03)، وكان مغروسا بالأشجار، (شكل 05). توفي عبد الرحمن الداخل قبل أن يتم بناء الجامع، فلم تكن له مئذنة. فجاء ابنه هشام من بعده فأقام له

---

[581]أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج01، المصدر السابق، ص545.

[582]المصدر نفسه، ص545.

[583] المصدر نفسه، ص 546.

[584] هو هشام الرضى بن عبد الرحمن الداخل،كنيته أبو الوليد، مولده كان سنة 139هـ، تولى الحكم يوم الأحد مستهل جمادي الأولى سنة 172هـ، توفي ليلة الخميس لثلاث خلون من صفر180هـ، وكانت مدة دولته 07 سنين و09 أشهر و08 أيام. أنظر: ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخيار الأندلس والمغرب، ج02، المصدر السابق ص61 .

[585] جودة هلال ومحمد محمود صبح، قرطبة في التاريخ الإسلامي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة سنة 1986، ص ص (33-34).

مئذنة بلغ ارتفاعها 40 ذراعا، كما قام ببناء رواقين جانبيين في نهاية الصحن خصصهما للنساء، وأمر ببناء الميضأة شرق الجامع، وكل ذلك من خمس فيء أربونة[586].

ولما تولى عبد الرحمن الثاني الإمارة كان المسجد لا يتسع لكل المصلين، فأمر بإدماج مجنبات قاعة النساء لقاعة الرجال، فأنشأ بلاطين زائدين عليها، فكملت عدد بلاطات الجامع 11 بلاطا، وبعد تهديم جدار القبلة، أضاف 08 أساكيب جديدة زادت في طول البلاطات، وكان ذلك في سنة 218هـ، فشملت هذه الزيادة نحو 150 ذراعا طولا، و50 ذراعا عرضا، وعدد سواريها 80سارية، ونقل المحراب القديم إلى جدار القبلة الجديد، وفتح في بيت الصلاة بابين في جانبي المسجد الشرقي والغربي، بالإضافة إلى البابين القديمين[587]. لكن عبد الرحمن الثاني هلك قبل أن يتم الزخرفة، فأتمها ولده محمد من بعده سنة 241هـ، فاستوفت الكمال في أيامه[588].

ذكر ابن سعيد المغربي: "أن الخليفة عبد الرحمن الناصر أمر بهدم الصومعة سنة 340هـ، وأقام قاعدة هذه الصومعة البديعة، فحفر في أساسها حتى بلغ الماء في مدة 43 يوما، ولما كملت ركب الناصر إليها من مدينة الزهراء، وصعد الناصر الصومعة من أحد درجيها، ونزل من الثاني، ثم خرج وصلى ركعتين في المقصورة، وكانت صومعة عبد الرحمن الثاني ذات مطلع واحد، ولهذه مطلعين فصل بينهما البناء، فلا يلتقي الراقون فيها إلا بأعلاها، ولكل مطلع 107 درجات"[589]. ويبلغ ارتفاعها إلى مكان موقف المؤذن 54 ذراعا، وإلى أعلى الرمانة الأخيرة 73 ذراعا، وعرضها في كل تربيع 18 ذراعا، شيدت بضخام الحجارة المقطعة والمنجدة غاية التنجيد، (الصورة 04) وفي أعلى ذروتها ثلاث رمانات ملصقة في السفود البارز في أعلاها من النحاس: اثنتان منها ذهب إبريز، والثالثة منها وسطى بينهما من فضة إكسير، وفوقها سوسنة من ذهب مسدسة فوقها رمانة

---

(586) ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج02، المصدر السابق، ص 230.

(587) محمد حسن العيدروس، العصر الأندلسي –العمارة والفنون الأندلسية في غرناطة وطليطلة وقرطبة–، دار الكتاب الحديث، القاهرة، ط01، سنة 1433هـ/2012م، ص 66.

(588) أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج01، المصدر السابق، ص561.

(589) المصدر نفسه، ص562.

ذهب صغيرة من طرف الزج البارز[590] في أعلى الجو[591]. وفيه تأريخ مكتوب بالذهب، وزنة كل رمانة من الثلاثة قنطار واحد فما دونه، ودور كل واحدة ثلاثة أذرع ونصف، وكمل بناء الصومعة في جمادى الأولى، فاستغرق ذلك 13 شهرا[592].

وقد أنفق عبد الرحمن الناصر فيما ذكر ابن عذارى المراكشي في صومعة الجامع وتعديله وبيان الوجه للبلاطات الأحد عشر سبعة أمداد وكيلتين ونصف كيل من الدراهم القاسمية[593]. واتخذت هذه المئذنة نموذجا للمآذن المغربية الأندلسية، قال المقري: "وخبر هذه الصومعة مشهور في الأندلس، وليس في مساجد المسلمين صومعة تعدلها"[594]. ولم تقتصر أعمال على بناء المئذنة، بل تجاوزته إلى أعمال الإصلاح والترميم، فقد رمم واجهة جدار بيت الصلاة الذي تصدع بسبب الدفع المستمر الذي تقوم به العقود، وبنى واجهة أخرى ملتصقة بالجدار القديم، وأصلح باب سان استبان (الصورة 06)، وأقام عليه سقيفة تتكئ على مساند ملفوفة من نفس مساند بيت الصلاة"[595].

وسجل عبد الرحمن الناصر أعماله هذه على لوحة بجوار المدخل في البلاط الأوسط، ونصها: "بسم الله الرحمن الرحيم ... أمر عبد الرحمن الناصر أمير المؤمنين لدين الله –أطال الله بقاءه– بنيان هذا الوجه، وإحكام إتقانه تعظيما لشعائر الله، ومحافظة على حرمة بيوته التي أذن أن ترفع ويذكر فيها اسمه، ولما دعاه على ذلك من تقبل عظيم الأجر، وجزيل الذخر، مع بقاء شرف

---

[590] هو البهو المعقود، وهذا الاصطلاح شائع الاستعمال في إيران، ويسميه الفرس أوسنان، ويعنون به الغرفة المطولة. أنظر: السيد عبد العزيز سالم: "بعض المصطلحات للعمارة الأندلسية المغربية"، مجلة الدراسات الإسلامية، ج05، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، عدد 02، سنة 1377هـ/1957م، ص 344.

[591] أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج01، المصدر السابق، ص ص (562-563).

[592] ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج02، المصدر السابق، ص228.

[593] المصدر نفسه، ص231.

[594] أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج01، المصدر السابق، ص562.

[595] السيد عبد العزيز سالم، المساجد والقصور في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، سنة 1986، ص22.

الأثر وحسن الذكر، فتم ذلك بعون الله في شهر ذي الحجة سنة 546هـ على يد مولاه ووزيره وصاحب مبانيه عبد الله ابن برد، عمل سعيد ابن أيوب"[596].

ولما ولي الحكم المستنصر بن الناصر اتسع نطاق قرطبة، وكثر أهلها، وتبين الضيق في جامعها، لم يقدم شيئا على النظر في الزيادة، فبلغ الجهد وزاد الزيادة العظمى، وبها كملت محاسن الجامع، وصار في حد يقصر عنه الوصف[597]. فأحضر الأشياخ والمهندسين، فحددوا هذه الزيادة من قبلة المسجد إلى آخر الفضاء حادا بالطول 11 بلاطا، (شكل 05)، وكان طول هذه الزيادة من الشمال إلى الجنوب 95 ذراعا، وعرضها من الشرق إلى الغرب مثل عرضه سواء، وقلد الحكم المستنصر بذلك حاجبه جعفر بن عبد الرحمن الصقلي[598]. وتجدر الإشارة إلى أن أحمد المقري التلمساني، خالف ابن عذارى المراكشي في تقدير الزيادة فيرى : "أن سقف البلاط في الجامع من القبلة إلى الجوف فبل الزيادة 225 ذراعا، والعرض من الشرق إلى الغرب قبل الزيادة 105 أذرع، ثم زاد الحكم في طوله 105 أذرع، فكمل الطول330 ذراعا[599]. وفي جمادى الثانية من سنة 354هـ أتم بناء قبة المحراب، وهي القبة العظمى[600]، وأحاط هذه القبة بقبتين جانبيتين تكتنفانها من الشرق والغرب، وفية أخرى على مدخل الزيادة تعرف بالقبة المخرمة الكبرى[601]. وقوام قباب الجامع هيكل من الأضلاع المتقاطعة فيما بينها، بحيث تؤلف أشكالا نجمية (الصورة 07)، تقوم في وسطها قبة مفصصة، وقد كسيت هذه الأضلاع من أعلاها بالبناء، طبقت فيما بينها زخارف جميلة، وسقفت من أعلى بالقرميد[602].

---

[596]محمد حسن العيدروس، العصر الأندلسي –العمارة والفنون الأندلسية في غرناطة وطليطلة وقرطبة–، المرجع السابق، ص68.

[597]أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج01، المصدر السابق، ص561.

[598]ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج02، المصدر السابق، ص ص (233-234).

[599]أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج01، المصدر السابق، ص547.

[600]ابن غالب، قطعة من كتاب فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس، تحقيق: لطفي بديع، مجلة معهد المخطوطات العربية، القاهرة، سنة 1956م، ص 29.

[601]السيد عبد العزيز سالم: "العمارة في الأندلس وتطورها"، المرجع السابق، ص ص (93-94).

[602]السيد عبد العزيز سالم، المساجد والقصور في الأندلس، المرجع السابق، ص23.

وكتب الحكم المستنصر إلى ملك الروم سنة 354هـ، وأمره بتوجيه صانعيها إليه، اقتداء بما فعله الوليد بن عبد الملك في بناء الجامع الأموي بدمشق، فرجع وفد الحكم بالصانع ومعه من الفسيفساء 320 قنطارا، فأمر الحكم بإنزال الصانع والتوسيع عليه، ورتب معه جملة من مماليكه لتعلم الصناعة، فوضعوا أيديهم معه في الفسيفساء المجلوبة لتزين جامع قرطبة، فصاروا يعملون معه فأبدعوا، وتفوقوا عليه، واستمروا بعد ذلك منفردين دون الصانع القادم، إذ صدر راجعا بعد الاستغناء عنه، بعد أن أجزل له المستنصر الصلة والكسوة[603].

وأمر الحكم باقتلاع السواري التي كانت عضادات المحراب القديم الفائقة التي لا نظير لها، وصيانتها إلى أن توضع في المحراب الجديد (الصورة 05) الذي ذرعه من القبلة إلى الجوف ثمانية أذرع ونصف، وعرضه من الشرق إلى الغرب سبعة أذرع ونصف، وارتفاع قبوه من في السماء ثلاثة عشر ذراعا ونصف، وعند إتقان إحكامه وإكماله، وصفه ابن صاحب الصلاة: "قد قوس محرابها أحكم تقويس، ووشم بمثل ريش الطواويس، حتى كأنه بالمجرة مقرطق، وبقوس قزح ممنطق، وكأن اللازورد حول وشومه، وبين رسومه نتف من قوادم الحمام، أو لصق من طلل الغمام"[604]. ووضع المنبر إلى جانب المحراب سنة 355هـ، ونصب في قبلة هذه الزيادة مقصورة من الخشب منقوشة الظاهر، مشرقة الذروة، طولها 75ذراعا، وعرضها 22ذراعا، وعلوها إلى الشرفات 08 أذرع، ونصب المقصورة في شهر رجب[605]. ووضع باب هذه المقصورة من الذهب المضروب، وأن عضادتاه كانتا من الأبنوس، بينما كان طوله وأوصاله من الفضة. والمنبر مؤلف من أكارم الخشب مابين أبنوس وصندل تبع وبقم وشوحط، وما شابه ذلك، ومبلغ النفقة عليه كان 35703 درهما وثلث درهم، وعدد درجاته 09 درجات[606].

وفي سنة 356هـ هدم الحكم المستنصر الميضأة القديمة التي كانت بفناء الجامع، التي يستسقى لها الماء من بئر السانية، وبنى في موضعها أربع ميضآت في كل جانب من جانبي المسجد

[603] ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج02، المصدر السابق، ص ص(235-236).
[604] أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج01، المصدر السابق، ص 553.
[605] ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج02، المصدر السابق، ص238.
[606] أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج01، المصدر السابق، ص.551

الشرقي والغربي، منها اثنتان كبرى للرجال، وصغرى للنساء، وأجرى في جميعا ماء عذبا جلبه من عين بجبل قرطبة، حفر له الأرض، وأجراه في قناة من حجر متقنة البناء، محكمة الهندسة، وأودع جوفها أنابيب الرصاص، لتجنبه من كل دنس، تصب ماءها في أحواض من رخام لا ينقطع جريانه بالليل والنهار(607). وأمر الحكم المستنصر ببناء دار الصدقة، حيث اتخذها دارا لتوزيع صدقاته، وأقام حول جامع قرطبة مكاتب لتعليم أولاد الضعفاء والمساكين القرآن الكريم، وكان عددها 27 مكتبا، منها 03 حوالي المسجد الجامع، وباقيها في كل ربض من أرباض قرطبة(608).

وتعد زيادة الحكم المستنصر أعظم زيادة في الجامع من حيث التخطيط والعناصر المعمارية والزخرفية، فجعلته وحدة متناسقة ومتكاملة الأجزاء (الصورة 08)، وقد بلغت قيمة الإنفاق في هذه الزيادة 171000 دينار ونيف، وكله من الأخماس.

لما زاد عدد سكان قرطبة، وانجلبت إليها قبائل البربر من العدوة وإفريقية، ضاقت الأرباض والجامع من حمل الناس، فشرع المنصور بن أبي عامر في الزيادة الأخيرة في جامع قرطبة سنة 377هـ، بشرقيه حيث يمكن الزيادة لاتصال الجانب الغربي منه بقصر الخلافة، فزاد في عرضه من الشرق 80 ذراعا، فتم العرض 230ذراعا، وكان عدد البلاطات11 بلاطا، عرض أوسطها 16ذراعا، وعرض كل واحد من اللذين يليانه غربا، واللذين يليانه شرقا 14 ذراعا، وعرض كل واحد من الستة الباقية 10 أذرع، وزاد المنصور ابن أبي عامر 08بلاطات، عرض كل واحدة 10 أذرع(609). (شكل 05).

وقصد المنصور في هذه الزيادة المبالغة في الإتقان والوثاقة دون الزخرفة، ولم يقصر مع هذا عن سائر الزيادات جودة، وقام بتطييب نفوس أرباب الدور والمستغلات الذين اشتريت منهم للهدم لهذه الزيادة، بإضافة من الثمن أو بمعاوضة(610). فبلغ تكسيره 33150 ذراعا، وعدد أبوابه 21 بابا كانت ملبسة بالنحاس الأصفر ومخرمة تخريما رائعا، وعدد سواريه الحاملة لسمائه واللاصقة

---

(607)أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج01، المصدر السابق، ص 555.

(608)ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج02، المصدر السابق، ص240.

(609)أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج01، المصدر السابق، ص547.

(610)ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج02، المصدر السابق، ص287.

بمبانيه وقبابه ومناره، ما بين كبيرة منها وصغيرة 1417 سارية، وعدد ثريا الجامع مابين صغيرة وكبيرة 280 ثريا، وعدد الكؤوس 7425 كأسا، ووزن ما يحتاج إليه من القناديل في كل شهر رمضان ثلاثة أرباع القنطار، ووزن مشاكي الرصاص للكؤوس 10 أرباع القنطار أو نحوها...[611].

دام العمل في هذه الزيادة مدة عامين والنصف، كان المنصور فيها يعمل بنفسه في أحيان كثيرة، واستخدم مجموعة من أسرى النصارى في ذلك فأصبح الجامع مؤلفا من 19 بلاطة، واحتفظ الجامع منذ ذلك الحين بصورته، ولم يطرأ عليه أي تغير في نظام بنائه، سوى أعمال الترميم، وظل كذلك حتى سقطت قرطبة في يد الإسبان سنة 1236م، فحول إلى كنيسة سانتا ماريا العظمى[612].

2- قصور مدينة قرطبة :

تمتع خلفاء بني أمية بالمسارح الطبيعية التي تزخر بها مدينة قرطبة، والتي ألهمت الشعراء على التغني بجمالها والإبداع في وصفها، فأقاموا قصورًا فخمة، فسادت النشوة الكاملة في أعياد قرطبة. وسنخص بالذكر المتنزهات التي شاع ذكرها في المصادر والمراجع بإيجاز:

أ- قصر الرصافة : وما كاد عبد الرحمن الداخل يستقر بقرطبة، ويستقيم أمره بها حتى بنى المسجد الجامع و القصر، ومنذ ذلك العهد أخذ فن العمارة يلتمس طريقة جديدة في البناء و التشييد، من حيث العناصر المعمارية و والزخرفية شكلت النواة الأولى للفن الأندلسي المغربي[613].

وينقل أحمد المقري عن ابن سعيد المغربي "ولنذكر الآن من متنزهات قرطبة، وما عدها المذكورة في الألسن نظما ونثرا، وما انتهى إليه الضبط. فأول ما نذكر من المتنزهات متنزه الخلفاء المروانية، وهو قصر الرصافة، قال والدي رحمة الله عليه : كان مما ابتناه عبد الرحمن بن معاوية في

---

[611] أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج01، المصدر السابق، ص548.

[612] محمد حسن العيدروس، العصر الأندلسي –العمارة والفنون الأندلسية في غرناطة وطليطلة وقرطبة-، المرجع السابق، ص ص (71-72).

[613] السيد عبد العزيز سالم، المساجد والقصور في الأندلس، المرجع السابق،ص50.

أول أيامه لنزهه وسكناه أكثر أوقاته: منية الرصافة التي اتخذها بشمال قرطبة منحرفة إلى الغرب، فاتخذها قصرا حسنا ..."[614].

قال بن سعيد المغربي أخبرني والدي قال : أخبرني الوشاح المبرّز المحسن أبو الحسن المريني: بينما أنا أشرب ندمائي بإزاء الرصافة، إذ بإنسان رث الهيئة ...، ثم فكر قليلا ورفع رأسه فأنشدنا:

أسقينـها إزاء قصـر الرصـافـة   واعتبـر في مـآل أمـر الخلافـة

وانظر الأفق كيف بدّل أرضا   كي يطيل اللبيب فيه اعترافه[615].

ب– قصر الدمشق: لم يكن قصر الرصافة الذي أقامه عبد الرحمن الداخل القصر الوحيد الذي يدل على انتقال التأثيرات السورية إلى الأندلس، فهناك قصر آخر ذكره المؤرخون العرب يعرف بقصر الدمشق، و أتخذه ملوك بني أمية بعد ذلك ميدان مرحهم ومضمار أفراحهم وقلدوا به قصورهم بالمشرق[616]. وهو قصر شيّده بنو أمية بالصّفاح والعمد، وجري في إتقانه إلى غير أمد، وأبدع بناؤه، ونمقت ساحاته، وفناءه واتخذوه ميدان مرحهم ومضمار أفراحهم، وحاكوا به قصرهم في المشرق، وأطلعوه كالكوكب المشرق، وأنشد فيه الوزير الشاعر أبو بكر بن عمار الذي زاره مع أتباعه:

كل قصـر بعد الـدمشق يـذم   فيـه طـاب المنـى ولـذّ المشـم

منــــظر رائــق ومـــاء نـمـير   وتـرى عـاطـر وقـصـر أشــم

بتّ فيـه والليل والفـجر عندي   عنبــر أشهـب ومسـك أكـمّ[617].

جـ– القصر الفارسي: من القصور المقصودة للنزهة خارج قرطبة، وقد ذكره الوزير أبو الوليد بن زيدون[618] في قصيد ضمنه من منتزهات قرطبة ما تفق عليه، وكان قد فر من قرطبة أيام بني جوهر

---

[614] أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج01، المصدر السابق، ص ص(166-167).

[615] المصدر نفسه، ص ص(468-469).

[616] السيد عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، ج01، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، سنة 1997، ص53.

[617] أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج01، المصدر السابق، ص470.

[618] كان أبو الوليد صاحب منثور ومنظوم، وخاتمة شعراء بني مخزوم، أحد من جر الأيام جرا، وفاق الأنام طرا، وصرف السلطان نيفا وضرا، وسع البيان نظما ونثرا إلى أديب ليس للبحر تدفقه، ولا للبدر تألقه، وشعر ليس للسحر بيانه، للنجوم الزاهرة اقترانه، وحط من

فحضره في فراره عيد ذكره بأعياد وطنه ومعاهده الأنسية مع ولادة[619] التي كان يهواها ويتغزل فيها، فقال:

خليلي لا قصر يسرّ ولا أضحى　　　فمال من أمسى مشوقا كما أضحى[620].

3– مدينة الزهراء :

كان الخليفة عبد الرحمن الناصر[621] كلفا بعمارة الأرض، وإقامة معالمها وانبساط مياهها، واستجلابها من أبعد بقاعها، وتخليد الآثار الدالة على قوة ملكه، وعزة سلطانه، وعلو همته، فأفضى به الاعراق في ذلك إلى ابتناء مدينة الزهراء، البناء الشائع ذكره، الذائع خبره، المنتشر في الأرض أثره[622]. وتنسب إليه أبياتا في تمجيد البنيان :

هـمـم الـملوك إذا أرادوا ذكــرها　　　من بعدهم فيـألف البـنيان

أو ما ترى الـهرمين كم بقيا وكـم　　　ملك محاه حـوادث الأزمان

إن البــنــاء إذا تـعــاظــم قــدره　　　أضحى يدل على عظيـم الشأن[623].

تقع مدينة الزهراء غربي مدينة قرطبة، في السفح الجنوبي لجبل العروس (الصورة 09)، حدد الإدريسي المسافة بينهما بخمسة أميال، ويتجلي هذا في قوله: "ومن مدينة قرطبة إلى مدينة الزهراء خمسة أميال، وهي مدينة قائمة الذات بأسوارها ورسوم قصورها..."[624].

النثر غريب المباني سحري الألفاظ والمعاني، توفي يوم الاثنين ليلة خلت من ذي الحجة سنة 462هـ. أنظر: أبو الحسن علي ابن بسام، أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عباس، ج01، دار الثقافة، بيروت، سنة 1417هـ/1997م، ص ص (330-335).

[619] هي ولادة بنت محمد بن عبد الرحمن الناصري، كان مجلسها بقرطبة، منتدى لأحرار المصر، ومنا وملعبا لجياد النظم والنثر، يعشو أهل الأدب إلى ضوء غرتها، ويتهالك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها، ولها مع أبي الوليد بن زيدون أخبار طوال وقصار، يفوت إحصاؤها، ويشق استقصاؤها، طال عمرها حتى أربا على الثمانين. أنظر: المصدر نفسه، ص ص (429-432).

[620] أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج01، المصدر السابق، ص473.

[621] هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم الربضي بن هشام الرضى بن عبد الرحمن الداخل، كنيته أبو المطرف، ولقبه الناصر لدين الله، ولد يوم الخميس لثمان بقين من رمضان سنة 277هـ، تولى الخلافة في مستهل ربيع الأول سنة 300هـ، وهو ابن 23سنة، توفي سنة 350هـ لليلتين خلتا من شهر رمضان، ودفن بقرطبة، أنظر: ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخيار الأندلس والمغرب، ج02، المصدر السابق ص ص (156-170).

[622] الفتح بن خاقان، مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملمح أهل الأندلس، تحقيق: محمد علي سوابكة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط01، سنة 1403هـ/1983م، ص ص(245-246).

[623] السيد عبد العزيز سا لم، قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، ج01، المرجع السابق، ص 229.

وفي رواية المقري نقلا عن ابن خلكان في ترجمته للمعتمد بن عباد: "أن مدينة الزهراء من عجائب أبنية الدنيا، أنشأها أبو المصفر عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله، الملقب بالناصر، أحد ملوك بني أمية بالأندلس، بالقرب من قرطبة في أول من سنة خمس وعشرين وثلاثمائة، ومسافة ما بينهما أربعة أميال وثلث الميل ..."(625).

قال ابن حيان : ابتدأ الناصر لدين الله بناء مدينة الزهراء أول من محرم سنة 325هـ، وجعل طولها من المشرق إلى المغرب ألفين وسبعمائة ذراع، وعرضها من القبلة إلى الجوف ألفا وخمسمائة ذراع، وتكسيرها تسعمائة ألف وتسعون ألف ذراع، وجلب الرخام من قرطاجنة إفريقية، وكان يثيب على كل رخامة صغيرة أو كبيرة بعشرة دنانير، سوى ما كان يلزمه من النفقة على قطعها ومؤونة سوقها، ويصل على كل سارية عظمت أو لطفت بثمانية مثاقيل ذهب(626).

أما عن سبب البناء والتسمية فتذكر بعض المصادر التاريخية استنادا إلى روايات شيوخ قرطبة، أن إحدى جواري الناصر توفيت وكانت غنية بالمال، ففكر في وجه ينفق فيه المال، فأمر بأن يفك به أسرى المسلمين في بلاد الإفرنج، فلم يجد أسرى، فأشارت إحدى الجاريات الأثيرات لديه، أن يبني لها بهذا المال مدينة خاصة بها، فسمي المدينة باسمها، وتأكيدا لذلك نصب تمثال الزهراء فوق بابها وأنفقت في عمارتها من الأموال ما تجاوز فيه حدّ الإسراف، وجلب إليها الرخام من أقطار البلاد، وأهدى إليه ملوك بلاده من آلاتها ما لا يقدر قدره(627).فأهدى إليه ملك الروم مائة وأربعين سارية, وسائر ذلك من رخام الأندلس, وأما الحوض الغريب المنقوش المذهب بالتماثيل, فلا قيمة له, جلبه ربيع الأسقف من القسطنطينية من مكان إلى مكان حتى وصل في البحر, ووضعه الناصر في بيت المنام في المجلس الشرقي المعروف بالمؤنس, وكان عليه اثنا عشر تمثالا من الذهب الأحمر مرصع بالذر النفيس الغالي ما صنعه بدار الصنعة بقصر قرطبة(628).

---

(624)الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، المصدر السابق، ص579.

(625)أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج01، المصدر السابق، ص524.

(626)مجهول، تاريخ الأندلس، المصدر السابق، ص ص(204-205).

(627)ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج01، المصدر السابق، ص 161.

(628)ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج02، المصدر السابق ص234.

والحقيقة أن الناصر أراد أن يبني ضاحية ملكية قريبة من حاضرته الملكية, تليق بجلال الخلافة و بهائها, فأسس مدينة الزهراء إشباعا لرغبته في البناء والتشييد، وتحقيقا لمجده وعظمته وشغفه بالعمارة, ولما ضاق قصر الخلافة بقرطبة عن اتساع لرجال حاشيته, كما اكتظت مساحته بالزيادات المتتابعة فيه, بحين لم يعد هناك مجال لمزيد الزيادة, كما أنه لم يعد يليق بعظمة الخلافة, زد على ذلك أن هذا القصر الخلافي كان يقع في أكثر مناطق قرطبة ازدحاما بالسكان, فكان الخليفة يعيش هناك محاطا بالعامة, وكان شعوره بالإقامة فيه على الدوام يضايقه أشد المضايقة, إذ كان يحن إلى الانعزال بين الحين والآخر, كما كان يفعل أجداده خلفاء بني أمية في المشرق الذين كان يدفعهم الشوق إلى الصحراء والبادية إلى الإقامة في القصر الخلوي, اسم الزهراء فقد يكون صفة للمدينة التي سمها تفاؤلا بازدهارها, أو قد يكون قد أطلق عليها هذا الاسم لكثرة أزهار بساتينها المحيطة بها[629].

قسم عبد الرحمن الناصر جباية البلاد أثلاثا فثلث للجند, وثلث مدخل في بيت المال, وثلث ينفقه على عمارة الزهراء, وكانت جباية الأندلس خمسة آلاف ألف دينار وأربعة مائة ألف وثمانين ألف دينار، والمستخلص سبعمائة ألف دينار وخمسة وستون ألف دينار, وهي من أهول ما بناه الأنس، وأجله خطرا، وأعظمه شأنا"[630]. كان يتصرف في عمارة الزهراء كل يوم من الخدام والفعلة عشرة آلاف رجل, ومن الدواب ألف وخمسمائة دابة، وكان من الرجال من له درهم ونصف، ومن له درهمان والثلاثة, وكان يصرف فيها كل يوم من الصخر المنحوت المعدل ستة آلاف صخرة سوى آجر و الصخر غير المعدل [631]. وقد عهد عبد الرحمن الناصر النظر في بنيان مدينة الزهراء إلى العريف المهندس مسلمة بن عبد الله, وكان يساعده ثلاثة أمناء هم: عبد الله بن يونس, وحسن القرطبي, وعلي بن جعفر الإسكندراني[632].

---

[629] السيد عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، ج01، المرجع السابق، ص ص (234-235).

[630] أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج01، المصدر السابق، ص ص (524-525).

[631] أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج01، المصدر السابق،، ص526.

[632] ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخيار الأندلس والمغرب، ج02، المصدر السابق ص234.

ومدينة الزهراء قائمة الذات بأسوارها ورسوم قصورها، وكان فيها قوم سكان بأهاليهم، وكانت في ذاتها عظيمة، وهي مدينة سطح الثلث الأعلى على الحد الأوسط، وسطح الثلث الأوسط على الحد الأسفل، وكل ثلث منها له سور، فكان الحد الأعلى منها قصورا، يعجز الواصفون عن وصفها، والحد الأوسط بينهما بساتين وروضات (الصورة 13)، و الحد الأسفل فيه الديار والجامع"[633].

معنى هذا أن مدينة الزهراء قد بنيت على درجات بحيث يرقى داخل المدينة من درجة إلى درجة, وفي كل درجة يجد قسما من أقسام المدينة ويدخل إليها أسفل الجبل بمدخل كبير يسمى "باب الأقباء " (الصورة 10) جمع قبو ويراد به هنا القبة, ومعنى هذا ومعنى ذلك أن هذا المدخل كانت تقوم فوقه وتحيط به قباب، ويسير المرء مسافة طويلة على طريق مبلط تقوم على جوانبه الأعمدة وغرف الحرس حتى يصل إلى الباب " السدة "، ويراد به القصر, ويصعد درجات إلى جانب المصعد للدرج, وهناك مصعد آخر للخيل بلا درج فيصل الإنسان إلى المستوى الثاني من مستويات مدينة الزهراء, وهناك مساكن الجند والحرس وأصحاب الحرف الذين تحتاج إليهم المدينة, وهناك وجدنا آثار المسجد الجامع لمدينة الزهراء, وكل هذه البيوت محاطة بالأشجار والخضرة[634]. فإذا انتهى الإنسان من ذلك المستوى، صعد مرة أخرى حتى يصل إلى سطح منبسط، وسوق لتبنى عليه قصور كبار رجال القصر وموظفيه, ولتقييم جماعات الحرس الخاص بالخليفة[635]. (شكل 06).

وبعد ذلك يصعد المرأ مرة ثالثة حتى يصل إلى المستوى الأعلى (الصورة 11) لمدينة الزهراء، ويواجه البهو الكبير الذي أنشأه الناصر لاستقبال السفراء والملوك الأجانب، وجلب إليها الرخام الأبيض من ألميريه والمجزع من رية، والوردي والأخضر من إفريقية من صفاقس وقرطاجنة والحوض المنقوس المذهب من الشام وقيل من القسطنطينية ، وفيه نقوش وتماثيل على صور

---

[633] عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، المصدر السابق، ص890.

[634] حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، مكتبة الأسرة الفكرية، القاهرة، ط02، سنة 1992م، ص375.

[635] حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس ، المرجع السابق، ص 376.

الإنسان، وليس له قيمة، ولما جلبه أحمد بن حزم الفيلسوف، وقيل غيره، أمر الناصر بنصبه وسط المجلس الشرقي، ونصب عليه اثني عشر تمثالا من ذهب مرصعة بالجواهر النفيسة، تمج الماء من أفواهها فيه وذلك مما صنع بدار الصناعة في قرطبة منها : صورة أسد، وغزال، وتمساح، وثعبان، وعقارب، وحمامة، وشاهين، وطاووس، وديك، ودجاجة، وحدأة، ونسر[636].وبنى في قصرها المجلس المسمى بقصر الخلافة، وكان سمكه من الذهب والرخام الغليظ في جرمه الصافي لونه، المتلونة أجناسه،... وجعله في وسطه اليتيمة التي أتحف الناصر بها أليون ملك القسطنطينية، وكانت قراميد هذا القصر من الذهب والفضة، وهذا المجلس في وسطه صهريج عظيم مملوء بالزئبق، وكان في كل جانب من هذا ثمانية أبواب قد انعقدت على حنايا من العاج والأبنوس المرصع بالذهب وأصناف الجوهر. قامت على سواري من الرخام الملوّن والبلور الصافي، وكانت الشمس تدخل على تلك الأبواب فيضرب شعاعها في صدر المجلس وحيطانه، فيبصر من ذلك نور يأخذ الأبصار ..."[637].

فكان بناء الزهراء في غاية الحصانة والإتقان والحسن، وبها من المرمر والعمد كثير، وأجرى فيها المياه، وأحدق بها البساتين، وفيها يقول الشاعر أبو القاسم خلف بن فرج الألبيري[638] (السميسر):

وقفت بالزهراء مستعبرا	معتبرا أندب أشتاتا
فقلت يا زهراء ألا فارجعي	قالت وهل يرجع من ماتا
فلم أزل أبكي وأبكي بها	هيهات يغني الدمع هيهات
كأنما آثار من قد مضى	نوادب يندبن أمواتا[639].

---

[636]مجهول، تاريخ الأندلس، المصدر السابق، ص 205.

[637]أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج01، المصدر السابق، ص ص (526-527).

[638] هو أبو القاسم خلف بن فرج الألبيري، واقعة عصره وأعجوبة دهره، له طبع حسن وتصرف مستحسن في مقطوعات الأبيات، وخاصة إذا هجا وقدح، أما إذا طول ومدح فقلما رأيته أفلح ولا أنجح، توفي سنة480هـ. أنظر:أبو الحسن علي ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة،ج01، المصدر السابق، ص ص (882-900).

[639]أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج01، المصدر السابق، ص ص (528-529).

ومدينة الزهراء من أنبل ما بناه الأندلسيون، وأجله خطرا، وأعظمه شأنا، وأغرب ما بني في الإسلام و أعجبه، بنيت في خمس وعشرين سنة، وأبوابها كلها كبارها وصغارها ملبسات بالحديد والنحاس المموه بالذهب، وهي نيف على خمسة عشر ألف باب، وفي ذلك يقول ابن حيان: "مازلت أسمع من الشيوخ المحصلين أن مصانع مدينة الزهراء وقصورها اشتملت على خمسة عشرة ألف زوج باب ومائتين زائدة، منها المصفح بالحديد المميض بالقصدير، ومنها المصفح بالنحاس الأصفر، ومنها الخشب المنقوش و المرصع"[640].

كانت بساتين القصر واسعة، اتخذ في جانب منها حديقة للحيوانات، أقام الناصر فيها محلات للوحش فسيحة الفناء متباعدة السياج، ومسارح للطيور مظللة الشباك، وفي موضع آخر من بستان الزهراء أقام حوضا للسباحة وسط الرياض، حسب ما تشير إليه رواية الفتح بن خاقان عند ترجمته للقاضي منذر بن سعيد البلوطي[641] الذي حضر عند الحكم المستنصر، في بستان الزهراء على بركة ماء طاقحة وسط روضة نافحة في يوم شديد الوهج[642]. وفي جانب آخر من جوانب البستان أقيمت بحيرات للأسماك، وأنواع الحيتان، ونظام البرك الصناعية والبحيرات كان معروفا في إفريقية والمغرب، فقد عرف الأغالبة القصور المزودة بالبحيرات، وكان برقادة قصر يقال

[640] ابن غالب محمد بن أيوب الأندلسي، قطعة من كتاب "فرجة الأنفس في تاريخ الأندلس"، نشرها محمد لطفي عبد البديع، مجلة المخطوطات العربية، القاهرة، ج01، سنة 1378هـ، ص32.

[641] هو أبو الحسن منذر بن سعيد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن قاسم بن عبد الله، أبو الحكم، يعرف بالبلوطي، نسبة إلى فحص البلوط، وهو موضع قريب من قرطبة، كان عالما فقيها، أديبا خطيبا له تآليف كثيرة منها: الإبانة عن حقائق أصول الديانة، الناسخ والمنسوخ، ولي قضاء قرطبة سنة 339هـ، ولد سنة 273هـ، توفي سنة 355هـ، أنظر: الفتح بن خاقان، مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملمح أهل الأندلس، المصدر السابق، ص237.

-ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ج02، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط01، سنة1410هـ، ص ص (847-843).

-ابن الحسن النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، تحقيق: مريم قاسم الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1410هـ/1990م، ص ص (89-101).

[642] الفتح بن خاقان، مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملمح أهل الأندلس، المصدر السابق، ص ص (255-256).

له: "قصر البحر"[643]، واشتمل قصر بنو زيري الذي يعرف بدار البحر الحمادي على بركة تمج الأسود المياه من أفواها[644].

وأشار أحمد المقري التلمساني في كتابه نفح الطيب، إلى جامع مدينة الزهراء (الصورة12)، نقلا عن رواية بن الفرضى غيره بقول : "كان يعمل في جامعها حيث شرع فيه من حذاق الفعلة كل يوم ألف وستمائة، منها ثلاثمائة بناء ونجار، وخمسمائة من الأجراء وسائر الصناع، فاستتم بنيانه وإتقانه في مدّة ثمانية وأربعين يوما. وجاء في غاية الإتقان: من خمسة أبهاء عجيبة الصنعة (بلاطات)، طوله من القبلة إلى الجوف –حاشا المقصورة – 30 ذراعا، وعرض البهو الأوسط من أبهائه من الشرق إلى الغرب 13 ذراعا، وعرض كل بهو من الأربعة المكتنفة له 12 ذراعا. وطول صحنه المكشوف من القبلة إلى الجوف 43 ذراعا، وعرضه من الشرق إلى الغرب 41 ذراعا، وجميعه مفروش بالرخام الحمري، وفي وسطه فوارة يجري الماء فيها، فطول هذا المسجد أجمع من القبلة إلى الجوف سوى المحراب97 ذراعا، وعرضه من الشرق إلى الغرب و05 أذرع، وطول صومعته في الهواء40 ذراعا، وعرضها 10 أذرع [645].كانت مئذنته تنتصب في منتصف الجدار الشمالي ، مثلما هو الشأن بجامع قرطبة، (شكل :07). وأمر الخليفة الناصر لدين الله باتخاذ منبر بديع لهذا المسجد، فصنع في نهاية من الحسن، ووضع في مكانه منه، وحضرت حوله مقصورة عجيبة الصنعة، وكان وضع هذا المنبر في مكانه من هذا المسجد عند إكماله يوم الخمسين لسبع بقين من شعبان سنة تسع وعشرين وثلاثمائة 329هـ[646]. وكانت أول جماعة صليت فيه صلاة المغرب من ليلة الجمعة لثمان بقين من شعبان، وكان الإمام القاضي أبا

---

[643] السيد عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، ج01، المرجع السابق، ص244.

[644] George Marçais , L'Architecture Musulmane D'Occident, Paris, 1954, P83.

[645] أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج01، المصدر السابق، ص564.

[646] المصدر نفسه، ص 564.

عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي عيسي[647]، وفي الغد صلى الناصر فيه، وأول خطيب به القاضي المذكور[648].

وكان عدد الصقالبة بالزهراء ثلاثة آلاف خصي وتسعمائة وخمسين خصيا، وكانت جزائهم من اللحم هي كل يوم ستة عشر ألف رطل، سوى الصيد وأصناف الطير والحيتان[649].

تعرّضت الزهراء لانتقام العامة والبربر بعد اشتعال نار الفتنة البربرية، بعد مبايعة سليمان المستعين بالخلافة في جامع قرطبة في 17 ربيع الأول سنة 400هـ، ولما انهزم هو وجيوشه في موقعة عقبة البقر في سنة 400هـ، انتهز عامة قرطبة فرصة جلاء البربر وفرارهم، فدخلوا مدينة الزهراء ونهبوا ما وجدوا فيها من تحف، ودخلوا المسجد الجامع بالزهراء وجردوه من حصيره وقناديله، ومصاحفه وصفائح أبوابه، ويعتبر ذلك أول تخريب لمدينة الزهراء واستمر هدم واستغلال أطلال الزهراء أيام المستكفي بالله، والمعتمد بالله ووزيره الحكم بن سعيد القزاز[650]. فقد ذكر الوزير الشاعر بن زيدون معالم الزهراء والأيام الجميلة التي قضاها مع ولاة بنت المستكفي في قوله:

إني ذكرتك بالزهـــراء مشتـــاقا   والأفق طلق ووجه الأرض قد راقا
وللنسيـــــم اعتلال في أصائلـــه   كـــأنما رق لي فـــاعتل إشفـــاقا
والروض عن مائه الفضي مبتسـم   كما حللـت عن اللبات أطـــواقا[651].

---

[647]هو القاضي أبو عبد الله محمد بن أبي عيسى، وفي الأصول وهو: محمد بن عبد الله بن أبي عيسى بن يحي بن يحي الليثي، يكنى أبا عبد الله، كان فقيها في العلم، ولي القضاء في قرطبة بعد رحلة رحلها إلى المشرق، وجمع فيها من الروايات والسماع لكل متفرق، ثم كر إلى الأندلس فسمت رتبته ، وتصرف في ولايات، تولى قضاء بقرطبة سنة 326هـ، ولد سنة 284هـ، توفي سنة 339هـ. أنظر: الفتح بن خاقان، مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملمح أهل الأندلس، المصدر السابق، ص ص (254-266).
-أحمد بن يحي بن عميرة الضبي، بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، دار الكتاب العربي، بيروت، سنة 1968م، ص111.
-الحميدي، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، المصدر السابق، ص ص (74-78).

[648]أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج01، المصدر السابق، ص556.

[649]مجهول، تاريخ الأندلس، المصدر السابق، ص 208.

[650]السيد عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، ج01، المرجع السابق، ص ص (250-251).

[651]غارسيه غموس، الشعر الأندلسي، ترجمة: حسين يونس، القاهرة، سنة 1956م، ص104.

4- مدينة الزاهرة:

جعل المنصور بن أبي عامر[652] الخليفة عبد الرحمن الناصر المثل الأعلى في البناء والتشييد، عندما شرع في بناء مدينة خاصة به سنة 368هـ / 978م أطلق عليها مدينة الزاهرة، والدوافع إلى بناء هذه المدينة لا تختلف كثيرا عن دوافع تأسيس مدينة الزهراء، حسب ما تشير الرواية التاريخية لبعض الرحالة أو المؤرخين كعبد المنعم الحميري، وأحمد المقري، وابن عذارى المراكشي وابن خاقان، "ففي سنة ثمان وستين وثلاثمائة 368هـ أمر المنصور ابن أبي عامر ببناء الزاهرة، وذلك عندما استفحل أمره واتقد جمره، وظهر استبداده، وكثر حساده وأنداده، وخاف على نفسه في الدخول إلى قصر السلطان، وخشي أن يقع في أشطان، فتوثق لنفسه، وكشف له ما ستر عنه في أمسه، من الاعتزاز عليه، ورفع الإسناد إليه، وسما إلى ما سمت إليه الملوك من اختراع قصر ينزل فيه، ويحل بأهله وذويه، ويضم إيه رياسته، ويتم به تدبيره وسياسته، ويجمع فيه فتيانه وغلمانه، فأرتاد إلى موضع مدينته المعروفة بالزهراء المرصوفة بالقصور الباهرة، وأقامها بطرف البلد على نهر قرطبة الأعظم"[653]. فالسبب الذي يكمن وراء تشييد هذه المدينة أن يتخذ المنصور بن أبي عامر لنفسه أيضا مدينة من أجل تمجيد عصره بمنشآت مميزة تدل على العزة والسلطان الواسع، فقد أثبت بلغة العمارة والبنيان أن ملكه لا يقل في القوّة والسلطان عن الناصر والمستنصر، وهناك عامل آخر دفعه إلى البناء والتشييد هو خوفه على نفسه من الدخول إلى قصر الخليفة بعد أن كثر حساده، وتحالف عليه أضداده وأنداده.

---

(652) هو أبو عامر محمد بن أبي حفص، عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر، محمد بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك الداخل إلى الأندلس مع طارق بن زياد، ونزل الجزيرة الخضراء لأول الفتح، ولي الحجابة لهشام المؤيد في شعبان 372هـ، توفي بالثغر بمدينة سالم ليلة 27 من رمضان سنة 392هـ، أنظر: ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخيار الأندلس والمغرب، ج02، المصدر السابق ص ص (256-257).

- أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج01، المصدر السابق، ص ص (256-257).

-الفتح بن خاقان، مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملمح أهل الأندلس، المصدر السابق، ص ص (388-397).

(653) أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج01، المصدر السابق، ص ص (578-579).

-الفتح بن خاقان، مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملمح أهل الأندلس، المصدر السابق، ص ص(392-393).

-ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخيار الأندلس والمغرب، ج02، المصدر السابق ص275.

-عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، المصدر السابق، ص ص (283-284).

ويذكر عبد المنعم الحميري لما تحدث عن موقع مدينة الزاهرة "كان الخليفة الحكم[654] قد وقف من الأثر على البقعة التي بنيت فيها الزاهرة، وكانت ملوك المروانية قبله تتخوف ذلك ، وكان ألهمهم بشأنها الحكم فنظر فيها، وقاس على مجالها البقعة المدعوة بألش بفتح اللام، وهي بغربي مدينة الزهراء، ووجد انتقال الملك إليها، فأمر حاجبه أبا أحمد الصقلي بالسبق إلى بناءها طمعا في مزية سعدها، ولا يخرج الأمر عن يده وولده، فأنفق عليها مالاً عظيماً، فمن الغريب أن محمدا بن أبي عامر تولى له شأنها، ولا يعلم يومئذ به، ثم وقع أن البقعة بغير ذلك الموضع، وأنها بشرقي مدينة قرطبة، وأنفذ بفتاه للوقوف عليها فانتهى إلى منزل ابن بدر المسمى ألش، مضمومة اللام، وأصاب هناك عجوزا مسنة وقفته على حد الارتياد، وقالت له: سمعنا قديما أن مدينة تبنى هنا، ويكون على هذه البئر نزول ملكها. فكم تعنى أمير المؤمنين بالسؤال عنها، وأمر الله واقع لا محالة، فعاد الرسول بالجلية، فلم تطل المدّة حتى بناها محمد بن أبي عامر، وبنوا أرجاء تلك البئر قرارة[655]. فالموقع من أطرف قرطبة من الجهة الشرقية، مما يلي الرملة، بحيث يوفي على نهر قرطبة الأعظم. وشرع في البناء في السنة المؤرخة إلى 368هـ، وحشد الصناع والفعلة، وجلب إليها الآلات الجليلة بهاء يرد الأعين كليلة، وتوسع في اختطاطها، وتولع بانتشارها في البسيطة وانبساطها، وبالغ في رفع أسوارها، وثابر على تسوية أنجادها وأغوارها، فاتسعت هذه المدينة في المدّة القريبة، وصار بنائها من الأنباء الغريبة، وبنا معظمها في عامين"[656].

---

[654]هو الحكم المستنصر بالله بن عبد الرحمن الناصر لدين الله بن محمد بن الإمام عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط بن الحكم الربضي بن هشام الرضا بن عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، كان مولده لست بقين من جمادى الأخيرة سنة 302هـ، بويع للخلافة بعد وفاة أبيه، وهو ابن 48 سنة ، توفي ليلة الأحد لثلاث خلون من صفر سنة 366هـ، أنظر: مجهول، تاريخ الأندلس، المصدر السابق، ص2101.

-ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخيار الأندلس والمغرب، ج02، المصدر السابق ص 234.

[655]عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، المصدر السابق، ص283.

[656]أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج01، المصدر السابق، ص579.

-ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخيار الأندلس والمغرب، ج02، المصدر السابق ص235.

ومن أبواب مدينة الزاهرة التي تناولتها المصادر والمراجع التاريخية نخص بالذكر: باب السباع وباب الجنان، وباب الفتح[657].

وفي سنة 370هـ انتقل المنصور إليها ونزلها بخاصته وعامته فتبوأها، وشحنها بجميع أسلحته وأمواله وأمتعته، واتخذ فيها الدواوين والأعمال، وعمل في داخلها الأهراء، وأطلق بساحتها الأرجاء، ثم أقطع ما حولها لوزرائه وكتابه وقواده وحجبائه، فابتنوا بها كبار الدور، وجليلات القصور، واتخذوا خلالها المستغلات المفيدة، والمنازه المشيدة، وقامت بها الأسواق، وكثرت فيها الأزقاق، وتنافس الناس بالنزول بأكنافها، والحلول بأطرافها، للدنو من صاحب الدولة، وتباهى الغلو في البناء حوله حتى اتصلت أرباضها بأرباض قرطبة، وكثرت بحوزتها العمارة واستقرت في بحبوحتها الإمارة، أفرد الخليفة من كل شيء إلا من اسم الخلافي، وصير ذلك هو الرسم العلني[658].

ونتج عن ذلك اضمحلال مدينة الزهراء، فهجرها أهله، ورحلوا إلى الضاحية الجديدة حيث يتقربون من السلطان، فيصيبهم نصيب من النعمة بالقرب منه[659]. وفي الزاهرة رتب المنصور جلوس وزرائه ورؤوس أمرائه وندب إليها كل ذي خطة بخطة, ونصب بابها كرسي شرطة, وأجلس عليها واليا على رسم كرسي الخليفة, وفي وصفه تلك المرتبة المنيفة, كتب إلى الأقطار بالأندلس والعدوة بأن تحمل إلى مدينته تلك أموال الجبايات, ويقصد ها أصحاب الولايات وينتابها طلاب الحوائج, وحذر أن يعوج عنها إلى باب الخليفة عائج ..., وعطل قصر الخليفة من جميعه، وصيره بمعزل عن سامعه ومطيعه، وسد باب قصره عليه, وحذر في خبر أن لا يصل إليه, وجعل فيه ثقة من صنائعه يضبط القصر ويبسط فيه النهي والأمر, ويشرف منه على كل داخل, ويمنع ما يحذره من الدواخل, ورتب عليه الحراس والبوابين والسهار والتابعين, ويلازمون حراسة من فيه ليلا ونهارا, ويراقبون حركاتهم سرا وجهارا, وقد حجر على الخليفة كل تدبير ...[660].

---

(657) Dozy, Histoire Des Musulmans D'Espagne, Nouvelle Edition, Tome 03,1932, PP (201-211).

(658) ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخيار الأندلس والمغرب، ج02، المصدر السابق ص ص (235-236).

(659) السيد عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، ج01، المرجع السابق، ص259.

(660) أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج01، المصدر السابق، ص ص (579-580).

ولم تعمر مدينة الزاهرة طويلا, فقد كان عمرها رهينا بعمر الدولة، فما إن قتل عبد الرحمن الملقب ب " شنجول " حتى عمّ الخراب عمائر هذه المدينة ونهبت قصورها، وانتهت رسومها، في الفوضى التي عمّت البلاد سنة 399هـ. ولكن ما لاشك فيه حسب ما جاء في روايات المصادر التاريخية: "إن ملك محمد بن أبي عامر أشد منذ نزل في قصر الزاهرة، وتوسع مع الأيام في تشيد بيتها حتى كملت أحسن كمال، وجاءته في نهاية الجمال ..."[661]، فاتسع عمارانها وتزايد البناء فيها، وشيدت فيها متنزهات القصر والبساتين فمن أهم قصورها قصر الزاهي الذي ورد اسمه في قصيدة لصاعد اللغوي[662]:

أما ترى العين تجري فوق مرمرها	زهوا فتـجري عـــلى أخشافـها طربا
أجريتــها فطمـــا الزاهي بجريتها	كما صموت فدست العجم والعربا
تــخال فيه جنود المـاء رافــلة	مستلئـــــمات تريـك الدرع واليلبا
تحفـها من فنـون الأيــك زاهرة	فقد أورقـت فضـة إذا أورقت ذهــبا
بديعة الملك ما ينفــك ناظرها	يتلـو على السمـع منـها آيـة عجبا
لا يحسن الدهر أن ينشئ لهــا	مثلا ولو تعنـت فيــه نفســه طلــبا[663].

وقد تحدث الحميدي لما ذكر أن أبا المطرف بن أبي الحباب[664] قد دخل على المنصور بن أبي عامر في بعض قصوره، وهو في المنية المعروفة بالعامرية، إلى جانب الزاهرة ووقف على روضة فيها ثلاث سويسنات، اثنان قد تفتحا وواحدة لم تتفتح فنظم واصفا:

---

[661] ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخيار الأندلس والمغرب، ج02، المصدر السابق ص286.

[662] هو صاعد بن الحسين بن عيسى الربعي البغدادي اللغوي، كان متقدما فيعلم اللغة ومعرفة العويص، كان أحضر الناس شاهدا، وأروعهم لكلمة غريبة، صاحب كتاب الفصوص في اللغة، صنفه للمنصور بن أبي عامر، لكنه رغم فصاحته وبلاغته وعلمه كان متهما في الكذب في ما يرويه وينقله. أنظر: ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ج15، دار هجر للطباعة والنشر، الجيزة، ط01، سنة 1419هـ/1998م، ص613.

[663] أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج01، المصدر السابق، ص581.

-ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخيار الأندلس والمغرب، ج02، المصدر السابق ص277.

[664] هو أحمد بن الحباب أبو عمر، ويكنى أيضا أبا المطرف، قرطبي من أهل اللغة والأدب، كان أستاذا مقدما، كان حيا في الدولة العامرية، أنظر: الحميدي، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، المصدر السابق، ص 120.

لا يوم كاليــوم فــي أيامـنا الأول   في العامـرية ذات المـاء والقـــلل
هواؤها في جميــع الــدهر معتدل   طيبا وإن حل فصل غيـر معتــدل
ما إن يبالي الذي يـحتل ساحـتها   بالسعد ألا تحل الشمس بالحمـل
كأنما غرســت في ســاعـة وبــدا   السوســان قدّمــها عـلى عجــل
أبدت ثلاثا مــن السوسان قائـمة   وما تشتكي من الإعياء والكسـل
فبـعض نوّرها بالـحـسن منفتـــح   والبعض منغلق عنهـن في شغـــل[665].

وأنشد بن العريف النحوي المنصور بن أبي عامر، وكان بحضرته صاعد اللغوي البغدادي بالموضع المذكور سابقا، المعروف بمنية العامرية قائلا:

فالعامــرية تزهــى   على جميع المبـــاني
وأنت فيه كسيـف   قد حل في غمـدان[666].

أما ما ذكره مؤرخو الأندلس عن منى الزاهرة ، فهي كثيرة منها: منية الناعورة ، ومنية السرور ومنية الزبير المنسوبة إلى الزبير ين عمر الملثم ملك قرطبة. وقصر الحاجبية الذي أقامه المظفر بن عبد الملك جانب الزاهرة إلى خارج سورها[667]، ومنية أرطانية، وذات الوادين، وكان يزرع المنصور بن أبي عامر كل سنة مدي من الشعير فصيلا لدوابه الخاصة به، وأنه كان إذا قدم من غزوة من غزواته لا يحل على نفسه حتى يدعو صاحب الخيل فيعلم ما مات منها وما عاش، وصاحب الأبنية فيعلم ما هوي من أسواره ومبانيه وقصوره، وكان له كل يوم دخالة اثني عشر ألف رطل من اللحم حاشا الصيد والطير والحيتان، وكان يصنع في كل يوم اثني عشر ألف ترس عامرية لقصر الزاهرة والزهراء، وابتنى على طريق المباهاة والفخامة مدينة الزاهرة ذات القصور المتنزهات المخترعة[668].

---

[665]الحميدي، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، المصدر السابق، ص 402.

[666]أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج01، المصدر السابق، ص358.

[667]ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ليفي بروفنصال و ج س كولان، ج03، دار الثقافة، بيروت، ط03، سنة1983، ص62.

[668]أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج01، المصدر السابق، ص ص (584-585).

توفي المنصور المنصور بن أبي عامر 392هـ ، وتولى الحاجبية ابنه المظفر[669]، ولم تطل مدّته فقام بالأمر أخوه عبد الرحمن الملقب بشنجول[670]. فلم تطل حياة الزاهرة أكثر من ثلاثين عاما فهاجمها الثائرون على شنجول في جمادى سنة 399هـ، فنقبوا سورها، واقتحموا المدينة، ونهبوا خزائنها وهدموا مبانيها، فأشار بن عذارى المراكشي على وجه التصريح: " .... وغلبت العامة عليهم، فغلبوا على الحاجبية قصر المظفر الذي كان فيه وولده وأمه الذلفاء، وكان إلى جانب الزاهرة بخارج سورها فنهبوه وما اتصل به، وأزعجوا عنه الدلفاء أم المظفر، وأخذوا من أمتعتها ما لا يضبط بوصف و لا قيمة ....، وملك عبد الجبار بن المغيرة قصر الزاهرة لوقته، والعامة منتشرة بأدانبه قد انتهبوا منه مالا يدركه الإحصاء، وهو يعذر في منعهم من غير تحقيق، كما يصل إلى اصطفاء ما يريده لنفسه ...، فأخذوا من المال والجوهر وفاخر الأمتعة ما استكثر عبد الجبار بأكثره، ودمّرت العامة أكثر خزائن الكسوة والفرش والأمتعة والطيب والحلية والذخائر والسلاح والعدّة فنهبت من ذلك كله ما لا يعلمه إلا الله"[671].

وخربت الزاهرة ودمّرت كأمس الدابر، وخلت منها الدسوت الملوكية والمنابر، واستولى النهب على ما فيها من العدّة والذخائر والسلاح، وتلاشى أمرها فلم يرج لفسادها إصلاح، وصارت قاعا صفصفا و ابتليت بأيام القرح عن أيام الفرح والصفا، وبيعت بعض تحف ونفائس الزاهرة في بغداد والبلاد المشرقية[672].

---

[669] هو أبو مروان المضفر بالله عبد الملك بن المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر المغافري، ولي الحجابة بعد وفاة أبيه سنة 392هـ، لقب بالمضفر وسيف الدولة، غزا سبع غزوات لبلاد الروم، وفي السابعة توفي، وقيل أنه مات مسموما، وقيل مات بالذبحة، وكانت وفاته بمنزل أم هانئ بمقربة من أرملاط، ليلة الجمعة 04 من صفر سنة 399هـ، أنظر: ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخيار الأندلس والمغرب، ج03، المصدر السابق، ص ص (03-04).

[670] هو عبد الرحمن الملقب بشنجول أخو المضفر، تولى الحجابة بعد وفاة أخيه، ولما مضى شهر ونصف تصنع للخليفة هشام بن الحكم، وطلب منه أن يوليه العهد من بعده، ففعل هشام، فتسبب في انحراف أكابر الأندلس عنه، لما تبين من سخف عقله، فأشعل نار الفتنة،وكان ذلك سبب مقتله. أنظر: المصدر نفسه، ص ص (38-73).

[671] المصدر نفسه، ص 63.

[672] أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج01، المصدر السابق، ص ص (589-590).

ولما فرغ محمد بن هشام بن عبد الجبار[673] بتحويل كل ما كان بالزاهرة، أمر بهدمها، وحط أسوارها وقلع أبوابها، وتشعيث قصورها، وطمس آثارها، والاستعجال في ذلك. فأباح أنصاره من العامة، وسوّغهم ما اقتلعوه من مرمرها، وأنقاض قصورها ودورها، فبلغوا من تدميرها في أيام قلائل ما لم يقدر أنه يبلغ في مدة طويلة، وعفا رسمها فأصبحت بلقعا كأن لم تغن بالأمس[674].

وما يمكن الجزم به أن عبد الرحمن الناصر لما تلقب بألقاب الخلافة، وتسمى بالناصر لدين الله، وذلك في سنة 316هـ/928م، حرص حرصا شديدا أن يجعل حاضرته قرطبة بأن تكون عاصمة الخلافة، وأحاط نفسه بهالة من فخامة الملوك، وأبهة الخلفاء. وقامت في قرطبة حركة معمارية لم تشهد لها نظيرا من قبل من ناحية التطور المعماري، واستمرت في عهد ولده الحكم المستنصر بالله. فأنشأت مدينة الزهراء، ومنية الناعورة، وأضيف إلى قصر الخلافة بقرطبة مجالس وقاعات، وبلغت عمارة قرطبة ذروتها في عهد المنصور بن أبي عامر، فتشر إحصائيات البنيان عند بعص المؤرخين: " وأحصيت دور قرطبة التي بها، وبأرباضها أيام الحاجب المنصور بن أبي عامر، فكانت مائتي ألف دار، وثلاثة عشر ألف دار، وسبعة وسبعين دارا، هذه في دور الرعية، أما دور الأكابر والوزراء والرؤساء والقواد والكتاب وخاصة الملك فستين ألف دار، وثلاثمائة دار، سوى المخصصة للكراء والحمامات والحانات"[675].

---

[673]هو محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر، لقبه وكنيته أبو الوليد، ولي مرتين. الأولى بعد خلع هشام بن الحكم، يوم الخميس 14 جمادى الأولى سنة 399هـ، وانخلع في النصف الثاني من ربيع الأول سنة 400هـ، والثانية بعد سليمان 49 يوما. أنظر: ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج03، المصدر السابق، ص ص (50-51).

[674]السيد عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، ج01، المرجع السابق، ص60.

[675]مجهول، تاريخ الأندلس، المصدر السابق، ص171.

المبحث الثاني: مدينة غرناطة

ذهب بعض الباحثين أن أصل مدينة غرناطة مشتق من الكلمة الرومانية " Granada"[676]، ومعناها الرمانة، وهي تسمية أعجمية، وأنها سميت بهذا الاسم لجمالها وكثرة حدائق الرمان التي كانت تحيط بها، وقيل أن أصلها " أغرناطة"[677] بالألف في أولها، أسقطها العامة كما أسقطوها من ألبيرة فقالوا لبيرة، وهي أقدم مدن كورة ألبيرة من أعمال الأندلس وأحسنها وأحصنها، وكانت تسمى في تاريخ الأمم السالفة من الروم بقسطيلية[678]، وكان لها من الشهرة والعمارة ولأهلها من الثروة والعدّة وبها من الفقهاء والعلماء.

1- موقعها ونشأتها:

مدينة غرناطة "تنتمي إلى الإقليم الخامس الذي يمتاز أهله بالبياض الممتزج بالحمرة، وفيهم شقرة، وزرقة في غالب الحال ..."[679]. وطولها إحدى عشرة درجة وأربعون دقيقة، والعرض سبع وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة، وفي جنوبها جبل شلير[680] الذي لا يفارقه الثلج، وينزل منه نيف على عشرين نهرا، ومنها نهر الذهب الذي يشق غرناطة، ونهر المسيل الذي يمر مع سورها وكلاهما عليه الأرجاء والبساتين[681].

وقد وردت رواية لسان الذين ابن الخطيب مخالفة لرواية بن سعيد المغربي في تحديد طول وعرض مدينة غرناطة، فنشير إلى: أن هذه المدينة من معمور الإقليم الخامس ... ومعظم سكان

---

[676] لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: عبد الله عنان، ج01، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط02، سنة 1393هـ /1973م، ص91.

[677] ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج04، المصدر السابق، ص 190.

[678] قسطيلية مدينة بالأندلس، وهي حاضرة نحو كورة ألبيرة، كثيرة الأشجار، متدفقة الأنهار، تشبه دمشق، أنظر: المصدر نفسه، ص 343.

[679] ابن سعيد المغربي، الجغرافيا، المصدر السابق، ص 136.

[680] هو جبل الثلج المشهور بالأندلس، وهو جبل ألبيرة، وهو متصل بالبحر المتوسط، ينتظم منه جبل ريه، ويذكر ساكنوه أنهم لا يزالون يرون الثلج نازلا فيه شتاء وصيفا، ومن هذا الجبل يرى أكثر بلاد الأندلس، ويرى من عدوة البحر المتوسط ببلاد البربر، وطوله يومان، وهو غاية في الارتفاع، أنظر: عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، المصدر السابق، ص343.

-الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج02، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1409هـ، ص ص (569-570).

[681] ابن سعيد المغربي، الجغرافيا، المصدر السابق، ص 137.

الأندلس من الإقليم الخامس، وطائفة منها في الإقليم الرابع.طولها سبع وعشرون درجة وثلاثون دقيقة، وعرضها سبع وثلاثون درجة وعشر دقائق وهي مساوية في الطول بأمر يسير لقرطبة وميورقة وألميرية، وتقرب في العرض من اشبيلية وألميريه وشاطبه وطرطوشة وسردانيه، وأنطاكية والرقة كل ذلك بأقل من درجة(682).

وهي محدثة البناء من أيام الثوار بالأندلس، وإنما كانت المدينة المقصودة ألبيرة، فخلت وانتقل أهلها منها إلى غرناطة، ومدنها وحصن أسوارها حبوس الصنهاجي(683) الذي تسلم مقاليد الحكم فيها سنة 411هـ، وكان حسن التدبير والسياسة، نعمت غرناطة في عهده بنوع من الهدوء والاستقرار، واتسعت رقة هذه الدويلة عندما سيطرت على قيرة وعلى مدينة جيان، واهتم بعمارة مدينة غرناطة حيث مكن لبني مناد ملكا قويا راسخا، وكانت سياسته تقوم على صداقة جيرانه من زعماء البربر وعلى رأسهم بنو حمود حكام مدينة مالقة(684).

ثم خلفه ابنه باديس بن حبوس(685) فكملت عمارة غرناطة في أيامه، وعمرت إلى الآن، واتسعت رقعتها مع طول سنوات حكمه إذ كانت تمتد من بسطة شرقا حتى استجه ورندة غربا، ومن بياسة وجيان شمالا حتى البحر جنوبا، وباديس هو الذي مصر مدينة غرناطة وغدت منذ عهده من أهم قواعد الأندلس الجنوبية، وأنشأ قصبة غرناطة فوق أنقاض قلعتها القديمة، وسميت

---

(682)لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج01، المصدر السابق، ص ص (93-94).

(683) كانت غرناطة عقب ثورة البربر التي أدت إلى انهيار الدولة العامرية، والخلافة الأموية بالأندلس من نصيب البربر، واستولى عليها زعيمهم أبو مثنى زواوي بن زيري الصنهاجي سنة 403هـ، وحكمها سبع سينين، واستخلف بن أخيه حبوس بن ماكسن، وكان حازما وداهية، توفي سنة 429هـ. أنظر: المصدر نفسه ص 140.

(684)خليل السمرائي وعبد الواحد طه دنون وناطق صالح مطلوب، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، دط، دت، ص ص (234-235).

(685) هو باديس بن حبوس بن ماكسن بن بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي، من قادة البربر، له شرف وأبوة وعشيرة، تملك غرناطة، وجيش الجيوش، وحارب المعتصم صاحب ألميرية، والمعتضد صاحب غرناطة، وكان سفاكا للدماء، فيه عدل بجهالة، تملك غرناطة بعد وفاة أبيه حبوس بن ماكسن الصنهاجي في سنة 429هـ، توفي بغرناطة سنة 465هـ. أنظر: شمس الدين بن قيماز الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ج18، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط03، سنة 1405هـ/1985م ص ص (234-237).

-خير الدين الزركلي، الأعلام، ج02، المصدر السابق، ص40.

باسمها "القلعة الحمراء"[686](الصورة 14). وهو الاسم الذي خلّد على مر العصور، وغدا فيما بعد علما على حمراء غرناطة، وأقام داخل القصبة قصره، ومسجده الذي دفن فيه، وأنشأ سورا ضخما حول الربوة التي تقع عليه القصبة، وأنشأ قصبة مالقة التي مازالت آثارها باقية إلى اليوم، وأنشأ جيشا قويا مرابطا من قومه صنهاجة[687]، ومن غيرهم، وبذل له المال الوفير ووطد الدولة ،ونظم مرتباها وعمالاتها، ببيد أن بلاطه لم يستطع كما قصور ملوك الطوائف الأخرى[688]. (شكل 08).

2- عمرانها:

تقدر المسافة بين غرناطة وبين ألبيرة ستة أميال[689]، وبينها وبين قرطبة تسعون ميلا أي ما يقارب 150 كلم. ومدينة غرناطة كبيرة مستديرة رائعة المنظر، كثيرة الأشجار والأنهار والبساتين والفواكه، قليلة الرياح لا تجري بها إلا نادرا لاكتناف الجبال إياها[690]، وبردها في المنقلب الشتوي شديد، ويتجمد بسببه الأذهان والمائعات، يتراكم بساحتها الثلج في بعض السنين بسبب إشراف جبل الثلج "شلير"، ومن أبدع ما قيل في الاعتذار عن شدّة بردها ما هو غريب في معناه قول القاضي أبكر بن شبرين[691]:

رعـى الله غـرناطة متبـــوأ   يسر كئـــيبا أو يجـير طريدا

تبرم منها صاحبي عندما رأى   مسارحها بالبرد عدن جليدا

---

[686] محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ج02، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط04، سنة 1417هـ/1997م، ص 139.

[687] صنهاجة إحدى القبائل البربرية التي تنتمي إلى البرانس، أي بنو بربر بن برنس بن سفكو بن وانوخ بن حنوخ، ويمتد النسب إلى أن يصل إلى مازيغ بن حام بن نوح عليه السلام. أنظر: مجهول، مفاخر البربر، تحقيق: عبد القادر بوباية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ط01، سنة 2005، ص 158.

[688] محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ج02، المرجع السابق، ص ص (139-140).

[689] الميل عند العرب ثلاثة ألاف ذراع، أنظر: عبد المنعم الحميري، صفة جزيرة أهل الأندلس، المصدر السابق، ص36.

[690] أحمد العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج04، المجمع الثقافي، أبو ضبي، ط01، سنة 1423هـ، ص227.

[691] هو محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن علي بن شبرين، يكنى أبا بكر كان فريد دهره، ونسيج وحده، بارع الخط، وطيب المجالسة، عذب التلاوة لكتاب الله، من أهل الدين والفصل والعدالة، تاريخيا مقيدا، محققا لما ينقله، أشد الناس عن الشعر، مولده في أواخر سنة 674هـ، توفي سنة 747هـ، ودفن بباب ألبيرة. أنظر:لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج02، المصدر السابق، ص ص (239-249).

-ابن الحسن النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، المصدر السابق، ص ص (190-191).

هي الثغر صان الله من أهلت به وما خير ثغرا لا يكون برودا[692].

ويمر نهر شنيل على غربي غرناطة إلى فحصها، يشق منها أربعين ميلا بين بساتين وقرى وضيع كثيرة البيوت، وأبراج الحمام، وغير ذلك من المباني، وينتهي إلى لوشة[693]، التي تعتبر أحد أقطار غرناطة وتشتهر بمعدن الفضة الجيد، ويضاف إليه من الحصون والقرى كثير، وقاعدته لوشة، بينها وبين غرناطة مرحلة أي 95كلم إلى الغرب من غرناطة[694]. أما نهر حدرة (الصورة 15) فينحدر من جبل بناحية وادي آشي[695] شرقي شلير فيمر بين بساتين ومزارع إلى أن ينتهي إلى غرناطة فيدخلها على باب الدفاف بشرقيها، يشق المدينة نصفين، تطحن به الأرحاء، وعليه بداخلها خمس قناطر: قنطرة بن رشبقه، وقنطرة القاضي، وقنطرة حمام جاش، والقنطرة الجديدة، وقنطرة العود، وعلى القناطر أسواق ومبان محكمة، وماء يجري من النهر في جميع البلد في أسواقه، وقاعاته ومساجده، ويبرز في أماكن على وجه الأرض، ويخفي جداوله تحتها في الأكثر، وحيث طلب الماء وجد[696].

وقلعتها حيث مقر سلطانها تعرف بالحمراء وهي بديعة متسعة كثير المباني الضخمة والقصور، ظريفة جدا يجري بها الماء تحت بلط، كما يجري في المدينة ولا يخلوا منه مسجد ولا بيت، وبأعلى برج فيها عين ماء، وجامع المدينة من أبدع الجوامع وأحسنها بناء تعلق بها ثريات الفضة، وبحائط محرابه أحجار ياقوت مرصوفة، وفيه جملة ما نمق بالذهب والفضة، ومنبره عاج وأبنوس، ويذكر لسان الدين ابن الخطيب نقلا عن ابن حيان أنه: "كان يجتمع بباب الجامع من ألبيرة خمسون حكمة[697]، كلها من فضة لكثرة الأشراف بها، ويدل على ذلك آثارها الخالدة، وأعلامها المائلة كطلل مسجدها الجامع الذي تحامى استطالة البلى كسلت على طمس معالمه

[692]لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج01، المصدر السابق، ص 94.

[693]أحمد العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج04، المصدر السابق، ص 228.

[694]أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج01، المصدر السابق، ص ص (147-149).

[695]وادي آشي، أو وادي الآشات قد كان من المدن الزاهرة بمملكة غزناطة الإسلامية، قريب منها، يبعد عنها بـ 53كلم إلى الشمال الغربي منها، سقط في يد الإسبان فبل سقوط غرناطة بقليل، سنة 1490هـ. أنظر: المصدر نفسه ص149.

[696]أحمد العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج04، المصدر السابق، ص 228.

[697]هي ما يوضع في فم الدابة لتدليلها، وكبح جماحها، وتسمى عند أهل بلاد المغرب شكيمة.

أكف الردى، إلى بلوغ ما فسح له من المدى "[698]. بناه محمد بن عبد الرحمن بن الحكم[699]، على تأسيس عامله حنش بن عبد الله الصنهاجي الشافعي، وعلى محرابه كتب " بسم الله العظيم، بنيت لله، أمر ببنائها الأمير محمد بن عبد الرحمن، أكرمه الله، رجاء ثوابه العظيم توسيعا لرعيته، فتم بعون الله على يد عبد الله بن عبد الله عامله على كورة ألبيرة في ذي القعدة سنة خمسين ومائتين 250هـ"[700].

وبالمدينة جبلان يشقان وسطها، وفحصها دور حسان، وأعالي مشرفة على الفحص، فترى منظرا بديعا، وفروع الأنهار تسقيها، وغير ذلك من ما يقصر عليه النخيل والتشبيه، يعرف أحد الجبلين بالخزة وموزور، ويعرف الثاني بالقصبة القديمة وبالسند، و هناك برج الديك عليه ديك النحاس رأس فرس، وعليه صورة راكب بحربة ودرقة من حيث هبت الريح دار وجه الراكب، وباقي المدينة وطئ، ولها ثلاثة عشر بابا: باب ألبيرة وهو أضخمها، وباب الكحل وهو باب الفخارين، وباب الخندق، وباب الرخاء، وباب المرتضى، وباب المصرع ، وباب الرملة، وباب الدباغين، وباب الطوابين، وباب الفخارين، وباب الدفاق ، وباب البنود، وباب الأسدر. (شكل 09).

وحول غرناطة أربعة أرباض: ربض الفخارين، وربض الأجل، وهو كثير القصور والبساتين، و ربض الرملة، وربض البيازين (الصورة 16) الذي بناحية باب الدفاف، وهو كثير العمارة يخرج

---

[698]لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج01، المصدر السابق، ص 97.

[699]هو الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية، أحد الأمراء الأمويين بالأندلس، ولد سنة 207هـ، تولى الخلافة بعد وفاة أبيه عبد الرحمن بن الحكم سنة 238هـ، مات سنة 273هـ. أنظر: الفتح بن خاقان، مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملمح أهل الأندلس، المصدر السابق، ص283.

-أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، التنبيه والإشراف، تحقيق: عبد الله إسماعيل الضاوي، ج 01، دار الضاوي، القاهرة، ص 287.

-ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر بن عبد السلام التدمري، ج06، دار الكتاب العربي، بيروت، ط01، سنة 1979م، ص 144.

-ابن الأبار، الحلة السيراء، تحقيق: حسين مؤنس، ج01، دار المعارف، القاهرة، ط02، سنة 1985م، ص 119.

-يوسف بن تغري الظاهري الحنفي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج03، دار الكتب، القاهرة، ص70.

[700]لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج01، المصدر السابق، ص92.

منه نحو خمسة عشر ألف مقاتل كلهم شجعان مقاتلون معتادون بالحروب، وهم ربض مستقل بحكمه وقضاته وغير ذلك[701].

يحف بسور هذه المدينة المعصومة بدفاع الله البساتين العريضة المستخلصة، والأدراج الملتفتة، فيصير سورها في خلف ذلك كأنه دون سياج كثيفة، وقد نظم لسان الدين بن الخطيب واصفا هذا المنظر:

بلد يحف به الرياض كأنه　　　وجه جميل والرياض عذاره

وكأنما واديه معصم غادة　　　ومن الجسور المحكمات سواره[702].

وقد عدد لسان الدين بن الخطيب الحدائق والبساتين والمنيات المحيطة بغرناطة، وأحصاها بأسمائها، فأخص بالذكر منها: الحديقة المعروفة بفدان الميسة، والحديقة المعروفة بفدان عصام، والجنة المنسوبة إلى قداح بن سحنون، والجنة المنسوبة لابن المؤذن، والجنة المنسوبة لابن كامل، وجنة النخلة العلية، وجنة النخلة السفلى، وجنة بن عمران، وجنة العرض، وجنة الحفرة، وجنة الجرف، مدرج نجد، ومدرج السبيكة، التي تقع جنوب شرقي الحمراء، ومنها الطريق المؤدي إلى باب الشريعة، باب الحمراء الرئيسي، وجنات العريف الواقعة في شمال شرقي الحمراء في الربوة التي يقوم عليها قصر جنة العريف(الصورة 24) المسمى بالإسبانية Geneeralife، وكلها لا نظير لها من الحسن والخصوبة وطيب الثرى وفرة المياه والتفاف واستجادة الأجناس، إلى ما يتصل بها بوادي شنجيل ما يقيد الطرف ويعجز الوصف[703]. قال أبو الحجاج يوسف بن سعيد بن حسان:

أحن إلى غرناطة كما هفت　　　نسيم الصبا تهدي الجوى وتشوق

تأمل إذا ما أملت حور مؤمل　　　ومد من الحمراء عليك شقيق

وأعلام نجد والسبيكة قد ملت　　　وللشفق الأحمر تلوح بروق

و قد سل شنيل فرندا مهندا　　　نضى فوق در ذر فيه عقيق

---

[701]أحمد العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج04، المصدر السابق، ص ص(229-230).

[702]لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج01، المصدر السابق، ص 115.

[703]لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج01، المصدر السابق، ص ص (113-114).

إذا نم منه طيب نشر أراكه   أراك فتيت المسك هو فتيق

ومهما بكى جفان الغمام تبسمت   ثغور أفاح للرياض أنيق[704].

وقد نظم الشيخ أبو الحسن بن الجياب[705] في التعالي بوصف وادي شنيل في تفضيله عن النيل بزيادة الشين وهو ألف من العدد، فكأنه النيل بألف ضعف على عادة الخيال الشعري:

ما اسم إذا زدته ألفا من العدد   أفاد معناه لم ينقص ولم يزد

وإنما ائتلفا بعدما اختلفا   معنى بشين ومن نزر ومن بلد[706].

ووصف لسان الدين بن الخطيب المنطقة الواقعة في جنوب شنيل اتجاه غرناطة والتي يطلق عليها اسم "أرمليا" حاليا Armilla، والملعب الذي كان بها بقوله: "...يتصل به بناء قديم محكم، ويستقبل الملعب العيدي ما بين ذُنَابى الجسر إلى جدار الرابطة، وملعب بديع الشكل عن يمينه جناح بديع عن ميدانه عدوات النهر، وعن يساره الجنات، ويفضي بعد انتهائه الرابطة إلى باب القصر المنسوب إلى السيد"[707]، وهو القصر الذي بناه أبو إسحق بن يوسف الموحدي والي غرناطة سنة 610هـ، في أيام ملوك بني نصر، خارج غرناطة أيام الموحدين، ويعرف اليوم باسم "قصر شنيل" بسبب موقعه قرب ضفة نهر شنيل، وقد بقيت على أطلاله عقد مدخل وبهو صغير مربع ذي قبة عالية ، نقشت على جوانبه أدعية مختلفة يتخللها شعار " لا غالب إلاّ الله "[708](الصورة 17).

---

[704]المصدر نفسه، ص ص (117-118).

[705]هو أبو الحسن علي بن محمد بن سليمان بن علي بن سليمان بن سليمان بن حسن الأنصاري الغرناطي، أحد مشايخ لسان الدين ابن الخطيب، ولد سنة 673هـ، كان بين وزراء الدولة النصرية، تلقب في ديوان الإنشاء، حتى ظفر برياسته، وكان من بين أعوانه في ديوان الإنشاء لسان الدين بن الخطيب الذي خلفه بعد وفاته سنة 744هـ، في الوباء الكبير. أنظر:أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج05، المصدر السابق، ص ص (434-464).

-ابن فرحون، الديباج المذهب، ج02، المصدر السابق، ص ص (111-112).

-جلال الدين السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ج02، المصدر السابق، ص 189.

-علي بن محمد الكتاني، انبعاث دولة الإسلام في الأندلس، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1426هـ/2005م، ص41.

[706]لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج01، المصدر السابق، ص118.

[707]لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج01، المصدر السابق، ص119.

[708]المصدر نفسه، ص119.

وقد أشار المستشرق الإسباني " سيمونت" " الذي نشر القسم الأول من كتاب " معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار" للسان الدين بن الخطيب إلى أن عدد مدن غرناطة أربع وثمانون مدينة، تحت عنوان: "وصف مملكة غرناطة في عهد بني نصر"[709]. أما بالنسبة لما يخارج غرناطة من القرى، قد أورد لسان الدين بن الخطيب نحو مائة وأربعين اسم قرية ومحلة من قرى غرناطة القديمة. فمنها ما هو قريب من حاضرة غرناطة ومنها ما هو بعيد عنها، منها ما حولت أسمائها إلى أسماء إسبانية أو أوروبية، ومنها ما زالت قارة حتى اليوم، ومنها ما اندثرت آثارها[710]. أما بالنسبة لعدد قرى غرناطة فيقدر حوالي مائتين وسبعين قرية[711]، وذكر لسان الدين بن الخطيب غير هذا العدد " ... وتنيف أسماؤها على ثلاث مائة قرية، ما عدا ما يجاور الحضرة من كثير من قرى الإقليم، أو ما استضافته حدود الحصون المجاورة"[712].

ومن أعمال غرناطة الكبار: قطر لوشة، أصل لسان الدين بن الخطيب، وهذا القطر ضخم به معدن الفضة، فيه من الحصون، والقرى كثير، وقاعدته لوشة " loja"، وبينها وبين غرناطة مرحلة من أحسن المراحل (حوالي 55كلم)، بين أنهار وظلال في بساط ممتد تبارك الذي أبداه بديعا في حسنه، قال الحجازي: "فلو كان للدنيا عروس من أرضها لكان ذلك الموضع، وهي على نهر شنيل"[713].ومن أعمال غرناطة كذلك وادي آش، ويقال: واد الأشات، وهي مدينة حلية قد أحدقت بها البساتين والأنهار، تقع قرب غرناطة على بعد 53كلم إلى الشمال الشرقي منها. ويصفها لسان الدين الخطيب فيقول: "هي مدينة الوطن، ومناح من عبر أو قطن، للناس ما بدا ولله ما بطن، وضع سديد، و باس شديد، ومعدن حديد، ومحل عدّة وعديد، وبلد لا يعتل فيه إلا النسيم ومرابي يخجل منه الصباح الوسيم، كثيرة الجداول والمذانب، مختصرة الجوانب إلى الفواكه

[709] لسان الدين بن الخطيب، معيار الاختبار في ذكر المعاهد والديار، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، سنة 1423م، ص57.

[710] لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج01، المصدر السابق، ص126.

[711] مجهول، تاريخ الأندلس، المصدر السابق، ص126.

[712] لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج01، المصدر السابق، ص126.

[713] ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، تحقيق: شوقي ضيف، ج02، دار المعارف، القاهرة، ط03، ص157.

الكثيرة ...،و سندها معدن الحديد والحرير، ومعقلها أهل التاج والسرير، وهي دار أحساب واكتساب، وأدب وحساب، وماؤها الجليد، و هواؤها يُذكي طبع البليد ..."[714].

ومن أهم العمائر العسكرية الموجودة بواد آش حصن جليانة، وهو يضاهي المدن، ويشتهر بالتفاح الجلياني الذي خص به ذلك الموضع، يجمع عظم الحجم وكرم الجوهر وحلاوة الطعم وذكاء الراحة والنقاء، وبين الحصن المذكور ووادي آش اثنا عشر ميلا[715]. وقد اشتهر أهل وادي آش بالأدب وحسن الشعر، و فيه تقول الشاعرة حمدة بنت زياد المؤدب، التي لقبها عم بن سعيد المغربي بخنساء المغرب، ومما أشدته واصفة واد آش، لما خرجت إليه مع جوار:

أتــاح الدمع أســراري بــوادي   لــه في الحـسن آثار بــوادي
فمن نهر تطـوف بـلل روض   ومن روض يطوف بكل واد
ومن بين الظبـاء مهــاة إنس   لها لبي وقـد سلبـت فـوادي[716].

وأنشد أبو عمر بن علي بن البراق[717]:

أنظر إلى الوادي الذي مد غردت   أطيــاره شـــق النسيــم ثيابــه
أتـــــراه أطربـــه الهـــديـل وزاده   طربا وحقك إن حللت جنابه[718].

ووصفها يقول أبو الحسن بن نوار:

وادي الأشات يهيج وجدي كلـما   أذكرت ما قضت بــك النعماء
لله ظـــلك والهجيـــر مسلـــط   قـد بردت لفحاتــه الأنــــداء
والشمس تغـرب أن تفوز بلحظة   منـه فتطـرف طـرفها الأفيــاء
والنهــر يبســم بالحبــاب كأنــه   سلـــخ نضتــه حيــة رقشــاء

[714]لسان الدين بن الخطيب، معيار الاختبار في ذكر المعاهد والديار، المصدر السابق، ص112.
[715]أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج01، المصدر السابق، ص ص (149-150).
[716]ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب،ج02، المصدر السابق، ص ص (145-146).
[717]هو محمد بن علي بن البزاق الهمداني، ويكنى أبو القاسم، فقيه شاعر مجيد، ولد سنة 529هـ، وتوفي عام 590هـ. أنظر: أبو جعفر الضبي، بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، المصدر السابق، ص114.
[718]ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، ج02، المصدر السابق، ص150.

فلذاك تحـــذره الغصـــون فميلـــها أبـــــدا عـــــلى جنباتـــه إيمـــاء[719].

ومساجد مدينة غرناطة لا تكاد تحصى لكثرتها, ويقعد السلطان للناس بدار العدل بالسبيكة من الحمراء يوم الاثنين، ويوم الخميس فيقرأ بمجلسه عشر من القرآن, وشيء من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم, ويأخذ الوزير القصص من الناس, ويحضر معه المجلس الرؤساء من أقاربه ,ونحو ذلك[720].

ويصف الرحالة ابن بطوطة مدينة غرناطة بإيجاز, خوفا أن يتهم بالعصبية فيما يرويه, وفي هذا الشأن قال بن جزي: "لو خشية أن أنسب إلى العصبية لأطلت القول في وصف غرناطة فقد وجدت مكانه, ولكن ما أشهر كاشتهارها لا معنى لإطالة القول فيه"[721], ويتضمن وصف ابن بطوطة: "أن غرناطة قاعدة الأندلس أو عروس مدنها, وخارجها لا نظير لها من بلاد الدنيا, وهو مسيرة أربعين ميلا, يخترقه نهر شنيل المشهور, وسواه من الأنهار الكثيرة والبساتين والجنات والرياض والقصور, والكروم محدقة بها من كل جهة, ومن عجيب مواضعها عين الدمع، وهو جبل فيه الرياض والبساتين لا مثيل له, وأورد أبياتا من قصيدة الشيخ أبي بكر محمد بن محمد بن أحمد بن شبرين المذكور سابقا. وذكر ملكها ومن لقي من فضلائها وشيوخها، وزيارته لزاوية رابطة العقاب مقدرا أن المسافة بينهما ثمانية أميال"[722].

وقال ابن مالك الرعيني[723]:

---

[719]أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج01، المصدر السابق، ص149.

[720]أحمد العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج04، المصدر السابق، ص320.

[721]ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ج02، المصدر السابق، ص520.

[722]ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ج02، المصدر السابق، ص ص (520-521).

[723]هو أحمد بن يوسف بن مالك الرعيني، أبو جعفر الغرناطي، ارتحل إلى الحج فرافق أبا عبد الله بن جابر الأعمى وتصاحبا، وترافقا إلى أن صارا يعرفان بالأعميين، وكان أبو جعفر هذا شاعرا ماهرا عارفا بفنون الأدب، مات عن سبعين سنة في شوال سنة 779هـ، وكان مولده بعد السبعمائة، ورثاه صديقه بن جابر. أنظر: ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج01، المصدر السابق، ص ص (403-404).

-تقي الدين بن فهد الهاشمي، لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1419هـ/1998م، ص203

رعى الله بالحمـــراء عيـــشا قطعتـه ذهبــت به للإنس, والليــل قـد ذهــب

ترى الأرض منها فضة فإذا اكتست بشمس الضحى عادت سبيكتها ذهب[724].

وقال بعضهم يتشوق إلى غرناطة فيما ذكر بعض المؤرخين, ولكن أحمد المقري رجح أن تكون هذه الأبيات قيلت في قرطبة, كما ذكر ذلك في كتابه نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب:

أغرناطـــة الغـراء هـــل لي أوبـــة إليك ؟ وهل يدنو لنا ذلك العهد ؟

سقت الجانب الغربي منك عمائم وقعقع في ساحات روضتك الرعـد

لياليـــك أسحـــار وأرضـك جنـة وتربـك في استنشاقــها عنبـــر ورد[725].

3- قصر الحمراء :

لما دخل محمد بن الأحمر[726] غرناطة سنة 635هـ، بدأ يبحث عن مكان يتخذه دارا لمملكته، يتميز بالمناعة والقوة، فاستقر به المطاف عند موقع الحمراء في الشمال الشرقي من غرناطة فوق الموقع القديم الذي شيده باديس بن حبوس. في هذا المكان المرتفع وضع أساس حصنه الجديد " القصبة الحمراء"، وجلب إليه من نهر حدرة، واتخذه قاعدة للملك، وأنشأ فيه عدّة أبراج منيعة منها البرج الكبير المسمى ببرج الحراسة، والبرج المقابل له، وأنشأ له سورا يمتد على مستوى الهضبة ، والظاهر أنه بنى مسكنه في الجنوب الغربي من الحصن[727].

-أحمد بن رافع بن محمد الطهطاوي الحنفي، التشبيه والإيقاظ لما في ذيول تذكرة الحفاظ، مطبعة الترقي، دمشق، سنة 1348هـ، ص142.

[724]أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج01، المصدر السابق، ص177.

[725]المصدر نفسه، ص176.

[726]هو محمد بن يوسف بن نصر، السلطان أبو عبد الله بن الأحمر الأرجوني، صاحب الأندلس، بويع سنة 629هـ بأرجونة، وكان مدبرا حازما، بطلا شجاعا، هزم بن هود ثلاث مرات، ولم تنكسر له راية قط، حاصر جيان عامين، وأخذها بالصلح سنة 642هـ، فعمرت البلاد حتى توفي شهر رجب سنة 672هـ. أنظر: صلاح الدين بن أيبك الصفدي، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، ج05، دار إحياء التراث، بيروت، سنة 1420هـ/2000م، ص ص (165-167).

-شمس الدين بن قيماز الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: بشار عواد معروف، ج15، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط01، سنة 2003، ص 253.

[727]محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ج05، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط04، سنة 1417هـ/1997م، ص269.

أما عن تسميته بقصر الحمراء، فقيل أن هذا اسم قلعة الحمراء القديمة التي بنى فوقها ابن الأحمر قصره، وقيل إلى احمرار لون الآجر الذي بنيت به الأسوار الخارجية، أو إلى لون التربة التي بنيت عليها، والتي اكتسبت لونها الأحمر من كثرة أكسيد الحديد، ولهذا سميت بتل السبيكة، فليس هناك صلة بين اسم الحمراء وبني الأحمر الذين لقبوا بهذا الاسم بسبب احمرار شعر جدهم[728]. واستمر البناء من بعد محمد بن الأحمر ولده الملقب بالغالب بالله[729]، فأنشأ الحصن والقصر الملكي وجزء من أسوار مدينة الحمراء في أواخر القرن السابع هجري. وقد بلغت علمية البناء والتشييد ذروتها في عهد السلطان يوسف الأول، وابنه محمد الخامس. وأما المعلومات عن المهندسين والفنانين الذين سهروا على تخطيطها وإنشائها فتبقى شحيحة. وتدين الحمراء بضخامتها الرائعة إلى السلطان يوسف أبي الحجاج الملك الشاعر الفنان الموهوب، فقد زاد في القصر زيادة كبيرة، وأكمل بهو قمارش الضخم، والبرج الشاهق الذي يعلوه، وأصبغ عليه روائع الفن الزخرفي، وأنشأ العقد الشاهق الذي يكون مدخل القصر الرئيسي، وهو المسمى "باب الشريعة"، ويحمل فوق عقده اسمه وتاريخ إنشائه (749هـ / 1348م)[730]. وباب العدل ، والحمامات السلطانية ، وبرج الأسيرة، وبرج الشرفات أو الأسنة، وبرج مخدع الملكة، وقصر الريحان، وقصر البرطل، كما أنشأ محمد الخامس[731]قاعة الملوك، وقاعة بني سراج، وقاعة الأختين، وبهو السباع[732].

---

[728]محمد حسن العيدروس، العصر الأندلسي –العمارة والفنون الأندلسية في غرناطة وطليطلة وقرطبة–، المرجع السابق، ص ص (114-115).

[729]هو محمد بن محمد بن يوسف بن نصر، صاحب الأندلس، أبو عبد الله بن الأحمر الخزرجي، كان ملكا نبيها حسن السياسة، ظاهر الرياسة، عاقلا وقورا، فاضلا يرسل من ذهنه على صيد المعاني صقورا، متظاهرا بالدين، شاهرا بقمع الملحدين، له نظم أرق من هبة نسيم سحر، بويع بعد والده سنة 671هـ، فتملك ثمانية سينين، ثم إنه وثب عليه أخوه أبو الجيوش بن نصر، وظفر به وسجنه مدة، ثم جهزه إلى بلده شلوبينية، فحبسه بها إلى أن تحرك علي بن نصر بن أخته، فجعله عنده بالحمراء في بيت أخته. أنظر: صلاح الين بن أيبك الصفدي، أعيان العصر وأعوان النصر، ج05، المصدر السابق، ص ص (245-246).

[730]محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ج05، المرجع السابق، ص240.

[731]هو محمد بن يوسف أبي الحجاج بن إسماعيل، ثامن ملوك دولة بني نصر بن الأحمر في الأندلس، يلقب بالغني بالله، ولي بعد وفاة أبيه سنة 755هـ، وجدد رسوم الوزارة لوزير أبيه لسان الدين بن الخطيب، وكان للغني بالله أخ يدعى إسماعيل، استمال إليه جماعة من أهل غرناطة، فنادوا بدعوته، وخلعوا الغني بالله، وسجنوه هو ووزيره، وفر العني بالله إلى واد آش سنة 761هـ، ومنها إلى تونس، فأقام

وتجدر الإشارة أن مهندسي قصر الحمراء عرفوا طريقة استغلال الموقع الطبيعي، من حيث الحصانة ومشاهد الآفاق البعيدة والمتنوعة الممكن التقاطها من أعلى الأبراج، ومن داخل القصور والمنتزهات. فكيفوا عمارتهم حسب مقتضيات المكان والمناظر الطبيعية التي تحيط به، كالغابات الكثيفة والرياض الزاهية والجبال المغطاة بالثلوج والأنهار والجداول ومناظر المدينة المنتشرة في الأسفل(733). مع حرص المهندس المعماري على التوازن بالنسبة للأشكال والأحجام والألوان والمساحات بل ذلك في مستوى علاقة الإنسان بالمحيط سوء كان طبيعيا أو معماريا. ومن هنا يعبر قصر الحمراء عن ذروة ما وصلت إليه الحضارة الإسلامية من التطوّر والتقدم، فهو أروع ما انتفعت به العين من الصروح الأثرية، لدقة صنعه وجمال تعبيره، وصدق مكوناته وأصالة فنه. ويمكن تقسيم أبنية قصر الحمراء إلى جناحين كبيرين، الأول: قصر قمارش الذي يضم البهو المسمى بهذا الاسم وبرجه الشاهق، و قد كان هذا الجناح هو المقام الرسمي لملوك غرناطة، وسمي بهذا الاسم ، نسبة إلى البهو الكبير الذي يقع تحت برج قمارش، والذي كان يقعد فيه السلطان مجالسه الرسمية، وكان به مجلس العرش.والثاني قصر السباع وهو الذي يتوسطه بهو الأسود، ونافورته الشهيرة(734). (شكل 10).

أ- قصر قمارش:ينتصب برج قمارش (الصورة 18) الكبير شاهقا وراء الرواق الشمالي، إذ يبلغ علوه 45 مترا، وفي داخله قاعة السفراء الفسيحة التي أعدها يوسف الأول لاستقبال كبار الوفود

عند سلطانها أبي سالم المريني، الذي شفع بلسان الدين، فأخلي سبيله، وفي سنة 763هـ أتيحت للغني بالله فرصة دخول غرناطة، وتبث بها قدميه، ورد وزيره لسان الدين بن الخطيب ثم انقلب عليه، واتسعت دولته، حتى أصبح ملك المغرب الإسلامي كله، وكان حازما وداهية، استمر في الملك إلى أن توفي سنة 793هـ. أنظر: خير الدين الزركلي، الأعلام، ج07، دار الملايين، ط15، سنة 2002، ص153.

-لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج02، المصدر السابق، ص59.

-أحمد المقري التلمساني، أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، ج01، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، سنة 1358هـ/1939م، ص ص (37-38).

(732) محمد حسن العيدروس، العصر الأندلسي –العمارة والفنون الأندلسية في غرناطة وطليطلة وقرطبة-، المرجع السابق، ص141.

(733) عبد العزيز الدولاتلي، مسجد قرطبة وقصر الحمراء، موفم للنشر، الجزائر، سنة 2011، ص114.

(734) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ج05، المرجع السابق، ص294.

الأجنبية، وهي كذلك أعظم القاعات التي شيدها بنو نصر في الحمراء[735]، ومن شمسيات هذه القاعة يمكن إمتاع البصر بمنظر من أروع المناظر الطبيعية الساحرة، وتنقل العين في نهر حدرة الذي تندفع مياهه أدنى البرج إلى حي البيازين في المرتفع الآخر المقابل للحمراء[736]. ويتقدم جناح قصر قمارش الساحة المعروفة بفناء البركة أو فناء الريحان (الصورة 19)، وهي عبارة عن فناء كبير مستطيل مكشوف تتوسطه بركة من الماء تظللها أشجار الريحان.

يعدّ بهو قمارش الذي بدأ بإنشائه السلطان أبو الوليد إسماعيل[737] في أوائل القرن الثامن للهجرة، وأكمله ولده السلطان يوسف أبو الحجاج، حيث يبلغ طوله 18 مترا وعرضه 11 مترا، تعلوه قبة خشبية ارتفاعها 23 م. وفي هذا البهو كان يعقد مجلس العرش، ولهذا سمي بالمشور أيضا، وأروع ما فيه من زخارف قبته التي احتفظت بنقوشها الأصلية، أما نقوش الجدران فقد وردت فيها العبارة الآتية مكررة: "عز لمولانا السلطان أبي الحجاج"، وتخللها في سائر جوانبها شعار بني نصر المشهور "لا غالب إلا الله"[738].

أما المشور القديم الذي يجاور فناء الريحان من جهته الشمالية، فلم يبق لقبته أي أثر في القاعة الفسيحة، غير أربعة أعمدة تحمل تيجانها سقفا خشبيا بأنواع الزخارف، وكان السلطان محمد الخامس يجلس في هذه القاعة الأنيقة كل صباح يوم اثنين وخميس للاستماع إلى شكوى رعاياه، محاطا بوزارته وأعيان دولته، وقد أفادت أشعار ابن زمرك[739] أن السلطان محمد الخامس

---

[735]عبد العزيز الدولاتلي، مسجد قرطبة وقصر الحمراء، المرجع السابق، ص116.

[736]السيد عبد العزيز سالم، المساجد والقصور في الأندلس، المرجع السابق، ص146.

[737]هو السلطان الغالب بالله، أبو الوليد إسماعيل بن الفرج بن إسماعيل بن يوسف بن نصر، صاحب غرناطة والأندلس، كان مولده سنة 680هـ، حكم الأندلس 13 سنة، وملك بالبلاد في حياة أبيه الفرج، توفي سنة 720هـ. أنظر: يوسف بن تغري الظاهري الحنفي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج01، دار الكتب ، القاهرة، ص ص (250-251).

-تقي الدين المقريزي، السلوك لمعرفة دولة الملوك، تحقيق: عبد القادر عطا، ج03، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1418هـ /1997م، ص ص (33-34).

[738]محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ج05، المرجع السابق، ص294.

[739]هو محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف الصريحي، أبو عبد الله، ويعرف بابن زمرك، ولد بغرناطة في 14 شوال سنة 733هـ، وتشأ بها وهو من مفاخرها، رحل في طلب العلم، وعلم فترة في ديوان الكتابة عن ولد السلطان أبي سالم، ثم رجع مع السلطان بن الأحمر في طلب ملكه، فلطف محله منه، وخصه بكتابة سره، وكانت وفاته في صفر عام 793هـ. أنظر: أحمد المقري

كان يحتفل فيها بالمولد النبوي الشريف سنة 767هـ، ولم يتبقى من هذه الأبنية سوى أسماءها وبجوارها صحن من جهتها الشمالية مجنبة تتقدم برجا يعرف اليوم باسم متشوكة[740].

وأنشد ابن زمرك في إحياء المولد سنة 767هـ، وألم بوصف المشور الأسنى الرفيع المبني قصيدة نختار منها:

واهنأ بمبنـاك السعيـد فـإنه	كهف ليـوم مشـورة وعطـاء
لله منه هـالـة قد أصبحـت	حرم العتاة ومصـرع الأعــداء
تنتابها طير الـرجاء فتجتـني	ثمــر المـنى من دوحــة الآلاء
للــه منـــه قبـــة مرفوعــة	دون السماء تفوت لحظ الرائي
راقت بدائع وشيها فكأنها	وشي الربيع بمسقــط الأنـداء
عظمــت ميلاد النبي محمد	وشـفعتــه بالليلـــة الغـــراء[741].

وإذا كان بالمشور القديم قبة، فلم يتبق لها اليوم أي أثر، أما ما يجاور المشور غربا من ساحات وقاعات فلم يهتد المؤرخون إلى معرفة بانيها الأصلي، والغالب على الظن أنها أقدم الأجزاء الموجودة حاليا في قصر الحمراء، وقد خصها يوسف الأول بأشغال ذات قيمة من الصيانة والترميم[742]، ويتعلق الأمر بقصر البرطل، ويعنون به السقيفة التي تقوم على بائكة من العقود، ويقع هذا القصر بين برج السيدات ومصلى صغير، تتألف سقيفة هذا القصر من خمسة عقود أوسطها أكثر ارتفاعا، ويطل هذا القصر على بركة تزودها نافورة أسفل العقد الأوسط بالمياه، ويغطي الجدران التي تعلوا عقود البائكات شبكة من زخرفة المعينات، ويحيط بالجدران أنواع من

التلمساني، أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، ج02، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، سنة 1358هـ/1939م، ص ص (07-206).

-لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج02، المصدر السابق، ص ص (196-207).

[740] عبد العزيز الدولاتلي، مسجد قرطبة وقصر الحمراء، المرجع السابق، ص115.

[741] أحمد المقري التلمساني، أزهار الرياض في أخبار عياض، ج02، المصدر السابق، ص50.

[742] عبد العزيز الدولاتلي، مسجد قرطبة وقصر الحمراء، المرجع السابق، ص114.

الزليج تتعدد فيه الرسومات الهندسية الملونة[743].ولا يبعد برج الأسيرة عن قصر البرطل، إذ يقوم على مرتفع فاصل بين الحمراء وجنة العريف[744].

ويظم هذا البرج قصرا، يتألف من قاعة أساسة تكتنفها شرفات ومخادع جانبية، ويتوسط هذا البرج صحن داخلي صغير يحيط به من جهاته الأربع مجنبات، وتتميز زخرفة قاعات هذا البرج لاسيما بتربيعاته الزليجية الملونة والزخرفية الجصية الرائعة[745].

ب- قصر السباع: يعد بهو السباع(الصورة 20) أحد أبهاء قصر الحمراء القائم فوق جبل السبيكة مشرفا على مدينة غرناطة، اكتسب اسمه من تلك النافورة بوسط فناء هذا البهو، وذاع صيته بسببها، وطبقت شهرته الآفاق، وهو آية من آيات العمارة الإسلامية[746]. وقد أحيط بالصحن المركزي في واجهاته الأربع، أربع بوائك، ويتوسط الصحن فوارة تتألف من ثلاثة أجزاء: النافورة، والحوض الأعلى، ثم الأدنى، استدار تحتها اثنا عشر أسدا تمج المياه من أفواهها، ويدور بالحوض زخرفة كتابية في مدح محمد الخامس، وأبيات لقصيدة ابن زمرك نذكر منها:

وراقــصــة البــحر طلــوع عنــانــها	تراجــع ألحــان القيــان الأغانـيا
إذا مــا علــت في الجو ثم تحـدرت	تحلى بمرفـض الجمــان النواحـيا
يــذوب لجـــين ســال بين جـواهـر	غدا مثلها في الحسن أبيض صافيا
تشـابـه جـــار للــعيـون بـجامـد	فلـم أدر أيــا منهمــا كان جـاريا
فإن شئــت تشبيــها له عن حقيقـة	تصيـب بها المرمـى بوركـت رامـيا[747].

---

(743) السيد عبد العزيز سالم، المساجد والقصور في الأندلس،المرجع السابق، ص ص(144-145).

(744) يقع قصر جنة العريف شرق قصبة الحمراء على ربوة عالية، يشرف على صروح الحمراء، شيد في أواخر القرن السابع هجري، وجددعلى يد السلطان أبي الوليد إسماعيل، يندرج بستان هذا القصر على ثلاث مناطق كل واحدة فوق أخرى ببضعة أمتار، تتوسطه بحيرة يحف جدرانها نافورات الماء، ينفجر الماء منها على شكل أقواس، اتخذه ملوك بني نصر مصيفا ومنتزها لهم، أنظر: محمد حسن العيدروس، العصر الأندلسي –العمارة والفنون الأندلسية في غرناطة وطليطلة وقرطبة–، المرجع السابق، ص141.

(745) السيد عبد العزيز سالم، المساجد والقصور في الأندلس، المرجع السابق، ص145.

(746) محمد حسن العيدروس، العصر الأندلسي –العمارة والفنون الأندلسية في غرناطة وطليطلة وقرطبة–، المرجع السابق، ص145.

(747) أحمد المقري التلمساني، أزهار الرياض في أخبار عياض، ج02، المصدر السابق ص70.

ويدور بالصحن أربع بوائك تقوم على عمدها الرفيعة الرشيقة عقود متطاولة، ويبلغ طول الصحن 28.5م، وعرضه 17.7م[748].

وتعد قاعة الأختين الشمالية (الصورة 22) من أجمل قاعات الحمراء، وهي شبيهة من حيث هندستها وزخرفتها بقاعة بني السراج (الصورة 21)، إذ تتكون من مربع في الوسط، تغطيه قبة مقرنصة بديعة، ومستطيلان جانبيان، وترجع تسميتها إلى وجود رخامتين متشابهتين تغشيان بلاطها[749].

وتقع قاعة الملوك(الصورة 23) في الجهة الشرقية من الصحن، وتتألف من سبعة حجرات، ثلاثة منها مربعة، بواسطة عقود مدرجة ومقرنصة محمولة على دعامات تتكأ عليها أعمدة رشيقة، أما الحجرات المربعة، فتغطيها ثلاث قباب مقرنصة تشبه قاعة بني السراج، وتمتاز زخرفتها بالرسوم الآدمية التي تزخر بها سقوف الحجرات المستطيلة[750]. (شكل: 11).

و عليه فمن المؤكد أن قصر الحمراء هو آية من آيات إبداع الحضارة الإسلامية في مجال العمارة والتشييد، وهو يعبر بحق عن قمة التناسق والتوازن في النسب والمساحات والأحجام والألوان والأشكال والعناصر التخطيطية والمعمارية والزخرفية، مما يدل على حدق المعماري المسلم بأساليب البناء والتشييد والتخطيط، ويعتبر شاهدا ماديا عن الفترة الذهبية للحضارة الإسلامية في الأندلس.

---

[748] السيد عبد العزيز سالم، المساجد والقصور في الأندلس،المرجع السابق، ص147.

[749] عبد العزيز الدولاتلي، مسجد قرطبة وقصر الحمراء، المرجع السابق، ص118.

[750] المرجع نفسه، ص 115.

المبحث الثالث: مدينة إشبيلية

1- أوليتها:

هي مدينة قديمة أزلية, زعم أهل العلم باللسان اللاتيني: " أن أصل تسميتها "إشبال"[751] ومعناه المدينة المنبسطة, ويقال إن الذي بناها يوليس قيصر, وأنه أول من تسمى قيصر, وكان سبب بنائه إياها أنه لما دخل الأندلس، ووصل إلى مكانها أعجبه كرم ساحاتها وطيب أرضها, وجبله المعروف بالشرف[752], فردم على النهر الأكبر مكانا, وأقام فيه المدينة, وأحدق عليها بأسوار من صخر, وبنى في وسط المدينة قصبتين متقنتين, عجيبتي الشأن تعرفان بالأخوين, وجعلها أم قواعد الأندلس, واشتق لها اسما من اسمه, ومن اسم رومية فسماها " رومية يوليش"[753].

وروي ابن وضاح: "أن المرأة التي قتلت النبي يحي عليه السلام من إشبيلية[754] من قرية طالقة[755], ويقال أن اسبانيا اسم خاص ببلد اشبيلية, الذي كان ينزله اسبان بن طيطش من درية طوبيل بن يافت بن نوح عليه السلام، كان أحد الملوك الإسبانيين, وخص بملك أكثر الدنيا, وتذكر المصادر التاريخية أن بدء ظهوره كان من إشبيلية, فقد غزا طالقة (القرية المذكورة)، وحصر ملك الاسبانيين بها حتى فتحها وتغلب على مملكتهم, فهدم طالقة, ونقل رخامها وآلياتها إلى اشبيلية، وبه سميت, واتخذها دار ملكه، وكثرت جموعه، فعلا في الأرض[756], ومن اشبيلية غنم

---

[751] أبو عبيد الله البكري، المسالك والمالك، ج02، دار الغرب الإسلامي، بيروت، سنة 1992م، ص902.

[752] هو جبل يطل على إشبيلية، شريف البقعة، كريم التربة، دائم الخضرة، فراسخ في فراسخ طولا وعرضا، لا تكاد تشمس منه بقعة لالتفاف زيتونه، واشتباك غصونه، وقد اشتهر براعة القطن على غيره من البلاد الأندلسية. أنظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج01، المصدر السابق، ص195.

-عبد المنعم الحميري، صفة جزيرة الأندلس، المصدر السابق، ص21.

[753] المصدر نفسه، ص58.

[754] أبو عبيد الله البكري، المسالك والمالك، ج02، المصدر السابق، ص903.

[755] طالقة مدينة بالأندلس من قرى إشبيلية، وهي من المدن القديمة، وكانت دار مملكة الأفارقة بالأندلس، وكانت متصلة بإشبيلية في سالف الدهر، وهي خراب، ومن أهم آثار طالقة صورة جارية من مرمر لم يسمع في الأخبار، ولا رئي في الآثار صورة أبدع منها، في قالب امرأة كاملة القد حسنة الجسم، جميلة الوجه، قد صور كل عضو من أعضائها، وكل جارحة من جوارحها على أتم وأفضل ما يستحسن في جوارح المرأة، وفي حضنها صورة صبي على مثل ذلك من الحكمة والإتقان. أنظر: عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، المصدر السابق، ص ص (381-382).

[756] عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، المصدر السابق،، ص381.

إيلياء, وقتل بها من اليهود مائة ألف, وسبى مائة ألف, وفرق في الأرض مائة ألف, وانتقل رخامها إلى اشبيلية وماردة وباجة, وأنه صاحب المائدة "مائدة سيدنا سليمان عليه السلام"، التي ألفاها طارق بن زياد بكنيسة طليلة، وقليلة الذر التي ألفاها موسى بن نصير بكنيسة ماردة[757]، وغيرها من الذخائر، إنما كانت لصاحب الأندلس من غنيمة فتح بيت المقدس الأول مع بخت نصر[758].

ومن محاسن إشبيلية التي تعدّ أعظم مدن الأندلس اعتدال الهواء بها، وحسن المباني، ونهرها الأعظم الذي يصعد المد فيه اثنين وسبعين ميلا, ثم يحسر, وفيه يقول الشاعر ابن سفر[759]:

شق النسيــم عليه جيـب قميصه   فانساب من شطيه يطلب ثاره

فتضاحكت ورق الحمام بدوحها   هزءا فضــم من الحيـــــاء إزاره[760].

ومدينة اشبيلية مدينة كبيرة عامرة ذات أسوار حصينة، وأسواق كثيرة وبيع وشراء, وأهلها مياسير وجل تجارتهم بالزيت، يتجهز به منها من أقصى المشارق والمغارب برا وبحرا[761], وكان سور اشبيليا من بناء الإمام عبد الرحمن بن الحكم[762] -بعد غلبه المجوس عليها- بالحجر, وأحكم البناء, وتذكر المصادر التاريخية أن سبب بنائه أن الفقيه عبد الملك بن حبيب كتب إليه يحرضه

---

(757) هي كورة واسعة من نواحي الأندلس متصلة بحوز فريش من الغرب، ومن الجوف بأعمال قرطبة، إحدى القواعد التي تخيرتها الملوك للسكنى من القياصرة والروم، وهي مدينة رائقة كثيرة الرخام، علية البنيان، فيها آثار قديمة حسنة تقصد للفرجة والتعجب، بينها وبين قرطبة ستة أيام، ولها حصون وقرى كثيرة. أنظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج05، المصدر السابق، ص ص (38-39).

(758)عبد المنعم الحميري، صفة جزيرة الأندلس، المصدر السابق، ص ص (19-20).

(759)هو أبو الحسن، محمد بن سفر، الأديب المنسوب إلى حدة، ويكتب بالصاد أيضا (ابن المصفر)، كان بإشبيلية، وهو من ناحية ألميرية، توفي سنة 415هـ. أنظر: صلاح الدين بن أيبك الصفدي، الوافي بالوفيات، ج03، المصدر السابق، ص09.

-ابن الأبار، تحفة القادم، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط01،سنة 1426هـ/1996م، ص147.

(760)أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج01، المصدر السابق، ص157.

(761)الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج02، المصدر السابق، 541.

(762)هو عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل، يكنى أبا المطرف المرواني، بويع بالخلافة بعد وفاة والده سنة 206هـ، وكانت خلافته 31 سنة و 07 أيام، فتوفي سنة 238هـ، عن عمر يناهز 62سنة. أنظر: ابن الفرضى، تاريخ علماء الأندلس، تحقيق: عزت العطار الحسيني، مكتبة الخانجي، القاهرة، سنة 1408هـ/1988م، ص ص (11-12).

-الحميدي، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، المصدر السابق، ص10.

-أبو جعفر الضبي، بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، المصدر السابق، ص14.

على بناء سور إشبيلية, يقول له "حقن دماء المسلمين – أيدك الله – وأعلى يدك بابتناء السور أحق وأولى " فأخذ برأيه. و أمر القاضي عمر بن عبدس سنة 214هـ[763].

2- مساجد إشبيلية:

يعد جامع ابن عبدس من أهم جوامع أشبيلية بناه القاصي عمر بن عبدس سنة 214هـ، كما أثبته نص النقش الذي قرأه ابن صاحب الصلاة مؤرخ دولة الموحدين في مدونته عن اشبيلية، والذي كتب عليه ما نصه : إن جامع اشبيلية القديم جامع ابن عبدس قد اختل، وأعتل من داخله، وإن وثيقة التأسيس بجامع عمر بن عبدس تتضمن العبارة التالية: "يرحم الله عبد الرحمن بن الحكم الأمير العدل المهتدي، الآمر ببناء هذا المسجد على يدي عمر بن عبدس قاضي إشبيلية في سنة أربع عشرة ومائتين، وكتب عن البر بن هارون"[764].

ويشتمل حرمه على إحدى عشرة بلاطة تتجه عموديا على جدار القبلة، وأغلب الظن أن البلاطة الوسطى أكثر ارتفاعا من بقية البلاطات، وكانت مئذنته تستند على الجدار الشمالي للجامع[765]، ويصف عبد المنعم الحميري المئذنة بقوله: "وصومعته بديعة الصناعة غريبة العمل، أركانها الأربع عمود فوق عمود إلى أعلاها وفي كل ركن ثلاثة أعمدة"[766]، وكان صحنه المعروف اليوم بصحن البرتقال مفروشا، يتوسطة حوض قاعدته مفصصة على شكل نصف برتقال ولما مات عبد الرحمن بن إبراهيم بن الحجاج في محرم سنة 301هـ، قدم أهلها أحمد بن مسلمة، وكان من أهل البأس والنجدة فأظهر العناد وجاهر بالخلاف، فأخرج له عبد الرحمن الناصر قائدا بعد قائد حتى افتتحها على يد الحاجب بدر بن أحمد في جمادى الأولى سنة 301هـ، واستعمل عليها سعيد بن المنذر المعروف بابن السليم، فهدم صورها وألحق أعاليه بأسفله[767]، وبنى القصر القديم

---

[763]شمس الدين بن قيماز الذهبي، سير أعمال النبلاء، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف شعيب الأرناؤوط، ج08، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط03، سنة 1405هـ/1985م، ص260.

[764]عبد الملك ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين، تحقيق: عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط01، سنة 1964م، ص 397.

[765]السيد عبد العزيز سالم، المساجد والقصور في الأندلس، المرجع السابق، ص30.

[766]عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، المصدر السابق، ص59.

[767]: ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخيار الأندلس والمغرب، ج02، المصدر السابق، ص ص (162-163).

المعروف بدار الإمارة، حصنه بسور صخر رفيع وأبراج منيعة، وبنى سور المدينة، وله من الأبواب باب أبي العاص الغربي، وباب حميدة بجانب المقبرة، وباب قرمونة الشرقي[768].وبقي جامع ابن عبدس على حالته دون أي زيادة إلى أن رمم المعتمد بن عباد[769] الجزء الأعلى في شهر واحد، كما تشهد على ذلك اللوحة التاريخية التي اكتشفت في الجدار الجنوبي للمئذنة.

ويذكر بن صاحب الصلاة أن الرجل الصالح المريد أبو العباس المري كتب إلى السلطان أبا يوسف ابن يعقوب[770] ما نظمه: "إن جامع اشبيلية القديم ابن عبدس قد اختل، واعتل من داخله وخارجه وأن جوائز المسقف منه، قد عفنت أطرافها الثابتة على بلاطاته في الحيطان، وأن حيطانه من جهة الغرب قد مالت، ويخاف على الجامع الهدم "[771]. فأمر السلطان أبو يوسف بن يعقوب بتوسعة رحاب الجامع حيث يصلي الناس، وجمع البنائين والفعلة من أهل الصناع، فهدمت الديار والحوانيت والفنادق المضيقة عليه من سويقة المسمار، وابتدأ الهدم فيها يوم السبت السابع من ربيع الأول عام 592هـ، وأمر بتقدير قيم الدور المهدمة، ودفع أمين المخزن القيم لأصحابها، فابتنيت

---

[768]أبو عبيد الله البكري، المسالك والمالك، ج02، المصدر السابق، ص904.

[769]هو المعتمد على الله، أبو القاسم، محمد بن المعتضد بالله، أبي عمرو عباد بن الظافر، المؤيد بالله، أبي القاسم محمد قاضي إشبيلية بن أبي الوليد إسماعيل بن قريش بن عباد بن عمرو بن أسلم بن عطاف بن نعيم اللخمي، من ولد النعمان بن المنذر اللخمي، آخر ملوك الحيرة، كان المعتمد بن عباد صاحب قرطبة وإشبيلية، وما ولاهما من جزيرة الأندلس، تولى الملك بعد وفاة أبيه غرة جمادى الأخيرة سنة 461هـ، وكانت ولادته في شهر ربيع الأول سنة 431هـ، ، توفي في السجن بأغمات ليلة خلت من شوال، وقيل من ذي الحجة سنة 488هـ. أنظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، ج05، دار صادر، بيروت، ط01، سنة 1994م، ص ص (28-34).

-صلاح الدين بن أيبك الصفدي، الوافي بالوفيات، ج03، المصدر السابق، ص ص (151-152).

[770]هو أبو يوسف بن أبي يعقوب يوسف بن أبي محمد بن عبد المؤمن بن علي القيسي الكومي، صاحب بلاد المغرب، لقبه المنصور، تولى الملك سنة580هـ وعمره 32سنة، توفي في ثامن عشر ربيع الآخر، وقيل جمادى الأولى سنة 595هـ بالمهدية، وكانت مدة ولايته 15 سنة. أنظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، ج07، دار صادر، بيروت، ط01، سنة 1994م، ص ص (03-11).

- شمس الدين بن قيماز الذهبي، سير أعمال النبلاء، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف شعيب الأرناؤوط، ج21، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط03، سنة 1405هـ/1985م، ص ص (311-320).

-ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج06، المصدر السابق، ص525.

-أحمد الناصري السلاوي، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، ج02، دار الكتاب، الدار البيضاء، ص ص (158-159).

[771]عبد الملك ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، المصدر السابق، ص 397.

الأسواق والحوانيت في المواضع المذكورة بأوثق البنيان، وأحسن نوع في ذلك الشأن، عجيبة غريبة في الزمان، وجعل لها أربعة أبواب تحوطها من جوانبها الأربع، فلما كملت هذه الأسواق بحوانيتها، نقلت إليها سوق العطارين، وسوق التجار من البزازين وسوق الخياطين، وتزاحم الناس في المزايدة في كرائها[772].

واشمل الترميم في جامع ابن عبدس المذكور الجوائز، فأدخل العرفاء تحت أطرافها ركائز وكعوبا من الخشب، وطبقوا عليها بألواح الخشب حتى قويت أصول الجوائز، وبنوا له أبراجا من الحجر العادي، من جهة حائطه الغربي، وقاية له من الميل المؤدي إلى الاندفاع، وسطحوا صحنه بالآجر المحكوك الحسن الصنعة، وتابعوا أقواسه بالجبس والجيار، وكشفوا عن سقفه وبنوا ما واهي فيه، حتى ظهر للعيان الصلاح في أحواله، وتم الانتهاء من هذا الترميم في شهر جمادى الأولى من عام 592هـ، فعمر الجامع بالصلوات الخمس فيه إلزاما، واستبق الناس إليه ركعًا وسجدًا وقيامًا، فضخم شأنه وعظم مكانه[773].

وبها الجامع الأعظم الذي بناه يوسف بن عبد الرحمن بن علي[774] حيث قام باختطاط موقع جامع اشبيلية سنة 567هـ / 1172م، وعقد الجسر على وادي اشبيلية بالقوارب، وبنى

---

[772] المصدر نفسه، ص396.

[773] المصدر نفسه، ص ص (396-397).

[774] هو السلطان يوسف بن عبد المؤمن بن علي، أبو يعقوب بن عبد المؤمن بن علي صاحب المغرب، تملك بعد أخيه المخلوع لطيشه وشربه الخمر، كان يحفظ صحيح البخاري، تولى الملك سنة 558هـ، وكانت مدة حكمه حوالي 22 سنة متصلة، استشهد في موقعة قلعة من قلاع البرتغال التي كان يقاتل فيها بنفسه، سنة 580هـ. أنظر: شمس الدين بن قيماز الذهبي، سير أعمال النبلاء، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف شعيب الأرناؤوط، ج02، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط03، سنة 1405هـ/1985م، ص ص (98-102).

-صلاح الدين بن أبيك الصفدي، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، ج29، دار إحياء التراث، بيروت، سنة 1420هـ/2000م، ص ص (112-113).

-لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج04، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1424هـ، ص ص (307-308).

-تقي الدين المقريزي، السلوك لمعرفة دولة الملوك، ج01، المصدر السابق، ص199.

قصبتها الداخلية، وبنى الزلاليق للسور، وبنى باب جوهر، وبنى الرصيفان المتدرجة بضفتي الوادي وجلب المياه من قلعة جابر حتى أدخله إلى إشبيلية[775]،

ويقارب جامع اشبيلية جامع قرطبة في السعة وعدد البلاطات، فهو يضم 17 بلاطة تتجه من الشمال إلى الجنوب، تتسع إلى 14 أسكوبا[776]، والبلاطة الوسطى أكثر اتساعا من البلاطات الأخرى وكذلك البلاطتين المتطرفتين فيبلغ اتساعهما 7.70 م[777].فاستعمل الماء بالآجر والجيار والحصى والأحجار كمواد بناء حسب ما ذكره بن صاحب الصلاة "وأسس أرجله المعقودة بطاقات بلاطته تحت الأرض أطول مما فوق الأرض، وجمع عليه الفعلة بكثرة الرجال والخدام وإحضار الآلات من الخشب المحمل من سواحل العدوة ... فأعلى بنيته، وصقل صفحته بالإتقان لتشييده وتوثيقه"[778].

وتعدّ صومعة هذا الجامع الجيرالدا الباقية على نفس حالتها التي تركها عليها المسلمون، ولم تصب بأي تغيير في نظام، سوى الجزء الأعلى الذي زال منه جزء كبير بسبب عوامل الطبيعية من زلزال وصواعق ، فطمس المهندس مرقان رويت معالمه بتنفيذ مشروع بناء برج علوي عام 1558م، وأتمه سنة 1568م[779]. وصف ابن صاحب الصلاة هذه المئذنة قائلا: "هذه الصومعة الفائق وصفها للناطقين، السابق حديثها إلى المخبرين، لا صومعة تعدلها في جميع مساجد الأندلس، بسمو سقف، ورسو أصل، ووثاقة عمل، وبنيان بالآجر، وغرابة صنعة، وبدائع ظاهرة، قد ارتفعت في الجو وعلت في السماء، وتظهر للعين على مرحلة من إشبيلية مع كواكب الجوزاء، أمر ببنائها السلطان أبو يعقوب عند وصوله إلى إشبيلية في غزوته إلى شنترين في الثالث عشر من صفر عام ثمانين وخمسمائة ..."[780].

[775] أحمد الناصري السلاوي، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، ج02، المصدر السابق، ص151.

[776] MelcherAntana, Campanas de los Almohades en Espana Sevilla y sus monumentos Arabes ReligonyCultural, El Escorial, 1930, P104.

[777] السيد عبد العزيز سالم، المساجد والقصور في الأندلس،المرجع السابق، ص ص (38-39).

[778] عبد الملك ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، المصدر السابق، ص385.

[779] السيد عبد العزيز سالم، المساجد والقصور في الأندلس،المرجع السابق، ص43.

[780] عبد الملك ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، المصدر السابق، ص 390.

3- قصور إشبيلية:

من قصور اشبيلية قصور المعتمد بن عباد مثل: قصر المبارك الذي ابتناه للراحة واللهو وتبادل الأنس مع أصحابه، فقد أمر بصناعة غزالين من الذهب، فصنعا معا من سبعمائة مثقال خالصة فأهدى أحدهما إلى الرشيد، والآخر إلى السيدة العروس بنت ابن مجاهد، فقال المعتمد بن عباد بيتا من الشعر:

بعثنا بالغزال إلى الغزال وبالشمس المنيرة للهلال [781].

وأحب المعتمد بن عباد أن يذيل، فذيل هذا البيت من حضر هذا المجلس ذلك اليوم، وممن لم يحضر منهم الوزير الأديب أبو القاسم بن مرزقان[782]، وأصاب الغرض، فنظم :

فذا سكني أبوئه فؤادي وذا نجلي أقلده المعالي

شغلت بذا وذا داخلي ونفسي ولكني بذاك رضي بال

وقفت إلى يديه زمام ملك محلي بالصوارم والعوالي

فقام يُقر عيني في مضاء ويسلك مسلكي في كل حال

فد منا للعلاء ودام فينا فأنا للكفاح وللنزال[783].

ووصف الأديب أبو محمد، عبد الجليل بن وهبون المرسي[784] زخارف جدران وأسقف القصر المبارك التي كانت تسر العين لمرآها، ويقصر اللسان عن وصفها، وكذلك البحيرة التي تتوسط بهو القصر، وتحيط بها الرياحين، وتنعكس الرحبة على صفحة البحيرة، فقال:

---

[781] ابن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عباس، ج02، دار الثقافة، بيروت، سنة 1417ه/1997م، ص521.

[782] هو أبو القاسم بن مرزقان، من شعراء إشبيلية، ونبهاء أهل حضرتها، من مت إليها بقوم أو جوار، وأدل عليها باسم مرزقانة، وكانفي بني عباد عجب بكثرة عددهم، وعصبية لأهل بلدهم، وكان أبو القاسم هذا حلو الحوار ناذر الأخبار. أنظر: ابن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عباس، ج03، دار الثقافة، بيروت، سنة 1417ه/1997م، ص ص (476-478).

[783] أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج03، المصدر السابق، ص 641.

[784] هو الأديب أبو محمد، عبد الجليل بن وهبون المرسي، شمس الزمان، وبدره، وسر الإحسان وحصره، ومستودع البيان ومستقره، آخر من أفرغ في وقتنا فنون المقال، في قوالب السحر الحلال، وقيد شوارذ الألباب، بأرق من ملح العتاب، وأورق من غفلات الشباب، وهو

فيــا أيها القصــــر المبـــــارك لا تـــزل | وأنــت جديـد الحلتين قشيـب
ويـــا أيـــها الملـــــك المؤيـــد دم بــه | ليتـــرع كـــوب أو يثار عكـوب
أسم فيه صرح اللحظ من طرف باسل | مـــراد الـــوغى في ناظريـه عشيب
ستــــــظاره أم النجــــــوم تحلـــــــه | لها كوكـــب لا حـــان منه غـروب
محيــــط بما أحببـــت من كـل صوره | تروقـــك حتى شكلـــهن قريـــب
ومن حبكــك دون السمــوك كأنـــها | أفاريد روض الحزن وهو هضيـب
إلى طـــرد تحـــكي أصائـــل ملكــه | تكـــاد بأنـــداء النضـار تصوب
ومن مرمـــر أحـــــذاه روبقـــه المهـــا | فأخطـــأ فيه اللحـظ وهو مصيب
وبحـــــــر عليـــــه للرياحـــين فيئـة | كيمنـــــاك مخضـــر البرود لـحوب
لئن كـــان مكظـومًا كغيظـك إنـه | كعرضك مصقـــول الأديم خشيـب
أرى حور الأحداق أو رونـق الطلى | طلاء ففيـــه للعقـــول خلـــــوب
أجـــل إنما يحتاــج منك كشاشـة | لها جيئـــة مـــن فوقـــه وذهـــــوب
وإلا فمـــن آدابـك الزهـــر يجتلي | فريـــدا لـــــــه در عليــــه رطيـب
كما ضـاع من أهداب ثوبك نشره | وكل صعيـــــد مـــس وطـؤك طيب[785].

ويعتبر القصر الزاهي من القصور التي بناها المعتمد ابن عباد، فقد ذكر اسمه في مجموعة أبيات نظمها المعتمد بن عباد في المنفى، وأوردها الفتح ابن خاقان في كتابه قلائد العقبان، مؤرخا لحادثة نفي المعتمد بن عباد، واستلاب الموحدين لعرش ملكه، ولما نقل من بلاده، وأعرى من طارفه وتلاده، وحمل في السفين، وأحمل في العدوة محل الدفين، تبة منابره وأعواده، و لا يدنو منه زواره، ولا عواده، بقي أسفا تتصعد زفراته، وتطرد اطراد المذانب عبراته، ولا يخلو بموانس، ولا يرى

أحد الفحول، البريء من المطروف والمنحول، توفي في حدود 480هـ. أنظر: ابن خاقان، قلائد العقبان، مصر، سنة1866م، ص ص (241-245).
- أبو جعفر الضبي، بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، المصدر السابق، ص ص (387-388).
- ابن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج02، المصدر السابق، ص ص (473-477).
[785]ابن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج02، المصدر السابق، ص ص (517-519).

إلا عرينا بدلا من تلك المكانس، ولما لم يجد سلوا، ولم يؤمل دنوا، و لم يروجه مسره مجلوا، تذكر منازله فشاقته، وتصور بهجتها فراقه، وتخيل استيحاش أوطانه، وإجهاش قصره إلى قطانه، وإظلام جوّه من أقماره، وخلوة من حراسة و سمارة، فقال:

بكى المبــارك في أثـر ابن عبـاد　　　بكـى على أثـر عزلان وأشــاد
كدت ثرياه لا غمــت كواكبـها　　　بمثــل نوء الثـريا الرائح الغـادي
مــاء السمــاء على أبنــائه درر　　　يــا لجـــة دومــي ذات أزيـاد[786].

وكان الحصن الزاهر من أجمل المواضع لديه وأبهاها، وأحبها إليه وأشهاها لإطلاله على النهر، وإشرافه على القصر، وجماله في العيون، واشتماله بالشجر والزيتون، وكان له به من الطرب والعيش المزري بحلاوة الضرب ما لم يكن بجلب لبني حمدان، ولا لسيف بن ذي يزن في رأس غمدان، وكان كثيرا ما يدير به راحة، ويجعل فيه انشراحه، فلما اشتد إليه الزمان بعدوانه وسد عليه أبواب سلوانه لم يحن إلا إليه، ولم يتمنى إلا لحلول به، ونظم المعتمد بن عباد قائلا:

غريـــب بأرض المغربـــين أسير　　　سيبــــكى عليه منــبر وسريـــر
وتندبـه البـيض الضــوارم والقــنا　　　وينهــل دمــع بينـهن غزيــر
مضى زمـن والملـك مستأنس بـه　　　وأصبــح منه اليوم هــو نفـور
بــوأي مـن الدهـر المضــلل فاسد　　　مــتى صلحـت للضالين دهـور
أذل بني مـــاء السمـــاء زمانهم　　　وذل بني مـــاء السمـــاء كبيـر
فيا ليث شعــري هل أبيتن ليلـة　　　أمامــي وخلفــي روضــة وغدير
بمنبتـــة الزيتـــون مـورثـه للعـلا　　　يغــنى حمـــام أو تــدن طيــور
بزاهرها السامي الذري جاده الحيا　　　تشـــير الثـــريا نحـــونا ويشـير
ويلحـظنا الزاهـي وسعـد سعوده　　　غيــورين والصمــت المحب غيـور
تـراه عســيرا أو يســيرا منــالـه　　　إلا كـــل ما شـــاء الإلـــه يسيـر[787].

---

[786]ابن خاقان، قلائد العقبان، المصدر السابق، ص ص (23-24).
[787]ابن خاقان، قلائد العقبان، المصدر السابق، ص 24.

ولما فقد من يجالسه، وبعد عنه من كان يؤانسه وتمادى كربه، ولم تسالمه حربه، وكان اجتمع له من قبل من الشعراء وأهل الأدب ما لم يجتمع لملك قبله من ملوك الأندلس، وكان شعره كأنه الحلل المنشرة[788]، حن إلى مجالس شعره بالقصر الزاهي فنظم:

تأمـــــل للنفـس الشجيـــــة فرحـــة   وتأبى الخطوب السـود إلا تماديا

لماليك في زاهيـك أضـفى صحبتـها   كما صحبت قلبي الملوك اللياليـا

نعيـــم وبـــؤس ذا لذلـك ناســـخ   وبعدهـــا نســخ المنايا الأمانيـا[789].

وقد كان يرتفع القصر الزاهي بقبة مسماة "سعد السعود" فوق مجموعة قصور بني عباد المطلة على الوادي الكبير[790]، وتشير رواية المقري نقلا عن الوزير أبي بكر ابن اللبانة الداني[791]: "أن المعتمد بن عباد صنع قسيما في القبة المعروفة بسعد السعود، فوق المجلس المعروف بالزاهي وهو:

سعد السعود يتيه فوق الزاهي.

تم استجاز الحاضرين فعجزوا، فصنع ولده عبد الرحمن الرشيد، فقال:

وكلاهما في حسنـه متباهي

ومن اعتدى سكنا لمثـل محمد   قد جل من العلياء من الأشباه

[788]عبدالواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق: محمد زينهم عزب، دار القرطاجني للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط07، سنة 1978م، ص 99.

[789]ابن خاقان، قلائد العقبان، المصدر السابق، ص26.

[790]السيد عبد العزيز سالم، المساجد والقصور في الأندلس، المرجع السابق، ص107.

[791]هو محمد بن عيسى بن محمد اللخمي، المعروف بابن اللبانة، من أهل دانية، وهو أحد الشعراء الأندلسيين الكبار، وقد تردد كثيرا على ملوك الطوائف، وخاصة صاحب ميورقة ناصر الدولة مبشر بن سلمان، وعلى المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية، الذي صارت تربطه به صداقة متينة حتى بعد سجن بن عباد، وكانت وفاته بميورقة سنة 507هـ، وقد كان أديبا ناثرا، ومن مؤلفاته المشهورة ثلاثة هي: "مناقل الفتنة"، "ونظم السلوك في وغظ الملوك"، في رثاء المعتمد بن عباد، و"سقيط الدرر ولقيط الزهر". أنظر: شمس الدين بن قيماز الذهبي، سير أعمال النبلاء، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف شعيب الأرناؤوط، ج14، دار الحديث، القاهرة، سنة 1427هـ/2006م، ص204.

- عبدالواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، المصدر السابق، ص 408.

لا زال يبـــلغ فيهـما ما شـاءه   ودهت عداه في الخطـوب دواهـــي[792].

وبصف الشاعر عبد الجليل بن وهبون القصر الزاهي وبهوه المقبب بقبة خشبية مزينة بالزخارف البهيجة فيقول:

وللزاهــي الكـمــال منا وحســنا   كـما وسع الجـلالة والكــمالا
يحــاط بشكــله عـرضا وطــولا   ولكــــن لا يحيـــط به حمــالا
تواصلـــت المحاســـن فيـه شـــتى   فوفــــد اللحظ ينتقـل انتقالا
وقـــور مثل ركـــن الطـود ثبت   ومختـــال مـــن الحسـن اختيالا
تدافـــــع مـــن جوانبـــه ائتلافا   فكاد المستبــــين يقــــول مــالا
فلــو أدنوا حــرام السحــر منه   لأضـحى يعبد السحر الحـلالا
سمــــاء ترتمـــي بعــــباب بحـر   كـــأن بـــــها إكامــا أو تــلالا
فقــد كان اللبيــب يهــال منه   ويحســـب أن بـــحر الجــو سالا
فــما أبقــى شهابا لم يصوب   ولا شمـــــسا تنـــير ولا مـــلالا
وللبهـــو البهـــي سمــــاء نــــور   تمـــثل شكلـــها حلـقا دخـالا
مزخرفـــة كـــأن الوشــي ألـقى   علــيها مـــــن طرائفــه خــيالا
ومــا خلـت الهواء يكون روضا   ولا سقــفا يكــون كــذلك آلا
بلــى حققـــت أن النــار كانـت   لــه ظئـــرا وعنـــصـره زلالا
فلــم أعـدل بجمـــاده مـــــذابا   ولــم أنـكر لندوته اشتعالا
وكـل مصـــــور حــــي جمـــــــاد   تبـــين فيـــه رمــرما أو دلالا
لـــه عمـــــل ولـــيس لـه حراك   وإفهــــام مـــــا أدى مـقالا[793].

ويصف الشاعر عبد الجليل بن وهبون منتزهات قصر الزاهر وحدائقها وأشجارها وثمارها وأزهارها, والتماثيل التي كانت ينتصب جانب البركة، التي كان يقصدها المعتمد بن عباد في مجالس

---

[792] أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج03، المصدر السابق، ص612.

[793] ابن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج02، المصدر السابق، ص ص (508-509).

شعرائه، وتحتوي جملة من التصاوير منها: صورة من خالص اللجين على صورة فيل يمج الماء من فمه فيقول:

ويفـرغ فيـــه مثل النصـــل بـدع   مـن الأفيـــال لا يشكو ملالا
رعـى رطـب اللجين فجاء صلـدا   وقـــاحا قلـــما يخشـى هـزالا
كـــأن بـــه على الحيـــوان عـتبا   فلـــم يرفـــع لرؤيتـها قـذالا
وأوصــــى بالرياحـــــين اغتراسـا   همـــام طالما اغـــترس الـرجالا
و كـــــان الغـــرس والأثـمار وقفا   لمن جعل الندى والوعد حالا
وقامـــت يـــوم قمـــنا منشدات   فغـــضت مـــن رويتنا ارتحـالا[794].

فجلس المعتمد بن عباد يوما على البحيرة، والماء يسيل من ذلك الفيل، وقد أوقدت شمعتان من جانبيه، وكان معه الوزير الشاعر ابن الملح[795]، فقال في ذلك مقطوعات واصفا الماء الذي ينساب من الفيل إلى البركة، وضوء الشموع الباهت يمتد شاحبا شحيحا، وأنين سواقي القصر والدولاب تختلط بعزف أوتار وألحان المطربين، ومن ما نظم:

ومشعلين من الأضـواء قد قـرنا   بالماء والماء بالدولاب منزوف
لاحـا لعيني كالنجمـين ينهـما   خـــط لمجــده ممدود معطوف[796].

وقال أيضا :

وأنبـــوب ماء بين ناريـن ضمنا   هوى لكؤوس الراح تحت الغياهب
كـــأن اندفـــاع المـاء بالماء حبة   يجـر كمـا بالليل لـمع الحياجب[797].

---

[794]المصدر نفسه، ص509.

[795]هو أبو بكر بن محمد بن إسحق اللخمي، من أهل شلب، الوزير الفقيه أبو بكر بن الملح، وهو فرد من أفراد العصر، وهو بيت أصالة، وفارس ميداني الزهد والبطالة، شاعر ناد، وخطيب، كان له ولدان هما:محمد وأبو القاسم، توفي في رمضان سنة 500هـ. أنظر: المصدر نفسه، ص 452..

-أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج04، المصدر السابق، ص 70.

-ابن خاقان، قلائد العقبان، المصدر السابق، ص ص (186-187).

-ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، ج02، المصدر السابق، 385.

[796]ابن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج02، المصدر السابق، ص473.

وقال فيه :

كأن سراجي شربهم في التطامهما وأنبوب ماء الحوض في سيلانه

كريــم تــولى كبــره من كليهـما لئيمـــان في إنفاقــه بعــذلانه

إذا مـــره للجـــود برد سماحــة أصـــرا على تثريبـــه يحرقــانـــه[798].

والجدير بالذكر أن قصور المعتمد بن عباد كالمبارك والزاهي والزاهر ودار الجلسة في شرف اشبيلية، كما ذكر الإدريسي: "أن موقعه ما بين اشبيلية وليلة والبحر المظلم، وفيه من المناطق الآهلة حصن القصر، ومدينة ليلة وجزيرة شلطيطش، وجبل العيون"[799], وهذا الشرف هو مسافة أربعين ميلا, وهذه الأربعون ميلا كلها تمشي في ظل شجر الزيتون، والتين، أوله بإشبيلية وآخره بمدينة ليلة, وسعته إثنا عشر ميلا أو أكثر، وفيه فيما يذكر ثمانية آلاف قرية عامرة بالحمامات والديار الحسنة، وسمي بذلك لأنه مشرف من ناحية إشبيلية، ممتد من الجنوب إلى الشمال[800] ، وذكر أحمد المقري التلمساني: "أن إقليم الشرف يقع على تل عال من تراب أحمر مسافته أربعون ميلا في مثلها، يمشى بها السائر في ظل الزيتون والتين، ولها فيما ذكر بعض الناس – قرى كثيرة–، وكل قرية عامرة بالأسواق والديار الحسنة وغيرها"[801]، ولم يذكر الرقم الذي أورده الإدريسي عن عدد قرى إقليم الشرف، والجدير بالذكر أن أغلب قصور المعتمد بن عباد كانت داخل إشبيلية قبل باب جوهر، أما القصور المعروفة بالبحيرة خارج باب جوهر من إشبيلية فهي من تشييد الموحدين[802].

ويذكر الفتح بن خاقان في قلائد العقبان أن دار المزينة ومجلس المعرس تقع هذه الدار في الفضاء الممتد خارج باب جوهر من أبواب إشبيلية، أما مجلس المعرس فقد كان مطلا على الوادي

---

(797) المصدر نفسه، ص473.

(798) المصدر نفسه، ص473.

(799) الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج02، المصدر السابق، ص540.

(800) الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج02، المصدر السابق، ص 541.

(801) أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج01، المصدر السابق، ص 159.

(802) عبد الملك ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، المصدر السابق، ص 372.

الكبير خارج باب جوهر، ويضيف الفتح ابن خاقان: "أخبرني ذخر الدولة أنه استدعاه في ليلة قد ألبسها البدر رداءه، وأوقد فيها أضواءه، وهو على البحيرة الكبرى، والنجوم قد انعكست فيها تخالها زهرا، وقابلتها المجرة فسالت فيها نهرا، وقد أرجت نواقح الندى، وماست معاطف الرند، وحسد النسيم الروض فوشى بأسراره، وأفشى أحاديث آسه، وعراره "[803].

ووصف الفتح بن خاقان دار المزينة ومجلسها بقوله: "أخبرني ذخر الدولة بن المعتضد أنه دخل عليه في دار المزينة، والزهر يحسد أشراف مجلسه، والدر يحكي اتساق تأنسه، وقد رددت الطير شدوها، وجددت طربها وشجوها، والغصون قد التحقت بسندسها، والأزهار تحي بطيب تنفسها، والنسيم يلم بها فتضعه بين أجفانها، وتودعه أحاديث أدارها ونسيانها" [804].

ويمكن أن نستدل على مجلس المعرس بقبة التاج التي تسمو في السماء، يذكر الفتح بن خاقان: "أن المعتمد بن عباد قصد هذا المجلس فكتب إلى الطبيب أبي محمد المصري، فوفاه وألفى مجلسه قد انعلت أباريقه أجيادها، وأقامت به خيل السرور طرادها، وأعطته الأماني انطباعها وانقيادها، وأهدت الدنيا ليومه مواسمها وأعيادها، وخلعت عليه الشمس شعاعها، ونشرت فيه الحدائق إيناعها، فأديرت الراح، وتعوطيت الأقداح، وخامر النفوس الابتهاج والارتياح، وأظهر المعتمد في إيناسه ، ما استرق به نفوس جلاسه، ثم دعا بكبير، فشربه كالشمس غربت في ثبير، وعندما تناولها قام المصري ينشد أبياتا:

أشـرب هنيئا عليك التاج مرتفعا　　　بشاد مهـر ودع غمـدان لليـــمن

فأنت أولى بتـــاج الملك تلبـــسه　　　مـن هوذة بني علي وابن دي يزن[805].

فمن البيتين يتضح أن التاج هو اسم القبة التي تعلو مجلس المعرس، والشاد مهر، هو البستان[806] ،وكان مجلس ذي الوزارتين أبي الوليد بن زيدون منحطّا عن مجلسه في القعود لإنفاذ أوامر المعتضد فكتب:

---

[803]ابن خاقان، قلائد العقبان، المصدر السابق، ص09.

[804]المصدر نفسه، ص09.

[805]ابن خاقان، قلائد العقبان، المصدر السابق،، ص06.

أيّــها المـنحط عـني مجـلسا	وله في النفس أعلا مجلس
بفـؤادي لك حـب يقتضي	أن ترى تحمل فوق الأرؤس[807].

فكتب إليه ابن زيدون مراقبا:

أسقط الطـل فـوق النرجـس	أم نسيم الروض تحت الحندس
أم قريــض جاني من ملـك	مالــك بـالــبرق الأنـــــفس
يا حمال الموكـب الغـادي إذا	ســار فيــه بــهـاء الـمجـلس
شرّفــت بكر المعــالي خطبه	بـــك فانعـــم بســرور المعرس
وارتشف معسول ثغر أشنب	تجتنـــيه مـــن تجـاج العـــــس
واعتبق بالسّعد في دست المنى	يصبح الصنع ذهاق الأكـــوس
فاعـــتراض الدهـــر مــاشيته	مرتـــقى في صـــدره لم يهـجس[808].

ويستدل من خلال هذه الأبيات التي كتبها ذو الوزارتين أبو الوليد ابن زيدون الذي كان حاضرا أن المجلس المذكور يسمى بالمجلس المعرس[809].

وبعد انتهاء السلطان الموحدي أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن من ترميم قنطرة إشبيلية على الوادي، فابتدأ العرفاء والصناع العمل فيها، والنجارة، والهندسة لوضعها على الوادي فانتهى العمل في السابع من صفر سنة 567هـ[810]، حيث عقد الجسر، ووضع على الوادي، وفي هذا الشهر أيضا من هذه السنة أمر أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ببناء قصوره المكرمة السعيدة المعروفة "بالبحيرة" خارج باب جوهر من إشبيلية، في الموضع المعروف عند الناس قديما بلقم فرعون. فأختط بحيرته في الجنان المنسوبة لابن مسلمة القرطبي[811]. بعد أن عوّض عقبه منها

---

[806]السيد عبد العزيز سالم، المساجد والقصور في الأندلس، المرجع السابق، ص119

[807]ابن خاقان، قلائد العقبان، المصدر السابق، ص06.

[808]ابن خاقان، قلائد العقبان، المصدر السابق، ص ص (06-07).

[809]السيد عبد العزيز سالم، المساجد والقصور في الأندلس، المرجع السابق، ص119 .

[810]عبد الملك ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، المصدر السابق، ص370.

[811]المصدر نفسه، ص ص (372-373).

بعوض صحيح من الجنات مثلها، فابتنى فيه قصورا، وتفرّد العريف أحمد ابن باسة الذي أشرف على معظم المشاريع المعمارية للموحدين سواء في جبل طارق أو قرطبة، أو قصور البحيرة، نظرا لخبرته الواسعة بميدان العمارة والتشييد، فراقب أعمال البناء حتى كملت القصور المذكورة من البحيرة، فجاءت من الحسن يحار فيها الوصف، ويشتغل بها عن الفرض الطرف، أربت على مباني الخورنق والسدير، وطلعت بباب جوهر كالبدر المنير، وواصل بالبناء حوليها بالحيطان المبنية بالجيار والرمل والحصى من جهاتها وجميع جنباتها[812].

وكلف السلطان الموحدي أبا القاسم أحمد بن محمد الحوفي القاضي[813]، وأبي بكر محمد بن يحي ابن الحذاء[814] لما عرف عنهما من الأمانة، والخبرة الهندسية، والزراعية. أن يقوما بإنشاء بستان عظيم حول هذه القصور، ويجلبا إليه من الغراس من الزيتون والأعناب، والفواكه، وسائر الأنواع النادرة الغريبة من الأشجار، فقاما بتنفيذ أمره، وعهد بأعمال الحفر والغرس إلى أبي داوود بلول بن جلداس، متصرف إشبيلية وأعمالها وأمين السلطان، وكان الوزير أبو العلاء بن جامع، وابنه يحي يلازمان الجلوس للإشراف على العمل من الصباح إلى المساء، وكان السلطان الموحدي يخرج من قصره من إشبيلية مع أعيان الموحدين لمشاهدة الأعمال ومدى تقدمها . وأحدق البناء من جهاته الأربعة بالحيطان العالية، والمباني السامية[815].

---

[812] المصدر نفسه، ص ص (375-376).

[813] هو أحمد بن محمد بن خلف، أبو القاسم الحوفي إشبيلي، أصله من حوف مصر، روي قراءة عن أبي بكر العربي، وأجاز له أبو محمد ابن عتاب من الأندلس، ومن أهل المشرق أبو الطاهر السلفي، وقاضي الحرمين محمد بن علي بن الحسين الطبري، كان من بيت علم وعدالة، فقيها، حاضر الذكر للمسائل، بصيرا بعقد الشروط، ولة في الفرائض تصانيف، تولى القضاء بإشبيلية مرتين، فشكرت سيرته، وسلك سبيل النزاهة، واشتد بأسه على أهل الشر، توفي في شعبان سنة 588هـ. أنظر: ابن فرحون، الديباج المذهب، ج01، المصدر السابق، ص ص (121-122).

-محمد بن محد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، المصدر السابق، ص159.

[814] هو محمد بن يحي بن محمد بن متوكل، أبو بكر بن الحذاء التميمي الشاهد، روى عن أبي محمد بن عتاب، وروى عنه أبو علي الشلوبين، توفي سنة 600هـ، أو 601هـ، عن نيف وتسعين سنة. أنظر: شمس الدين بن قيماز الذهبي، تاريخ الإسلام، ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: بشار عواد معروف، ج12، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط01، سنة 2003، ص 1229.

[815] محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ج04، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط04، سنة 1417هـ/1997م، ص71.

وبعد بناء القصور وإنشاء البساتين، كانت الخطوة الثانية هي النظر في استجلاب الماء لتوفير السقاية والري، وكان يوجد خارج باب قرمونة على الطريق المتجه إلى قرمونة أطلال قنطرة رومانية قديمة، لم يتبقى منها سوى حجارتها المتساقطة، فقام المهندس الأندلسي البارع الحاج بعيش المالقي بإعادة إصلاحها وترميمها، وأجرى الماء من أخده القديم من الوادي على مقربة من قلعة جابر إلى البحيرة والقصور والرياض، وأمر السلطان الموحدي بعد ذلك بإجراء الماء داخل المدينة لسقاية الناس، وتوفير مرافقهم، فنفذ ذلك المهندس الحاج بعيش على أكمل وجه، وأنشأ داخل إشبيلية محبسا للماء جارة منور، وهي نهاية جريانه وتم توصيل الماء إلى مدينة إشبيلية في اليوم الخامس عشر من جمادى الآخرة سنة 567هـ[816].

ولإشبيلية مدن كثيرة. وأعمال واسعة،وقرى متصلة، فمن مدنها نخص بالذكر: مدينة قرمونة، وبوسانة، وقيطانة، وجزيرة قيطيل، وجزيرة قبتور، ومدينة طبربرة، ومرسانة، وحصن الفرج[817].

ومما لا ريب فيه أنه بظهور دولة بني أمية في الأندلس، بدأت الأوضاع الحضارية والحياة الفنية تزدهر وتتطور، فاتخذ تخطيط وعمارة وزخرفة جامع قرطبة المثال الذي اقتدت به وقلدته جوامع بلاد المغرب والأندلس قاطبة، ويعبر قصر الحمراء بغرناطة عن ذروة ما بلغه فن العمارة والتشييد من تطور وازدهار. فهو من أهم الصروح التي خلدت الصفحة المشرقة للحضارة الإسلامية في أوروبا.

[816] محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ج04، المرجع السابق، ص ص (71-72).

[817] مجهول، تاريخ الأندلس، المصدر السابق، ص ص (112-113).

الفـــصل الثاني:

مــدن الحجاز و بلاد الشام والعراق.

-المبحث الأول: مدينة مكة المكرمة.

-المبحث الثاني: مدينـــة دمشـــق.

-المبحث الثالث: مدينة بغـــداد.

لقد استقطبت شبه الجزيرة العربية طموحات المغاربة الفكرية وتطلعاتهم الروحية. وكان الحجاز الوطن الروحي لكل مؤمن، فأداء فريضة الحج كان فرصة لزيارة أقطار إسلامية أخرى مثل: بلاد الشام والعراق، من أجل لقاء العلماء الأجلاء، وبحثا عن السند العالي، وتحصيل مختلف العلوم سواء كانت عقلية أو نقلية. وخاصة وأن هذه الرحلات سواء كانت حجازية أو غير حجازية. قام بها علماء مغاربة تاركين لنا وصفا رائعا عن بعض ما اختصت به بلاد المغرب الإسلامي من المعالم والأعراف والحالات الاجتماعية والثقافية، مع بيان تنظيمات بعض ما زاروا من أقطار وما اتصلوا به من شخصيات علمية.

المبحث الأول: مدينة مكة المكرمة

مدينة مكة قديمة أزلية البناء مشهورة البناء، معمورة مقصودة من جميع الأرض الإسلامية وإليها حجهم المعروف، وهي مدينة بين شعاب الجبال وطولها من الأعلى إلى الأسفل نحو ميلين[818]، يصفها الرحالة المشهورة ابن جبير بقوله: "هي بلدة وضعها الله عزّ وجل بين الجبال المحدقة بها، وهي بطن واد مقدس كبير، مستطيلة تتسع من الخلائق ما لا يحصيه إلا الله عزّ وجل"[819].وطولها من جهة الغرب 78° درجة، وعرضها 23° درجة، وقيل 21° درجة تحت نقطة السرطان، وهي في الإقليم الثاني [820].

1- أصل تسميتها:

قد سمى الله عزّ وجل مكة بأربعة أسماء:مكة، والبلد، والقرية، وأم القرى، فأما مكة فقد ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى: "وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرا"[821].

---

[818] الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج01، المصدر السابق، ص 139.

[819] ابن جبير، رحلة ابن جبير، المصدر السابق ص 90.

[820] ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج05، المصدر السابق، ص 181.

[821] سورة الفتح، الآية: 24.

قال الزجاج:"تنصرف لأنها مؤنثة، وهي معرفة ويصلح أن يكون اشتقاقها كاشتقاق بكة، لأن الميم تبدل من الباء"[822]. وسميت بذلك لشدّة ازدحام الناس فيها، ولأنها تمك من ظلم فيها، ومنها قول الشاعر:

يا مكــة الفاجــر مكي مــكا   ولا تمــكي مذحجا وعــكا[823].

واتفق العلماء أن مكة اسم لجميع البلدة، واختلوا في بكة الواردة في الآية الكريمة:"إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين"[824]. فمنهم من ذهب أن بكة اسم للبقعة التي فيها الكعبة الشريفة، ومنهم من أطلقها على ما حول البيت، ومكة وما وراء ذلك، وهناك من قصد بها المسجد والبيت العتيق ومنهم من جعلها مرادفة لمكة.

وعن مكة أم القرى أشار القرآن الكريم في قوله تعالى: وهذا كتاب أنزلناه مباركا مصدقا لما بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون"[825]. وفي تسميتها بذلك أربعة أقوال :

- أن الأرض من تحتها تمك.
- لأنها قبلة يؤمها جميع الناس.
- أنها أعظم القرى شأنا.
- لأن فيها بيت الله عزّ وجل، ولما اطردت العادة بأن بلد الملك، وبيته هو المتقدم على الأماكن، سمي أمّاً[826].

وأما تسميتها بالبلد، فقد قال الله عزّ وجل: "لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد"[827].

---

[822]جمال الدين الجوزي، مثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن، تحقيق: مرزوق علي إبراهيم، ج01، دار الدراية، ط01، سنة 1995م/1415هـ، ص 323.

[823]المصدر نفسه، ص 324.

[824]سورة آل عمران، الآية: 96.

[825]سورة الأنعام، الآية: 92.

[826]جمال الدين الجوزي ، مثير الغرم الساكن إلى أشرف الأماكن ،ج1 ،المصدر السابق ،ص 325.

[827]سورة البلد، الآية:(01- 02).

وفي سورة التين أقسم الله عزّ وجل بالتين، والزيتون، وسيناء الجبل الذي ناجى عليه موسى ربه، وأقسم بالبلد الأمين أي مكة المكرمة، في قوله تعالى: "والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين"[828].

وعن تسميتها بالقرية فقال الله عزّ وجل: "وضرب الله مثلا القرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف جزاءا بما كانوا يكسبون".

ويذكر ابن بطوطة أن مكة المكرمة مدينة كبيرة متصلة البنيان، مستطيلة في بطن واد تحف به الجبال، فلا يراها قاصدها حتى يصل إليها، وتلك الجبال المطلة عليها ليست بمفرطة في الشموخ.[829]فيشرف عليها من جهة الشرق جبل أبي قبيس[830]، وهو جبل أدكن مائل إلى البياض في رأسه منا، يذكر أنه منار إبراهيم عليه السلام، وسمي بهذا الاسم لأن رجلا كان يسكنه على قديم الدهر يكنى بأبي قبيس فنسب إليه ذلك الجبل، وهو أقرب الجبال إلى المسجد الحرام[831].

ومن الجبال المحيطة بمكة المكرمة، نذكر جبل الخندمة[832] الذي يستعلي على جبل أبي قبيس من ناحية الشرق، ثم الجبل الأبيض، ثم جبل الأجياد، والجبل الأخضر العالي الذي يقع غربي المسجد الحرام، يعلوا قمته منارا، يذكر أن أبا بكر رضي الله عنه أمر ببنائه، ثم جبل بن عمران، وهو الجبل الأسود الذي بين أبي قبيس وأجياد وهو خلفهما، ويظهر من بعيد كأنه بينهما، يقابل الكعبة من الجدار الأيمن ثم جبل البكماء، الذي يقع خارج الجبال المحيطة بمكة[833].

ولمكة المكرمة من الأبواب ثلاثة:

---

[828]سورة التين الآية:(01 - 03).

[829]ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 125.

[830]هو الجبل المشرف على منى، ويسمى أيضا جبل حراء، وهو مرتفع الهواء عالي القمة، وهو جبل مبارك كان النبي (ص) كثيرا ما يرتاده ويتعبد فيه، وهو أحد الجبلين المعروفين بالأخشبين، أنظر: ابن جبير، رحلة ابن جبير، المصدر السابق، ص 92.

[831]مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب، تحقيق: سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، سنة 1985م، ص 08.

[832]جبل الخندمة هو جبل أحمر محجر فيه صخرة كبيرة بيضاء كأنها معلقة تشبه الإنسان إذا نظرت إليها من بعد. أنظر:المصدر نفسه، ص 08.

[833]المصدر نفسه، ص ص (06 -09).

أ- باب المعلى: ومنه يخرج إلى الجبانة المباركة، وهي الموضع المعروف بالحجون، وعن يسار المار إليها جبل في أعلاه ثنية عليها علم شبيه البرج، يخرج منها إلى طريق العمرة، وهذا الموضع يعرف بالحجون[834]. وهو المكان الذي فيه سقيفة آل زياد بن عبيد الله الحارثي، الذي كان عاملا على مكة في أيام السفاح، وبعض أيام المنصور، وقال الأصمعي: الحجون هو الجبل المشرف الذي بجذاء مسجد البيعة، على شعب الجزارين"[835]، وهو الموضع الذي عناه الحارث بن مضماض الجرهمي بقوله:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمرمر بمكة سامر

بلى نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالي والجدود العواثر[836].

وبهذه الجبانة مدفن الجم الغفير من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم، والعلماء والصالحين، إلا أن مشاهدهم دثرت، وذهب عن أهل مكة علمها، فلا يعرف منها إلا القليل، فمن المعروف منها: قبر خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها، وبمقربة منه قبر الخليفة الأموي أبي جعفر المنصور، وقبر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله رضي الله عنهم أجمعين، فيها الموضع الذي صلب فيه عبد الله بن الزبير رضي الله عنه[837]. وعلى موضع بقية أثر ظاهر إلى اليوم، كان عليه مبنى مرتفع فهدمه أهل الطائف، غيرة منهم على ما كان يجدد من لعنة صاحبهم الحجاج بن يوسف المذكور[838]. وعن يمين المستقبل جبانة مسجد خراب يقال أنه المسجد الذي بايعت الجن فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى هذه الجبانة الطريق الصاعد إلى عرفات، وطريق إلى الطائف، وإلى العراق[839].

---

[834]الحجون آخره نون، والحجن الاعوجاج، ومنه غزوة حجون الذي يظهر الغازي العدو إلى موضع ثم يخالفه إلى غيره، وقيل هي البعيدة، والحجون جبل بأعلى مكة عنده مدافن أهلها، وقال السكري: مكان من البيت على ميل ونصف. أنظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان ،ج02، المصدر السابق ،ص 225.

[835]المصدر نفسه، ص 225.

[836]ابن جبير، رحلة ابن جبير، المصدر السابق، ص 60.

[837]ابن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة ،المصدر السابق، ص ص (169 ، 170).

[838]ابن جبير، رحلة ابن جبير، المصدر السابق، ص 70.

[839]ابن بطوطة، مهذب ابن بطوطة، دار النهضة للنشر، حيدرة، سنة 2001، ص 99.

ب- باب المستقلة : وهو من جهة الجنوب، ومنه دخل خالد بن الوليد مكة يوم الفتح[840].

جـ – باب الزاهر: ويعرف أيضا بباب العمرة، وهو باب غربي، وعليه الطريق إلى مدينة الرسول(ص)، والطريق إلى الشام، وطريق جدة، ومنه يتجه إلى التنعيم، وهو أقرب سقيات المعتمرين، يخرج من الحرم إليه على باب العمرة[841].

والتنعيم من البلدة على فرسخ، وهو طريق حسن فسيح، فيه من الآبار العذبة التي تسمى بالسبيكة، وعندما تخرج من البلدة بنحو ميل، تلقى مسجدا بإزائه حجر موضوع على الطريق كالمصطبة، يعلوه حجر آخر مسند فيه نقش دائر الرسم، يقال أنه الموضع الذي قعد فيه النبي صلى الله عليه وسلم مستريحا عند مجيئه من العمرة، فيتبرك الناس بتقبيله، ومسح الخدود فيه، ويستندون إليه لتناول أجسامهم بركة لمسه [842].

وطول مكة المكرمة من الشمال إلى الجنوب نحو ميلين، ومن أسفل أجياد إلى ظهر جبل قعيقعان مثل ذلك، والمدينة مبنية في وسط هذا الفضاء، وبنائها بالحجارة والطين، وأحجارها من جبالها، وأسواقها قليلة[843]. أما حدود حرم مكة المكرمة من ناحية المدينة من ذي طوى[844]. على ثلاثة أميال من مكة المكرمة، وحده من طريق جدة على عشرة أميال، وجدة من طريق اليمن على سبعة أميال، وجدة من طريق العراق عن ستة أميال، وجدة من طريق الطائف على إحدى عشرة ميلا، فعدد أميال الحرم ثمانية وثلاثون ميلا، وكان النبي (ص) قد بنى بالحرمين الشريفين 15 مسجدا[845].

---

[840] ابن بطوطة، مهذب ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 97.

[841] ابن جبير، رحلة ابن جبير، المصدر السابق، ص ص (70 ،71).

[842] المصدر نفسه، ص 61.

[843] عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، المصدر السابق، ص 121.

[844] ذي طوى هو الوادي يمر بين الحجون، وريع الكحل ماراً بجدول حتى يجتمع بوادي إبراهيم في المستقلة، وأعلاه ريع كان يسمى بريع اللصوص، ثم أطلق عليه ريع السد، وفي وسط الوادي حتى العتيبية، وأسفله جدول، ثم التنضباوي نسبة إلى شجر التنضب الذي كان يكثر فيه. أنظر: عاتق بن غيث الحربي، معالم مكة التاريخية والأثرية، دار مكة للنشر و التوزيع، مكة، ط01، سنة 1980م، ص 134.

-أبو عبد الله البكري، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، ج03، عالم الكتب، بيروت، ط03، سنة 1403هـ، ص 896.

[845] مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، المصدر السابق، ص 04.

2- وصف البيت العتيق:

وفي وسط مكة مسجدها الجامع، المسمى بالحرم، وليس لهذا الجامع سقف وإنما هو كالحظيرة، والكعبة الشريفة هي البيت المسقف في وسط الحرم، وهي بنية مربعة مائلة في وسط المسجد ارتفاعها في الهواء من الجهات الثلاث، ثمان وعشرون ذراعا، ومن الجهة الرابعة التي بين الحجر الأسود والركن اليماني تسع وعشرون ذراعا[846]. (الصورة 37) ونفس القياس ذكره ابن بطوطة في رحلته، في حين أشار عبد المنعم الحميري في كتابه الروض المعطار في خبر الأقطار، أن: " طول البيت من خارجه من ناحية الشرق أربع وعشرون ذراعا، وكذلك طول الجهة التي تقابلها من جهة الغرب، وبشرقي هذا الوجه باب الكعبة، وارتفاعه عن الأرض نحو القامة"[847].

فأول أركان البيت العتيق الركن الذي فيه الحجر الأسود، ومنه ابتداء الطواف، ويتقهقر الطائف عنه لسير جميع بدنه به، والبيت المكرم عن يساره، ثم يليه الركن العراقي، وهو ناظر إلى جهة الشمال، ثم الركن الشامي وهو ناظر إلى جهة الغرب، ثم الركن اليماني وهو ناظر إلى جهة الجنوب، ثم يعود إلى الركن الأسود وهو ناظر إلى جهة الشرق، وعند ذلك يتم شوطا واحدا[848].

وأرضية البيت مفروشة بالرخام الأبيض، وفي رخامه منها عند دخولك من باب الكعبة مسمار فضة، وكذلك جميع جدرانه مغطاة بالرخام الأبيض قدر 09 أذرع[849]. وله ثلاثة أعمدة مفرطة الطول من خشب الساج، بين كل عمود منها والآخر أربع خطا، وهي متوسطة في الفضاء داخل الكعبة الشريفة، يقابل الأوسط منها نصف عرض الصفح الذي هو بين الركنين العراقي والشامي[850]. ودائر البيت كله من نصفه الأعلى مطلي بالفضة المذهبة الثمينة، يخيل للناظر أنها صحيفة ذهب لغلظها، وهي تحف بالجوانب الأربعة، وتمسك مقدار نصف الجدار الأعلى[851]،

---

[846] ابن جبير، رحلة ابن جبير، المصدر السابق، ص72.

[847] عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، المصدر السابق، ص121.

[848] ابن جبير، رحلة ابن جبير، المصدر السابق، ص72.

[849] مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، المصدر السابق ص13.

[850] ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، المصدر السابق، ص128.

[851] ابن جبير، رحلة ابن جبير، المصدر السابق، ص72.

وفي ترخيم جدران البيت ألواح حمر وخضر من الرخام، يقال أن الوليد ابن عبد الملك[852]، بعث بها من الشام مع الرخام الذي زين به البيت، مع30 ألف دينار، وأمر أن يرخم ويذهب، وهو أول من قام بذلك. فمن تلك الألواح في الجدار الغربي مقابل من داخل البيت 05 ألواح:03 باللون الأحمر، و02 باللون الأخضر، وبين هذه الألواح الخمسة في ذلك الجدار03 محاريب فضية، طول كل محراب منها05 أشبار، وعرضه 03 أشبار، بين كل محراب منها منقوش العبارة: " أقبل على صلاتك و لا تكن من الغافلين". وفي جهة كل محراب منها منقوش: "لا إله إلا الله، محمد رسول الله"[853]. وفي ذلك الجدار أيضا مما يجاور الركن اليماني، في أعلى الترخيم على رأس اللوح الأحمر، محراب ذهب طوله شبران، وعرضه شبر وصف، وعلى رأس تلك الألواح والمحارب بحر مخرم فيه مكتوب بالمسك المحلول: "لا إله إلا الله محمد رسول الله"مكرر في سطرين[854]. وبعد ذلك الإمام المطيع[855] لله أمير المؤمنين، وفي سطر تحته "الإمام المقتدر بالله"[856].

---

[852]هو الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، أبو العباس الأموي، بويع بعهد من أبيه عبد الملك له بعد موته، وهو من بنى جامع دمشق، وأنفق عليه أموالا عظيمة، وفي أيامه فتحت جزيرة الأندلس، وبلاد الترك كلّها، وأكثر بلاد الهند، وكانت وفاته في جمادى الأخير سنة 96هـ، فكانت خلافته تسع سنين وثمانية أشهر، أنظر: يوسف بن تعزي بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، مورد اللطافة في من ولى السلطنة والخلافة، تحقيق نبيل محمد عبد العزيز أحمد، ج01، دار الكتب المصرية، ص ص (81، 184).

-شمس الدين بن قيماز الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير و الأعلام، تحقيق بشار عواد معروف ،ج02، دار الغرب الإسلامي، ط01، سنة 2003م، ص ص (1182، 1186).

[853]مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، المصدر السابق، ص 14.

[854]المصدر نفسه، ص 14.

[855]هو الفضل المطيع لله بن جعفر المقتدر بالله بن أحمد المعتضد بالله، بن أبي أحمد الموفق، ويكنى أبا القاسم، استخلف بعد المستكفي بالله، تولى الخلافة يوم الخميس لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة 334هـ، وسنه يومئذ 33 سنة و05 أشهر، فكانت خلافته 29 سنة و 04 أشهر، بعدما خلع نفسه من الخلافة غير مكره، مات بمدينة واسط في شهر محرم سنة 364هـ، ودفن في الرصافة ببغداد. أنظر: أحمد طيب البغدادي، تاريخ بغداد، تحقيق بشار عواد، ج14، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط01، سنة 2002م، ص 356 .

-شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج10، دار الحديث، القاهرة،سنة 1427هـ/ 2006 م، ص ص (406، 409).

-صلاح الدين خليل بن أبيك الصفدي، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأتاؤوط وتركي مصطفى، ج24 ،دار إحياء التراث، بيروت، سنة 1420هـ/2004 م، ص ص (23، 84).

[856]هو جعفر المتوكل على الله بن المعتصم بن الرشيد بن المهدي بن المنصور، يكنى أبا الفضل، استخلف بعد أخيه المكتفي ،يوم الأحد 12ذي القعدة سنة 295هـ، وهو ابن 13 سنة، ونحو من الشهرين، وقتل يوم الأربعاء لثلاث بقين من شوال سنة 320هـ.

وفي الجدار اليماني من تلك الألواح لوحتان خضراوتان، ولوحتان حمروتان، فوق بحر مرخم مكتوب فيه قوله تعالى: "إن بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا"[857].

وفي الجدار الذي كان فيه الباب 03 ألواح: لوحة خضراء بين لوحتين حمراوتين، وفوقهن بحر مرخم مكتوب من طرف عتبة الباب، قوله تعالى: "ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين"[858]. وقوله تعالى: "إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما"[859].

وفي الجدار الشامي 03 من تلك الألواح: لوحة خضراء بين لوحتين حمراوتين، وفوقهما بحر مرخم مكتوب فيه قوله تعال: "وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائين والعاكفين الركع السجود"[860]. وسقف البيت مجلد بكساء من الحرير الملون[861].

وظاهر الكعبة كلها من الجوانب الأربعة مكسوة بستائر من الحرير الأخضر وسداها قطن، وفي أعلاها رسم من الحرير أحمر، فيه مكتوب الآية الكريمة: "إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة"[862]، واسم الإمام الناصر لدين الله العباسي[863] في سعته قدر ثلاث أذرع، وعدد هذه

أنظر: أحمد بن علي بن الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، تحقيق بشار عواد معروف، ج08، الغرب الإسلامي، بيروت، ط01، سنة 2002، ص 126.

-محمد بن عبد الله الربعي، تاريخ مولد العلماء ووفياتهم، تحقيق: عبد الله أحمد سليمان الحمد، ج02، دار العاصمة، الرياض، ط01، سنة 1410هـ، ص622.

[857] سورة آل عمران، الآية: 96.

[858] سورة آل عمران، الآية: 97.

[859] سورة الأحزاب، الآية: 56.

[860] سورة البقرة، الآية: 125.

[861] ابن جبير، رحلة ابن جبير، المصدر السابق، ص72 .

[862] سورة آل عمران، الآية: 96.

[863] هو محمد بن جعفر المتوكل على الله بن محمد المعتصم بالله، يكنى أبا أحمد، ولقبه الموفق بالله، ولد في ربيع الأول سنة 229هـ، وكان أخوه المعتمد عقد له ولاية العهد بعد ابنه جعفر، فمات الموفق قبل موت المعتمد بسنة وأشهر، ،وكان تاريخ وفاته ليلة الخميس لثمان بقين من صفر سنة 278هـ، في القصر المعروف بالحسني على شاطئ دجلة، ودفن بالرصافة ليلا. أنظر: أحمد بن علي بن

الستائر من الجوانب الأربعة 34 ستارا[864]. وباب الكعبة مرتفع عن الأرض بأحد عشر ونصف ذراعا، وعرضه 4 أذرع إلا 4 أصابع، وهو من خشب الساج مكسو بصفائح من فضة، مذهبة بديع الصنعة رائق الصفة، يستوقف الأبصار حسنا وخشوعا للمهابة التي كساها الله بيته، وعضادتاه كذلك، والعتبة العليا كذلك أيضا، وعلى رأسها لوح ذهب خالص إبريز في سعته والعتبة العليا كذلك أيضا، وعلى رأسها لوح مقدار شبرين[865]، وله حلقتان كبيرتان من فضة بيضاء غير مذهبتين، يتعلق عليها قفل الباب الذي هو من نحاس أحمر مذهب، بعضه قد انكشف، وهو اليوم حديد مكسو بالفضة، طول القفل شبر، وموضع الباب في الجدار الشرقي، بينه وبين الركن الأسود 05أذرع[866].وأول ما يلقى الداخل على الباب عن يساره الركن الذي خارجه الحجر الأسود، وفيه صندوقان فيهما مصاحف، قد علاهما في الركن بويبتان من فضة كأنهما نافذتين ملتصقتان بزاوية الركن، وبينهما وبين الأرض أزيد من قامة[867].

والميزاب المبارك في أعلى الصفح الذي على الحجر، وهو من الذهب سعته شبر واحد، وهو بارز بمقدار ذراعين، والموضع الذي تحت الميزاب مظنة استجاب الدعاء، وتحته في الحجر قبر إسماعيل عليه السلام، وعليه رخامة خضراء مستطيلة على شكل محراب، متصلة برخامة خضراء مستطيلة، وسعة الرخامتين مقدار شبر ونصف الشبر، وهما غريبتي الشكل رائقتي المنظر. وإلى جانبه مما يلي الركن العراقي قبر أمه هاجر، وعلامته رخامة خضراء مستطيلة سعتها مقدار شبر ونصف، وبين القبرين سبعة أشبار[868].

الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد وذيوله، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ج02، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1417هـ، ص 125.

-صلاح الدين خليل بن أبيك الصفدي، الوافي بالوفيات، ج01، المصدر السابق، ص ص (219-220).

[864]ابن جبير، رحلة ابن جبير، المصدر السابق، ص73.

[865]ابن جبير، رحلة ابن جبير، المصدر السابق، ص 73.

[866]مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، المصدر السابق ص ص (16 - 17).

[867]ابن جبير، رحلة ابن جبير، المصدر السابق، ص73 .

[868]ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، المصدر السابق، ص129.

وعن يمين باب الكعبة الركن العراقي وفيه باب يسمى: باب الرحمة يصعد منه إلى سطح البيت المكرم، فهو متصل بأعلى سطح البيت داخل الأدراج، وفي أوله البيت المحتوي على المقام الكريم، فنجد للبيت العتيق بسبب هذا القبر خمسة أركان، وهذا المقام الذي داخل هذا القبو هو مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام[869]، وهو حجر مغشى بالفضة، وارتفاعه مقدار ثلاثة أشبار، وسعته مقدار شبرين، وأعلاه أوسع من أسفله[870].

يمتد الحجر الأسود على ثلاثة أذرع من الأرض، وطول ما يظهر منه في الركن شب، وأما ارتفاعه عن سطح الأرض ستته أشبار، فالطويل من الناس يتطامن لتقبيله، والقصير يتطاول إليه، وهو ملتصق في الركن الذي إلى جهة المشرق، وسعته ثلثا شبر، ويتكوّن الحجر الأسود حسب ابن بطوطة وابن جبير: "من أربع قطع ملتصقة، وجوانب الحجر الأسود، مشدودة بصفيحة من فضة، يلوح بياضها على سواد الحجر الكريم، فتجلى منه العيون حسنا باهرا، ولتقبيله لذّة ينعم بها الفم"[871]، ويذكر مؤلف الاستبصار "أنه مصدوع مكسور على ثلاثة قطع: اثنتان كبيرتان وواحدة صغيرة، ذكر أن عبد الله ابن الزبير[872]كان ألصقه وشدّه بالفضة، وأدخله في الركن، وكان قد

[869]مقام إبراهيم عليه السلام حجر لونه بين الدكنة والحمرة، منقط بنقط سوداء، له رأسان متخنصر الوسط مخروم جداً، وعمق الأقدام في الحجر أكثر من ثلثي الشبر، وصفة القدمين على الحجر حسب رواية الاستبصار معكوستين، أي إبهام الواحد إلى كعب الثاني، وأصابع القدم اليمنى تستقبل المقام، وكعب ذلك القدم يتجه إلى البيت الحرام، والعكس بالنسبة للقدم الشمال. أنظر: مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، المصدر السابق، ص ص (19- 20).

[870]حسان حلاق، مكة المكرمة من خلال ابن جبير وابن بطوطة، دار النهضة العربية، بيروت، ط01، سنة 1996م، ص 320.

[871]ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 130.

[872]هو عبد الله بن الزبير بن العوام رضي الله عنه، أبو بكر، ويقال أبو حبيب، وقال بعضهم أبو بكير القرشي ثم الأسدي، وكان أول مولود ولد في الإسلام، قتل في الحادثة التي رمى فيها الحجاج بن يوسف الثقفي الكعبة بالحجارة بواسطة المنجنيق يوم الثلاثاء 17 جمادى الأولى سنة 73هـ. أنظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، الجزء المتمم لطبقات ابن سعد، تحقيق: محمد بن صامل السلمي، ج02، مكتبة الصديق، الطائف، ط01، سنة 1414 هـ/1993م، ص ص (93 ، 95).

-البخاري، التاريخ الكبير، تحقيق: محمد عبد المعيد خان، ج05، دار المعارف العثمانية، حيدر أباد، ص ص (06 ،07).

-عبد الله بن محمد البغوي، معجم الصحابة، تحقيق: محمد الأمين بن محمد الجنكي، ج03، دار البيان، الكويت، ط01، سنة 2000م، ص 514.

بقيت القطعة الصغيرة عند بني شيبة، فلما رده القرمطي بعد أخذه، ألصق كذلك وأضاف إليه بنو شيبة القطعة الثالثة، وأفرغ حوله الفضة، ودارت الفضة بينها حتى صارت كشبه العين"[873].

والحجر مكعب يشبه الصهريج ليس بالمربع، دور جداره تسع وعشرون خطوة، وهي أربع وتسعون شبرا من الداخل، وهو بالرخام البديع المجزع المحكم الإلصاق، وارتفاعه خمسة أشبار ونصف شبر، وسعته أربعة أشبار ونصف شبر، وداخل الحجر بلاط واسع مفروش بالرّخام المجزع المنتظم المعجز الصنعة البديع الإتقان[874]، رائق الترصيع والتجزيع، رائع التركيب والوصف، يبصر الناظر فيه من التعاريج والتقاطيع والخواتم والأشكال الشطرنجية، وسواها على اختلاف أنواعها وصفاتها ما يقيد بصره حسنا، فكأنه يجيله في أزهار مفروشة مختلفات الألوان، إلى محاريب قد انعطف عليها الرخام، وداخلها هذه الأشكال الموصوفة والصنائع المذكورة"[875].

وقبة بئر تقابل الركن الأسود، ومنها إليه 24 خطوة، والمقام الكريم عن يمين القبة، ومن ركنها إليه 10 خطا، وداخلها مفروش بالرخام الأبيض الناصع البياض، وتنور البئر المباركة في وسطها مائل إلى الجدار المقابل للكعبة الشريفة، وهو من الرخام البديع الإلصاق مفروغ بالرصاص، ودوره أربعون شبرا، وارتفاعه أربعة أشبار ونصف شبر[876]، وعمقها 11 قامة حسب ما ذرعناه، وعمق الماء 07 قامات على ما يذكر[877].

وتنور بئر زمزم من رخام قد ألصق بعضه ببعض لا تخيله الأيام، وأفرغ في أثنائه الرصاص، وحفت به أعمدة الرصاص الملتصقة إليه، يحيط به 32 عمودا قد خرجت لها رؤوس قابضة على حافة البئر[878]، عليها قبة مربعة على 16 سارية منقوشة كلّها، وأربعة أركان معلقة بشراجيب

---

[873]مجهول ،الاستبصار في عجائب الأمصار، المصدر السابق، ص 14 .

[874]ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 131 .

[875]ابن جبير، رحلة ابن جبير، المصدر السابق، ص75 .

[876]ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 132 .

[877]ابن جبير، رحلة ابن جبير، المصدر السابق، ص76.

[878]المصدر نفسه، ص76 .

الحديد، ترجع إلى باب لطيف من ناحية قبة الشراب، ويعرفها أهل مكة بساقية زبيدة[879]، قاعها مبسوط بالرخام، وسقفها ملبس منقوش من داخله بخشب الساج، معمول من خارجه بالفسيفساء، مصنوع من زجاج قد جعل فيه فرشة الذهب، وفي أعلى القبة قبيبة فيها سلسلة من نحاس، يوقد على جميعها الشموع ليلة ختم القرآن في رمضان، ودور القبة من الداخل صهاريج يصب فيها الماء يتوضأ الناس منها[880].

وتلي لقبة بئر زمزم من وراءها قبة الشراب، وهي مقببة على أرجل من خشب مغلوق بينها بالشرجب، ذراعها 80 ذراعا وقاعها معمول بالجيار، سقفها معمول بالفسيفساء، في أعلاها زوج يشبه سورة طائر من نحاس تديره الرياح[881]، وهذه القبة منسوبة للعباس رضي الله عنه، وتلي هذه القبة العباسية على انحراف عنها قبة تنسب لليهود، وهاتان القبتان مخزنان لأوقاف البيت العتيق من المصاحف، والكتب، وأنوار الشمع وغير ذلك، والقبة العباسية كانت تقوم بسقاية الحجاج، وهي حتى الآن يبرد فيها ماء زمزم، ويخرج مع الليل لسقاية الحاج في القلال يسمونها ذوارق كل ذورق منها بمقبض واحد[882].

3- المسجد الحرام:

المسجد الحرام في وسط مكة، وهو متسع المساحة، طوله من شرق إلى غرب أزيد من 400 ذراع، وعرضه يقترب من ذلك[883]، ويشير اليعقوبي إلى أن طوله من باب بني جمع إلى باب بني هاشم الذي عند العلم الأخضر 404 أذرع، وعرضه من باب الندوة إلى باب الصفا 304 أذرع، فذرع المسجد الحرام مكسرا 120000 ذراع[884].وتشير بعض الروايات خلاف ذلك[885]، وأن آخر من وسع مسجد الحرام وزاد فيه حتى صارت الكعبة وسطه المهدي[886] (الصورة 38).

---

[879]زبيدة هي زوجة هارون الرشيد أنظر: G- Demonlynes ,Le pèlerinage à la Mekka , paris,1923, p 240.

[880]مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، المصدر السابق، ص 22.

[881]المصدر نفسه, ص 23 .

[882]ابن جبير، رحلة ابن جبير، المصدر السابق، ص 76.

[883]ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، المصدر السابق، ص126 .

[884]اليعقوبي، البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1422هـ، ص 153.

والمسجد الحرام يطوف به ثلاث بلاطات، على ثلاث سوار من الرخام منتظمة، وكأنها بلاط واحد، وما بين البلاطات فضاء كبير، كان في عهد الرسول (ص) صغيرا، وقبة زمزم خارجة عنه[887]. وارتفاع حيطانه نحو 20 ذراعا، وسقفه على أعمدة طوال مصطفة ثلاث صفوف بإتقان صناعة وأجملها، وقد انتظمت بلاطاته انتظاما عجيبا، كأنها بلاط واحد، وعدد سواريه الرخامية 491سارية[888]، ما عدا الجصية التي في دار الندوة المزادة في الحرم، وهي داخلة في البلاط الآخر من الغرب إلى الشمال، ويقابلها المقام مع الركن العراقي، وفضاؤها متصل، يدخل من هذا البلاط إليه، ويتصل بجدار هذا البلاط مساطب تحت قسي حنايا يجلس بها المقرئون والناسخون والخياطون، وفي جدار البلاط الذي يقابله مساطب تماثلها، وهو البلاط الأخر من الجنوب إلى الشرق[889].

وسائر البلاطات تحت جدرانها مساطب دون حنايا عليها، والبنيان فيها الآن على أكمل ما يكون، وعند باب إبراهيم مدخل آخر من البلاط الآخر من الغرب إلى الجنوب، فيه أيضا

---

[885]يذكر صاحب كتاب الاستبصار أن طوله من ركن بني شيبة إلى ركن بني جُمح 407 أذرع، وعرضه من باب السهميين إلى ركن منى وأجياد الكبير 280 ذراعا. أنظر: مجهول، الاستبصار في غرائب الأمصار، ص ص (23، 24).

-في رواية أبو معين الدين المروزي: "أن أقصى طول المسجد الحرام من باب إبراهيم إلى باب بني هاشم 420 ذراع، وعرضه من باب الندوة، وهو جهة الشمال حتى باب الصفا هو جهة الجنوب وأقصى اتساعه 304 ذراع. أنظر: أبو معين الدين المروزي ،سفر نامه، تحقيق: يحي الخشاب،ج01، دارالكتاب الجديد، بيروت، ص 126.

[886]هو محمد المهدي بن عبد الله المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، يكنى: أبا عبد الله، استخلف يوم مات المنصور بمكة، يوم الثلاثاء 16 ذي الحجة سنة 158هـ، وكان مولده سنة 127هـ، مات لثمان بقين من محرّم سنة 169هـ. أنظر: أحمد بن علي بن الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد وذيوله، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ج03، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1417هـ، ص ص (11 - 17).

-شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: مجموعة بإشراف شعيب الأرناؤوط، ج07، مؤسسة الرسالة، ط03، سنة 1415هـ/1985م، ص ص (400 ، 402).

-ابن عساكر، تاريخ دمشق، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، ج54، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، سنة 1415هـ/1995م، ص ص (411 - 420).

[887]ابن جبير، رحلة ابن جبير، المصدر السابق، ص 77.

[888]أحصى ابن جبير 471 سارية رخامية، حاشى الجصة التي منها في دار الندوة، وهي التي زيدت في الحرم. أنظر: المصدر نفسه، ص 77.

[889]ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، المصدر السابق،ص127.

سواري جصية، وجد ابن جبير بخط أبي جعفر بن علي الفنكي القرطبي[890] الفقيه المحدث: "أن عدد سواري المسجد الحرام أربعمائة وثمانون سارية[891]"، ويذكر ابن جبير: "أنه لم يحسب السواري التي خارج بلاط الصفا". وللمهدي محمد بن أبي جعفر المنصور العباسي، في توسعة المسجد الحرام والتأنق في بنائه آثار كريمة، وجدت في الجهة التي من الغرب إلى الشمال، مكتوبا في أعلى جدار البلاط "أمر عبد الله محمد المهدي أمير المؤمنين ــ أصلحه الله ــ بتوسعة المسجد الحرام لحاج بيت الله وعمارة في سنة سبع وستين ومائة"[892].

وللمسجد الحرام خمس صوامع[893]:واحدة على ركن أبي قبيس بين الحائط الجنوبي والشرقي، عند باب الصفا، وثانية على ركن باب بني شيبة بين الشرقي والشمالي، وثالثة على باب دار الندوة في الحائط الشمالي، ورابعة على ركن باب السدة، وهو باب بني جمح بين الشمال والغرب، وخامسة على ركن أجياد بين الغربي والجنوبي[894].

لا تتفق روايات كتب الرحالة على عدد الأبواب المسجد الحرام، فهي حسب ابن بطوطة وابن جبير والمقدسي 19 بابا[895]. وتشير روايتي صاحبي كتاب الاستبصار وسفر نامة أن للمسجد

---

[890]هو أحمد بن علي بن عتيق بن إسماعيل أبو جعفر القرطبي الفنكي الشافعي المقرى، ولد بقرطبة سنة 528هـ، سمع من أبي الوليد يوسف بن الدباغ، بقراءة أبيه، وحج وحاور، فقرأ على الشيخ الكافي بن متوكل الجبلي، ثم رحل الموصل، وقدم دمشق فسمع الكثير بها، ونسخ الكثير بخطه المقروء الجميل، توفي في شهر رمضان سنة 596هـ. أنظر :شمس الدين الذهبي، معرفة القراء الكبار على الطبقات والأمصار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1417هـ /1997م، ص ص (313 -314).

-صلاح الدين بن أبيك الصفدي، الوافي بالوفيات، ج07، المصدر السابق، ص 135.

-شمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام وفيات المشاهير من الأعيان، تحقيق: بشار عواد معروف، ج12، دار الغرب الإسلامي، ط01، سنة 2003، ص 1065.

[891]ابن جبير، رحلة ابن جبير، المصدر السابق،ص ص 77.

[892]المصدر نفسه، ص ص (77 – 78).

[893]إلا أن ابن جبير يذكر أن للمسجد سبع مآذن ،أربع في الأربعة جوانب، وواحدة في دار الندوة ، والأخرى على باب الصفا، والسابعة فوق باب إبراهيم. أنظر: المصدر نفسه، ص 78.

[894]محمد العبدري، رحلة العبدري، تحقيق: علي إبراهيم كردي، دار سعد الدين للطباعة والنشر، دمشق، سنة 2005م، ص 368.

[895]محمد المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة مديولي، القاهرة، ط03، 1411هـ/1981م ، ص 77.

18 بابا[896]. وذكر العبدري أن: "في كل جهة من جهات المسجد الحرام أبواب جملتها تسعة وثلاثون"[897].

ومن الأبواب التي تقع في الشق الغربي وهو الذي يلي باب جمح 03 أبواب: باب السهمين الكبير وهو باب العمرة، ومنه يخرج الناس للتنعيم عن العمرة، وهو حنية كبيرة بدون سارية، ثم باب إبراهيم عليه السلام، وهو 07 أقواس محمولة على 08 أعمدة من الآجر الملبسة بالجيار، ثم باب جعفر المعروف بباب اليمنيين، وهو قوسان على سارية"[898]. وفي الشق إلى جانب الوادي وأبي قبيس 06 أبواب منها: باب البقالين وهو باب الأجياد الكبير، ويقابل هذا دار أبي جهل، وهو قوسان على سارية، ثم باب الغزالين وهو قوسان على سارية، ثم باب الصفا وهو باب بني مخزوم، ومنه يخرج إلى الصفا، وهو05 أقواس على 04 سوار، ثم باب الحناطين، وهو باب أبي طلحة، وهو قوسان على سارية، وفي هذا الباب يبيع البدو أطعمتهم إذ يأتون إلى مكة[899].

وفي الشق الذي إلى جانب المسعى 04 أبواب: باب علي ابن أبي طالب (ض)، وهو 03 أقواس على ساريتين، وفي مقابل السارية الواحدة إلى جانب باب النبي (ص) الميل الأخضر الذي في الركن دار جعفر، وهو رجل ملبس بالجيار، قد صبغ بالخضرة بناه المهدي، جعله علما حيث تنقطع هرولة, ثم باب النبي (ص) وهو قوس صغير بلا سارية، ومنه يخرج إلى الحدائق وإلى الصيادلة، وعنده طبل عظيم عرضه 05 أشبار، وهو من خشب تشم عليه رائحة الزنجبيل، وهو مجلد من ناحية يضرب عليه من الأول إلى 10 ذي الحجة عند كل صلاة، ثم باب بني شبيبة وهو

---

[896]مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، المصدر السابق، ص 24.

-أبو معين الدين ناصر المروزي، سفر نامه، المصدر السابق، ص 127.

[897]محمد العبدري، رحلة العبدري، المصدر السابق، ص 367.

[898]مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، المصدر السابق، ص ص (24 - 25).

[899]المصدر نفسه، ص 25.

من 03عقود على ساريتين، ومنه دخل النبي (ص)، ومنه يدخل كل من دخل مكة حاجا أو معتمرا وفي هذا الشق المسعى وهو مابين الصفا والمروة[900].

وفي الشق الذي يلي دار الندوة 04 أبواب: باب السواري وهو قوس صغير بلا سارية، ثم باب الندوة وهو قوسان على سارية، يدخل منها إلى دار الندوة [901]ولها أيضا باب آخر يدخل منها إلى المسجد أيضا يعرف باب الندوة، وهو قوسان على سارية مما يلي دار العجلة، ثم باب الطبري وهو قوس صغير بلا سارية يقال له باب السدة، ومنه يخرج إلى دار جعفر الصادق، وفي هذا الشق أيضا 06 أبواب إلى الدور التي تجاور المسجد الحرام ليست منه[902].

وللمسجد الحرام من كل جانب 03 بلاطات في كل شق من تربيعه، وطوله من ناحية الصحن 46 قوسا، وفي عرضه من جهة الصحن أيضا 31 قوسا، وداخله 10 أرجل من خشب مصفحة بالنحاس تسمى كل واحدة منها بالحطيم[903]، تجعل عليه القناديل وتعلق منه بكؤوس من زجاج في شهر رمضان، فمنه حطيم صاحب ويتعلق منه 20 قنديلا، وحطيم شاه يتعلق منه 10 قناديل، وحطيم سنجار ويتعلق منه 10 قناديل، وحطيم الحنفية ويتعلق منه 06 قناديل، ويتعلق من الذي على زمزم 10 قناديل، ويتعلق من الأربعة الباقية 18 قنديلا، فعدد ما تعلق منها 74قنديلا. ويتعلق من سقائف المسجد الحرام 150 قنديلا، و05 ثريات، واحدة على باب

---

[900]مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، المصدر السابق، ص ص (25 -26).

[901]هي الدار التي بناها قصي بن كلاب (مجمع قريش) لاجتماعاتهم وتشاورهم، وكان لا يعقد لواء الحرب إلا فيها، ولا تزوجت قريشية إلا فيها. وكانت في الجانب الشمالي من المسجد الحرام، ثم دخلت في توسعته في عهد بني العباس، وهي دار مربعة، وهي سقائف من كل جانب على أعمدة ملبسة بالجيار، طول الدار 32 ذراعا، وعرضها مثل ذلك،وجميع ما فيها من العمد 77عمودا. أنظر :عاتق بن غيث الحربي، معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، دار مكة للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، ط 01 ، سنة 1982م، ص 358.
-ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج05 ، المصدر السابق، ص 367.

[902]مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، المصدر السابق، ص (26 -27).

[903]الحطيم هو: خشبتان موصول بينهما بأذرع تشبه السلم، تقابلها خشبتان من تلك الصفة، قد عقدت هذه الأخشاب على رجلين من الجص غير بائنة الارتفاع، واعترض في أعلى الخشب خشبة مسمرة فيها، قد نزلت منها خطاطيف حديد فيها قناديل معلقة من الزجاج. أنظر: ابن جبير، رحلة ابن جبير، المصدر السابق، ص 85.

إبراهيم عليه السلام، والثانية على باب الصفا، والثالثة على باب شبيبة، والرابعة على باب الشواري، والخامسة على باب جمح[904].

ومن جملة العناصر المعمارية التي وصفها ابن جبير الصومعة التي تعلو باب إبراهيم عليه السلام: "فعن يمين الداخل عليه، صومعة على غير أشكال الصوامع المذكورة، فيها تخاريم في الجص، مستطيلة الشكل كأنها محراب، قد حفت قرنصة غريبة الصنعة، وعلى الباب قبة عظيمة بائنة العلو، يقترب من الصومعة ارتفاعها، وقد ضمن داخلها غرائب من الصنعة الجصية والتخاريم المقرنصة، ويعجز عنها الوصف، وظاهرها أيضا تقاطيع في الجص كأنها أرجل مدورة، فقد تركبت دائرة على دائرة، والصومعة المذكورة محمولة على أرجل من الجص، منفتح مابين كل رجل ورجل"[905] .وأرض المسجد مغطاة بالرمل الأبيض الجميل المنظر[906].

4- بعض آثار مكّة المكرمة:

حول الحرم الشريف دور كبيرة لها مناظر وسطوح، يخرج منها إلى سطح الحرام، وأعلها في مشاهدة البيت الشريف على الدوام، ودور لها أبواب تفضي إلى الحرم، منها دار زبيدة زوجة هارون الرشيد، ومنها دار العجلة[907]، ودار الشرابي وسواها[908].

ومن المشاهد الكريمة التي عاينها ابن بطوطة وابن جبير قبة الوحي، وهي دار خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها، بها قبة صغيرة فيها كان مولد فاطمة الزهراء رضي الله عنها، وفيها ولد الحسن والحسين رضي الله عنهما، وهذه المواضع المقدسة مغلقة، ومصونة قد بنيت بناء يليق

---

[904] مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، المصدر السابق، ص ص (27 – 28).

[905] ابن جبير، رحلة ابن جبير، المصدر السابق، ص77 .

[906] محمد العبدري، رحلة العبدري، المصدر السابق، ص 367.

[907] العجلة: بفتح أوله، على لفظ فعول من العجلة: بئر مذكورة في رسم خمّ، وهي أول سقاية حفرت بمكة، حفرها قصي، موضعها دار أم هانئ، بنت أبي طلب، وكانت العرب إذا سقوا منها ارتجزوا، فقالوا :

تروى على العجول ثم تنطلق   إن قصيا قد وفى وقد صدق.

أنظر: أبو عبد الله البكري، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، ج03، عالم الكتب، بيروت، ط03، سنة 1903م، ص914.

[908] ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، المصدر السابق، ص135.

بشأنها[909]، وبمقربة منها دار أبي بكر الصديق رضي لله عنه، ويقابلها جدار مبارك فيه حجر مبارك بارز من طرفه، يتبرك الناس بلمسه، يقال أنه كان يسلم عن النبي (ص) متى اجتاز عليه، وذكر أنه يوما جاء صلى الله عليه وسلم، إلى دار أبي بكر، فنادى به – ولم يكن حاضرا – فانطق الله عز وجل الحجر المذكور، وقال: يا رسول الله إنه ليس بحاضر[910]. ومنها أيضا الحجون، وهو موضع عند المحصب، وهو الجبل المشرف بحداء المسجد الذي يلي شعب الجزارين إلى ما بين الحوضين في حائط عوف، وقيل أيضا الحجون مقبرة أهل مكة اتجاه دار أبي موسى الأشعري[911]. قال أبو بكر ابن الأنباري : أنشدني أبي:

هيجتني إلى الحجـون شجــون ليتـه قد بدا لعينيّ الحجـون

حل في القلب ساكنون محلاّ من فؤادي يحلُّ فيه المسكين

كل داء لـه دواء وداء الحـب يـا صـاحـبي داء دفـــــين[912].

وعلى الحجون سقيفة زياد بن عبد الله أحد بني الحارث بن كعب، قال أبو ذويب:

ألكني إليــها وخـــير الرســو ل أعلمهــم بنــواحي الخـــير

بأيــه مـــا وقفـــت والركــا ب بين الحـــجون وبين السرر[913].

ومن آثارها الكريمة المسجد الذي بني فوق أول تربة مست جسد النبي (ص) الطاهر عند الولادة، فلم ير أحفل بناء منه، أكثره ذهب منزل به، والموضع الذي سقط فيه النبي (ص) ساعة الولادة المباركة محفوف بالفضة، يفتح هذا الموضع، فيدخله الناس كافة متبركين به، في شهر ربيع الأول، ويوم الاثنين منه، لأنه كان شهر مولد النبي (ص)، وفي اليوم المذكور[914]. ونذكر أيضا قبة

---

[909]ابن جبير، رحلة ابن جبير، المصدر السابق، ص93 .

[910]ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، المصدر السابق، ص135.

[911]عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، المصدر السابق، ص 183.

[912]جمال الدين بن محمد الجوزي،، مثير العزام الساكن إلى أشرف الأماكن، تحقيق: مرزوق علي إبراهيم، ج02، دار الدراية ،ط01، سنة 1421هـ/ 1995م، ص 94.

[913]السرر: على أربعة أميال من مكة، عن يمين الجبل، قد بنى هناك عبد الصمد بن علي مسجدا، وثم الشجرة التي سر تحتها سبعون نبيا. أنظر: أبو عبد الله البكري، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، ج01، المصدر السابق، ص 427.

[914]ابن جبير، رحلة ابن جبير، المصدر السابق، ص93 .

بين الصفا والمروة، تنسب لعمر بن خطاب رضي الله عنه، وفي وسطها بئر، يقال أنه كان يجلس فيها للحكم رضي الله عنه، والصحيح أن هذه القبة قبة حفيده عمر ابن عبد العزيز رضي الله عنه[915]، إزاء الدار المنسوبة إليه، وفيها كان يجلس للحكم أيام توليه مكة. وتشير إحدى روايات أشياخنا الثقات أن البئر كانت موجودة في القديم فيها، أما الآن كما دخلناها ألفيناها مسطحة، وهي حفيلة الصنعة[916].

ومنها أيضا الزاهر وهو على نحو ميلين من مكة على طريق التنعيم، وهو موضع على جانبي الطريق فيه أثر دور وبساتين وأسواق، وعلى جانب الطريق كان مستطيلا تصطف عليه كؤوس الشرب، وأواني الوضوء يملأها خدم ذلك الموضع من آبار الزاهر، وهي بعيدة القدر جدا، والخدم من الفقراء المجاورين، وأهل الخير يعينونه على ذلك لما فيه من مرفقة للمعتمرين من الغسل والشرب والوضوء[917].

ومسجد الحيف يقع في أصل جبل يميل الطريق الرابط بين منى[918] والمزدلفة، وهو مبنى من الحجارة المطردة أكثرها ملبسة بالجيار، السقف منه على ثلاثة بلاطات، وحول الصحن من جانب سقيفة على أقواس معقودة على أرجل من آجر ملبسة بالجيار، جميع ما في المسجد كله 185

[915]عمر ابن عبد العزيز بن مروان بن الحكم ابن أبي العاص الأموي، وأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولي إمارة المدينة للوليد ، وكان مع سليمان كالوزير، ولي الخلافة بعده، فعدّ من الخلفاء الراشدين، مات في رجب سنة 101هـ، ومدّة خلافته سنتان ونصف. أنظر: عبد الله بن الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه الإمام مالك ابن أنس وأصحابه، تحقيق: أحمد عبيد، عالم الكتب، بيروت، ط01، 1984م، ص (35 - 140).

-ابن سعد، الطبقات الكبرى، تحقيق: عبد القادر عطا، ج05، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1420 هـ / 1990م، ص ص(253 - 319).

-أبو بكر محمد بن الحسين البغدادي، أخبار أبي حفص عمر بن عبد العزيز، تحقيق: عبد الله عبد الرحيم عليان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط02، سنة 1400هـ /1980م، ص ص (47- 55).

[916]ابن جبير، رحلة ابن جبير، المصدر السابق، ص93 .

[917]ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، المصدر السابق، ص ص (138 - 139).

[918]منى بالكسر والتنوين، في درج الوادي الذي ينزله الحاج، ويرمي فيه الجمار من الحرم، سمي بذلك لما يمنى به من الدماء أي يراق أنظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج05، المصدر السابق، ص 190.

رجلا، طول المسجد 185 ذراعا، وله سبعة أبواب، وباب ثامن صغير في قبلة المسجد قريب من المحراب يؤدي إلى دار الإمام، وفي وسط صحنه منار قد تثلم أعلاه[919].

ومسجد المزدلفة[920] أسفل من مسجد الحرام على يسارك إذا مضيت إلى عرفات، وفيه يجمع ما بين المغرب والعشاء إذا نفرت من عرفات، لقول الرسول (ص): "الصلاة المناسك"[921]، وهو مبنى من الحجارة مطردة دون سقف، إنما هو حائط من جهاته الثلاث والوجه الرابع غير قائم، وليس له محراب، وفي القبلة حجر منقوش طول المسجد 73 ذراع، وعرضه 50 ذراعا ونصف ذراع، ويرقى إليه من دخله على 15 درجة، وله باب صغير نحو الكعبة[922].

---

[919] مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، المصدر السابق، ص 33.

[920] المزدلفة بالضم ثم السكون، والدال مفتوحة مهملة، ولام مكسورة، وفاء، اختلف فيها لما سميت بذلك. فقيل مزدلفة :منقولة من الازدلاف، وهو الاجتماع، وقيل الازدلاف الاقتراب، لأنها مقربة من الله عز وجل، أنظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج05، المصدر السابق، ص ص (120-121).

[921] رواه البخاري.

[922] مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، المصدر السابق، ص ص (33- 34).

المبحث الثاني: مدينة دمشق

دمشق[923] بكسر أوله، وفتح ثانيه، كهذا رواه الجمهور، والكسر لغة فيه، وشين معجمه، وآخره قاف، البلدة المشهورة قصبة الشام، وهي جنة الأرض بلا خلاف لحسن عمارة ونضارة بقعة، وكثرة فاكهة ونزاهة رقعة، وسميت بذلك لأنه دامشق في بنائها أي أسرع، وناقة دَمشْق، بفتح الدال، وسكون الميم سريعة، وناقة دمشقية اللّحم، أي خفيفة.

وتقع قاعدة الشام دمشق من حيث الطول ستون درجة (60°) والعرض أربع وثلاثون درجة (34°)، وفي الإصطرلبات ثلاث وثلاثون درجة (33°)، مثل بغداد وتونس[924].

1- أوليتها:

قد سميت باسم صاحبها الذي بناها، وهو دمشق بن قاني بن مالك أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام، وهذا قول ابن الكلبي [925]. وفي رواية أخرى أن جيرون بن سعد بن عاد بن عوض نزل دمشق وبنى مدينتها، وسماها جيرون، وهي إرم ذات العماد، وليس أعمدة الحجارة في موضع أكثر منها بدمشق[926]. ويذكر الحافظ: أنه وجد في بعض الكتب أن جيرون وبريد كانا أخوين، وهما ابنا سعد بن لقمان بن عاد، وهما اللذان يعرف باب جيرون، وباب البريد بدمشق بهما.

وفي رواية عن وهب بن منبه قال: "ودمشق بناها العازر غلام إبراهيم عليه السلام، وكان حبشيا، وهبه له نمرود بن كنعان حين خرج إبراهيم من النار، وكان اسم الغلام دمشق، وكان متصرفا في جميع مال إبراهيم عليه السلام [927].

وحكي أن دمشق كانت دار نوح عليه السلام، ومن جبل لبنان كان مبدأ السفينة، واستوت على الجودي، ولما كثر ولده نزلوا بابل السواد في ملك نمرود بن كوش أول ملك كان في

---

[923] ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج05، المصدر السابق، ص 463.

[924] علي ابن سعيد المغربي، الجغرافيا، المصدر السابق، ص ص (122 - 123) .

[925] عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، المصدر السابق، ص 237.

[926] أحمد بن يحي بن فضل الله القرشي العدوي، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج03، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ص509.

[927] المصدر نفسه، ص 509.

الأرض[928]، وروى مؤرخو أخبار العجم: "أنه في شهر أيار بنى دمشوش الملك مدينة جلق، وهي مدينة دمشق، وحفر نهرها بواد، ونقره في الجبل حتى جرى إلى المدينة"[929].

وقد اعترف الرحالة ابن بطوطة أن دمشق تفضل جميع البلاد حسنا وتتقدمها جمالا، وكل وصف، وإن طال فهو قاصر عن محاسنها، مشيرا إلى أنه لا أبدع من مما قاله أبو الحسن بن جبير رحمه الله في ذكرها[930]. قال ابن جبير: "وأمّا دمشق فهي جنة المشرق، ومطلع حسنه المؤنق، وهي خاتمة بلاد الإسلام التي استقريناها، وعروس المدن التي اجتليناها، قد تحلت بأزهار الرياحين في حلل سندسية من البساتين، وحلت من موضع الحسن بالمكان المكين، وتزينت في منصتها أجمل تزيين، وتشرفت بأن آوى الله تعالى المسيح وأمه صلى الله عليهما منها إلى الربوة ذات قرار مكين ومعين، وظل ظليل، وماء سلسبيل تنساب مذانبه انسياب الحيات بكل سبيل ورياض، يحي النفوس نسيمها العليل" [931].

ومما نظمه الشعراء في وصفها، وذكر محاسنها لا يحصى كثرة، منه قول ابن عنين [932]:

ويا جندا الوادي إذا ما تدفقت   جـــداول بأنـــاس إليـــه تسيـــل.

وله أيضا :

وتقول أهل دمشق أكرم معشـر   وأجله ودمشق أفضل منزل

وصدقت إن دمشق جنة هذه الـ   دنيا ولـــكن الجحيـــم الـــذّل [933].

[928] عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، المصدر السابق، ص 237.

[929] المصدر نفسه، ص 237.

[930] ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ج01، دار الشرق العربي، ص 62.

[931] ابن جبير، رحلة ابن جبير، المصدر السابق، ص ص (183- 184).

[932] هو محمد بن نصر الله بن مكارم بن الحسين بن عنين الأديب الرئيس، شرف الدين أبو المحاسن الكوفي الأصل، الزرعي المنشأ الدمشقي، ولد سنة 549هـ، سمع عن أبي القاسم بن عساكر، وكان من فحول الشعراء لاسيما في الهجاء، وكان علامة يستحضر ""الجمهرة" مات سنة 630هـ، عن عمر ناهز 81 سنة أنظر، صلاح الدين بن أبيك الصفدي، الوافي بالوفيات، تحقيق:أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى، ج05، دار إحياء التراث، بيروت، سنة 1420هـ /2000م، ص ص (83 - 58).

-خير الدين الزركلي، الأعلام،ج07، المصدر السابق، ص 125.

-شمس الدين بن قيماز الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج10، دار الحديث، القاهرة، سنة 1427 هـ /2006، ص 262.

--ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، ج05، المصدر السابق، ص ص (14 - 18).

وفيها نظم عرقلة الدمشقي [934]:

أمـا دمشـق فجنـات معجلـة ... للطالبـين بها الولدان والحـور

ما صـاح فيها علـى أوتاره قمر ... وإلا وعناه قـمري وشحرور

يا جنـدا ودروع المـاء تنسجـها ... أنامـل الريـح إلا أنهـا زور.[935]

ويقول أيضا :

مابين شطري ومغربي جنة سرحت ... أنهارها في خلال الآس والبان

يظل منثـورها في الأرض منتشـرا ... كأنما ضيـع من در ومرجـان

فالطير تصـدح في أغصانها سحرا ... هذا هو العيش إلا أنه فـاني[936].

وما نظمه أيضا :

الشام شامـة وجنـة الدنيا كمـا ... إنسان مقلتها الغضيضة جلق

من أسـها لك جنة لا تنقضـي ... ومن الشقيق جهنم لا تحـترق.[937]

وقال البحتري[938] في دخول المتوكل دمشق قصيدة مطلعها:

العيـش في ليل داريـا إذا بـردا ... والرّاح تمزجـها بالماء من بـردا

إذا أردت مـلأت العين من بلـد ... مستحسن وزمان يشبه البلدا

أما دمشـق فقد أبـدت محاسنـها ... وقد وفى لك مطريها بما وعدا

---

[933] صلاح الدين بن أبيك الصفدي، الوافي بالوفيات، ج05، المصدر السابق، ص 84.

[934] هو حسان بن نمير بن عجل، أبو الندى الكلبي الدمشقي، الشاعر النديم الخليع المطبوع، المعروف بعرقلة، توفي سنة 567هـ، وقد قارب الثمانين، وقد كان أعور رحمه الله. أنظر: محمد بن شاكر بن هارون، فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس، ج01، دار صادر، بيروت، ط01، سنة 1973م، ص ص (313- 315).

[935] ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ج01، دار الشرق العربي، المصدر السابق، ص64.

[936] أحمد بن يحي بن فصل الله القرشي العدوي العربي، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار،ج03، المصدر السابق، ص 513.

[937] ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة،ج01، ص64.

[938] هو الوليد بن عبيد بن يحي بن عبيد بن شمال بن جابر بن سلمة بن مسهر بن الحارث بن الخينم بن أبي الحارثة، ينتهي إلى يعرب ابن قحطان، أبو عبادة الطائي البحتري، الشاعر ولد بمنبج سنة 206هـ، وقيل سنة 205هـ، وقيل سنة 200هـ، توفي سنة 284هـ، وقيل سنة 285هـ، وقيل سنة 283هـ. أنظر: صلاح الدين بن أبيك الصفدي ،الوافي بالوفيات ،تحقيق: أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى، ج27، دار إحياء التراث، بيروت، سنة 1420هـ /2000م، ،ص ص (271- 276).

يمسى السحاب على أجبالها فرقا ويصبح النبت في صحرائها بددا

ولست تبصر إلا واكفا خصلا أو يانعا خضرا وطائـــرا غـردا

كأنمـا القيـــظ ولى بعد جيـئته أو الربيـــع دنا بعدمـــا بعـدا.[939]

وذكر الشيخ الرحالة المحدث شمس الدين أبو عبد الله محمد جابر ابن حسان القيسي الوادي آشي نزيل تونس، ونص كلام ابن جبير وقال: "لقد أحسن فيها وصف منها وأجاد، وتوق الأنفس للتطلع على صورتها بما أفاد، وهذا وإن لم تكن له بها أقامة، فيعرب عنها بحقيقة علامة، ولا وصف ذهيبيات أصيلها، وقد حارت من الشمس غروبها، ولا أزمان غغولها المنوعات، ولا أوقاف سرورها المنبهات، وقد اختص من قال: "ألفيتها كما تصف الألسن، وفيها ما تشتبه الأنفس، وتلذ الأعين".[940]

وقال فيها: أبو الحسن علي بن موسى سعد العنيسي الغرناطي المدعو نور الدين:

دمشـق منزلـــنا حيث النعيم بدا مكملا وهـو في الأفاق مختصر

القصب راقصة والطـير صادحـة والزهـر مرتفـع والمـاء منحـدر

قد تجلـت من الـــذات أوجهـها لكنـــها بطـلال الـدوح يستتر

وكـــل واد بـــه موســى بفجـره وكل روض على حافاتـه الخضر.[941]

ووصفها أبو الوحش الأسدي[942]:

سقى دمشـق اللـه عيـثا محسـنا مـن مستهـل ديـمة دهاقها

---

[939] ابن عساكر، تاريخ دمشق، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، ج02، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، سنة 1415هـ /1995م، ص ص (395- 396).

[940] ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ج01، المصدر السابق، ص ص (62- 63).

[941] المصدر نفسه، ص ص (64 -65).

[942] هو سبع بن خلف بن سعد أبو الوحش الأسدي، الأديب المعروف بوحيش تصغير وحش، شاعر دمشقي، مات في العاشر من رجب سنة 579هـ. أنظر: صلاح الدين بن أبيك الصفدي، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤووط، وتركي مصطفى، ج15، دار إحياء التراث، بيروت، ص ص (71- 72).

-شمس الدين بن قماز الذهبي، تاريخ الإسلام في وفيات الأعيان، تحقيق: بشار عواد معروف، ج12، دار الغرب الإسلامي، ط01، سنة 2003م، ص 627.

مدينـــة ليس يضاهـــي حسنـها في ســـائر الدنيـا ولا أفاقـها
تـــود زوراء العــــــراق أنـــــهـا منــــها ولا تعـزي إلى عراقها
فأرضـــها مثـــل السمـــاء بهجـــة وزهـــورها كالزهـــر في إشراقـها
نسيم روضـــها متى ما قد سرى أفتـك أخـا الهموم في وثاقـها
قـــد رتـــع الربيـــع فـي ربوعـها وسقـيت الدنـيا إلى أسواقـها
لا تسـأم العيـون والأنـوف من رؤيتـها يومـا ولا استنشاقـها. [943]

قال ابن جزي: وقد نظم بعض شعائرها في هذا المعنى:

إن لم تكن جنـــة الخلد بـأرض فـدمشـق ولا تكـون سـواهـا
أو تكون في السماء فهي عليها قـــد أبـدت هـواءها وهـواها
بـلـــد طـيـــب ورب غفـــور فاغتنمـــها عشيـــة وضحاها. [944]

2 _ عمارتها :

ودمشق مدينة جليلة وقلعتها مرحلة على الأرض يحيط بها وبالمدينة أسوار وخندق، بطون الماء منه بالقلعة مستقر السلطان التي يبلغ دورها 900 ذراع[945]، وإذا دعت الحاجة، انطلق على جميع الخندق المحيط بالماء فيها، وهي في وطأة مستوية، بارزة عن الوادي المنحط عن منتهى ذيل الجبل، مكشوفة الجوانب لمر الهواء إلا من الشمال، فإنه محجوب بجبل قاسيون[946]. وعمارة أبنية مدينة دمشق حسنة الترتيب، وهي من الحجر والخشب والآجر، مصبب بين مداسك البناء

[943] ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ج01، المصدر السابق، ص64.
[944] المصدر نفسه، ص 63.
[945] حسني بن يزيد السرافي، رحلة السيرافي، المجمع الثقافي، أبو ظبي، سنة 1964، ص 100.
[946] قاسيون: جبل في شمال دمشق، والصالحية في سفحه، وهو شهير البركة لأنه مصعد الأنبياء عليهم السلام، ومن مشاهدة الكريمة الغار الذي ولد فيه إبراهيم عليه السلام، وهو غار مستطيل ضيق عليه مسجد كبير، وله صومعة عالية، ومنه رأى سيدنا إبراهيم الكواكب والقمر والشمس، حسب ما ورد في الكتاب العزيز، وهو على مقدار فرسخ من مدينة دمشق. أنظر: ابن جبير، رحلة ابن جبير، المصدر السابق، ص 192.

بالخشب الملبن، وخشبها من خير أخشاب الأرض، يسمى الحور، الذي يتميز ببقائه في مكانه متماسكا عند الانكسار عدة سنين.[947]

لهذه البلدة ثمانية أبواب، قال ابن جزي: لقد أحسن بعض المتأخرين من أهل دمشق في قوله :

دمشــق في أوصافــها جنـة خلـد راضيـة
أمـــا تــــرى أبوابهـا قـد جعلـت ثمانية. [948]

ومنها: باب شرقي فيه منارة بيضاء، يذكر أن النبي عيسى عليه السلام ينزل فيها، ويلي هذا الباب توما، وهو أيضا في حيز الشرق، ثم باب السلامة، وباب الفراديس من جهة الشمال، ثم باب الفرح، ثم باب النصر وهو غربي[949]؛ثم باب الجابية الذي تمد عرض الأرض أشجار وعمارات، ويشقها خمسة أنهار، وهي غربية كذلك[950]،ثم باب الضيع وهو بين الغرب والقبلة وأشرف هذه المدينة ما قرب من جامعها، وبها الديار الجليلة المذهبة السقوف المفروشة بالرخام،ومنها ما هو مرموز الحيطان بالرخام، والنوع المفصل بالصدق والذهب، وبرك الماء الجارية، وبها الطباق الرفيعة، والأسواق المليحة الترتيب والقياسر الحصينة، وبها الصناع المهرة في فن[951].

والبلد ليس بمفرط في الكبر، وهو مائل للطول، وسككه ضيقة مظلمة، وبناؤه طين وقصب طبقات بعضها فوق بعض، وهو كله ثلاث طبقات فيحتوي من الخلق ما تحتوي ثلاث مدن لأنه أكبر بلاد الدنيا خلقا، وحسنة كله خارج لا داخل[952].

وبالبلدة نحو عشرين مدرسة ومارستانا[953]،قديم وحديث، والحديث أحلفها وأكبرها، وجرايتة في اليوم نحو الخمسة عشر دينارا، وله قومه برسم المرضى، والنفقة التي يحتاجون إليها من

[947] أحمد بن يحي بن فصل الله القرشي العدوي، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج03، المصدر السابق،ص ص(517- 518).

[948] ابن بطوطة، مهذب رحلة ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 71.

[949] ابن جبير، رحلة ابن جبير، المصدر السابق، ص197.

[950] الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج01، المصدر السابق، ص 368.

[951] أحمد بن يحي بن فصل الله القرشي العدوي العربي، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار،ج03، المصدر السابق،ص ص(518 – 519).

[952] ابن جبير، رحلة ابن جبير، المصدر السابق، ص 193.

الأدوية والأغذية، والأطباء يبكرون في كل يوم، ويأمرون بإعداد ما يصلحهم من الأدوية والأغذية، وفيه مجانين معتقلون لهم يحتاجون من العلاج، وهم في سلاسل موثقون[954].ومن أهم المدارس الشافعية بدمشق المدرسة العادلية، وفيها يحكم قاضي القضاة وتقابلها المدرسة، وبها قبر الملك الظاهر[955]،بها جلوس نواب القاضي، ذكر ابن بطوطة: "عددا منهم كفخر الدين القبطي الذي كان والده من قبط فأسلم، وجمال الدين بن جملة[956]، الذي تولى القضاء بعد ذلك، وعزل لأمر أوجب عزله. ومن أحسن مدارس الدنيا مدرسة نور الدين رحمه الله، وهي قصر من القصور الأنيقة ينصب منها الماء وسط نهر عظيم، ثم يمتد في ساقية مستطيلة إلى أن يقع في صهريج كبير وسط الدار فتحتار الأبصار في حسن ذلك المنظر[957].

ولهذه المدينة حواضر فسيحة في أرجاءها الأربع، والماء الحاكم من جميع نواحيها بإحكام متقن، وأهم حواضرها ما هو في جانبها الغربي والشمالي، فأما الغربي فإنها تفضي من تحت القلعة بها في ساحة فسيحة هي سوق الخيل على ضفة الوادي، وفي الميدان القبلي القصر الأبلق، بناه الملك الظاهر بيبرس البندقداري الصالحي، وهو طاهر من وجه الأرض إلى نهاية أعلاه بالحجر الأسود والأصغر مدماكا بتأليف غريب وإحكام عجيب، يدخل إليه على الجسر راكبا بعقد على مجرى الوادي إلى إيوان، ثم يدخل إلى القصر من دهاليز فسيحة، مشتمل قاعات ملوكية، تستوقف

---

[953]مفرده مارستان: دار الشفاء، وبيمارستان، ومارستان بالفارسية، وهي مأخوذة من بيمار بمعنى مرض، وستان لاحقة تفيد المكان، والكلمة فارسية. أنظر: ابن بطوطة، مهذب ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 70.

[954]عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، المصدر السابق، ص238 .

[955]هو بيبرس بن عبد الله السلطان الأعظم، الظاهر ركن الدين أبو الفتح الصالحي، سنة 625هـ، تولى الحكم بعد مقتل السلطان قطز، توفي سنة 676هـ. أنظر: صلاح الدين خليل بن أبيك الصفدي، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى، ج10، دار إحياء التراث، بيروت ص ص (207 - 218).

[956]هو القاضي ابن جملة يوسف بن إبراهيم بن جملة المحجي، ثم الصالحي الشافعي الأشعري، قاضي قضاة الشام، ولد سنة 696هـ، تولى القضاء نيابة لقاضي القضاة جلال الدين توفي سنة 733هـ، وعزل سنة 734هـ، وسجن إلى غاية سنة 736هـ، توفي سنة 738هـ. أنظر: صلاح الدين خليل بن أبيك الصفدي، أعيان العصر و أعوان النصر، تحقيق: علي أبو زيد نبيل أبو عشمة ومحمد موعد ومحمود صلاح، ج05، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط01، سنة 1418هـ/1998م، ص ص (595- 597).

[957]ابن جبير، رحلة ابن جبير، المصدر السابق، ص198 .

الأبصار وتستوهب الشموس من أشعتها الأنوار بالرخام الملون قائما في مفارشها، وصدورها، وأعاليها، وأسافلها مموهة بالذهب، والفص المذهب، وأزر من الرخام إلى سجق السقوف[958].

والدار الكبرى بها أيونان متقابلان، تطل شبابيك شرفيها على الميدان الأخضر الممتد شرقيها وغربيها على شاطئ الوادي المخضر، والنهر بها كأنه ذوائب فضة تشرف من جهاتها الأربع على جميع المدية، والغوطة، والوادي كامل المنافع بالبيوت الملوكية، والاصطبلات السلطانية، والحمامات، والمنافع المكملة لسائر الأغراض، واتجاه باب القصر من الساحة إلى الميدان الشمالي أبنية جليلة من بيوت، ومناظر، ومساجد، ومدارس، وأربطة، وخوانق[959]،وزوايا، وحمامات ممتدة على جانبي طول الوادي.

وبهذه المدينة قرب مائة حمام فيها وفي أرباضها، وفيها نحو أربعين دارا للوضوء يجري الماء فيها كلها، وليس في هذه كلها بلدة أحسن منها للغريب لأن المرافق بها كثيرة، وأسواقها من أحفل أسواق البلاد، وأحسنها انتظاما، وأبدعها وضعا، لاسيما قيصرياتها فهي مرتفعات كأنها الفنادق، مثقلة كلها بأبواب من حديد كأنها أبواب القصور، وكل قيصرية منفردة بصيغتها. ولها سوق يعرف بالسوق الكبير يتصل بباب الجابية إلى باب شرقي، فيه بيت صغير جدا قد اتخذ مصلا، وفي قبلته حجر يقال أن إبراهيم عليه السلام كان يكسر به الآلهة التي كان يسوقها أبوه للبيع[960].وأما رباطات الصوفية التي يدعونها الخوانق، فهي كثيرة يبلغ عددها ست وعشرون، وهي قصور مزخرفة وفي جميعها ماء يطرد، وهناك ديار موقوفة لقراءة كتاب الله تعالى يسكنونها[961]،ومن أهم خوانق

[958]أحمد بن يحي بن فضل الله القرشي العدوي العربي، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج03، المصدر السابق، ص ص (516 - 519).

[959]الخنقاه كلمة فارسية قيل: أصلها خونكاه، أي الموضع الذي يأكل فيه الملك، وهي زاويا الصوفية، أي: الأماكن التي يأوي إليها رجال التصوّف لعقد مجالس الذكر والعبادة، ولم تعهد على هذا النمط إلاّ في القرن السادس هجري. أنظر: محمد كرد علي، خطط الشام، ج06، مكتبة النوري، دمشق، ط3، سنة 1403ه/1983م، ص 130.

[960]ابن جبير، رحلة ابن جبير، المصدر السابق، ص 202.

[961]عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، المصدر السابق، ص 240.

دمشق: نذكر الأسدية داخل باب الجابية، بدرب الهاشمية قديما بناها أسد الدين شركوه[962]،وولي مشيختها نجم الدين بن القرشية العباسي.

الإسكافية: كانت على نهر يزيد في سفح جبل قاسيون، أنشأها شرف الدين ابن الإسكافي[963].

الباسطية: كانت بالجسر الأبيض غرب الأسعودية، وشمالي العزية، أنشأها عبد الباسط بن خليل ناظر الجيوش بعد الثمانمائة، وولي مشيختها قاضي القضاة الباغوني.

الخاتونية: ظاهر باب النصر المعروف بدار السعادة، أول الشريف القبلي، على نهر بانياس شرقي جامع تنكرز، وملاصقة له مشوبة إلى خانون بنت معين الدين زوجة نور الدين[964].

والأوقاف بدمشق لا تحصر أنواعها ومصاريفها لكثرتها، فمنها أوقاف على العاجزين عن الحج يعطاها من يحج عن الرجل منهم كفايتها، ومنها أوقاف تجهيز البنات إلى أزواجهن، وهن اللواتي لا قدر لأهلهن على تجهيزهن، ومنها أوقاف لفكاك الأسرى، ومنها أوقاف لأبناء السبيل، يعطون ما يأكلون ويلبسون، ويتزودون لبلادهم، ومنها أوقاف على تعديل الطريق ورصفها، لأن أزقة دمشق لكل واحد منها رصيفان في جنبيه يمر عليهما الراجلون، ويمر الركبان بين ذلك، ومنها أوقاف لسوى ذلك من أفعال الخير[965].

وفي داخل مدينة دمشق كنيسة لها عند الروم شأن عظيم، تعرف بكنيسة مريم، وليس بعد بيت المقدس عندهم أفضل منها، وهي حفيلة البناء، تتضمن من التصاوير أمرا عجيب تبهت الأفكار، وتستوقف الأبصار، ومرآها عجيب، وهي بأيدي الروم ولا اعتراض عليهم فيها[966]. وأما

---

[962] هو الحارث شركوه بن شادي بن مروان، الملقب بالملك المنصور، أسد الدين عم صلاح الدين، تولى الوزارة يوم 17 ربيع الثاني سنة 564هـ بالقاهرة، وأقام بها شهرين، ثم توفي ودفن بالقاهرة، ثم نقل إلى مدينة رسول الله (ص) بوصية منه. أنظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، ج02، ط01، سنة 1994، دار صادر، بيروت، ص ص (479-481).

-ابن عساكر، تاريخ دمشق، تحقيق:عمرو بن غرامة، ج23، دار الفكر للطباعة والنشر، سنة 1415هـ/1995م، ص 284.

[963] محمد علي كرد، خطط الشام، ج06، المصدر السابق، ص 131.

[964] المصدر نفسه، ص 131.

[965] ابن بطوطة، مهذب رحلة ابن بطوطة، المصدر السابق، ص74 .

[966] ابن جبير، رحلة ابن جبير، المصدر السابق، ص194 .

حاضر دمشق الشمالي فهو العقبة[967]، وهو مدينة مستقلة بذاتها ذات جوامع ومساجد ومدارس ورباطات وزوايا وأسواق حليلة وحمامات، وبها ديار كثيرة للأمراء والجند.

ونهر بردى[968] الذي ينبعث من جبالها، فيجتازها فيسقيها، ويسقي الغوطة، ويصب في بحيرة دمشق[969]. والماء خارج من صدع في نهاية سفح الجبل، وقد عقد على المخرج مائة قبو رومي البناء، ثم ترفده منابع مجرى النهر، ثم يقسم النهر إلى أربعة: اثنتان عن اليمين، واثنتان عن الشمال، مرفوعان على مجرى النهر في قرارتي الوادي، وعليه التفاف البساتين ممتدة من الجانبين إلى أن يمر بالمكان المسمى بالربوة، الواقعة في سفح جبل قاسيون المذكور في كتاب الله ذات القرار المكين، مأوى المسيح وأمه عليهما السلام في قوله تعالى: "وآويناهما إلى ربوة ذات قرار مكين"[970]. وهي من أجمل مناظر الدنيا ومنتزهاتها، وبها القصور المشيدة، والمباني الشريفة، والمباني البديعة، وهي كالقصر المشيد، ويصعد إليها على أدراج[971]. والمأوى المبارك مغارة صغيرة في وسطها كالبيت الصغير، وإزائها بيت يقال إنه مصلى الخضر عليه السلام، يبادر الناس إلى الصلاة فيه، وللمأوى باب حديد صغير، والمسجد يدور به، وله شوارع دائرة، وسقاية حسنة ينزل لها الماء من علو، وينصب في شاذروان في الجدار يتصل بحوض من الرخام، ويقع الماء فيه، ولا نظير له في الحسن وغرابة الشكل[972].

وهذه الربوة المباركة رأس بساتين البلد، وينقسم الماء فيها على سبعة أنهار، يأخذ كل نهر طريقه، وأكبر هذه الأنهار نهر ثورة، وهو يشق تحت الربوة، وقد نقر له في الحجر الصلد أسفلها حتى انفتح له متسرب واسع كالغار، وربما انغمس ذو الجسارة من السباحين في النهر، من أعلى

---

(967) أحمد بن يحي بن فصل الله القرشي العدوي العربي، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج03، المصدر السابق، ص521 .

(968) بردى :بفتح حروفها كلها، وهو على وزن فعلى، وهو نهر دمشق، قال حسان بن ثابت :

سيقون من ورد البريص عليهم   بردى يصفق بالرحيق السلسل.

أنظر: أبو عبد الله البكري، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع،ج01، المصدر السابق، ص 290.

(969) أبو عبد الله البكري، المسالك والممالك، ج01، المصدر السابق، ص 273.

(970) سورة المؤمنون، الآية: 50.

(971) ابن جبير، رحلة ابن جبير، المصدر السابق، ص 193.

(972) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 98.

الربوة واندفع في الماء حتى يشق مجراه ويخرج من أسفل الربوة، وهي مخاطرة عظيمة[973]. ومنظر هذا الوادي من أعجب المناظر لتراكم الظل والماء، وأطلال الشمس، وأفراش الجبلين المحدقين به، في أرضه البنفسج تحت أشجار متمايلة على غصون البان، تنفتح بينهما خدود الورد، ويفتر مباسم الياسمين، وتندلف ألسن السوسن، ويتجاوب فيه هدير الماء والحمام، وقد بنى الملك العادل الشهير بنور الدين محمود زنكي[974]، بها المقام المعروف بمهد عيسى عليه السلام[975]، وهذه الربوة تشرف على البساتين الدائرة بالبلدة، ولها من الحسن واتساع مسرح الأبصار ما ليس لسواها، وتلك الأنهار السبعة تذهب في طرق شتى، فتحار الأعين في حسن اجتماعها وافتراقها، واندفاعها وانصبابها. وجمال الربوة وحسنها التام أعظم من أن يحيط به الوصف، ولها من الأوقاف الكثيرة من المزارع والبساتين والرباع، تقام منها وظائفها للإمام والمؤذن والصادر والوارد[976]. ويتصل بالربوة وبأسفل منها، قرية كبيرة تعرف بالنيرب[977] قد غطتها البساتين فلا يظهر منها إلا ما سما بناؤه، وبها جامع لم يرى أحسن منه، مفروش سطحه كله بفصوص من الرخام الملوّن، فيخيل لناظره أنه ديباج مبسوط، وبه في بيت من الجهة الشرقية قبر يذكر أنه للأم مريم رضي الله عنها، وفيه سقاية ماء رائقة الحسن، ومطهرة لها عشرة أبواب يحمي بها الماء ويحيط بها، وبها حمام[978].

---

(973) ابن جبير، رحلة ابن جبير، المصدر السابق، ص 193.

(974) هو أبو القاسم محمود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر، الملقب بالملك العادل نور الدين، ولد في 17 شوال سنة 511هـ، توفي 11 شوال سنة 569هـ، بقلعة الخوانيق. أنظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، ج05، ط01، سنة 1994، دار صادر، بيروت، ص ص (184-187).

-شمس الدين بن قيناز الذهبي، العبر في أخبار من عبر، ج04، المصدر السابق، ص58.

-عفيف الدين اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، تحقيق: خليل المنصور، ج03، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1417هـ/1997م، ص291.

(975) أحمد بن يحي بن فضل الله القرشي العدوي العربي، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج03، المصدر السابق، ص 522.

(976) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، المصدر السابق، ص98.

(977) النيرب قرية قرب دمشق بجانبها قبر أم مريم عليها السلام، أنظر: أبو الحسن الهروي، الإشارات إلى معرفة الزيارات، المكتبة الثقافية الدينية، القاهرة، ط01، سنة 1423هـ، ص20.

(978) ابن جبير، رحلة ابن جبير، المصدر السابق، ص ص (194-197).

وفي قبلة من هذه القرية قرية المزة[979]، وتعرف بمزة كلب نسبه إلى قبيلة كلب بن ويزة بن ثعلبة بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة[980]، وكانت إقطاعا لهم وإليها ينسب الإمام حافظ الدين جمال الدين يوسف بن الزكي الكلبي المزي[981]، وكثير من العلماء، وهي من أعظم قرى دمشق بها جامع كبير عجيب، وسقاية معينة[982].

وبغربي مدينة دمشق جبانة كثيرة تعرف بقبور الشهداء دفن بها كثير من الصحابة والتابعين والأئمة الصالحين رضوان الله عليهم، فالمشهور بها من قبور الصحابة رضي الله عنهم، قبر أبي الدرداء[983]، وزوجته أم الدرداء[984] رضي الله عنهما. وهو موضع مبارك فيه تاريخ قديم مكتوب

---

[979] مزة بالكسر ثم التشديد، أظنه عجميا، فإني لم أعرف له في العربية مع كسر الميم معنى، وهي قرية كبيرة غناء في وسط بساتين دمشق،، بينها وبين دمشق نصف فرسخ، وبها يقال قبر دحية الكلبي صاحب رسول الله صلى الله علية وسلم. أنظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج05، المصدر السابق، ص122.

[980] يقال أن قضاعة هو ابن معد بن عدنان، ويقال هو من حمير، ومن نسبهم عمرو بن مالك بن عمرو بن مرة بن زيد بن مالك بن حمير بن سبأ، ولقبه قضاعة، قال الشاعر:

قضاعة بن مالك بن حمير النسب المعروف غير المذكر.

أنظر: عبد الكريم السمعاني، الأنساب، تحقيق: عبد الرحمن بن يحي المعلمي اليماني وآخرون، ج10، دار المعارف العثمانية، حيدر أباد، ط01، سنة 1382هـ/1962م، ص ص (446-447).

[981] هو يوسف ابن زكي الدين عبد الرحمن بن يوسف، العلامة الحافظ البارع، أستاذ الجماعة، جمال الدين أبو الحجاج محدث الإسلام الكلبي القضاعي المزي الدمشقي الشافعي، ولد بحلب سنة 654هـ، ونشأ بالمزة، قرأ العربية وأكثر من اللغة والتصريف، صنف وأفاد، وله إسناد صحيح، توفي سنة 742هـ. أنظر: شمس الدين بن قيماز الذهبي، معجم الشيوخ،تحقيق: محمد الحبيب الهيلة، ج02، مكتبة الصديق، الطائف، سنة 1408هـ/1988م، ص ص (389- 390).

-محمد بن شاكر، فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس، ج04، دار،صادر، بيروت، ط01، سنة 1974، ص ص(353-354).

-صلاح الدين بن أبيك الصفدي: أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق: علي أبو زيد وآخرون ، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط01، سنة 1418هـ/1998، ص ص (644- 649).

[982] ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 99.

[983] هو عمير بن زيد بن قايس بن عائشة بن أمية بن مالك ابن عامر بن عدي بن الكعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج ،خرج إلى الشام فنزل بها إلى أن مات، اشتغل على القضاء، توفي بدمشق سنة 32هـ في خلافة عثمان بن عفان. أنظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، تحقيق: محمد بن عبد القادر عطا، ج07، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1410هـ/1990م، ص ص(474-476).

-محمد بن حبان، الثقات، تحقيق: محمد عبد المعيد خان، ج01، دار المعارف العثمانية، حيدر أباد، ط01، سنة 1393هـ/ 1973م، ص 285.

-يوسف بن عبد الله النمري القرطبي، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: محمد البيجاوي، دار الجيل، بيروت، ط01، سنة 1412هـ/1992م، ص 1648.

عليه: "في هذا الموضع قبر جماعة من الصحابة رضي الله عنهم فضالة بن عبيد، وسهل بن الحنظلة[985]، من الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة وخال المؤمنين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه[986]، وقبره مسنم في الموضع المذكور، ومن المشاهد المباركة أيضا بالجبانة الغربية، وبمقربة من باب الجبانة، قبر أويس القرني[987]رضي الله عنه، وقبور خلفاء بني أمية رحمهم الله، ويقال أنها بإزاء الباب الصغير بمقربة من الجبانة المذكورة، وعليها اليوم بناء يسكن فيه

3- الجامع الأموي:

يعدّ هذا الجامع من أشهر الآثار الإسلامية ويقال له جامع بني أمية، والجامع الأموي (الصورة 39)، والجامع المعمور[988]، هو من أشهر جوامع الإسلام حسنا، وإتقان بناء، وغرابة

---

[984] هي خيرة بنت حدود أم الدرداء، وقيل اسمها هجيمة بنت حي الوصانية، روت عن أبي الدرداء في الصوم، واللعان، والدعاء، وروى عنها إسماعيل ابن عبد الله بن حيان الدمشقي، وزيد بن أسلم، وأبو حازم بن دينار وغيرهم، توفيت قبل أبي الدرداء. أنظر: أحمد بن علي بن منجويه، رجال صحح مسلم، تحقيق: عبد الله الليثي، دار المعرفة، بيروت، ص 422.

[985] هو سهل بن الربيع بن عمرو بن عدي الأنصاري الأوسي، من بني حارثة بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس الأنصاري، والحنظلية أمه، وقيل أم جده، كان ممن بايع الرسول (ص)، تحت الشجرة ، وكان فاضلا، معتزلا عن الناس، كثير الصلاة، وسكن دمشق ومات بها أول خلافة معاوية. أنظر: ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق: محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، ج01، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1415هـ/1994م، ص 571.

-ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، ج03، دار الكتب العلمية بيروت، ط05، سنة 1415هـ، ص ص (160- 168).

-ابن سعد، الطبقات الكبرى، تحقيق محمد عبد القادر عطا، ج07، المصدر السابق، ص281.

[986] ابن جبير، رحلة ابن جبير، المصدر السابق، ص 195.

[987] هو أويس بن عامر بن جزء بن مالك بن سعد بن عصوان بن قرن بن سيد التابعين، قتل يوم صفين مع علي كرّم الله وجهه، سنة 37هـ. أنظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، تحقيق: محمد بن عبد القادر عطا، ج06، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1410هـ/1990م، ص ص (204- 206).

-محمد بن حبان، الثقات، تحقيق: محمد عبد المعيد خان، ج04، دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، ط01، سنة 1393هـ/ 1973م، ص ص (53- 54).

-أبو أحمد الجرجاني، الكامل في ضعفاء الرجال، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي معوض، دار الكتب العلمية بيروت، ط01، سنة 1408هـ/1997م، ص ص (109- 110).

[988] عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي، الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، ج02، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1410هـ/1990م، ص 285.

صنعة، وأحفل تنميق وتزيين، وشهرته المتعارفة في ذلك تغني عنه استغراق الوصف فيه. ومن عجيب شأنه أنه لا تنسج فيه العنكبوت ولا تدخله، ولا تلم الطير المعروفة بالخطاف[989].

أ- نبذة عن تاريخ تشيده: وقد بناه الوليد بن عبد الملك بن مروان، وكان داهية في عمارة المساجد، وكان الابتداء في عمارته سنة 87هـ، وقيل في سنة 88هـ[990]، ويذكر المسعودي الذي زار هذا الجامع سنة 333 هـ/ 944 م غير هذه السنة: " فيؤرخ بداية إنشائه 86هـ، وأن العمل استمر فيه حتى نهاية عصر الوليد سنة 96هـ، وهي السنة التي توفي فيها[991]. وخطب الشيخ سراج الدين بن الصيرفي على منبره في مكانه المعتاد بعد العمارة[992].

وكان موضع المسجد كنيسة يحنى المعمدان، فلما فتح المسلمون دمشق دخل خالد ابن الوليد رضي الله عنه من إحدى جهاتها بالسيف، فانتهى إلى نصف الكنيسة، ودخل أبو عبيدة ابن الجراح[993] رضي الله عنه من الجهة الغربية صلحا، فانتهى إلى نصف الكنيسة[994] فصنع المسلمون من نصف الكنيسة الذي دخلوه عتوه مسجدا، وبقي النصف الذي صالحوا عليه كنيسة[995].

---

[989] ابن جبير، رحلة ابن جبير، المصدر السابق، ص 174.

[990] ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج02، المصدر السابق، ص 465.

[991] حسني محمد نويصر، الآثار الإسلامية، المرجع السابق، ص 127.

[992] شمس الدين بن علي ين حماروية بن طولون، مفاكهة الخلان وحوادث الأعيان، تحقيق: خليل منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط03، سنة 1418هـ/1998م، ص32.

[993] وأسمه عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال ابن أهيب بن ضبة بن الحارث بن فهد، أسلم مع عثمان بن مظعون وعبد الرحمن ابن عوف، قبل دخول الرسول(ص) دار الأرقم، وشهد بدرا، وثبت يوم أحد مع الرسول (ص)، وشهد الخندق والمشاهد كلها مع رسول (ص)، وكان من علية أصحابه، مات في طاعون سنة 18هـ، في خلافة عمر بن الخطاب عن عمر يناهز 58سنة. أنظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج03، المصدر السابق، ص ص (312- 317).

-النسائي، فضائل الصحابة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1405هـ، ص ص(29-30).

-أبو نعيم، معرفة الصحابة، تحقيق: عادل بن يوسف الغزاري، ج01، دار الوطن العربي للنشر، الرياض، ط01، سنة 1419هـ/ 1990، ص ص(149- 154).

-أبو الوليد سليمان القرطبي الباجي الأندلسي، الجرح والتعديل لمن خرج له البخاري في الجامع الصحيح، تحقيق: أبو لبابة حسين، ج03، دار اللواء للنشر والتوزيع، الرياض ط01، سنة 1406هـ/1986، ص 987.

[994] أبو عبد الله الواقدي، فتوح الشام، ج01، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1417هـ/1997م، ص83.

[995] ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، المصدر السابق، ص93.

ولما ولي معاوية بن أبي سفيان الخلافة أراد أن يزيد كنيسة يوحنا في المسجد بدمشق، فأبى النصارى ذلك فأمسك، ثم طلبها عبد الملك ابن مروان في أيامه لزيادة في المسجد، وبدل لهم مالا فأبوا أن يسلموها، ثم أن الوليد بن عبد الملك جمعهم في أيامه، وبدل لهم مالا عظيما على أن يعطوه إياها فأبوا، فقال:"لئن لم تفعلوا لأهدمنها"، فقال بعضهم: يا أمير المؤمنين إن من هدم كنيسة جن وأصابته عاهة فأحفظه قوله، ودعا بمعول وجعل يهدم بعض حيطانها بيده، ثم جمع الفعلة فهدموها وأدخلها في المسجد[996].ولهذا الغرض جمع الوليد البنائين والصناع والمواد الخام من كل الأقطار والأمصار التي خضعت للدولة الإسلامية، وكتب إلى ملك الروم بالقسطنطينية يأمره بأشخاص اثني عشرا ألفا من الصناع من بلاده، وتقدم إليه بالوعيد في ذلك أن توقف عنه، فامتثل لأمره مذعنا بعد المراسلة جرت بينهما في ذلك[997].

ذرع المسجد في الطول من الشرق إلى الغرب 200 خطوة، وهي 300 ذراع، وعرضه من القبلة إلى الجوف 135خطوة وهي 200ذراع[998]، وهو يتألف من صحن عرضاني، وحرم متجه نحو القبلة، ومن ثلاث مآذن، وتقدر المراجع الحديثة مساحته 15229 م^2، أي يبلغ طوله 108م، وعرضه 98م[999].

ب- عمارة الجامع : يتكوّن الجامع من ثلاثة بلاطات مستطيلة من الشرق إلى الغرب، سعة بلاط منها 18 خطوة، والخطوة نصف ذراع، وقد قامت على 68 عمودا منها 54سارية، لها أرجل جصية، تتخللها 02 مرخمة ملتصقة معها في الجدار الذي يلي الصحن، و04مرخمة أبدع ترخيم، مرصعة بفصوص من الرخام الملوّن، وقد نظمت خواتيم وصورت محاريب وأشكالا غريبة[1000]، وهي تحمل قبة الرصاص التي هي أمام المحراب المسماة بقبة النسر مع القبة التي تلي المحراب[1001]،

(996)أحمد بن يحي البدلاوي، فتوح البلدان، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط01، سنة 1988، ص ص(127- 128).
(997)ابن جبير، رحلة ابن جبير، المصدر السابق، ص184.
(998)ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة،ج01، دار الشرق العربي، المصدر السابق، ص66.
(999)عفيف يهنسي، الفن العربي الإسلامي في بداية تكونه، المرجع السابق، ص 38.
(1000)ابن جبير، رحلة ابن جبير، المصدر السابق،ص185.
(1001)ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة،ج01، المصدر السابق، ص60.

سعة كل رجل 10 شبرا، وطوله 20 شبرا، وبين كل رجل ورجل في الطول 17خطوة، وفي العرض 13خطوة، فيكون دور كل رجل منها 72شبرا. ويتجه صحن الجامع عرضيا نحو القبلة حيث الحرم، ويبلغ الطول 121م، وعرضه 49م، (الشكل 12). وفيه ثلاث قباب إحداهما في غربيه وهي أكبرها وتسمى قبة عائشة أم المؤمنين، وهي قائمة على 08 سوار من الرخام مزخرفة بالفصوص والأصبغة الملونة مسقفة بالرصاص[1002]، وعليها قبة رصاص كأنها التنور العظيم الاستدراة يقال أنها كانت مخزنا لمال الجامع، الذي له مال عظيم من خراجات ومستغلات تنيف على 800 دينارا صورية في السنة، وهي15 ألف دينار مؤمنية، أو نحوها[1003]. ويذكر ابن بطوطة: "أن فوائد مستغلات الجامع وجباته تقدر بنحو 25 ألف دينارا ذهبا كل سنة"[1004].

والقبة الثانية في شرقي الصحن على هيئة الأخرى إلا أنها أصغر منها، قائمة على ثمان من سواري الرخام، وتسمى قبة زين العابدين[1005]. وقبة صغيرة وسط الصحن، مجوفة مثمنة، من الرخام قد ألصق أبدع إلصاق قائمة على أربع أعمدة صغار من الرخام، وتحتها شباك حديد مستدير، وفي وسطه أنبوب من الصفر يمج الماء إلى علو، فيرتفع وينثني، يشرب الناس إليه لوضع أفواههم فيه للشرب استظرافا له واستحسانا، ويسمونه قفص الماء[1006].

ويحيط بالصحن من جهاته الثلاث عدا الجنوبية رواق عال محمول على أعمدة مربعة في الواقع هي عضادات حجرية مكسوة بالكلس مع زخرفة بسيطة، وأعمدة اسطوانية، بمعدل عمودين بين كل عضادتين، وهذه العضادات والأعمدة تحمل أقواسا، وفوقها قناطر تحمل تغطية الأروقة، هذا ما عبر عنه ابن بطوطة بقوله: "وتستدير بالصحن بلاطات ثلاثة من جهاته الشرقية والغربية والجوفية سعة كل بلاطة عشرة خطا، وبها من السواري ثلاث وثلاثون، ومن الأرجل 14،

[1002] ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ج01، المصدر السابق، ص 67.

[1003] ابن جبير، رحلة ابن جبير، المصدر السابق،ص185.

[1004] ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ج01، المصدر السابق، ص67 .

[1005] المصدر نفسه، ص 67.

[1006] ابن جبير، رحلة ابن جبير، المصدر السابق،ص187.

وسعة الصحن مائة ذراع"[1007]، ويضيف ابن جبير: "وعلى تلك الأعمدة أبواب مقوسة، تقلها أعمدة صغيرة تطوف بالصحن كله، ومنظر هذا الصحن من أجمل المناظر وأحسنها، وفيها مجتمع أهل البلد، وهو متفرجهم ومنتزهم، كل عشية تراهم فيه ذاهبين وراجعين من شرق إلى غرب، من باب جيرون إلى باب البريد"[1008].

يقطع الأجنحة الثلاثة، جناح متوسط يتصل بين المحراب والصحن يسمى المجاز القاطع، بني لتحديد جهة القبلة، وموضع المحراب الذي تعلوه قبة النسر، (الصورة 41) التي هي من منجزات الوليد، وصفها ابن جبير بقوله: "وأعظم ما في هذا الجامع قبة الرصاص المتصلة بالمحراب وسطه سامية في الهواء، عظمية الاستدارة قد اتصل بها هيكل عظيم، هو غارب لها متصل من المحراب إلى الصحن، وتحته ثلاث قباب: قبة قد تصل بالجدار الذي إلى الصحن، وقبة تتصل بالمحراب، وقبة تحت قبة الرصاص بينهما، والقبة الرصاصية قد أغصت الهواء وسطه، فإذا استقبلتها أبصرت منظرا رائعا، ومرأى هائلا، يشبه الناس بنسر طائر، كأن القبة رأسه، والغارب جؤجؤه، وسعة هذا الغارب ثلاثون خطوة، فهم يعرفون الموضع من الجامع بالنسر، لهذا التشبيه الواقع عليه، ومن أي جهة استقبلت البلد ترى القبة في الهواء منيعة على علو كأنها معلقة في الجو"[1009].

ولهذا الجامع ثلاث صوامع: إحداها بشرقه وهي من بناء الروم، وبابها داخل المسجد، وبأسفلها مطهرة، وبيوت للوضوء يغتسل فيها المعتكفون والملتزمون للمسجد، ويتوضئون[1010]، وتسمى المئذنة البيضاء أو مئذنة عيسى، أنشأت مجددا عام 1247م، ورممت في القرن الخامس عشر، وهي ذات بدن مربع في أعلاها مخروط، أنشئ في العهد العثماني[1011]. والثانية بغربيه وهي أيضا من بناء الروم، وهي كالبرج المشيد، (الصورة 40) تحتوي على مساكن متسعة وزوايا فسيحة، راجعة كلها إلى إغلاق يسكنها قوم من الغرباء أهل الخير، والبيت أعلى منها كان معتكف أبي

[1007] بن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ج01، المصدر السابق، ص ص (66- 67).

[1008] ابن جبير، رحلة ابن جبير، المصدر السابق، ص187.

[1009] بن جبير، رحلة ابن جبير، المصدر السابق، ص(185-186).

[1010] بن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ج01، ص ص (67 - 68).

[1011] عفيف يهنسي، الفن العربي الإسلامي في بداية تكونه، المرجع السابق، ص43.

حامد الغزالي[1012] رحمه الله، وسيكنه اليوم الفقيه أبو عبد الله بن سعيد من أهل قلعة يحصب المنسوبة لهم، وتتكون هذه المئذنة من مثمن، يعلوه مثمن آخر، وثالث ينتهي بقمة على الطراز المملوكي[1013]، ويعود فضل إعادة بنائها إلى السلطان قاني باي، بعد تعرّضها لحريق سنة 1489م[1014]. والمئذنة الثالثة بالجانب الشمالي، على الباب المعروف بباب الناطفين، وهي من بناء المسلمين، وتسمى مئذنة العروس[1015].

وفي البلاط القبلي، قبالة الركن الأيمن من مقصورة الصحابة رضوان الله عليهم، وعلى القبر تابوت معترض بين الأسطوانتين فوقه قنديل كأنه دلو مجوف، كأنه القدح الكبير، لا يعرف أمن زجاج عراقي أو سوري أم من غير ذلك[1016]. والتابوت مكسو بثوب جديد أسود معلم، مكتوب فيه بالأبيض قوله تعالى: "يا زكرياء إنا نبشرك بغلام اسمه يحي"[1017].

وفي الجامع الأموي ثلاث مقصورات: مقصورة الصحابة رضي الله عنهم، وهي أول مقصورة بنيت في الإسلام من طرف معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، وبإزاء محرابها عن يمين باب حديد كان يدخل منه معاوية (ض) إلى المحراب، وقرب محرابها لجهة اليمين مصلى أبي الدرداء (ض)، وخلفها كانت دار معاوية (ض)، وهي اليوم سماط للصفارين، ولا سماط أحسن منه منظرا، ولا أكبر منه طولا وعرضا، وبالجانب الغربي قرب الجدار مقصورة أخرى، وهي برسم الحنفية

[1012]هو محمد بن محمد بن محمد أبو حامد الغزالي، ذكر أنه ولد سنة 450هـ، تفقه على يد أبي المعالي الجونيي، وبرع في النظر في مدّة قريبة، وتفقه وتوحد، وصنف الكتب الحسان في الأصول والفروع التي انفرد بحسن وضعها وترتيبها، وتحقيق الكلام فيها، توفي سنة 505هـ. أنظر: جمال الدين بن محمد الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، ج17، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01،سنة 1412هـ/1992م، ص ص (185- 186).

-ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، ج12، دار إحياء التراث العربي، ط1 ، سنة 1408هـ/1988م، ص ص (214- 215).

-ابن العماد، شدرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق:محمود الأرناؤوط، ج06، دار ابن كثير، دمشق، ط01، سنة 1406هـ/ 1986م، ص ص (18- 19).

[1013]حسني محمد نويصر، الآثار الإسلامية، المرجع السابق، ص126.

[1014]عفيف يهنسي، الفن العربي الإسلامي في بداية تكونه، المرجع السابق، ص93.

[1015]ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، المصدر السابق، ص68 .

[1016]ابن جبير،رحلة ابن جبير، المصدر السابق، ص ص (161- 162).

[1017]سورة مريم، الآية: 07.

يجتمعون فيها للتدريس، وبالجانب الشرقي زاوية أخرى على هذه الصفة، هي كالمقصورة وضعها أحد أمراء الدولة العثمانية للصلاة فيها، وهي ملاصقة للجدار الشرقي[1018]. وفي الركن الشرقي من مقصورة الصحابة إزاء المحراب خزانة كبيرة فيها المصحف الكريم الذي وجهه أمير المؤمنين عثمان ابن عفان رضي الله عنه إلى الشام، وتفتح تلك الخزانة كل جمعة بعد الصلاة فيزدحم الناس على لتم ذلك المصحف الكريم، وعن يسار المقصورة محراب الصحابة، ويذكر أهل التاريخ أنه أول محراب في الإسلام، أنشئ في بداية الفتح الإسلامي، وفيه اسم إمام المالكية، وعن يمين المقصورة محراب الشافعية يليه محراب الحنفية، وبعده محراب الحنابلة[1019].

جـ- أبواب الجامع : للجامع أربعة أبواب: باب قبلي يعرف بباب الزيادة، وبأعلاه قطعة من الرمح الذي كانت فيه راية خالد بن الوليد (ض)، ولهذا الباب دهليز كبير متسع فيه حوانيت السقاطين وغيرهم، ومنهم يذهب إلى دار الخيل، وعن يسار الخارج منه سماط الصفارين، وهي سوق عظيمة ممتدة عن جدار الجامع القبلي من أحسن أسواق دمشق، وبوضع هذه السوق كانت دار معاوية بن أبي سفيان (ض) ودور قومه، وكانت تسمى الخضراء، فهدمها بنو العباس، وصارت مكانه سوقا[1020]. وباب شرقي وهو أعظم الأبواب، ويعرف بباب جيرون، فيخرج من هذا الباب إلى بلاط طويل عريض، وقد قامت أمامه خمسة أبواب مقوسة، لها ستة أعمدة طوال، وفي وجه اليسار منه مشهد كبير حفيل كان فيه رأس الحسين[1021] ابن علي رضي الله عنهما، وبإزائه مسجد صغير ينسب لعمر بن عبد العزيز، وبذلك المشهد ماء جار. وقد انتظمت أمام البلاط أدراج ينحدر

[1018]ابن جبير، رحلة ابن جبير، المصدر السابق،ص186.

[1019]ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ج01، المصدر السابق، ص67.

[1020]المصدر نفسه، ص 68.

[1021]هو الحسين بن علي بن أبي طالب، ويكنى أبا عبد الله، وأمه فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم،كان مولده لخمس خلون من شعبان سنة 04هـ، وقتل يوم الجمعة لعشر خلون من محرم سنة 61هـ، و كان سنه يوم قتل 56سنة. أنظر: أبو الفرج الإصفهاني، مقاتل الطالبين، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعرفة، بيروت، ص ص (84- 86).

-جمال الدين بن محمد الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، ج05، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1412هـ/1992م، ص ص (398- 399).

-شمس الدين بن قماز الذهبي، العبر في أخبار من عبر، ج01، المصدر السابق، ص 48.

عليها إلى الدهليز، وهو كالخندق العظيم، يتصل إلى باب عظيم الارتفاع تنحسر الطرف دونه سموا، قد حفنه أعمدة كالجزوع طولا، وكالأطواد ضخامة، و بجانبي هذا الدهليز أعمدة قد قامت عليها شوارع مستديرة فيها حوانيت المنظمة للعطارين وسواهم، وعليها شوارع أخرى مستطيلة فيها حجر وبيوت للكراء مشرفة على الدهليز. وفي وسط الدهليز حوض كبير مستدير من الرخام عليه قبة تقلها أعمدة من الرخام، ويستدير بأعلاها طرة من الرصاص واسعة مكشوفة على الهواء، لم ينعطف عليها تعتيب[1022]، وفي وسط الحوض أنبوب نحاس يزعج الماء بقوة فيرفع في الهواء أزيد من قامة الإنسان، يسمونه الفوارة منظره عجيب، وحوله أنابيب صغار ترمي الماء إلى علو فيخرج عنها كقضبان اللجين.

وعن يمين الخارج من باب جيرون وهو باب الساعات غرفة لها هيئة طاق كبير فيه طيقان صغار مفتحة لها أبواب على عدد ساعات النهار، والأبواب مصبوغ باطنها بالخضرة ، وظاهرها بالصفرة، فإذا مضت ساعة من النهار انقلب الباطن الأخضر ظاهرا، والظاهر الأصفر باطنا، ويقال: إن بداخل الغرفة من يتولى قلبها بيده عند مضي الساعات[1023].

يعرف الباب الغربي للجامع الأموي بباب البريد، وعن يمين الخارج منه المدرسة الشافعية، وله دهليز فيه حوانيت البقالين، والعطارين والشماعين، وسماط لبيع الفواكه، وفي أعلاه باب يصعد إليه على أدراج، وله أعمدة سامية في الهواء، وتحت الأدراج سقايتان مستديرتان عن يمين وشمال، لكل سقاية خمسة أنابيب ترمي الماء في حوض رخام مستطيل[1024].

والباب الشمالي يعرف باب الناطفين، وله دهليز عظيم فيه زوايا على مساطب وعلى يمين الخارج منه حلقات للصوفية، يعرف بالشميعانية في وسطها صهريج ماء، ولها مظاهر يجري الماء فيها ويقال أنها كانت دار عمر بن عبد العزيز[1025].

(1022) ابن جبير، رحلة ابن جبير، المصدر السابق، ص ص (187-189).

(1023) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ج01، المصدر السابق، ص69.

(1024) ابن جبير، رحلة ابن جبير، المصدر السابق،ص190.

(1025) المصدر نفسه، ص190.

المبحث الثالث: مدينة بغداد

1- أصل تسميتها:

هي قاعدة أرض العراق، قال ابن الأنباري: أصل بغداد[1026] للأعاجم، والعرب تختلف في لفظها إذ لم يكن أصلها من كلامهم، ولا اشتقاقها من لغاتهم، وذكر البكري : أن فيها أربع لغات : بغداد ، بدالين مهملتين، و بغداذ معجمة الأخيرة، وبغدان بالنون، ومغدان بالميم بدلا من الباء، تذكر وتؤنث. أنشد أبو العباس:

مـا أنت يا بغـداذ إلا سلـح وإن سكنـت فتـراب بـــرح[1027].

ونظم أبو بكر المخزمي في بغدان:

اقرأ ســـلاما عـلى نجـد وساكنـه وحاضر باللّوى إن كان بـادي

ســلام مغــترب بغـدان منزلــــه إن أنجد الناس لم يهمهم بإنجاد[1028].

قال بعض الأعاجم: تفسيره بستان رجل، فباغ بستان، وداد اسم رجل، بعضهم يقول : بغ اسم للصنم، فذكر أنه أهدي إلى كسرى خصي من المشرق فأقطعه إياها، وكان الخصي من عباد الأصنام ببلده، فقال: بغ داد، أي الصنم أعطاني[1029]. وقيل بغ هو البستان، وداد أعطاني. قال أبو حاتم: سألت الأصمعي كيف يقال: بغداد أو بغداذ، أو بغدان أو بغدين، فقال قل مدينة السلام، وإنما كره الأصمعي هذه الأسماء، لأن بغداد بالفارسية تعني عطية الصنم[1030].

وقال حمزة بن الحسين: بغداد اسم فارسي معرّب عن باغ داوذوية، لأن بعض رقعة هذه المدينة كان باغ لرجل من الفرس اسمه داوذوية، وبعضها أثر مدينة دارسة التي اختطها بعض ملوك الفرس، فلما سألوا الملك عن اسمها، قال: ملدوه وروز، أي خلوها بسلام، فلما بلغ ذلك

(1026) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج01، المصدر السابق، ص456.

(1027) أبو عبيد الله البكري، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، ج01، المصدر السابق، ص261.

(1028) أبو عبيد الله البكري، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، ج01، المصدر السابق، ص262

(1029) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج01، المصدر السابق، ص456.

(1030) أبو عبيد الله البكري، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، ج01، المصدر السابق، ص262.

للمنصور ، سماها مدينة السلام[1031]. وقيل: إن بغداد كانت قبل سوقا يقصدها تجار أهل الصين ببضائعهم فيربحون الربح الواسع، وكان اسم ملك الصين بغ، فكانوا إذا انصرفوا إلى بلادهم قالوا بغداد، أي أن هذا الربح الذي ربحناه من عطية الملك[1032]

2- بناء مدينة بغداد:

ابتدأ أبو جعفر المنصور[1033] في بناء مدينة بغداد سنة 145 هـ، ذلك لأنه كان يكره أهل الكوفة، ولا يأمن على نفسه منهم، فتجافى عن جوارهم وسار إلى موضع بغداد، وجمع من كان هناك من البطارقة فسألهم عن أحوال مواضعهم في الحر والبرد والمطر والوحل والهوام، فأشاروا عليه بمكانها[1034]. ويذكر اليعقوبي: " أن المنصور عزم على توجيه ابنه محمد المهدي لغزو الصقالبة سنة 140 هـ، فسار إلى بغداد، فوقف بها وقال: ما اسم هذا الموضع؟، قيل له : بغداد، قال: والله المدينة التي أعلمني أبي محمد بن علي أني أبنيها وأنزلها وينزلها ولدي من بعدي، ولقد غفلت عنها الملوك في الجاهلية والإسلام حتى يتم تدبير الله وحكمه فيّ، وتصح الروايات وتبين الدلائل والعلامات، وإلا فجزيرة بين دجلة والفرات"[1035].

وقد كان اختياره للموقع موفقا جدا، وتوضحت له فيما بعد مميزات هامة، فمدينة بغداد بين أنهار كالخندق لا تُعبر إلا على القناطر والجسور، إذا قطعت لم يكن للعدو مطمع. وهي

(1031) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج01، المصدر السابق، ص456.

(1032) المصدر نفسه، ص ص (456-457).

(1033) هو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، ولد سنة 95هـ بالشراة، تولى الخلافة سنة 136هـ، توفي سنة 158هـ بالأبطح، ودفن ببئر ميمون. أنظر: ابن الحبان، الثقات، تحقيق: محمد عبد المعيد خان، ج02، دار المعرف العثمانية، حيدر أباد، ط01، سنة 1393هـ/1973م، ص324.

-تقي الدين المقريزي، السلوك لمعرفة دولة الملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا الله، ج01، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1418هـ/1997م، ص116.

-خير الدين الزركلي، الأعلام، ج01، المصدر السابق، ص ص (116-117).

(1034) عبد الرحمن بن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، تحقيق: خليل شحادة، ج03، دار الفكر، بيروت، ط02، سنة 1408هـ/ 1988م، ص 247.

(1035) اليعقوبي، البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1422هـ، ص ص (21-22).

متوسطة بين البصرة والكوفة وواسط والموصل، قريبة من البر والبحر والجبل(1036). وكل ما يأتي في دجلة(1037) من واسط والبصرة والأبلة والأهواز، وفارس وعمان واليمامة والبحرين، وما يتصل بذلك إلى بغداد ترقى، وبها ترسى. وكذلك ما يأتي من الوصل وديار ربيعة وأدربيجان وأرمينية مما يحمل في السفن في دجلة. وما يأتي من ديار مصر والرقة والشام والمغرب مما يحمل في السفن في الفرات(1038) فيما يحيط و ينزل(1039). فتمثل أهمية موقعها كونها تقع في منطقة زراعية تتوسط العراق وتمر منها الطرق التجارية العالمية، كما أنها سهلة التموين والري حصينة الموقع من الأنهار، جيدة المناخ.

فوجه المنصور في حشد الصناع والفعلة من الشام والموصل والجبل والكوفة وواسط البصرة، وأمر باختيار قوم من أهل الفضل والعدالة والعفة والأمانة والمعرفة بالهندسة(1040). وكان فيمن أحضر الحجاج بن أرطأة(1041)، وأبو حنيفة النعمان، وكتب إلى كل بلد في حمل من فيه ممن يفهم شيئا من البناء، فحضره مائة ألف من أصناف المهن والصناعات(1042)

ووضع مخطط المدينة على نهج مستحدث في بناء المدن الإسلامية، فجعلها مدورة، ولا تعرف في جميع أقطار الدنيا مدينة مدورة، وأمر بخطها بالرماد فشكلت أبوابها وفصلانها وطاقاتها

(1036)عبد الرحمن بن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، ج03، المصدر السابق، ص247.

(1037)ينبع نهر دجلة من جبال إيمذ، فيمر على الموصل وتكريت وسمراء، ثم يتقطع وسط بغداد، ووسط واسط حتى يصل إلى المذار والأبلة وحدود البصرة، وهناك يصب في البحر الأعظم. أنظر: مجهول، حدود العالم من المشرق إلى المغرب، تحقيق: السيد يوسف الهادي، دار الثقافة، القاهرة، دط، سنة 1413هـ، ص ص (61-62).

(1038) ينبع من جبل عليق. ويقطع ما بين بلاد الروم، وجبل اللكام، ويأتي إلى حدود مالطية، ثم يستمر متجها نحو الجنوب، فيمر بشمشاط وسنجة وبالس،ثم ينعطف بين المغرب والشمال،وعندما يمر بالأنبار يخرج منه نهر يدعى بنهر عيسى،حتى يصل بغداد،ويصب في نهر دجلة. أنظر: المصدر نفسه، ص62.

(1039)اليعقوبي، البلدان، المصدر السابق، ص ص (22-24).

(1040)عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، المصدر السابق، ص110.

(1041)هو الحجاج بن أرطأة أبو أرطأة النخعي، الكوفي، سمع عطاء بن أبي رباح وغيره، وروى عنه الثوري، وحماد بن زيد، وهشيم وابن مبارك وزيد بن هارون، وكان من الفقهاء وحفاظ الحديث، واستفتي وهو ابن 16سنة، ولي القضاء بالبصرة، وكان مع المنصور في وقت بناء مدينة بغداد، وتولى خطبها ونصب قبلة مسجدها، توفي سنة 150هـ، أنظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، ج02،المصدر السابق، ص ص (654- 656).

-أحمد بن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج02، دار المعارف النظامية، الهند،ط01، سنة 1326هـ، ص ص(196-198).

(1042)اليعقوبي، البلدان، المصدر السابق، ص25.

ونواحيها، وجعل على الرماد حب القطن فأضرم نارا، ثم نظر إليها وهي تشتعل فعرف رسمها، وأمر أن تحفر الأسس على ذلك الرسم، ووكل بها أربعة من القادة يتولى كل واحد منهم ناحية(1043). وكلف أبا حنيفة(1044)، بعد الآجر واللبن. وأمر المنصور أن يكزن عرض أساس القصر من أسفله خمسين ذراعا، ومن أعلاه عشرين، وجعل في البناء القصب والخشب وضع أول لبنة، وقال: "بسم الله والحمد الله، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين"(1045). وكان طول ضلع اللبنة المربعة ذراع، ووزنها مائتا رطل، وطول اللبنة المنصبة ذراع، وعرضها نصف ذراع، ووزنها مائة رطل، واحتل قصر الخليفة المنصور المسمى بقصر"الذهب" في مركز المدينة، وكانت مساحته 400 قدم، يتوسطه قبة تنفتح على أربعة إيوانات، وإلى جنب القصر المسجد الجامع، وليس حول القصر بناء، ولا مسكن لأحد إلا دار من ناحية الشام للحرس، وسقيفتين كبيرتين ممتدتان على عمد مبنيتان بالآجر والجص يجلس في إحداهما صاحب الشرطة، وفي الأخرى صاحب الحرس(1046). قال بعض مداح المنصور:

إن خير القصور قصر السلام   إذ حل سائـس الإسلام

منــزل لا يزال من حــل فيه   آمنا من حوادث الأيـام(1047).

وبنى المنصور القبة الخضراء فوق إيوان، وكان علوها ثمانين ذراعا، وعلى رأس القبة تمثال على صورة فارس في يده رمح، وقد سقط رأس هذه القبة سنة 329 هـ، وكان يوم مطر عظيم

(1043)عبد الرحمن بن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، ج03، المصدر السابق، ص247.

(1044)هو الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي، مولى بني تميم الله بن ثعلبة، كان مولده سنة 80هـ، روى عن عطاء بن رباح وطبقته، وتفقه على يد حماد بن أبي سليمان، وكان من الأذكياء جامعا بين الفقه والعبادة، والورع والسخاء، وكان لا يقبل جوائز الولاة، بل ينفق ويؤثر من كسبه، لقد روى أن المنصور سقاه السم، فمات شهيدا سنة 150هـ. أنظر: شمس الدين بن قماز الذهبي، العبر في أخبار من عبر، ج01، المصدر السابق، ص 164.

-ابن العماد، شدرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: محمود الأرناؤوط،ج06، دار ابن كثير، دمشق، ط01، سنة 1406هـ/ 1986م، ص ص (229- 230).

-ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر بن عبد السلام تدمري، ج05، دار الكتاب العربي، بيروت، ط01، سنة 1416هـ/ 1997م، ص 164.

(1045)اليعقوبي، البلدان، المصدر السابق، ص25.

(1046)االيعقوبي، البلدان، المصدر السابق، ص27.

(1047)عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، المصدر السابق، ص110.

ورعد هائل، وكانت هذه القبة تاج البلد، وعلم بغداد ومآثره من مآثر بني العباس، وكان بين بنائها وسقوطها مائة ونيف وثمانون سنة[1048]. وحفرت الآبار وعلمت القناة التي تأخذ الماء من نهر كرخايا[1049]، وهو النهر الآخذ من الفرات، فأتقنت القناة وأجريت داخل المدينة للشرب، ولضرب اللبن، وبل الطين، وجعل للمدينة أربعة أبواب: باب الكوفة، وباب البصرة، وباب خرسان، وباب الشام، بين كل باب وباب منها إلى الآخر خمسة آلاف ذراع، وعلى كل باب منها بابا حديد عظيمان جليلان، لا يغلق الباب الواحد منهما ولا يفتحه إلا جماعة رجال، يدخله الفارس بالعلم والرمح الطويل من غير أن يثنيه ولا يميله[1050]. وجعل لأبواب المدينة أربعة دهاليز عظاما، وحول كل دهليز ثمانون ذراعا كلها معقودا بالآجر والجص، فإذا دخل من الدهليز وافى رحبة مفروشة بالصحن، ثم دهليز على السور الأعظم عليه، ومنه إلى طاقات معقودة بالآجر والجص فيها شميسات تدخل منها أشعة الشمس والضوء، وفيها منازل الغلمان. وعلى كل باب من أبواب المدينة قبة معقودة عظمى مذهبة، وحولها مجالس ومرتفعات يجلس فيها فيشرف على كل ما يحيط بها، ويصعد إلى هذه القباب على عقود مبنية بعضها بالجص والآجر، وبعضها آخر باللبن العظام[1051].

وقد أمر المنصور أن يبني للمدينة سورين بينهما فاصل، وجعل سورها الداخلي باللبن العظام التي لم ير مثلها قط، وكان أساسه تسعين ذراعا، ثم ينحط حتى يصير في أعلاه خمس وعشرين ذراعا، وارتفاعه ستون ذراعا مع الشرفات، وحول السور فاصل جليل عظيم، بين حائط السور والحائط الفاصل مائة ذراع[1052].

(1048) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج01، المصدر السابق، ص460.

(1049) نهر كان ببغداد يأخذ من نهر عيسى، تحت المحول حتى يمر ببراثا فيسقي بغداد، أنظر: المصدر نفسه، ج04، ص ص (445-447).

(1050) عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، المصدر السابق، ص111.

(1051) اليعقوبي، البلدان، المصدر السابق، ص ص (26- 27).

(1052) المصدر نفسه، ص26.

وللفاصل أبراج عظام وعليه الشرفات المدورة، فما يوجد بداخل السور من أعلاه ممرات مغيبة مغطاة بأقبية طولية تسمح للجنود بالتحرك حول المدينة من دون أن يراهم أحد، كما تمكنهم من الدفاع عن المدينة في حالة الغزو. أما السور الخارجي للمدينة فهو أصم لا فتحات فيه سوى البوابات الأربعة[1053]، ولزيادة الوسائل الدفاعية للمدينة حفر خندق عميق حول سور المدينة قد أجري إليه الماء من القناة التي من نهر كراخيا، وبنى فوق الخندق الشوارع العظيمة، وحدد لهم أن يجعلوا عرض الشوارع خمسين ذراعا، وأن يبنوا جميع الأرباض والدروب من الأسواق والحمامات ما يكتفي به أهل كل ناحية، وأمرهم أن يجعلوا قطائع القواد والجند ذرعا معلوما، وللتجار مثل ذلك يبنونهم، وينزلونهم، وآخر ما بني القنطرة الجديدة، وبها أسواق كثيرة فيها سائر التجارات مادة متصلة، ثم ربض وضاح المعروف بقصر وضاح حاجب خزانة السلاح الذي كان به أكثر من مائة حانوت للوراقين، والكرخ السوق العظمي الممتد من قصر وضاح إلى سوق الثلاثاء طولا مقدار فرسخين[1054]. وكل تجارة لها شوارع معلومة. وليس يختلط قوم بقوم، ولا تجاور تجارة تجارة، وحفرت القناة التي تأخذ من الفرات في عقود وثيقة من أسفلها محكمة بالصاروج والآجر في أعلاها. فتدخل المدينة وتنفذ في أكثر شوارعها، وهندسة شوارع الأرباض صيفا وشتاء هندسة لا ينقطع الماء منها في كل وقت.

واستمر بناء مدينة بغداد وعمارتها تسع سنوات ونزلها المنصور149هـ، بعدما أحاط بالرحبة التي تحتوي على قصره ومسجده منازل أولاده الصغار، وما يقرب من خدمته من عبيده وبيت المال، وخزانة السلاح، وديوان الرسائل، وديوان الخراج، وديوان الخواتم، وديوان الجند، وديوان الحوائج، وديوان الأحشام، ومطبخ العامة، وديوان النفقات[1055]،و كان مقدار النفقة على عمارة

[1053] حسني محمد نويصر، الآثار الإسلامية، المصدر السابق، ص 136.

[1054] عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، المصدر السابق، ص111.

[1055] اليعقوبي، البلدان، المصدر السابق، ص ص (26-27).

المدينة أربعة آلاف ألف وثمانمائة ألف وثلاثة وثلاثين ألف درهم، وكانت أجرة الأستاذ من البنائين بقيراط لليوم، إلى خمسة حبات والرّوزجاري بحبتين إلى ثلاث حبات[1056].

3- وصف الجانب الغربي من بغداد :

لبغداد جانبان شرقي وغربي، ودجلة بينهما، والسكان يعبرون بين الجانبين على جسرين معقودين مثل صفة جسر الحلة [1057]. يذكر ابن جبير وابن بطوطة أن الجانب الغربي استولى عليه الخراب، وكان المعمور أولا لكنه مع ذلك يحتوي على سبع عشرة محلة، كل محلة منها مدينة مستقلة، وفي كل واحدة منها حمامان وثلاثة. والثماني منها بها جوامع يصلى فيها الجمعة[1058]. ومن هذه المحلات محلة باب البصرة بها جامع الخليفة المنصور، وهو جامع كبير عتيق البنيان حفيله، ثم محلة الشارع وهي مدينة، ثم محلة الكرخ وهي مدينة مسورة، ومحلة القرية في الربض المربعة فهي الأربع أكبر المحلات[1059].

وبين شارع محلة باب البصرة سوق المارستان، وهي مدينة صغيرة، فيها المارستان الشهير ببغداد وهو على دجلة، ويتفقده الأطباء كل يوم اثنين وخميس، يطلعون على أحوال المرضى، ويرتبون لهم أخذ ما يحتاجون إليه، وبه يصنعون الأدوية، ويطبخون الأغذية، وهذا المارستان عبارة عن قصر كبير فيه المقاصير والبيوت، وجميع مرافق المساكن المملوكية، وجلب إليه الماء من نهر الدجلة، ومن بين أسماء المحلات العتابية، وبها تصنع الثياب العتابية، وهي حرير وقطن مختلفات الألوان، ومنها الحربية، وبإحدى هذه المحلات، قبر معروف الكوفي[1060]. وبطريق باب البصرة

[1056] ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، ج03، المصدر السابق، ص 248.

[1057] جسر الحلة: هو جسر عظيم معقود على مراكب كبار متصلة من الشط للشط، تحف بها من جانبيها سلاسل من حديد كالأذرع المفتلة عظامة وضخامة، ترتبط إلى أخشاب مثبتة في كلا الشطين. أنظر: ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ج01، المصدر السابق، ص 189.

[1058] ابن جبير، رحلة ابن جبير، المصدر السابق،ص 162.

[1059] المصدر نفسه، ص 162.

[1060] هو عمر بن معروف الكوفي المتوفي سنة 151هـ، وقيل سنة 160هـ، نزل الري، وحدث عن عكرمة وزيد اليمامي وطلحة بن مصرف، وعنه حدث جرير وحكام بن مسلم وإسحق بن سلمان وآخرون. أنظر: شمس الدين بن قماز الذهبي،تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: بشار عواد معروف، ج04، دار الغرب الإسلامي، ط01، سنة 2003، ص 168.

مشهد حافل البناء في داخله قبر متسع السنام مكتوب عليه: "هذا قبر عون[1061]من أولاد علي أبي طالب"[1062]. وفي هذا الجانب أيضا قبر موسى الكاظم[1063] ابن جعفر الصادق، والد علي بن موسى الرضا، وهناك مشاهد كثيرة لجمع من الأولياء والصالحين والسلف الكريم.

4_ وصف الجانب الشرقي من بغداد:

وهذه الجهة من بغداد حافلة بالأسواق العظيمة الترتيب، وأعظم أسواقها يعرف بسوق الثلاثاء، كل صناعة فيه على حده، وفي المدرسة النظامية العجيبة التي صارت تضرب الأمثال بجمالها[1064]، وبها من الجوامع ثلاثة: جامع الخليفة متصل بداره، وهو جامع كبير، وفيه سقايات عظيمة، ومرافق كثيرة كاملة، وجامع السلطان وهو خارج البلد، وتصل به قصور تنسب للسلطان المعروف بشاه ، وجامع الرصافة. والجهة الشرقية كما ذكر ابن جبير أنها دار الخلافة في عهده، وكفاها بذلك شرفا احتفالا، ودور الخليفة مع آخرها، وهي تقع منها في نحو الربع أو أزيد وللخليفة أبو العباس أحمد الناصر للدين الله [1065]بن المستضيء بأمر الله أبي الحسن بن المستجد بالله أبي المظفر يوسف جزء كبير من تلك الديار. قد اتخذ فيها المناظر المشرفة والقصور الرائقة والبساتين الأنيقة، وله خدم منهم مكلف بنيابة الوزارة يحضر الديوان المحتوى على أموال الخلافة،

[1061]هو عون بن محمد بن علي بن أبي طالب الهاشمي، روى عن أبيه وعن جده ، وروى عنه محمد بن موسى وعبد الملك بن أبي عياش. أنظر: البخاري، التاريخ الكبير، ج07، دائرة المعارف العلمية، حيدر أباد، ص 16.

-الرازي بن أبي حاتم، الجرح والتعديل، ج02، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط01، سنة 1271هـ/1952م، ص 386.

[1062]ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ج01، المصدر السابق، ص171.

[1063]هو أبو الحسن موسى الكاظم، ابن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي بن زين العابدين ابن الحسين بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم، أحد الأئمة الإثني عشر، أقام بالمدينة أيام هارون الرشيد، فقدم هارون منصرفا من عمره سنة 179هـ، فحمل موسى معه إلى بغداد وحبسه إلى أن توفي بها سنة 153هـ، وقيل سنة 186هـ، وقيل أنه توفي مسموما، أما مولده كان بالمدينة سنة 129هـ، وقيل سنة 128هـ، أنظر: ابن خلكان ،وفيات الأعيان وأنباء الرمان، ج05، المصدر السابق ،ص ص (308- 310).

[1064]ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ج01، المصدر السابق، ص171.

[1065]هو الخليفة الناصر لدين الله، أبو العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله، أبي المظفر يوسف بن المقتضي لأمر الله، أبي عبد الله محمد بن المستظهر بالله، أبي عبد الله أحمد بن المقتدي بأمر الله،أبي القاسم عبد الله الذخيرة محمد بن القائم بأمر الله، أبي جعفر عبد الله بن القادر بالله، ويمتد نسبه إلى عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، ولد ببغداد سنة 553، تولى الخلافة بعد موت أبيه ، سنة 575هـ، وكانت مدة خلافته 47سنة إلا شهرا. أنظر : ابن كثير البداية والنهاية، تحقيق:علي شيري، ج13، دار إحياء التراث العربي، ط01، سنة 1408هـ، ص ص (124- 125).

-يوسف بن تغرى برذيالظاهري ،النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ج06، دار الكتب، مصر، ص 216.

وبين يديه الكتب، وله قيم على جميع الديار العباسية، وأمين على كافة الحرم الباقيات من عهد أبيه وجده[1066].

وللجهة الشرقية أربعة أبواب: فأولها باب السلطان الموجود بأعلى الشط، ثم باب الظفرية، ثم يليه باب الحلبة، ثم باب البصيلة، هذه الأبواب في السور المحيط بهذه الجهة الممتد، من أعلى الشط إلى أسفله، وهو ينعطف على شكل نصف دائرة[1067]. وبأعلى الجهة الشرقية من بغداد محلة الرصافة التي نزلها المهدي[1068] بن المنصور وهو ولي عهد أبيه، حيث اختط قصوره بالرصافة إلى جانب المسجد الجامع بالرصافة، وحفر نهرا سماه نهر المهدي يجري في هذا الجانب. وقربها محلة كبيرة فيها مشهد حفيل البنيان، له قبة سامية في الهواء، فيه قبر الإمام أبي حنيفة النعمان. وبالقرب من هذه المحلة قبر أحمد بن حنبل، وفي هذه الجهة أيضا قبر أبي بكر الشلبي، وقبر الحسين بن منصور الحلاج[1069].

وأما حماماتها فلا تحصى عدة، حيث ذكر أشياخ البلد لابن جبير أنها بين الجهة الشرقية والغربية نحو ألفي حمام، وأكثرها مطلية بالقار[1070] مسطحة به، فيخيل للناظر أنه رخام أسود صقيل. والمساجد بالجهتين الشرقية والغربية لا يأخذها التقدير، والجوامع ببغداد أحد عشر والمدارس

(1066)ابن جبير، رحلة ابن جبير، المصدر السابق،ص 163.

(1067)المصدر نفسه ،ص 164.

(1068)هو أبو عبد الله محمد بن المنصور، ولد بأيذج سنة 120هـ، وقيل سنة 126هـ، تولى الخلافة سنة 158هـ، بعد وفاة أبيه، توفي سنة 169هـ. أنظر: عفيف الدين بن سليمان اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، تحقيق: خليل منصور، ج01، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1417هـ/1997م، ص ص (277- 278).

- يوسف بن تغرى برذي الظاهري، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ج02، دار الكتب، مصر ص ص (55- 56).

(1069)هو أبو مغيث الحسين بن منصور الحلاج الزاهد، وهو من أهل البيضاء وهي بلدة بفارس، ونشأ بواسط والعراق، وصحب أبا القاسم الحفيد وغيره، قد ادعى في سنة 299هـ أنه إله وأنه يقول بحلول اللاهوت في الأشراف من الناس، وانتشاره في الحاشية ذكر فيهم، ووقع بين وبين الشلبي وغير من مشايخ الصوفية، أعدم سنة 309هـ، بعد ضربه الجلاد ألف سوط، فلما فرغ من ضربه قطع أطرفه الأربعة، ثم حز رأسه وأحرق جثته، فلما صارت رمادا ألقاها في نهر دجلة، ونصب الرأس ببغداد، على الجسر. أنظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء الزمان،ج02، المصدر السابق، ص ص (140- 141).

-أحمد بن حجر العسقلاني، لسان الميزان، تحقيق: عبد الفتاح أبو غداه، ج03، دار البشائر الإسلامية، ط01، سنة 2002، ص211.

(1070)القار يجلب من عين بين البصرة والكوفة، وقد أنبط الله ماء هذه العين ليتولد منه القار، فهو يصير في جوانبها، كالصلصال، فيجرف ويجلب وقد انعقد. أنظر: ابن جبير، رحلة ابن جبير، المصدر السابق، ص 164.

بها نحو ثلاثين كلها، وما من مدرسة إلا ويقصر القصر البديع عنها، وأعظمها المدرسة النظامية، التي بناها نظام المالك، وجددت سنة 504 هـ، ولهذه المدارس أوقاف عظيمة، وعقارات محبسة تصير إلى الفقهاء والمدرسين بها، ويجزون بها على الطلبة ما يقوم بهم[1071].

والجدير بالذكر أن إحصائيات ابن جبير لعمران بغداد كانت في فترة الخراب الذي أصابها قال ابن جبير: "هذه المدينة العتيقة، وإن لم تزل حضرة الخلافة العباسية، وبمثابة الدعوة الإمامية الهامشية، قد ذهب أكثر رسمها، ولم تبق منها إلا شهير اسمها، وهي بالإضافة إلى ما كانت عليه قبل انحناء الحوادث عليها، والتفاف أعين النوائب إليها، كالطلل الدارس والأثر الطامس، أو تمثال الخيال الشاخص، فلا حس فيما يستوقف البصر" [1072]. قال ابن جزي: كأن أبي تمام حبيب بن أوس[1073] أطلع على ما آل إليه أمرها حيث قال فيها:

لقد أقـــام على بغـــداد ناعيـــها فليبكها لخراب الدهــر باكيـــها
كانت على مائــها والحرب موقدة والنــار تطفأ حسنا في نواحيــها
ترجــى لها عودة في الدهــر صالحة فالآن أضمر منها اليأس راجيها
مثـــل العجـــوز التي ولت شبيبتها وبأن عنـــها جمـال كان يحظيها[1074].

[1071]المصدر نفسه، ص 164.

[1072]ابن جبير، رحلة ابن جبير، المصدر السابق،ص158.

[1073]هو حبيب بن أوس أبو تمام الطائي، شاعر شامي الأصل كان بمصر في حداثته يسقى الماء في المسجد الجامع، ثم جالس الأدباء، فأخذ عنهم، وتعلم منهم، وكان فطنا فهما، أحب الشعر، فلم يزل يعانيه حتى نظم الشعر فأجاد، وشاع ذكره، وساد شعره، وبلغ المعتصم خبره، فقربه إليه إلى بغداد، ولد سنة 190هـ، ومات بالموصل سنة 231هـ، وقيل 232هـ، أنظر الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد وذيوله، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ج08، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1417هـ، ص ص (167-168).

-ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، ج02، المصدر السابق، ص ص (11- 23).

-عبد الله ابن المعز العباسي، طبقات الشعراء، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف، القاهرة، ط03، دث، ص ص (281-286).

- عبد العزيز الكتاني الدمشقي، ذيل تاريخ مولد العلماء ووفياتهم تحقيق: عبد الله أحمد سليمان الحمد، دار العاصمة الرياض، ط01، سنة 1409هـ، ص ص (515،- 529).

[1074]ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج02، المصدر السابق، ص ص (460-461).

وتشير إحصائيات اليعقوبي في كتابه البلدان أن تعداد عمارة بغداد لما بلغت أوجها، أن عدد الدروب والسكك قد بلغت ستة آلاف درب وسكة، أما المساجد فقد زادت عن ثلاثين ألف مسجد، وأحصيت الحمامات فكانت عشرة آلاف سوى ما زاد بعد ذلك[1075].

قال عمارة[1076] بن عقيل بن بلال بن جرير بن الخطئ في مدح بغداد:

أعاينت في طول مـن الأرض أو عرض   كبغداد من دار بها مسكن الخفـض

صفا العيش في بغداد واحضر عــوده   وعيـش سواها غير حفض من بعض

قضى ربهــا أن لا يمــوت خليفـــة   بهــا أنــه ما شــاء في خلقـه يقضي

تنــام بهــا عــين الغريــب ولا تــرى   غريبـا بأرض الشام يطمع في الغمض

فإذا جزيـــت بغــداد منهم بقرضــها   فمــا أسلفــت إلا الجميـل من القرض

وإن رميــت بالهجــر منهم وبالقـلى   فما أصبحــت أهــلا لهجر ولا بغض[1077].

وقد نظم الشعراء في مدحها وذكر محاسنها فأطنبوا، ووجدوا مكان القول واسعة فأطالوا، وفيها نظم الإمام القاضي أبو محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر المالكي[1078]:

سلام الله على بغداد في كل موطن   وحق لها مني السلام المضاعف

(1075) اليعقوبي البلدان، المصدر السابق،ص43.

(1076) هو عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير بن عطية الخطفي أبو عقيل، كان شاعرا متقدما فصيحا يسدن بادية البصر، ويمدح خلفاء بني عباس، وكان نحاة البصرة يأخذون عنه اللغة، وكان المبرد يقول: ختمت الفصاحة في شعر المحدثين بعمارة بن عقيل، توفي سنة 183هـ، في خلافة المتوكل. أنظر: كمال الدين الأنباري، نزهة الألباب في طبقة الأدباء، تحقيق: إبراهيم السمرائي، مكتبة المنار، الزرقاء،ط01، سنة 1405هـ/1985، ص 135.

-عبد الله ابن المعز العباسي، طبقات الشعراء، المصدر السابق، ص ص (316- 319).

-صلاح الدين بن أبيك الصفدي، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى، ج22، دار إحياء التراث بيروت، ط01، سنة 1422هـ/2000م، ص 252.

(1077) ياقوت الحموي،معجم البلدان ج02،المصدر السابق ،ص ص (460- 461).

(1078) هو عبد الوهاب بن علي بن نصر بن أحمد القاضي أبو محمد البغدادي المالكي، سمع وروى، وكان شيخ المالكية في عصره وعالمهم، قال الخطيب: كتبت عنه وكان ثقة ثم ألق أفقه منه، ولي القضاء بباذاريا، وخرج في آخر عمره إلى مصر، فمات بها. أنظر: صلاح الدين بن أبيك الصفدي، الوافي بالوفيات، ترجمة، أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى، ج21، دار إحياء التراث العربي، بيروت، سنة 1420هـ/2000م، ص ص (207- 209).

-علي ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ،ج05،المصدر السابق،، ص ص (515- 529).

فو الله ما فارقتـــها عن قلــي لهـــا وإني بشطـــي جانبيـــها لغارق

ولكنهـــا ضاقــت علـــي برحبــها ولم تكن الأقدار فيها تساعف

وكانت كخل كنـــت أهــوى دنـوه وأخلاقـه تنادي بـــه وتخالــف[1079].

وفيها يقول :

بغـداد دار لأهــل المــال واسعـــة وللصعاليك دار الضنك والضيف

أصبحـــت فيها مهـــانا في أزقتـها كأني مصحـــف في بيت زنديق[1080].

وأنشد ابن زريف الكاتب الكوفي:

سافرت أبغـي لبغـــداد وساكنـها مثلا قـــد اختــرت دونه إليــاس

هيهات بغـداد والدنيـا بأجمعـها عندي وسكان بغداد هم النـاس[1081].

ونظم عمارة بن عقيل ابن بلال بن جرير:

ما مثـل بغداد في الدنيـا ولا الديـن على تقلبــها في كـل ما حــين

ما بين قطـر بل فالكـــرخ نرجسـة تندي ومنـبت خيـري ونسرين

تحيـا النفـــوس بـرياها إذا نفخـت وخرســـت بين أوراق الرياحـين

سقـيا لتك القصور الشاهقات وما تخفي من البقـــر الإنسيـة العين

تســتن دجلة فيـــما بينـــها فتـرى دهم السفـين تعالى كالبــرادين

مناظـــر ذات أبـــواب مفتحـــة أنيقـــة بزخـــاريــف وتزيــــين

فيها القصـــور التي تهوى بأجنحــة بالزائريـــن إلى القـــوم المزوريـن

من كل حراقــة تعلـــوا فقاراتـــها قصر من الساج عال ذو أساطين[1082].

وما يمكن أن نخلص إليه أن فضل إلى الرحلات الحجازية في التعريف بالتراث الإسلامي لمكة المكرمة والمدينة المنورة، وقد تميزت أوصاف هذه الرحلات بالدقة لما اختصت به هذه المدن

[1079] ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ج01، المصدر السابق، ص169.

[1080] المصدر نفسه، ص 170.

[1081] ياقوت الحموي، معجم البلدان ،ج01، المصدر السابق، ص 461.

[1082] ياقوت الحموي، معجم البلدان ،ج01، المصدر السابق، ،ص 462.

من المعالم والأعراف والحالات الاجتماعية والثقافية، بل تعدت هذه الرحلات شبه الجزيرة العربية، ووصلت إلى العراق والشام وفلسطين، من أجل طلب العلم، وتحصيل الإجازات العلمية، وقد ساهمت في التعريف بأهم الخصائص التخطيطية والمعمارية السائدة في شبه الجزيرة العربية والعراق والشام وفلسطين كالمدرسة المصرية السورية، والمدرسة العراقية الفارسية.

الفـــصل الثالث:

مــدن المغرب.

-المبحث الأول: مدينة القيروان.

-المبحث الثاني: مدينة فـــــاس.

-المبحث الثالث: مدينة تلمسان.

لقد قام بعض علماء بلاد المغرب برحلات داخل المغرب ربطا بين مختلف أجزائه من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال، فحرصوا على تدوين ملاحظاتهم ومشاهداتهم، وتركوا لنا وصفا دقيقا عن بعض ما اختصت به بلاد المغرب من معالم معمارية، وتطورات سياسية واجتماعية وفكرية، وتحدثوا عن سكانها وما اتصلوا به من علمائها وأدبائها، فكانت رحلاتهم هي الدراسة الميدانية التي اعتمد عليها الجغرافيون وعلماء الآثار، في عمليات الكشف الجغرافي والتنقيب الأثري والتأليف العلمي.

المبحث الأول: مدينة القيروان

ذهب ياقوت الحموي إلى أن: "مدينة القيروان في الإقليم الثالث، طولها31° درجة وعرضها 30° درجة وأربعون دقيقة 40'، وهذه المدينة عظيمة بإفريقيا غبرت دهرا، وليس بالغرب مدينة أجل منها[1083]. وعدها ابن سعيد المغربي: "من مدن الإقليم الرابع حيث أنه حدد موقعها جنوبي جبل واسلات[1084]، وهي من حيث الطول 33°والعرض 30°درجة، وهي في الصحراء تصلح لجمال العرب، وكانت قاعدة إفريقية في أول الإسلام"[1085].

ومدينة القيروان في بساط من الأرض مديد في الجوف منها بحر تونس، وفي الشرق بحر سوسة والمهدية، وفي القبلة بحر سفاقس وقابس، وأقربها منها إلى البحر الشرقي، وبينها وبينه مسيرة يوم. شرق مدينة القيروان سبخة ذات ملح عظيم طيب ونظيف، وسائر جوانبها أراضي طيبة كريمة، وأحسنها الجانب الغربي المعروف بفحص الدرارة، يصاب فيه السنة الخصبة من الحبة مائة[1086]. (شكل 13).

[1083] ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج04، المصدر السابق، ص 420.

[1084] واسلات: جبل طوله يومان، وبينه وبين القيروان خمسة عشر ميلا، وفيه عمارات كثيرة، ومياه جارية، وفيه من الحصون كالجوارات، وحصن القيطنة، ودار إسماعيل، ودار الدواب، وكل هذه البلاد يعمرها قبائل من البربر.أنظر: الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج01، المصدر السابق، ص 294.

[1085] علي بن موسى بن سعيد المغربي، الجغرافيا، المصدر السابق، ص 35.

[1086] أبو عبيد الله البكري، المسالك والممالك، ج02، المصدر السابق، ص 675.

1- بناء مدينة القيروان:

لقد تأكد عقبة بن نافع[1087] أن السبيل الوحيد للمحافظة على إفريقية، ونشر الإسلام بين أهلها هو بناء حاضرة تكون قاعدة للمسلمين يحطون فيها رحالهم، ومنها تنطلق الجيوش الإسلامي لفتح إفريقية والأندلس، وقد عبر عن ذلك بقوله:"إن إفريقية إذا دخلها إمام أجابوه إلى الإسلام، فإذا خرج منها رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر، فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة تكون عزا للإسلام إلى آخر الدهر"[1088]. فاستشار أصحابه، فقالوا: نحن أصحاب إبل ولا حاجة لنا بمجاورة البحر فتسطو علينا الإفرنج"[1089]. وفي رواية ابن عذارى المراكشي: "فاتفق الناس على بناء المدينة، وأن يكون أهلها مرابطين، وقالوا: تقرب من البحر ليتم لنا الجهاد والرباط، فقال عقبة: إني أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينية بغتة، فيملكها ولكن اجعلوا بينها وبين البحر ما لا يدركه صاحب البحر إلا وقد علم به. وإذا كان بينها وبين البحر ما يوجب فيه التقصير للصلاة فهم مرابطون، فاتفق أمرهم على ذلك[1090].وكانت بقعة القيروان غيضة لا يأوي إليها إلا الوحوش والسباع، فصاح بها عقبة: أن أخرجي أيتها الوحوش والهوام بإذن الله عزّ وجل. فبقيت أرض القيروان أربعين سنة لا يرى فيها شيء من الهوام المؤذية ولا السباع

[1087] هو عقبة بن نافع بن عبد قيس بن لقيط بن ماهر بن أمية بن ظرب بن الحارث بن فهر بن مالك النضر بن مالك الفهري، ولد في عهد الرسول (ص)، وكان عمرو بن العاص خاله فشهد فتح مصر واختط بها، ثم ولاه يزيد بن معاوية أمور المغرب، وهو الذي بنى مدينة القيروان، لم تصح له صحبة النبي (ص)، استشهد سنة 63هـ. أنظر: أحمد بن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي معوض، ج05، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1415هـ، ص 50.

-محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، تحقيق: عبد العزيز، عبد الله السلمي، ج01، مكتبة الصديق، الطائف،ط01، 1418هـ، ص ص (466- 473).

-عبد الرحمن بن يونس الصفدي، تاريخ ابن يونس المصري،ج01، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1421هـ ص ص (349- 350).

-ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق: علي معوض وأحمد عبد الموجود، ج04، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1415هـ/1994م، ص57.

[1088] ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق:ج- س:كولان وليفي بروفنسال، ج01، دار الثقافة، بيروت، ط03، سنة 1983، ص 19.

[1089] أحمد الناصري السلاوي، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، ج01، المصدر السابق، ص 134.

[1090] ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج01، المصدر السابق، ص19.

العادية. فكان موقعها على بعد ستة وثلاثين ميلا من البحر المتوسط، ونحو مائة ميل من تونس وكان هدفه الوحيد من ذلك هو ضمان الأمن لجيشه[1091]، وكانت قريبة من السبخة. قال عقبة: "قربوها من السبخة فإن دوابكم وهي الإبل التي تحمل أثقالكم، فإذا فرغنا منها لم يكن لنا بد من الغزو والجهاد حتى يفتح لنا الله منها الأول فالأول، وتكون إبلنا على باب قصرنا في مراعينا آمنة من عادية البربر والنصارى"[1092].

اختط عقبة بن نافع مدينة القيروان وبنى المسجد الجامع، وبنى الناس مساكنهم ومساجدهم، وكان دورها ثلاثة آلاف ذراع وستمائة، وكملت في خمس سنين(50هـ/ 54هـ)، وكان يبعث السرايا للفتح، ودخل أكثر البربر الإسلام، واتسعت حطة الإسلام، ورسخ الدين[1093]، وسور المدينة بسور جميل بناه كله بالآجر[1094]. وقد تم تخطيط مدينة القيروان على الطابع الإسلامي، فالمسجد الجامع ودار الإمامة توأمان، لا ينفصل أحدهما على الآخر، فهما دائما إلى جوار بعضهما البعض، ويكونان في قلب المدينة التي يختطها المسلمون. وبينهما يبدأ الشارع الرئيسي للقيروان الذي يسمى باسم السماط الأعظم. ثم ترك عقبة فراغا حول المسجد ودار الإمارة في هيئة دائرة واسعة، ثم قسمت الأرض خارج الدائرة [1095]، إلى خطط القبائل، ليكون استمرارا للشارع الرئيسي إلى نهاية المدينة.

وقد اعتمد عقبة بن نافع في اختياره لموقع تشييد مدينة القيروان إستراتيجية تعتمد على العناصر التالية:

– موافقة الموضع لذهنية العرب ومتطلباتهم الضرورية .

[1091] الحسن الوزان، وصف افريقية، ج 02، المصدر السابق، ص 87.

[1092] ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج01، المصدر السابق، ص ص (19– 20).

[1093] عبد الرحمن بن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، تحقيق: خليل شحاته، ج04، دار الفكر، بيروت، ط01، سنة 1408هـ/988م، ص 273.

[1094] الحسن الوزان، وصف افريقية، ج 02، المصدر السابق، ص 87.

[1095] علي محمد الصلابي، معاوية بن أبي سفيان –شخصيته وعصره– ، دار الأندلس الجديدة للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ط01، سنة 1429هـ/2008م، ص 412.

- أن الموقع يتمتع ببعض الإنتاجات والموارد الذاتية، فالموقع عبارة عن غيضة، كان مواجها لجبال الأوراس، وهو عبارة عن منطقة زراعية صالحة للمحاصيل الزراعية التي تكفل المتطلبات الضرورية للسكان.
- طبق عقبة بن نافع نظرية عمر بن الخطاب في بناء الأمصار والمعسكرات بأن لا يفصلها فاصل من النهر أو البحر أو الجسر عن المدينة أو مركز القيادة، و أن تكون على طرف البر[1096].

2- جامع القيروان :

يعدّ جامع القيروان (الصورة 42) من الجوامع المتقنة الرائقة المشرقة الأنيسة، ووسطه فضاء متسع، وكان المؤسس له، والمقيم لقبلته القائد عقبة بن نافع مع جماعة من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم.ويذكر ابن العذارى المراكشي: "أن عقبة بن نافع اختط دار الإمارة أولا، ثم أتى إلى موضع المسجد الأعظم فاختطه، ولم يحدث في مدينة القيروان بناء فكان يصلي فيه كذلك، فأختلف عليه في القبلة فقالوا: إن جميع أهل المغرب يضعون قبلتهم على قبلة هذا المسجد فأجهد نفسك في تقويمها"[1097]. فأقاموا أياما ينظرون إلى مطالع الشتاء والصيف من النجوم، ومشارق الشم، فتنازعوا في قبلة الجامع فبات عقبة مهموما، فرأى في المنام قائلا يقول له: "خذ اللواء في يدك فحيث سمعت التكبير فامشي، فإذا انقطع التكبير فأركز اللواء فإنه موقع قبلتكم[1098]. ففعل عقبة ذلك، وهو محراب الجامع إلى اليوم. ولم يكن يراعي في المباني التي أقامها عقبة بن نافع أنتفي بحاجة مستديمة، إذ لم يمر بها عشرين سنة حتى هدمها حسان ابن النعمان[1099]، وشيد عليها بناء

[1096]علي محمد الصلابي، معاوية بن أبي سفيان -شخصيته وعصره- ، المرجع السابق، ص413.

[1097]ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج01، المصدر السابق، ص20.

[1098]مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، المصدر السابق، ص 114.

[1099]هو حسان بن النعمان، بن عدي بن بكر بن مغيث بن عمرو بن مزيقيا بن عامر بن الأزد، كان بمصر، لما قتل زهير بن قيس، فأمر عبد الملك بفتح افريقية، فخرج في جيش قوامه أربعين ألف، فتح قرطاجنة، وقتل الكاهنة، ثم بعث برأسها إلى عبد الملك بن مروان، وعزله عبد الملك بن مروان بعد ذلك وأخذ كل ما كان معه، توفي غازيا بالروم سنة 80هـ، وقيل 81هـ. أنظر: ابن الأبار، الحلة السيراء، تحقيق:حسين مؤنس، ج02، دار المعارف، القاهرة، ط01، سنة 1985، ص ص (331- 332).
-ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج01،المصدر السابق، ص 327.

جديدا سنة 83هـ، عدا المحراب، وحمل إليه الساريتين الموشاتين بصفرة، اللتين لم يرى الراءون مثلها من كنيسة كانت في الموضع المعروف القيصرية بسوق الضرب، ويذكر صاحب القسطنطينية بدل لهم فيها قبل نقلها إلى الجامع وزنها ذهبا، ويذكر أن كل من رآهما لم يرى في البلاد ما لا يقترن بهما"[1100].

وأثناء خلافة هشام بن عبد الملك كتب إليه عامله على القيروان بشر بن صفوان[1101]، أن الجامع يضيق بأهله، وأن بجوفيه جنة كبيرة لقوم من فهر، فكتب إليه هشام يأمره بشرائها وأن يدخلها إلى المسجد الجامع، ففعل وبنى في صحنه ماجلا[1102]، وكانت الزيادة في الناحية الشمالية، وإضافة إلى جناح القبلة ثلاثة أساكيب أخرى مدى بها عمق القبلة[1103]. ويذكر أحمد الفكري: "أن الخليفة هو الذي بعث إلى بشر بن صفوان خطة البناء، وأننا لنعرف مع هذا أن الصفة التي اتخذها المسجد في خلافته لم تتغير إلى اليوم، بالرغم مما أدخل على بنائه إصلاحات وتغيير"[1104].

أ – مخطط الجامع: مخطط جامع القيروان مستطيل غير متساوي طوله 126م وعرضه77م، فيه صحن (الصورة 43) يقرب طوله 67م وعرضه 656م.أما الحرم فطوله 70م وعرضه 37م و70سم، وفيه سبعة عشر بلاطة متجهة نحو القبلة تمتد على ثمانية أساكيب، ويراوح عرض البلاطة 03 أمتار ونصف، و04 أمتار وربع، إلا بلاطة المحراب فعرضها متساوي، وهو يزيد بقليل

-ابن خلدون، ديوان المبتدأ و الخبر، ج04، المصدر السابق، ص 238.

(1100)أبو عبد الله البكري، الممالك والمسالك، ج02، المصدر السابق، ص 673.

(1101)هو بشير بن صفوان بن توبل بن بشير بن حنظلة بن علقمة بن شرحبيل بن عدس بن أبي جابر بن زهير بن جناب بن عبد الله بن كنانة بن بكر بن عوف بن عذرة بن زيد بن اللات بن رفيدة بن ثور بن كلب، ولي المغرب ستة أعوام، ولما احتضر ولى على الناس قعاس بن قرط الكلبي، توفي سنة 109هـ. أنظر: محمد الكندي، كتاب الولاة وكتاب القضاة، تحقيق: محمد محسن ومحمد حسن إسماعيل وأحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1424هـ/2003م، ص ص (53-54).

-صلاح الدين بن أبيك الصفدي ،الوافي بالوفيات، ج10، المصدر السابق، ص 33.

-ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج01، المصدر السابق، ص 49.

(1102)هو في الأصل البركة العظيمة التي تستنقع فيها المياه. أنظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج05، المصدر السابق، ص 35.

(1103)حسني محمد نويصر، الآثار الإسلامية، المرجع السابق، ص 112.

(1104)أحمد فكري، مسجد القيروان، المرجع السابق، ص 28.

عن 06 أمتار. أما عرض الأساكيب فيبلغ 04 أمتار و20 إلا أسكوب المحراب فعرضه 05أمتار ونصف[1105]. (الشكل 14).

ب- المئذنة: وهي من بناء بشير بن صفوان في بئر الجنان، ونصب أساسها على الماء وأتفق وإن وقعت في نصف الحائط الجوفي[1106]، وتعتبر من أضخم المآذن الإسلامية وأجملها وهي النموذج الأكثر وضوحا والأقدم للمئذنة السورية المربعة، (الصورة 44) تتكون من ثلاث طوابق يعلوها قبة مفصصة، ويؤكد أحمد فكري: "أنه في سنة 105هـ وكان جامع القيروان يمتد من قبلة عقبة بن نافع إلى مئذنة هشام، والدليل على ذلك حسب ما يراه أنعناصر بنيان المئذنة نفسها خير وسيلة نستعين بها على تحديد تاريخ بناء الجامع. إذ أنه تقوم في ناصيتي المجامع القبلية دعامتان ضخمتان، إحداهما تكسوهما طبقة من الجير، والأخرى أزيلت عنها هذه الطبقة، فظهرت دقائق بنائها وبدا تنسيق حجارتها وتمهيدها منطبقا على المئذنة تمام الانطباق حتى ليخيل أن هذه الدعامة جزء متصل بالمئذنة"[1107].

ويحدثنا أبو عبد الله البكري: "أن المئذنة في عهده كان ارتفاعا ستون ذراعا، وعرضها خمس وعشرون ذراعا، ولها بابان: شرقي وغربي وعضادتان بابيهما رخام منقش، وكذلك عتبتها"[1108]. وقد أوضح كريسويل أن قد هذا الارتفاع لا تعدى الطابق الثاني في المئذنة[1109]، أما الطابق الثالث الذي يحتوي على القبة القنديلية، فقد أضيفت للمئذنة في القرن السابع الهجري على حد تقدير جورج مارسيه، ويبلغ ارتفاعها ثمانية أمتار[1110]، بنيت قاعدة المئذنة حتى ارتفاع ثلاثة أمتار ونصف من مداميك حجرية ضخم، أما بقية القاعدة فمبنية من مداميك حجرية صغيرة تشبه قوالب اللبن،

[1105] المرجع نفسه، ص 34.

[1106] أبو عبد الله البكري،ا لممالك والمسالك، ج02، المصدر السابق، ص 673.

[1107] أحمد فكري، مسجد القيروان، المرجع السابق، ص81.

[1108] أبو عبد الله البكري،الممالك والمسالك ،ج02، المصدر السابق، ص 674.

[1109] Greswell (Capitaine A C), Erly Muslim Architecture, Umayya des Erly Appasids and Tulunids, Vol 1, Oxford, don Pres,1932, P 326 .

[1110] Marçals Georges, Manuel d'Art musulman, L'Architecture Tunisi Algérie Maroc, Espagne, Sicile, Vo02,.Augustepicardy Paris, P1926.

ومادة البناء آجورية في الأقسام العليا[1111]. وتنفتح واجهة البدن المشرفة على صحن بثلاثة نوافذ متضوعة فوق بعضها البعض، ويداخل المئذنة، ويتخلل البدن فتحات للتهوية، تعلوها أقواس حدوية الشكل.

ويتميز أسلوب بنيان مئذنة القيروان، أنه متحد المظهر وثيق التناسق، وأن الطابق الثاني منه، وهو الذي تراجع جدرانه عن جدران الطابق الأول، لا تستقيم مكانته عن غير الطابق الأعلى ولا تكتمل إلا به، وعليه فإن مئذنة جامع القيروان تنتصب في الفضاء كتلة متماسكة متحدة الأجزاء، وتناسق نسبها تناسقا يشعر بالعظمة، ولا يخلو من الجمال، وإذا خلعنا عن الطابقين العلويين ذلك الغطاء الجيري الذي يكسوها، لتبين لنا ارتفاع مظهر هذا الطابق حتى قمة المئذنة، ولاقتنعنا بوحدة أسلوب البناء وتطابق عناصر البناء وانسجام الفكرة الذي أخرجت هذا البناء كله[1112].

جـ– إضافة زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب في الجامع: لما ولي زياد الله بن إبراهيم بن الأغلب[1113]، هدم الجامع كله، وأراد هدم المحراب، فقيل له: من تقدمك من الولاة توقفوا عن ذلك، لما كان واضعه عقبة بن نافع ومن كان معه، فألح عن ذلك لئلا يكون في الجامع أثر لغيره، حتى قال أحد البنائين: أنا أدخله بين حائطين ولا يظهر في الجامع أثر لغيرك، فاستصوب ذلك وفعله. والمحراب كله وما يليه مكسو بالرخام الأبيض من أعلاه إلى أسفله، وهو مخرم منقوش كله، منه كتابة تقرأ،

[1111] عفيف بهنسي، الفن الإسلامي في بداية تكونه، المرجع السابق، ص 80.

[1112] أحمد فكري، مسجد القيروان، المرجع السابق، ص(109-110).

[1113] هو زيادة الله بن إبراهيم بن محمد بن محمد بن الأغلب، أبو المنصور ابن العباس التميمي صاحب القيروان، قد ولي افريقية لسبع بقين من ذي الحجة سنة 201هـ، ودامت إمارته 21سنة و07 أشهر، توفي سنة 223هـ عن عمر ناهز 51سنة و09 أشهر. أنظر: ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج01، المصدر السابق، ص ص (96- 106).

–ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ج06، دار الكتاب العربي، بيروت، ط01، سنة 1417هـ/ 1997م، ص 48.

–صلاح الدين بن أبيك الصفدي، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط ومصطفى تركي، ج15، دار إحياء التراث، بيروت، سنة 1420هـ/ 2000م، ص ص(11- 12).

ومنه تربيع مختلف الصناعة يستدير به أعمدة رخام في نهاية الحسن، والعمودان الأحمران يقابلان المحراب عليهما القبة المتصلة بالمحراب[1114].

وزين عقد المحراب وما يحيط به من الجداران ببلاطات من الخزف ذي البريق استجلب خصيصا من سمراء في عهد إبراهيم بن أغلب سنة 261هـ، إلا أنه لم يتبقى منها سوى 139بلاطة[1115].

ومن المعلوم أن قبة زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب، هي أقدم قباب الجامع وقد خصّها زيادة الله بعناية كبرى، فأبدع في صنعها، وأتقن نقوشها وزخرفتها ووسع من أجلها بلاطة المحراب قدر سعة أسكوبها، حتى تكون قاعدتها مربعة، وزاد في علوها حتى تتناسق نسبتها القبة والأعمدة التي ترفعها، فزادت في تناسق وحدة نظام البناء، وأضافت جمالا إلى مظهره ورفعت من علو قيمته[1116]. وتتكوّن هذه القبة من قاعدة مربعة، وأعلاها قبة نصف كروية وتتصل طبقة ثالثة بين هذه الجزأين، وتقوم القاعدة المربعة على أربعة عقود ثلاثة منها في بلاطة المحراب وأسكوبها، ويلتصق الرابع بجدار القبلة، ويرسم عليه قوس داخل فيه إطار المحراب، ويزين كل الفراغات الثمانية التي تتركها هذه العقود بين مجنباتها الكبيرة على شكل قوقعة مفصصة تحول القاعدة إلى مثمن بواسطة هذه المقرنصات، والقبة المجززة مقسمة إلى أربعة وعشرين ضلعا راسيا يتفرع من القمّة[1117]، تقوم القبة على ثمانية فتحات مغطاة بنوافذ مشبكة تسمح بدخول الضوء والهواء، وترفع أقواس هذه الفتحات على أعمدة ملتصقة وتحت الرقبة مثمن مؤلف من عقود مستديرة مرفوعة على ثمانية أعمدة صغيرة، وتترك هذه الأقواس فراغات بين منحنياتها ويزيّنها من الداخل مقرنصات صغيرة[1118].

[1114] أبو عبد الله البكري، الممالك والمسالك، ج01، المصدر السابق، ص 174.

[1115] حسني محمد نويصر، الآثار الإسلامية، المرجع السابق، ص119.

[1116] أحمد فكري، مسجد القيروان، المرجع السابق، ص(87- 88).

[1117] أحمد فكري، مسجد القيروان، المرجع السابق، ص 90.

[1118] عفيف يهنسي، الفن الإسلامي في بداية تكونه، المرجع السابق، ص82.

تشير إحصائيات أبو عبد الله البكري، أنه كان في الجامع في عهد زيادة الله من الأعمدة الأربع مئة وأربعة عشر عمودا، وبلاطته سبعة عشر بلاطة، وطوله مائتان وعشرون ذراعا، وعرضه مائة وخمسون ذراعا، وكانت فيه مقصورة، فلم يزل بناء زيادة الله، والمقصورة اليوم إنما هي دار بقبلي الجامع، بابها في رحبة التمر، لها باب عند المنبر يدخل منه الإمام بعد أن ينزل هذه الدار حتى تقترب الصلاة، قد بلغت النفقة في بناءه ستة وثمانين ألف مثقال[1119].

والجدير بالذكر أن أحمد الفكري: "يجزم أن ما أصاب جامع القيروان من هدم في سنة 155هـ، وسنة 221هـ لم يغير كثيرا من نظامه ولم يبدل شيئا من حدوده، فإن سعة الجامع وجدرانه مازالت كما كانت عليه أيام بشر بن صفوان، واتجاه حائط المحراب لم يتغير عما كان عليه في عهد عقبة بن نافع، وكان طول المسجد في ولاية يزيد بن حاتم[1120]، وفي حكم زيادة الله بن الأغلب 128 مترا، وهو اليوم كذلك، وما كان يقصده البكري بهدم زيادة الله المسجد هو هدمه بلاطة المحراب، وبناءها من جديد، وزيادة ارتفاع عقودها، وعقود أسكوبها المحراب، ثم بناء قبته"[1121].

د- إضافة إبراهيم ابن أحمد بن الأغلب: ولما ولي إبراهيم بن أحمد بن الأغلب[1122]،بنى القبة المعروفة بباب البهو على آخر بلاطة المحراب، وهي تتألف من نفس عناصر قبة المحراب، وقد أدخل عليها

[1119] أبو عبد الله البكري، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة، ص ص (23- 24).

[1120] هو أبو خالد يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي، تولى ولاية مصر سنة 143هـ، ثم عزله المنصور عن مصر سنة 152هـ، وجعل مكانه محمد بن سعيد، سيّره المنصور إلى افريقية لحرب الخوارج الذين قتلوا عامله عمر بن حفص، وجهز معه خمسين ألف مقاتل، فدخل مدينة القيروان سنة 155هـ، هدم الجامع غير المحراب، وبناه واسترى العمود الأخضر بمال جزل، ووضعه فيه، وهو الذي كان يصلي عليه القاضي أبو العباس عبدون، ولم يزل واليا بافريقية إلى أن توفي بالقيروان سنة 170هـ، ودفن بباب سلم. أنظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنبياء أبناء الزمان، ج06، المصدر السابق، ص ص (321- 327).

-صلاح الدين بن أبيك الصفدي، الوافي بالوفيات، ج15، المصدر السابق، ص ص(48- 50).

-محمد الكندي،كتاب الولاة وكتاب القضاة، المصدر السابق،ص ص (84- 87).

[1121] أحمد فكري، مسجد القيروان، المرجع السابق، ص ص(24- 25).

[1122] هو صاحب المغرب أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب بن تميم الأغلبي القيرواني، ولي سنة 261هـ وكان ملكا حازما صارما مهيبا، توفي غازيا بصقلية في ذي القعدة، سنة 289هـ. أنظر :شمس الدين بن قماز الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج01، دار الحديث، سنة 1427هـ/2006م، ص ص(492- 493).

من التعديلات ما تغير به شكلها القديم، فهي مازالت تحتفظ بعناصر قاعدتها[1123]. ويروي البكري أن إبراهيم ابن أحمد بن الأغلب: " زاد في دورها اثنان وثلاثون سارية من بديع الرخام، وفيها نقوش غريبة وصناعات محكمة عجيبة يشهد كل من رآها أنه لم يرى مبنى أحسن منه. وقد غرس من الصحن بين أيدي البلاطات نحو خمسة عشرا ذراعا، و زاد في طول بلاطات الجامع"[1124].

والقبة الثالثة هي القبة هي القبة القائمة فوق مدخل الأريحان، وهو المدخل الشرقي في الحرم، وقد أنشأت في عهد الخليفة أبو حفص[1125] سنة 692 هـ، والقبة الرابعة تعلوا مدخلا آخر في الجهة الغربية، وتعود إلى عهد نفس الخليفة[1126].

يبرز أحمد الفكري أهمية جامع القيروان في النسيج العمراني لمدينة القيروان بقوله: "وتحتفظ مدينة القيروان منذ سنة 105 هـ بصورتها، ونظامها، ويظهر فيها المسجد الجامع جليا وواضحا، بل إن صورة المدينة تأثرت من صورته، إذ أنها وضعت بهذا الشكل لتزيده قوّة وجلالا"[1127].

3– عمران مدينة القيروان :

كان لمدينة القيروان في القديم سور مبني من الطوب سعته عشرة أذرع، بناه محمد بن أبي الأشعث بن عقبة الخزاعي[1128]سنة 144هـ، وكان في قبليه باب سوى الأربعة، وهو بين القبلة والمغرب، وبين القبلة والمشرق باب أبي الربيع، وفي شرقيه باب عبد الله، وباب نافع، وفي جوفيه

--شمس الدين بن قماز الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق:بشار عواد، ج06، دار الغرب الإسلامي، ط01، سنة 2003م، ص 698.

(1123)عفيف يهنسي، الفن الإسلامي في بداية تكونه، المرجع السابق، ص84.

(1124)أبو عبد الله البكري، الممالك والمسالك، ج02، المصدر السابق، ص 678.

(1125)هو السلطان أبو حفص، تمت له البيعة سنة 683هـ، فدخل تونس في ربيع الثاني سنة 683هـ، واستولى على عرشها، توفي سنة 694هـ. أنظر: ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، تحقيق: خليل شحادة، ج06، دار الفكر العربي، بيروت،ط01، سنة 1408هـ/ 1988م، ص ص (455- 456).

(1126)عفيف يهنسي، الفن الإسلامي في بداية تكونه، المرجع السابق، ص84.

(1127)أحمد فكري، مسجد القيروان، المرجع السابق، ص 12.

(1128)هو محمد بن الأشعث بن عقبة بن أبان بن عباد بن ربيعة بن كعب بن أمية بن يقظة بن خزيمة بن ملك بن سلمان بن أسلم بن أقصى بن حارث بن عمرو بن عامر، أحد قواد بني العباس، ولي دمشق للمنصور بعد صالح بن علي العياشي،، ثم ولاه إمرة الديار المصرية، ودخل القيروان، وكان شجاعا حازما مهيبا، مات سنة 149هـ. أنظر: شمس الدين بن قماز الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: بشار عواد، ج03، دار الغرب الإسلامي، ط01، سنة 2003م، ص 956.

باب تونس، وفي غربيه باب أصرم، وباب سلم، فهدم هذا السور زيادة الله بن إبراهيم[1129]، المعروف بالكبير سنة 209هـ، وخرج إليه أهل فرغبوا في العفو عنهم، والصفح عن هدم السور عقوبة لهم، ثم بناه المعز بن باديس بن منصور الصنهاجي سنة 499هـ، ويبلغ تكسيره اثنان وعشرون ألف ذراع[1130].

وجعل السور مما يلي صبرة كالفصيل، حائطان متصلان، إلى مدينة صبرة وبينهما نحو نصف ميل، ولا سبيل لتاجر ولا وارد أن يدخل مدينة القيروان إلا بعد مروره بمدينة صبرة، وصار للمدينة في هذه الفترة أربعة عشر بابا منها: الأبواب المذكورة وباب النخل، وباب الحديث، باب الطراز، وباب القلالين، باب سحنون الفقيه، وللفيصل بابان[1131].

ويخارج مدينة القيروان 15 ماجلا للماء، هي سقيايات لأهل القيروان. منها ما بني في أيام هشام ابن عبد الملك بن مروان، وفي أيام غيره من الخلفاء، وأعظمها شأنا، وأفخمها منصبا الماجل الذي بناه أحمد ابن أغلب[1132] بباب تونس من القيروان. وهو متناهي الكبر، في وسطه صومعة مثمنة، وفي أعلاها مفتحة على الأبواب، فإذا وفق الرامي على ضفته ورمى بأشد ما يكون من

[1129] هو زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب بن سالم، أبو محمد، رابع الأغالبة أصحاب افريقية، ولي بعد وفاة أخيه عبد الله سنة 201هـ، اضطربت البلاد عليه، سير أسطولا عظيما سنة 212هـ إلى جزيرة صقلية، فاستولى على معظم حصونها، توفي بالقيروان سنة 223هـ. أنظر: خير الدين الزركلي، الأعلام، ج03، المصدر السابق، ص 56.

-شمس الدين بن قماز الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق:بشار عواد، ج05، دار الغرب الإسلامي، ط01، سنة 2003م، ص 572.

-محمد الكندي، كتاب الولاة وكتاب القضاة، المصدر السابق، ص ص (82- 83).

-ابن عساكر، تاريخ دمشق، تحقيق:عمرو بن غارمة العموري، ج52، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ط01، سنة 1415هـ/ 1995م، ص ص(133- 134).

[1130] أبو عبد الله البكري، الممالك والمسالك،ج02، المصدر السابق، ص 676.

[1131] المصدر نفسه، ص 676.

[1132] هو أبو إبراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب، ولي إفريقية وهو ابن عشرين سنة، كان حسن السيرة كريم الأخلاق والأفعال، من أجود الناس وأسمحهم، وأرفقهم بالرعية مع دين، واجتناب للظلم على حداثته وقلة عمره، توفي لثلاث خلت من ذي القعدة، سنة 249هـ، فكانت ولايته سبع سنين وعشرة أشهر ونصف، وهو ابن ثمان وعشرين سنة. أنظر:ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج01، المصدر السابق ص ص (212- 213).

-عبد الرحمن ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، ج04، المصدر السابق، ص 256.

القسى لا يدرك الصومعة التي وسطه[1133]، وكان على ذلك الماجل قصر عظيم فيه البناء العجيب والغرف المشرفة على ذلك الماجل، كل شيء غريب، ويمر في هذا الماجل ماجل لطيف متصل به، يقع فيه ماء الوادي إذا جرى، فتتكسر فيه حدة جريانه، ثم يدخل الماجل الكبير، فإذا امتلأت المواجل شرب أهل القيروان ومواشيهم، وكان عبد الله الشعيبي يقول: "رأيت بإفريقية شيئين ما ورأيت مثلهما بالمشرق: الحفير الذي هو باب تونس من القيروان، والقصر الذي برقادة المعروف بقصر البحر"[1134].

وأما مقبرة مدينة القيروان، فقد أورد الرحالة محمد العبدري أنها من المزارات الشريفة، وفيها من الأفاضل وأخيار الأمة ما يقصر عنه الوصف، وبها قبر أبي زمعة البلوي[1135] صاحب رسول صلى الله عليه وسلم، وقبره مشهور بها، وكذلك قبر الفقيه القاسم أبي الحسن علي بن محمد القابسي[1136].

[1133] عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، المصدر السابق، ص485.

[1134] مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، المصدر السابق، ص 115.

[1135] أبو زمعة البلوي، صاحب النبي صلى الله عليه وسلم، وكان ممن بايعوه تحت الشجرة سكن مصر، وسار إلى افريقية في غزوة معاوية بن حديج، فتوفي بها فدفنوه بالموضع المعروف بالبلوية بالقيروان. أنظر: ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق: علي معوض وعاد أحمد عبد الموجود، ج06، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1415هـ/1994م، ص118.

-محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ج07، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1410هـ/1990م، ص 118.

-ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي معوض، ج07، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1415هـ، ص 129.

-يوسف بن عاصم النمري القرطبي، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق:علي محمد البيجاوي، ج09، دار الجيل، بيروت، ط01، سنة 1412هـ/1992م، ص 1662.

[1136] هو أبو الحسن علي بن محمد بن خلف المغافري القابسي، شيخ المالكية بافريقية في عصره، كان حافظا للحديث وعلله ورجاله، فقيها أصوليا متكلما منصفا صالحا متقنا، أعنى من أهل القيروان، ولد سنة 324هـ، ورحل إلى المشرق سنة 352هـ، وحج وسمع صحيح البخاري بمكة من أبي زيد، ثم عاد إلى القيروان سنة 357هـ، توفي بها في ربيع الثاني 403هـ، له عدّة تآليف:كالمهذب في الفقه، وإحكام الديانة، وكتاب المنقذ من شبه التأويل، وكتاب الاعتقادات، وغيرها. أنظر: القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، تحقيق: سعيد أحمد أعراب، ج07، مطبعة فضالة، المغرب، ط01، سنة 1981م، ص ص (82- 100).

- ابن القنفذ القسنطيني، الوفيات، المصدر السابق، ص (228- 229).

-ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج03، المصدر السابق، ص ص (320- 322).

وصف العبدري قبر الفقيه أبي محمد بن أبي زيد، الموجود بداره داخل البلد، وهي بيت منه على يسار الداخل، وقد زاره و دخل البيت فوجد عدة قبور، ولما سأل العجوز القيمة على قبره، أخبرته أنه في وسط البيت المقابل للباب، فنظر إلى تاريخه فوجده لغيره، ثم أتى على يسار الباب، وكان عليه دكان مبني، فقرأ في حجر عند رجليه" أنه قبر أبي محمد[1137]، وعليه تاريخ وفاته"[1138].

ومدينة صبرة متصلة بالقيروان كبيرة بناها إسماعيل العبيدي[1139] وسماها المنصورية سنة 337هـ. فكان له فائدة كبيرة، يقال أنه يدخل أحد أبوابها ألف درهم، وهي منزل الولاة إلى حين خرابها، ونقل إليها معد بن إسماعيل[1140] أسواق القيروان كلها وجميع الصناعات، ولها خمسة أبواب: الباب القبلي والباب الشرقي وباب زويلة وباب كتامة وهو جوفي، وباب الفتوح، ومنه تخرج

-شمس الدين بن قيماز الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج03، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1419هـ/1990م، ص ص(186-187).

(1137)هو أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن أبي زيد النفزاوي، القيرواني، فقيه مالكي، ولد بالقيروان، سنة 310هـ، كان إمام المالكية في عصره، ودافع بقوة عن مذهبه، وهو أول من بسط أصول الفقه في جلاء ووضوح، وكان يلتقي بقطب المذهب وبمالك الأصغر، ومن أهم تآليفه: الرسالة، توفي سنة 386هـ. أنظر: ابن القنفذ القسنطيني، الوفيات، المصدر السابق، ص 211.

-القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك،، تحقيق:سعيد أحمد أعراب،ج03، المصدر،ط01، سنة 1981م، ص 442.

-صلاح الدين بن أبيك الصفدي، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط ومصطفى تركي، ج17، دار إحياء التراث، بيروت، سنة، 1420هـ/ 2000م، ص 131.

(1138)محمد العبدري، رحلة العبدري، المصدر السابق، ص ص(162- 163).

(1139)هو إسماعيل بن محمد بن عبيد الله أبو الطاهر المنصورابن القاسم ابن المهدي صاحب افريقية، تولى الخلافة بعد وفاة أبيه القائم،كان شجاعا رابط الجأش، بليغا يترجل الخطبة، سلط الله عليه ريحا عظيما ومطرا غزيرا وبردا قارسا، لما خرج إلى مدينة حوراء، ليتنزه بها، فمات أكثر من معه، فرجع إلى المنصورية، فاعتل بها ومات سنة 341هـ. أنظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج01، المصدر السابق، ص ص (134- 135).

-شمس الدين بن قيماز الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ج16، مؤسسة الرسالة، ط03، سنة 1405هـ/1985م، ص ص (135- 156).

(1140)هو معد بن إسماعيل المعز لدين الله العبيدي، وهو معد بن إسماعيل بن أبي القاسم بن عبيد الله، كنيته: أبو تميم، كان مولده بالمهدية، في رمضان سنة 319هـ، وولي افريقية وله 22سنة، وهو أول من ملك مصر من بني عبيد الله سنة 358، وفي سنة 361هـ، خرج أبو تميم من المنصورية راحلا إلى المشرق، واستخلف عل افريقية أبو الفتوح الصنهاجي، توفي سنة 365هـ، أنظر: ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج01، المصدر السابق، ص ص (221- 228).

-شمس الدين بن قيماز الذهبي، العبر في أخبار من عبر، ج02، المصدر السابق، ص 122.

-عفيف الدين بن سليمان اليافعي، مرآة الجنان ، تحقيق: خليل منصور، ج02، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1417هـ /1997م، ص 2009.

الجيوش، وكان فيها عدة عمارتها ثلاثمائة حمام أكثر ها للديار، وباقيها مبرز للناس، وهي الآن خراب لا ساكن بها، يقول فيها أعلى بن رشيق:

أصاب القيروان وساكنيها ودار الملك صبرة كل باس

فلا الدنيـا بقيـت بدنيـا ولا الناس الذين بقوا بناس[1141].

وهنا يقصد الخراب والدمار الذي حل بمدينة القيروان التي أخليت، ولم يبقى فيها إلا ضعفاء أهلها.

وعلى ثلاثة أميال منها مدينة رقادة، وكان دورها 24040 ذراعا، وأكثرها البساتين، وليس بإفريقيا أعدل هواء ولا أرق نسيم منها، ولا أطيب تربة منها، ورووا أنها سميت بهذا الاسم لأن أحد بني أغلب أرق وشرد عن النوم وعالجه الطبيب ولم ينم، فأمره بالخروج المشي فلما وصل إلى موضع هذه المدينة نام. فسميت من يومئذ رقادة[1142].

والمعروف أن الذي بناها هو إبراهيم بن أحمد بن الأغلب، وانتقل إليها من مدينة القصر[1143]، وبنى بها قصورا عجيبة وجامعا وعمرت الأسواق والحمامات والفنادق، فلم تزل بعد ذلك دار ملك بني الأغلب إلى أن هرب عنها زيادة الله من أبي عبيد الله الشيعي، وسكنها إلى أن انتقل إلى المهدية سنة 380 هـ. وكان ابتداء تأسيس إبراهيم ابن أحمد بن أغلب لها سنة 263هـ[1144].

فلما انتقل عنها عبيد الله المهدي إلى المهدية، ودخلها الوهن، وانتقل عنها ساكنوها، ولم تزل تخرب شيئا فشيئا إلى أن ولي معد ابن إسماعيل فخرب ما بقي منها وعفا أثرها، ولم يبقى غير

[1141] عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، المصدر السابق، ص354.

[1142] أبو عبد الله البكري، الممالك والمسالك، ج02، المصدر السابق، ص 678.

[1143] نسبة إلى القصر القديم الذي أسسه إبراهيم بن الأغلب سنة 284هـ، وصار دار أمراء بني الأغلب، وهو في قبلة القيروان، وعلى ثلاثة أميال منها، وبه جامع له صومعة، مستديرة مبنية بالآجر والعمد سبع طبقات، لم يرى أعلى منها، ولا أحسن منظرا، وبه حمامات كثيرة وفنادق وأسواق جمة، ومواجل ماء، وكان لها من الأبواب، باب الرحبة القبلي، والباب الحديدي القبلي أيضا، وباب غليون شرقي، وباب الريح شرقي أيضا، وباب السعادة غربي، يقابل المقبرة الكبيرة، وداخل المدينة رحبة كبيرة، تعرف بالمدائن، وتجاور مدينة القصر بنية تعرف بالرصافة. أنظر: عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، المصدر السابق، ص476.

[1144] ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج03، المصدر السابق، ص 55.

بساتينها، قال بعض ظرفاء أهل القيروان لما منع إبراهيم بن أحمد بيع النبيذ بمدينة القيروان وأباحه بمدينة رقادة:

يا سيد الناس وابن سيدهـم   ومن إليه الرقــاب منقــادة

ما حرم الشـــرب في مدينتنا   وهو حــلال بأرض رقــادة.[1145]

المبحث الثاني: مدينة فاس

يقترن اسم مدينة فاس باسم إدريس الأكبر[1146]، عندما نجا من وقعة فخ قرب مكة سنة 169هـ، وفرّ إلى المغرب إلى وليلي[1147] سنة 170هـ، وبايعه البربر واجتمعت عليه زواغه ولواته وسدراته وغياتة ونفزة ومكناسة وغمارة، وأسس دولة الأدارسة ثم زحف إلى مدينة تلمسان 173هـ، ولقيه أميرها محمد بن حرز وابن جزلان فأعطاه الطاعة[1148]. ومات إدريس الأكبر دون أن يترك ولدا وإنما ترك زوجته حاملا وهي قبطية[1149]، واعتنقت الإسلام سمته باسم أبيه، وأراد أن يكون لهم ملكا فتربى تربية حسنة ونال رعاية فائقة، ولما كبر تعلم تحت رعاية مولى أبيه الشجاع راشد، وأخذ من الخامسة عشر من عمره يحقق انتصارات مجيدة[1150].

والجدير بالذكر أن الحسن الوزان أفرد رواية مفادها أن أحد الشيعة أيام الخليفة هارون الرشيد أسس مدينة فاس عام 185هـ، وسميت هذه المدينة فاس لأنه عثر في أول يوم شرع في

[1145]أبو عبد الله البكري، الممالك والمسالك، ج02، المصدر السابق، ص 679.

[1146]هو إدريس بن عبد الله بن الحسين المثنى ابن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، مؤسس دولة الأدارسة في المغرب، وإليه نسبها، توفي مسموما في وليلي سنة 175هـ. أنظر:خير الدين الزركلي، الأعلام، ج01، المصدر السابق، ص ص (279-280).

[1147]هي مدينة بالمغرب، بطرف جبل رزهون، وهي مدينة مدينة رومانية قرب مدينة طنجة، وهي الآن تسمى تدسرة. أنظر: مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، المصدر السابق، ص 129.

-عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، المصدر السابق، ص609.

[1148]عبد الرحمن ابن خلدون، ديوان المبتدأ الخبر، ج04، المصدر السابق، ص 17.

[1149]ذكر ابن عذارى المراكشي: أن إدريس الأكبر توفي، وترك جارية بربرية اسمها كنزة فولدت غلاما سمي باسم أبيه. أنظر: ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب،ج01، المصدر السابق ص ص 210.

[1150]الحسن الوزان، وصف افريقية، ج01، المصدر السابق، ص 210.

حفر الأرض لإرساء الأسس على كمية من الذهب تحمل بالعربية اسم فاس، وهذا في نظري هو السبب الحقيقي لهذه التسمية[1151].

1- تأسيس مدينة فاس:

لما كثرت الوفود من العرب وغيرهم على إدريس ابن إدريس، وضاقت بالأدارسة مدينة وليلي أراد أن يبني لنفسه مدينة يسكنها هو وخاصته ووجوه دولته، فركب يوما في جماعة من حاشيته وخرج يتخير البقاع فوصل إلى جبل زالغ[1152]، فأعجبه ارتفاعه وطيب هوائه وتربته، فاخطط بسنده مدينة من ما يلي الجوف فشرع في بنائها فبنى بعضا من الدور ونحو ثلث من السور فأتى السيل من أعلى الجبل في بعض الليالي فهدم السور، والدور وكف عن البناء[1153].

ثم بعث وزيره عمير بن مصعد الأزدي ليختار له موضع يبني فيه مدينة فانتهى إلى هضبة سايس، وما تحتويه من عيون التي ينبع منها وادي فاس التي تزيد عن الستين، وما يحيط بها من فسيح الأرض ذات التربة الخصبة، وما ينمو فيها من شجر الطرفاء والطخش والعرعار والكلخ وغير ذلك، فشرب من الماء فاستطابه، ونظر إلى ما حوله من مزارع فأعجبته[1154]، فرجع إلى إدريس وأعلمه بما رأى من الغيضة وساكنها. وكان تأسيس إدريس لمدينة فاس على ما ذكره المؤرخون الذين عنوا بتاريخها وبحثوا عن ابتداء أمرها، يوم الخميس غرّة ربيع الأول سنة 192هـ، حيث أسس عدوة الأندلس منها، وبعدها بسنة أسست عدوة القرويين، وذلك في غرّة ربيع الثاني من سنة 193هـ[1155]. (شكل 15).

فقد أدار السور على عدوة الأندلس وبنى الجامع المعروف بجامع الأشياخ، وأقام به الخطبة، ثم انتقل إلى عدوة القرويين ونزل بالموضع المعروف بالمقرمدة وضرب فيه خيمة، وأخذ في بناء جامع

[1151] المصدر نفسه،ص 118.

[1152] جبل زالغ هو مشرف على مدينة فاس، كان فيه حصن بناه المظفر بن المنصور بن أبي عامر. أنظر: مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، المصدر السابق، ص 190.

[1153] أحمد الناصري السلاوي، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، ج01، المصدر السابق، ص 220.

[1154] المصدر السابق، ص 221.

[1155] أبو زرع الفاسي، الأنس المغرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، المصدر السابق، ص 19.

الشرفاء، وأقام فيه الخطبة أيضا، ثم شرع في بناء داره المعروفة بدار القيطون التي يسكنها الشرفاء من ولده، ثم بنى القيصرية إلى جانب المسجد الجامع، وأدار الأسواق حوله وأمر الناس بالبناء، ثم أدار السور على عدوة القرويين وكانت من لدن باب السلسلة إلى غدير الجوزاء[1156].(شكل 16).

قال عبد المالك الوراق: "كانت مدينة فاس في القديم بلدين لكل بلد منه سور يحيط به، وأبواب تختص به، والنهر الفاصل بينهما، وسميت إحدى العدوتين عدوة القرويين لنزول العرب الوافدين من القيروان بها، وكانوا ثلاثة مائة بيت، وسميت الأخرى بعدوة الأندلس لنزول العرب الوافدين من الأندلس بها، وكانوا جمعا غفيرا يقال أربعة آلاف بيت"[1157].

ولعدوة الأندلسيين من الأبواب باب الفتوح القبلي، يخرج منه إلى القيروان، وباب الكنيسة شرقي يقابل ربض المرضى، وباب أبي خلوق شرقي، وباب حصن سعدون جوفي، وباب الحوض غربي يقابل عدوة القرويين، وباب سليمان مثله، وهذين البابين يخرج منهما إلى الحرب، وباب الفوارة، وبها جامع الحسن فيه ستة بلاطات طولها من الشرق إلى الغرب، وله صحن فسيح فيه جوز، وشجر وساقية تعرف بساقية مصمودة، وهي غزيرة الماء[1158].

ومن محاسن مدينة فاس أن نهرها يشقها لنصفين، وتتشعب جداوله في دورها وحماماتها وأسواقها وتطحن به أرجاءها، ثم يخرج منها وقد حمل أقدارها إلى غير ذلك من عيون الماء التي تنبع من داخلها وتتفجر من بيوتها، وقد مدحها الفقيه الزاهد أبو الفضل ابن النحوي بقوله:

يا فاس جميع الحسن مسترق ... وساكنوك ليهنهم بما رزقوا
هذا نسيمك أم روح لراحتنا ... وماؤك السلسل الصافي أم الورق
أرض تتخللها الأنهار داخلها ... حتى المجالس والأسواق والطرق[1159].

[1156] أحمد الناصري السلاوي، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، ج01، المصدر السابق، ص 222.
[1157] المصدر نفسه، ص ص (222- 223).
[1158] أبو عبد الله البكري، الممالك والمسالك، ج02، المصدر السابق، ص 796.
[1159] أحمد الناصري السلاوي، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، ج01، المصدر السابق، ص 224.

ولعدوة القرويين من الأبواب: باب الحصن القبلي يخرج منه إلى زواغه، وباب السلسلة الشرقي يخرج منه إلى عدوة الأندلسيين، وباب القناطر الشرقي، وباب سياج يحي بن القاسم الجوفي يخرج منه إلى المخاض وإلى شتاته ومغلية، وباب سوق الأحد الغربي منه يخرج إلى زواغة، وبها جامع فيه ثلاثة بلاطات طولها من الشرق إلى الغرب، بناه إدريس بن إدريس، وله حصن كبير فيه زيتون، وشجر وله سقائق، وبها نحو عشرين عاما، وهي أكثر البساتين ومياها[1160].(شكل 17).

وقال محمد إسحاق المعروف بالجليلي في مدح عدوة القرويين:

يا عدوة القرويين التي كرمت   لا زال جانبك المحبوب مطمور
ولا سوى الله عنها ثوب نعمته   أرض تجتنب الآثام والزورا[1161].

قال الفقيه الكاتب أبو عبد الله المغيلي يتشوق إلى فاس:

يا فاس حيا الله أرضك من ثرى   وسقاك من صوب الغمام المسبل
يا جنة الدنيا التي أربت على   حمص بمنظرها البهي الأجمل
غرف على غرف ويجري تحتها   ماء ألذ من الرحيق السلسل
وبساتين من سندس قد زخرفت   بجداول كالأكم أو كالمفصل
وبجامع القرويين شرف ذكره   آنس بذاكره بهيج تملل
وبصحنه زمن المصيف محاسن   فمع العشي الغرب منه استقبل
واجلس إزاء الخصة الحسن به   وأكرع بما عنى فديتك وانهل[1162].

(1160) أبو عبد الله البكري، الممالك والمسالك، ج02، المصدر السابق، ص 797.

(1161) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 04، المصدر السابق، ص 230.

(1162) أحمد الناصري السلاوي، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، ج01، المصدر السابق، ص 224.

2- عمران مدينة فاس:

فاس مدينة عظيمة، وهي قاعدة المغرب، وهما مدينتان مقترنتان يشق بينهما نهر كبير، يسمى واد فاس ينبع من عيون صنهاجة[1163]، وفيهما معا ضياع ومعايش ومبان سامية وقصور[1164]. ويدخل الماء إلى المدينة من نقطتين، يمر أحد فروع النهر بالقرب من فاس الجديد جنوبا، ويدخل الفرع الآخر إليها من جهة الغرب، ويوزع الماء في المدينة بواسطة عدد من قنوات. والدور مبنية بالآجر والحجر المنحوت بدقة، ومعظم هذا الحجر الجميل مزدان بفسيفساء بهيجة، وكذلك الأفنية والأروقة مبلطة بزليج مربع قديم مختلف الألوان على شكل أواني مايورقة[1165] الخزفية، وكانت سقوف هذه البيوت مصنوعة من خشب، ومستوية ليسهل نشر الغسيل على سطح الدار والنوم فيه صيفا. وتتكون الدور من طابقين إلى ثلاث طوابق في كل طابق شرفات كثيرة حتى تسمح بالمرور تحت السقف من حجرة لأخرى في كل دار صحن مكشوف تحيط به حجرات، وهي ذات أبواب واسعة وعالية جدا، ويصنع الأثرياء لهذه الأبواب مصاريع من خشب في غاية الحسن والدقة في النقش، ويحملون بخزانات في غاية الحسن مصنوعة على امتداد عرض البيت، يحفظون فيها أثمن الأشياء[1166].

وجميع أروقة في هذه الدور قائمة على أعمدة من آجر مكسوة بالزليج إلى ارتفاع يزيد قليلا عن نصف القامة، وبعض الأعمدة مصنوعة من الرخام، والأقواس مكسوة بالزليج والقناطر الموضوعة بين الأعمدة لتحمل الطبقات العليا مصنوعة من خشب، ومزدانة بنقوش جميلة وأصباغ

[1163] بنو صنهاجة بطن من بطون البرانس البربريين مساكنهم بلاد المغرب، وهم بنو صنهاجة بن برنس بن بربر، وقيل هم من حمير من عرب اليمن. أنظر:أحمد القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار الكتاب البناني، بيروت، ط02، سنة 1400هـ/1980م، ص 317.

-السمعاني، الأنساب،تحقيق: عبد الرحمن بن يحي المعلمي اليماني، ج01، دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد ، ط01، سنة 1382هـ/ 1962م، ص ص (336-337).

[1164] عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، المصدر السابق، ص434.

[1165] مايورقة هي جزيرة في الأندلس، طولها 70ميلا، وعرضها من القبلة إلى الجوف 50ميلا، فتحها المسلمون سنة 290هـ، وسقطت في يد الإسبان سنة 626هـ. أنظر:عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، المصدر السابق، ص567.

[1166] الحسن الوزان، وصف افريقية، ج01، المصدر السابق، ص ص (221-222).

مختلفة الألوان. ويوجد في كثير من المنازل صهاريج مستطيلة يتراوح عرضها بين6 و7 أذرع، وعرضها بين 10 و12ذراعا ويبلغ عمقها بين 6 إلى 7 أشبار تقريبا، وكلها مكسوة بمربعات الزليج الميورقي، وفي كل جوانب الصهريج على طوله سقايات منخفظة مزخرفة بنفس الزليج، وتزين بعض هذه الفوارات المائية بخصات من الممر على ارتفاع نصف القامة[1167].

وفي فاس إحدى عشرة مدرسة لطلاب العلم جديدة البناء، كثيرة الزخارف من الزليج والخشب المنقوش، بعضها مبلط بالرخام، وبعضها بالخزف المايورقي. وتحتوي كل مدرسة عدة حجرات، وهي كلها من تأسيس مختلف ملوك بني مرين، فقد شيد أبو الحسن المريني مدرسة الحلفائين بعدوة القرويين، وبنى مدرسة العطاريين، ثم أنشأ المدرسة المختلفة بعدوة الأندلس، وهي مدرسة الصهريج، ثم شيد مدرسة الوادي، وهي التي يشق في وسطها الوادي الأعظم بالعدوة، ثم المدرسة الكائنة بجوفي جامع القرويين، وتعرف بمدرسة المصباح لأنه ولي التدريس فيها، وهو الإمام المعروف بالكراس[1168].

وتمتاز المدرسة البوعنانية التي شيدها السلطان أبي عنان[1169] المريني، والتي تمتاز بروعة فائقة سعة وجمال، تحتوي على بركة فاخرة من الرخام، سعة خاصتها نحو 1850 لترا، يخترق هذه المدرسة جدول ماء يسيل في قناة صغيرة مغطاة أرضيتها وحواشيها بالرخام والزليج، ويحيط بصحنها ثلاث أروقة مغطاة عجيبة المنظر تحيط بها أعمدة مثمنة أضلاع، مثبتة في الجدران والأقواس الواقعة بين هده الأعمدة مكسوة بالزليج والذهب الرفيع، واللازورد، والسقف من خشب منقوش بصنع دقيق منتظم. وقد أقيم بين هذه الأروقة والصحن شبه شبابيك من خشب على شكل ستائر، وجميع الجدران مكسوة كذلك بالزليج على الارتفاع الذي يمكن للإنسان أن يصل

[1167]المصدر نفسه، ص 223.

[1168]ابن مرزوق الخطيب، المسند الصحيح الحسن، المصدر السابق، ص ص (405- 406).

[1169]هو فارس بن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحميد المريني، أبو عنان ابن أبي الحسن المريني، ملك المغرب، ولي السلطة سنة 762هـ، ومات سنة 759هـ. أنظر: تقي الدين المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ج04، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1417هـ/1997م، ص 239.

-لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج01، المصدر السابق، ص ص (156،- 157).

بيده. وفي المدرسة كلها على طول هذه الجدران كتابات شعرية منقوشة تسجل تاريخ تأسيس المدرسة، ومدائح كثيرة لهذه البناية ومؤسسها أبي عنان. كتبت على زليجات بحروف كبيرة سوداء على أرضية بيضاء، بحيث يمكن قراءتها من مسافة بعيدة جدا، وأبواب هذه المدرسة كلها من البرونز المصنوع بدقة، وأبواب الحجرات من الخشب المنقوش، وفي القاعة الكبرى مخصصة للصلاة منبر ذو تسع درجات، مصنوع كله من خشب الأبنوس والعاج[1170].

وأحصى الحسن الوزان في فاس نحو سبع مائة جامع ومسجد، والمساجد أماكن صغيرة مخصصة للصلاة، ويوجد من بين هذه الجوامع خمسون كبيرة حسنة البناء، مزدانة بأعمدة من الرخام، وتدعم هذه الأعمدة عوارض مكسوة بالزليج أو الخشب أو خشب منقوش بدقة، ولكل جامع صومعة يصعد إليها المكلفون بالآذان للإعلان عن دخول أوقات الصلاة، وفي المدينة جامع عظيم يدعى جامع القرويين صنعت في جوفه سقاية متقنة البناء، ومياه جارية مع عتبة الباب الجوفي[1171]. ويوجد بفاس بيمارستانات عديدة وهي عبارة عن المواضع المتخذة لمداواة المرضى ومعالجتهم[1172]. وهي لا تقل حسنا عن المدارس، وكان الغرباء قديما يعطون السكن بها لمدّة ثلاثة أيام، ويوجد عدد كبير منها خارج أبواب المدينة، وهي لا تقل جمالا عن التي في داخلها[1173].

في فاس نحو مائة حمام جيّد البناء حسن الصيانة بعضها صغير، وبعضها كبير وكلها على نمط واحد من العمارة والتخطيط، فيتكوّن كل حمام من ثلاثة قاعات. وفي خارج القاعات غرف صغيرة مرتفعة يصعد إليها بخمس درجات أو ست، وفي وسط القاعات صهاريج على شكل أحواض إلا أنها كبيرة جدا. وإذا أراد أحدهم أن يستحم دخل من أول باب إلى قاعة باردة، ومن ثم نفذ من الباب الثاني إلى قاعة ثانية أشد بحرارة، حيث يقوم الخدم بغسل جسمه وتنظيفه، ومن هنا يدخل إلى قاعة ثالثة شديدة الحرارة ليعرق بعض الوقت. حيث يوجد مرجل محكم البناء

(1170) الحسن الوزان، وصف افريقية، ج01، المصدر السابق، ص ص (225- 226).

(1171) مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، المصدر السابق،ص 180.

(1172) ابن مرزوق الخطيب، المسند الصحيح الحسن، المصدر السابق، ص415.

(1173) الحسن الوزان، وصف افريقية، المصدر السابق، ج01، ص ص (227-228).

يسخن فيه الماء، ويغترف منه بحذق في دلاء من خشب، ولكل مستحم الحق في أخذ دلوين من الماء الساخن[1174]، قال الشاعر يعظم حمامات مدينة فاس ويذكر فوائدها:

إذا زفـــر الحمام واشتـــدّ غيظه وهاجـــت لواعيج بـــه وحميـــم
رأيت نعيما في الحميم وراحـــة وذاك غريب في الجحيم نعيم[1175].

أما عدد الفنادق بفاس، فيوجد نحو مائتا فندق بنيانها في غاية الإتقان بعضها فسيح جدا كالتي تقع بجوار الجامع الكبير، وتتألف من ثلاثة طوابق، منها ما يشتمل على مائة وعشرين غرفة أو أكثر من ذلك، وفي كل فندق صهريج وميضأة[1176].

وإلى الغرب من جامع القرويين ينتشر حوالي ثلاثين دكانا للكتبيين، وإلى الجنوب بائعو الأحذية الذين يشغلون قرابة مائة وخمسين دكانا، وفي شرقي الجامع مكان خاص بباعة أواني النحاس، وأمام الباب الرئيسي في لجهة الغربية يوجد باعة الفواكه اللذين يشغلون نحو خمسين دكانا، وبعدهم الشماعون الذين يصنعون من الشمع أجمل الأشكال، وعد ذلك تجد باب بائعي الأزهار يبيعون الليمون والحامض، ويبلغ عدد دكاكينهم نحو العشرين[1177]. ثم يأتي بذلك بائعو القطن حيث يبلغ عدد دكاكينهم ثلاثين، وإلى الشمال منهم باعة مصنوعات القنب كالحبال وأزمة الخيل والخيوط والشرائح الرفيعة، وغير ذلك من أنواع الحرف والصناعات التي تزخر بها مدينة فاس.

[1174] المصدر نفسه، ص 229.

[1175] مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، المصدر السابق، ص 181.

[1176] الحسن الوزان، وصف افريقية، ج01، المصدر السابق، ص 231.

[1177] الحسن الوزان، وصف افريقية، ج01، المصدر السابق، ص ص(233-234).

3- جامع القرويين :

كان الشروع في حفر أساسه للأخذ في أمور بناءه يوم السبت مستهل شهر رمضان سنة 145 هـ، وكان بوضعه الذي بني فيه أرض فلاحية، لرجل من هوارة، كان قد حاز ذلك أبوه بوجه صحيح، فاشترتها منه فاطمة بنت محمد ابن عبد الله الفهري القروي، ودفعت ثمنها من مالها الحاصل لها من ميراثها في أبيها، وتطوعت ببناء الجامع المذكورة فحفر في أرضه، ونصبت قبلته على نحو قبلة جامع الشرفاء الذين أسسه إدريس ابن إدريس[1178].

كان جامع القرويين(الصورة 25) في عهد الأدارسة يشتمل على أربعة أساكيب تسيير فيما موازاة القبلة، فتشغل مساحة عمق المسجد بين القبلة الواقعة جنوبا، وبين العمق من الجهة الشمالية، كما يشتمل بيت الصلاة على اثني عشر بلاطا فوقها اثني عشر قوسا يبلغ اتساعها الأفقي موازي لجدرا القبلة[1179] (شكل 18).

ولما جرى أمر زناته[1180]بأرض المغرب سنة 307 هـ، واتصل البناء في أرباض مدينة فاس من سائر الجهات. أزيلت الخطبة من جامع الشرفاء لصغره وأقيمت بجامع القرويين لاتساعه وكبره، وضع له منبر من خشب الصنوبر، وكان أول خطيب به عبد الله بن علي الفارسي قيل في سنة321 هـ، وأن من أقام الخطبة به هو عامل عبيد الله الشيعي على المغرب بعد أن تغلب عليها

[1178]علي الجزنائي، جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، مطبعة الملكية، الرباط، ط02، سنة 1411هـ/ 1991م، ص ص (45- 46).

[1179]عثمان عثمان إسماعيل، تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى، ج01، المرجع السابق، ص 267.

[1180]زناتة نسبة إلى جانا بالجيم، ويقال شانا، بالشين المعجمية ، وهو: جانا بن يحي بن صولات بن ورساك بن ضري بن رحيك بن مادغيس بن بربر، وقيل: جانا بن يحي بن ضريس بن جالوت بن هريك بن جديلات بن جالود بن ويلات بن عصى بن بادين بن رحيك بن مادغيش بن الأبتر بن قيس عيلان بن مضر، فيكون من العرب المستعربة، وبعضهم ينسب: جالوت بن جالود بن ديال بن قحطان بن فارس، فيكون من الفرس، وقال في العبر: ونسابة زناتة تزعم الآن أنهم من حمير من التبابعة، وبعضهم يقول: أنهم من العمالقة. أنظر: أحمد القلقشندي، قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، أتحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتب اللبناني، بيروت، ط02، سنة 1402هـ/1982م، ص ص (176- 177).

-أحمد القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، المصدر السابق، ص ص (273- 274).

مصالة[1181] بن حبوس القائم بدعوة الشيعي. فكتب عامل مدينة فاس أبو بكر الزناتي إلى عبد الرحمن الناصر يستأذنه في بناء جامع القرويين، وإصلاحه والزيادة فيه لحاجة الناس لذلك فأذن له، وبعث إليه بمال كثير من أخماس الروم، وأمر أن يصرف فيه فأصلحه، وزاد فيه أربعة بلاطات من الغرب وخمسة من الشرق، وثلاثة من الجوف من موضع الصحن الذي كان فيه وجعل بمؤخره صحن الذي به، وفي غربي هذا الصحن بلاطان، وفي الشرقية كذلك، وفي جوفيه بلاط واحد بعد أن هدم الصومعة التي كانت به[1182].

فأصبح تخطيط جامع القرويين يشتمل على 21 بلاطة عمودية تتجه بين القبلة والصحن، و07 أساكيب موازية لجدار القبلة[1183]، (شكل 19). وشرع في بناء الصومعة (الصورة 26) التي به الآن، وجعل سعة كل وجه واحد وعشرون شبرا، يصعد لها على مائة درجة، وجعل بابها من جهة القبلة، و غشيت بعد ذلك بصفائح النحاس الأصفر، وتم العمل في بنائها على يد أحمد بن أبي بكر الزناتي حيث ابتدأ في بنائها يوم الاثنين غرّة رجب سنة 344 هـ، وفرغ من بنائها في شهر ربيع الثاني سنة 345 هـ حسب ما كتب على بابها في مربعة بالجص واللازورد. "هذا ما أمر به أحمد بن أبي بكر الزناتي هداه الله ووفقه في ابتغاء ثواب الله و جزل إحسانه"[1184]. وجعل في أعلاها قبة صغرى ووضع في ذروتها تفاحات مموهة بالذهب في زج من حديد، وركب في أعلاها سيف إدريس ابن إدريس تبركا به[1185].

[1181] هو مصالة بن حبوس المكناسي، أمير بربري كان له رياسة قبيلة مكناسة وبلادها، ولما استولى عبيد الله المهدي على المغرب كان مصالة من أكبر قواده، وولاه المهدي على مدينة تاهرت، والمغرب الأوسط، وزحف مصالة إلى المغرب الأقصى سنة 305هـ، واستولى على فاس وسجلماسة، قتله محمد بن خزر الزناتي سنة 312هـ. أنظر: خير الدين الزركلي، الأعلام، ج07، المصدر السابق، ص 227.
-ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج01، المصدر السابق، ص 147.
--ابن حزم الأندلسي الطاهري، جمهرة أنساب العرب، تحقيق:لجنة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1403هـ/ 1983م، ص ص (395- 396).

[1182] علي الجزنائي، جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس، المصدر السابق، ص ص (46- 47).

[1183] عثمان عثمان إسماعيل، تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى، ج01، المرجع السابق، ص 268.

[1184] أحمد الناصري السلاوي، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، ج01، المصدر السابق، ص ص(232- 233).

[1185] علي الجزنائي، جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس، المصدر السابق ص 47.

ثم جعل تحت القبة المذكورة قبة أكبر منها لجلوس المؤذنين، ومبيت الراعي منهم لأوقات الليل وانصداع الفجر لإقامة الآذان، وبمواضع منها بلاطات من رخام موضوعة بالحكمة، وفي وسط كل بلاطة قائم يستدل بامتداد ظله على خطوط بطول أزمان النهار ومرور ساعاته[1186]. وكانت الصومعة مبنية من الحجر المنجور، وفيها ثقوب يعشش فيها الطير من الحمام وغيرها، وتأذي المسجد والناس بها، واستمر الحال على ذلك إلى أن كانت سنة 688 هـ، أيام السلطان يوسف بن يعقوب ابن عبد الحق المريني[1187]، حيث استأذنه القاضي أبي عبد الله ابن أبي الصبر في تلبيس المنارة وتبييضها فأذن له بذلك، فألبسها وبيضها حتى صارت كالمرآة الصقلية[1188]، وبنى الغرفة المطلة على باب الصومعة، وصنع المعدل محمد بن الحباك بدنا من الفخار بالقبة العليا، وفيه الماء وجعل على وجه الماء إناء من نحاس فيه خطوط وثقوب، يخرج منها الماء بقدر معلوم إلى أن تصل الخطوط فتعلم بذلك أوقات الليل والنهار في أيام الغيم ولياليها[1189].

أما القبة التي تعلو المحراب فإنها من تشييد المظفر ابن المنصور ابن أبي عامر، لما دخل المدينة فاس بعد هزيمة زيري بن عظيمة الزناتي[1190]، نصب أعلى قبة المحراب طلامس وتماثيل كانت

[1186]المصدر نفسه، ص 50.

[1187]يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني، الملقب بالناصر لدين الله من ملوك الدولة المرينية في المغرب الأقصى، تولى الحكم بعد وفاة أبيه سنة 685هـ، توفي مطعونا في قصره بالمنصورة، من طرف خصي مماليكه، فحمل إلى رباط شالة، ودفن به. أنظر: تقي الدين المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: عبد القادر عطا، ج02، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1418هـ/1995م، ص406.

-خير الدين الزركلي، الأعلام ، ج07، المصدر السابق، ص ص (258- 259).

-شمس الدين بن قيماز الذهبي، العبر في أخبار من عبر، ج02، المصدر السابق، ص 13.

-عفيف الدين بن سليمان اليافعي، مرآة الجنان، تحقيق: خليل منصور، ج02، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1417هـ/ 1997م ،ص 181.

[1188]أحمد الناصري السلاوي، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، ج01، المصدر السابق، ص 233.

[1189]علي الجزنائي، جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس، المصدر السابق، ص 51.

[1190]هو زيري بن عطية بن عبد الله بن خرز المغراوي، ملك زناتة سنة 368هـ، فقام في المغرب بدعوة هشام المؤيد بالله، وحاجبه المنصور بن أبي عامر، وذلك بعد انقراض دولة الأدارسة، واستقام له أمر المغرب بعد دخوله مدينة فاس سنة 377هـ، وصيرها دار ملكه، خاض حروبا كثيرة آخرها بينه وبين جيوش المنصور بن أبي عامر، فأثخن بالجراح، ومات بعد ذلك سنة 391هـ. أنظر: أحمد الناصري السلاوي، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، ج01، المصدر السابق، ص ص (265، 273).

قبل ذلك على رأس القبة التي كانت بأعلى المحراب الأول بالجامع المذكور، ومما صنعه الأولون[1191].وأما السقاية والبيلة المستطيلة التي عن يسار الخارج من باب الحفاظ الجوفية، فإنها من بناء المظفر، وجلب الماء لها من وادي الحسن الذي مر بأعلى مدينة فاس من ناحية باب الحديد. وأما المنبر الذي صنعه المظفر فكان من عود أبنوس والعناب، وكان مكتوبا عليه: "باسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما، هذا ما أمره بعمله الخليفة المنصور سيف الإمام عبد الله هشام المؤيد بالله أطال الله بقائه على يد حاجبه عبد الملك المظفر بن المنصور ابن أبي عامر وفقهم الله تعالى، وذلك في السنة ثان وثمانين وثلاثمائة"[1192].

وعليه فقد كان تخطيط جامع القرويين في العصر الزناتي يشتمل على 07 أساكيب، وعشرين بلاطة، ثم زاد المرابطين ثلاثة أساكيب خلف جدار القبلة القديم، وأصبح تخطيطه النهائي 10 أساكيب 21 بلاطة[1193]، ومن زيادات المرابطين في الجامع أيضا الباب الغربي الكبير الذي كان بسماط العدول سنة 505هـ، والباب الأكبر المعروف بباب الشماعين بني سنة 518هـ، ويزيد في الصحن بلاطين من الجهة الشرقية، ومن الجهة الغربية كذلك في أيام القاضي محمد ابن داوود، وفرش الصحن في أصله في أيامه في طوله من الشرق إلى الغرب 243 صفا في كل صف 118 آجورة، فيصبح تكسيره 52974 آجورة[1194].

ولما كثرت العمارات بالمدينة في أيام علي بن يوسف بن تاشفين[1195]، وضاق الجامع بالمصلين أذن بتوسيع الجامع، وتم شراء الأملاك التي كانت بقبلي الجامع، فكملت به عشرة

-عبد الرحمن ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، تحقيق: خليل شحادة، ج07، دار الفكر العربي، بيروت، ط01، سنة 1408هـ/ 1988م، ص ص (30- 47).

-خير الدين الزركلي، الأعلام، ج03، المصدر السابق، ص 39.

[1191] علي الجزنائي، جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس، المصدر السابق، ص54.

[1192] المصدر نفسه، ص 55.

[1193] عثمان عثمان إسماعيل، تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى، ج01، المرجع السابق، ص 273.

[1194] علي الجزنائي، جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس، المصدر السابق، ص ص (65- 66).

[1195] هو علي بن يوسف بن تاشفين اللمتوني، أبو الحسن ثاني ملوك دولة الملثمين، ولد بسبته ،تولى الحكم بعد وفاة والده سنة 500هـ، وقد خرج إلى الأندلس مجاهدا سنة 503هـ، وكانت له معارك مع الفرنج، حالفه فيها الظفر، وكانت مدّة حكمه 36سنة، و07أشهر، توفي سنة 537هـ. أنظر: لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج04، المصدر السابق ص 49.

بلاطات من صحنه إلى قبلته، وأخذ في عمل القبة التي بأعلى المحراب وما يحاذيها في وسط البلاطتين المتصلتين بها، فعمل ذلك بالجبص المقربس الفاخر الصنعة، ونقش على المحراب ودائر القبة عليه ونقش ذلك كله بورق الذهب واللازورد وأصناف الأصبغة، وركب الشمسيات التي بجوانب القبة أشكالا متقنة من أنواع الزجاج وألوانه، ويذكر أن هذا النقش والتذهيب غطي بالكاغد وعمل عليه حبس حين عزم عبد المؤمن بن علي الدخول إلى مدينة فاس والصلاة في الجامع المذكور لأن ذلك كان مشغلا للمصلين[1196].

ومن أعمال الموحدين إنشاء البيلة، وهي صهريج من الرخام المستطيل ملاصق للأرض، والخصة، ودار الوضوء[1197]. وقام المرينيون بترميم الصومعة الزناتية وتبيضها بالجص والجير، وصنعوا ثريا مماثلة لثريا القديمة سنة 685هـ، وأقيم المحراب الغريب الصنعة الدقيق الخرط سنة 686هـ، بعد ترميم الحائط الجوفي من حد السماط الفاصل بينه وبين الدار الموقفة لسكن الأئمة[1198].

-أحمد الناصري السلاوي، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، ج01، المصدر السابق، ص ص (65- 66).

-يوسف تغزي بردي الظاهريي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، ج05، ص 272.

-عفيف الدين بن سليمان اليافعي، مرآة الجنان، ج03، المصدر السابق، ص 205.

(1196)علي الجزنائي، جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس، المصدر السابق، ص 68.

(1197)عثمان عثمان إسماعيل، تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى، ج01، المرجع السابق، ص 274.

(1198)المرجع نفسه، ص 275.

المبحث الثالث: مدينة تلمسان

تلمسان هي قاعدة المغرب الأوسط، وأم بلاد زناتة، وقد حظيت باهتمام معظم الرحالة المغاربة، فوصفوا عمرانها وسكانها وحرصوا على تدوين ملاحظاتهم ومشاهداتهم بها. وتقع تلمسان حيث الطول 19°و40'، والعرض 33°،و42' ،وبينها وبين أرشقون 20ميلا، وبينها وبين هنين 30ميلا[1199]، وهي تنتمي إلى الإقليم الرابع، وتقع مابين افريقية والسوس من المغرب الأقصى[1200].

1- تسميتها :

يروي عبد الرحمن ابن خلدون نقلا عن ابن الرقيق في أخبار إبراهيم بن الأغلب قبل استبداده بافريقية، أنه توغل في غزوة إلى المغرب ونزلها، واسمها في لغة زناتة مركب من كلمتين: تلم سان، ومعناها: تجمع اثنين، يعنون البر والبحر[1201].وهناك من اعتبر تلمسان صيغة جمع لكلمة تلمسى البربرية التي تعني المكان الذي يستقر فيه الماء، وذكر المعلقون في الترجمة الفرنسية أن تلمسان كانت تدعى أيام الرومان "بوماريا" أي الحدائق[1202]. وكانت في أول نشأتها معسكرا رومانيا، وحصنا منيعا، ومركزا في المنطقة لحماية قوافلهم التجارية، وتأمين السكن للحماية العسكرية التي تحرس الطرق التجارية في المنطقة[1203].

وتذكر بعض المصادر التاريخية :"أن أصل مدينة قريتان أغادير، التي أسسها إدريس الأكبر على أنقاض معسكر روماني، وهي تعني بلغة البربر الجوف أو الهضبة، وهي فنيقية في الأصل. انتقلت إلى البربر[1204]، وقرية تاقرارت، التي أسسها يوسف بن تاشفين، ثم انضمت القريتان فأصبحتا تلمسان"[1205].

[1199] علي ابن موسى ابن سعيد المغربي، الجغرافيا، المصدر السابق، ص34.

[1200] عبد الرحمن ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، ج07، المصدر السابق، ص 102.

[1201] يحي بن خلدون، بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد،ج01، المصدر السابق، ص 07.

[1202] الحسن الوزان، وصف إفريقية، ج02، المصدر السابق، ص19.

[1203] خالد بلعربي، تلمسان من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الزيانية، دار الألمعية للنشر والتوزيع، قسنطينة، ط01، سنة 2011، ص ص (37-38).

[1204] ابن مريم، البستان، المصدر السابق، ص09.

[1205] الحسن الوزان، وصف إفريقية، ج02، المصدر السابق، ص19.

ويرى يحي ابن خلدون أن كلمة تلمسان بلغة البربر كلمة مركبة :من تلم ومعناها تجمع، وسان معناه اثنان: أي الصحراء والتل، في ما ذكره الشيخ أبو عبد الله الآبلي الذي كان عارفا بلسان القوم. ويقال فيها أيضا: تلشان، وهو مركب من تل ومعناه:لها، وشان:عظيم، أي: لها شأن عظيم[1206]. وهي مدينة عظيمة قديمة فيها آثار للأوائل، تدل على أنها كانت دار مملكة للأمم السالفة ،اختطها بنو يفرن[1207]، بها كانت مواطنهم، فيما يزعم بعض العامة من ساكنيها أنها أزلية البناء، وأن الجدار الذي ذكر في القرآن الكريم في قصة الخضر وموسى عليه السلام هو بناحية أكادير[1208] منها، وهذا ما اعتبره عبد الرحمن ابن خلدون أمر بعيد عن الحقيقة، واستدل بأن سيدنا موسى عليه السلام لم يفارق المشرق وبنوا إسرائيل لم يبلغ ملكهم افريقية[1209].

فتلمسان مدينة كبيرة لم يذكر التاريخ مؤسسها وكل ما يقال: أنها كانت مدينة صغيرة بدأت تمتد إثر تخريب مدينة أرشكول[1210]، وخصوصا بعد طرد جنود المنصور بن أبي عامر من المنطقة[1211]، ويجب الإشارة إلى أن إدريس الأكبر لما استولى على المغرب الأقصى اتجه إلى المغرب الأوسط سنة 174هـ، فتلقاه محمد بن خزر بن صولات أمير زناتة، فتدخل في طاعته، وحمل غليها مغراوة وبني يفرن، وأمكنه من تلمسان فملكها، واختط مسجدها وصعد منبره، وأقام بها أشهرا،

[1206]يحي بن خلدون ،بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد،ج01، المصدر السابق، ص 09.

[1207]هي قبيلة من البربر ببلاد المغرب، والمشهور بهذه النسبة، أبو الرحمن ابن عطاف اليفريني، وربما قال فيها أفرن. أنظر:السمعاني، الأنساب، المصدر السابق، ص 519.

[1208]يطلق على الجزء العتيق من المدينة، حيث أصلح إدريس التاني أسوارها، وبنى جامعها بأكادير، وصنع فيه منبرا، وكتب اسمه فيه، كما حكاه ابن الوراق في مقباسه، حيث ذكر أنه دخل الجامع سنة 255هـ فرأى في رأس منبرها لوحا من بقية منبر قديم قد سمر هناك، وعليه مكتوب: هذا ما أمرنا به الإمام إدريس بن إدريس في شهر محرم سنة 199هـ. أنظر: علي الجزنائي، جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس، المصدر السابق ص 29.

[1209]عبد الرحمن ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، ج07، المصدر السابق، ص 102.

[1210] ويطلق عليها أرشقول، وهي مدينة قديمة أزلية فيها آثار كثيرة، وهي على نهر تافنى، وهو نهر كبير تدخل فيه السفن، وهي ساحل تلمسان على بعد نحو 34 ميلا من تلمسان. أنظر: مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، المصدر السابق، ص134.

- أبو عبيد الله البكري، المسالك والممالك، ج02، المصدر السابق، ص ص (747-748).

- عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، المصدر السابق، ص ص (26-27).

[1211]الحسن الوزان، وصف إفريقية، ج02، المصدر السابق، ص17.

وقفل راجعا إلى المغرب، وجاء على أثره من المشرق أخوه سلمان بن عبد الله[1212]، فنزلها وولاه أمرها، ولما ولى ابنه إدريس من بعده واجتمع إليه أمر برابرة المغرب نهض إلى تلمسان سنة 199هـ فجدد مسجدها وأصلح منبرها وأقام بها ثلاث سنين[1213]. وتمكن إدريس الثاني من محو دعوة الخوارج، ورسم حدود مملكته من الناحية الشرقية بعد اتفاقية، وجعل نهر الشلف الحد الفاصل بين المملكتين[1214]، وبعد عودته إلى فاس ترك تلمسان وأعمالها لولد عمه سليمان بن عبد الله، فلما توفي إدريس واقتسم بنوه أعمال المغرب بوصية أمه كنزة كانت تلمسان في سهم عيسى ابن إدريس ابن محمد ابن سليمان ابن عبد الله. وعندما انقرضت دولة الأدارسة من المغرب وولي أمره موسى ابن أبي العافية [1215]بدعوة من الفاطميين، نهض إلى تلمسان سنة 319هـ، وتغلب على أميرها الحسن ابن أبي العيش ابن عيسى ابن إدريس ابن محمد ابن سليمان، ففر عنها إلى مليلية وبنى حصنها بناحية تكور، فحاصره مدّة ثم عقد له سلما على حصنه، وتم طرد جميع أعقاب محمد ابن سليمان من سائر أعمال تلمسان، فأخذوا بدعوى بني أمية من وراء البحر وأجاروا إليهم[1216].

ولما استقره أمر بلاد زناتة والمغرب الأوسط في يد يعلي محمد اليفريني عقد له الخليفة الناصر الأمور عليها وعلى تلمسان سنة 340هـ، واستقل زيري بن عطية ببلاد زناتة والمغرب حتى طرده المنصور بن أبي عامر من المغرب فصار إلى بلاد صنهاجة، ونزل معاقلهم وأمصارهم

[1212] هو سليمان ابن عبد الله ابن الحسن المثنى ابن الحسن ابن علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه، وهو شقيق إدريس الأول مؤسس دولة الأدارسة في المغرب الأقصى، توفي عام 169هـ. أنظر: خير الدين الزركلي، الأعلام، ج03، المصدر السابق، ص128.

[1213]عبد الرحمن ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، ج07، المصدر السابق، ص 103.

[1214]أحمد الناصري السلاوي، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، ج01، المصدر السابق، ص ص (27- 29).

[1215]هو موسى ابن أبي العافية بن أبي بسال ابن أبي الضحاك المكناسي، مؤسس لإمارة مكناسة بمراكش، وتسمى إمارة آل أبي العافية، قام بدعوة الفاطميين وقاتل الأدارسة وأخرجهم من بلادهم، وضم إليه مدينة فاس سنة 319هـ، وصار ملكه يمتد من أحواز تيهرت إلى السوس الأقصى سنة 317هـ، وملك مدينة تلمسان سنة 319هـ، وانتظم في ملكه المغربان الأقصى والأوسط، نقض دعوة المهدي الفاطمي سنة 319هـ، وخضعت لعبد الرحمن الناصر، قتل سنة 341هـ. أنظر:خير الدين الزركلي، الأعلام، ج07، المصدر السابق، ص ص (323- 324).

-عبد الرحمن ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، ج06، المصدر السابق، ص ص (176- 178).

-أحمد الناصري السلاوي، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، ج01، المصدر السابق، ص ص (241- 245).

[1216]عبد الرحمن ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، ج06، المصدر السابق ص 103

كتلمسان، وتنس وآشير فاستعمل على تلمسان ابنه يعلي بن زيري سنة 396هـ[1217]، قد توسعت مدينة تلمسان أيام بني عبد الواد (633هـ- 962هـ) حيث بلغت درجة عالية من الرقي والتطوّر وبلغت تلمسان أوج ازدهارها فنشطت فيها الفنون والصناعات، وخاصة في عهد الملك أبي تاشفين[1218]، وبلغت درجة عالية من الازدهار[1219]. واتسع العمران، وأحرز المغرب الأوسط على تقدم حضاري كبير في عهده الذي كان شديد الميل إلى الفنون والعمارة والتشييد والبناء، وكثير الإقبال على الملذات واللهو مما جعله ينصرف إلى التشييد والتنميق، وكانت سياسته تهدف إلى التوسع من الناحية الشرقية على حساب الإمارة الحفصية[1220].وتذكر إحصائيات حسن الوزان "أن مدينة تلمسان اشتملت ستة عشر ألف كانون"[1221].

2- عمران مدينة تلمسان :

نظرا للأهمية الحضارية والعمرانية التي تحظى بها تلمسان بين مدن المغرب الأوسط تمت محاسنها وعظم صيتها، وحرص رحالة المغرب الأوسط على وصف عمارتها وسكانها ومساجدها ومدارسها وأسواقها وأسوارها وحصونها، فشبه لسان الدين الخطيب موقعها: بأنها وضعت في موضع شريف كأنها ملك على رأسه تاجه، وحواليه من الدوحات حشمة وأعلاجه، عبادها وكهفها كفها وزينتها زيانها، وعينها أعيانها، هواء المقصور بها فريد، وهواؤها الممدود صحيح عنيد،

[1217]المصدر نفسه، ص103.

[1218]عبد الرحمن ابن موسى، هو الملك أبو تاشفين ابن الملك أبي حمو ابن الملك أبي عمرو عثمان ابن السلطان يغمراسن بن عبد الواد الزناتي المغربي البربري، صاحب تلمسان تولى الحكم سنة718هـ، كان شجاعا حازما،موقنا بالشر جازما، قصده سلطان المغرب أبو الحسن المريني، وحاصره مدة طويلة، قتل على ظهر جواده سنة 737هـ، ودفن في تلمسان. أنظر: صلاح الدين الصفدي، أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق: علي أو زيد ونبيل أبو عشمة ومحمد موعض، ج03، دار الفكر العربي، بيروت، ط01، سنة 1418هـ/1998م، ص ص(46-47).

- تقي الدين المقريزي، السلوك لمعرفة دولة الملوك، ج03، المصدر السابق، ص ص (223-224).

أحمد ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في معرفة أعيان المائة الثامنة، ج03، المصدر السابق، ص141.

[1219]الحسن الوزان، وصف إفريقية، ج02، المصدر السابق، ص17.

[1220]عبد الحميد حاجيات، أبو حمو موسى الزياني—حياته وآثاره، المرجع السابق، ص (17 -18).

[1221]الحسن الوزان ،وصف إفريقيا ،ج02، المصدر السابق ،ص 16.

وماؤها برود صريد، حجبتها أيدي القدرة على الجنوب، فلا نحول فيها ولا شحوب، خزانة زرع، ومسرح ضرع، فواكهها عديدة الأنواع، ومتاجرها فريدة الانتفاع، وبرانسها رقاق رقاع ... "[1222].

تحيط بالمدينة بساتين جميلة ومتنزهات يتوجه إليها الميسور من السكان ليقيموا فيها، وتضم عيونا جارية باردة، مغروسة بأشجار الزيتون والفواكه، تستخرج منها كمية الزيت والجوز، وجميع أنواع الفواكه، وكروم كبيرة تحمل عنبا حلوا لذيذ الطعم، جيدا يجفف في الشمس ويحفظ طول السنة، وتوجد طاحونات لرحي الحبوب[1223]. يذكر عبد المنعم الحميري :"إن لمدينة تلمسان : نهر شرقي وعليه أرجاء كثيرة ومزارعها كثيرة، وفواكهها جمة ولحومها شحمة، لم يكن في بلاد المغرب بعد أغماك وفاس أكثر من أهلها ولا أرفه حالا"[1224]. ويضيف أن تلمسان "تقع في سفح جبل أكثره شجر الجوز، وكان لها ماء مجلوب من عمل الأول من عيون تسمى لوريط بينها وبين المدينة ستة أميال"[1225].

جاء في وصف الشريف الإدريسي لمدينة تلمسان: "هي مدينة أزلية ولها سور حصين متقن الوثاقة، وهي مدينتان في واحد يفصل بينهما سور..."[1226].فتميزت تلمسان بأسوارها الشاهقة فعندما أسس المرابطون مدينة تاجرارت أحاطها بأسوار عالية فابتدأ ببناء سورها السيد ابن العسري ابن عبد المؤمن بن علي سنة 566هـ، وكمله وحصنه أبو الحسن ابن السيد أبي حفص ابن عبد المؤمن في حدود 581هـ عند استيلاء أولاد غانية[1227] على بجاية والجزائر والمدية[1228].

[1222] لسان الدين بن الخطيب، معيار الاختيار في ذكر المشاهير والأعيان، المصدر السابق، ص 16.

[1223] حساني مختار، الحواضر والأمصار الإسلامية الجزائرية، ج04، دار الهدى، عين مليلة، سنة 2011م، ص 09.

[1224] عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، المصدر السابق، ص 135.

[1225] المصدر نفسه، ص 135.

[1226] لشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج01، المصدر السابق ص 244.

[1227] في سنة 581هـ ملك ابن غانية الملثم، وهو علي ابن إسحاق، من كبار الملثمين اللذين ملكوا المغرب، وبلاد إفريقية سوى تونس والمهدية، بعد موت يوسف بن عبد المؤمن، وهو حينئذ صاحب ميورقة، فقويت شوكة ابن غانية وكثر جموعه وأقام دعوته، أنظر :شمس الدين بن قماز الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات مشاهير الأعلام، ج06، تحقيق: عبد السلام تدمري، ج40، دار الكتاب العربي، بيروت، ط02، سنة 1413هـ/1993م، ص 61.

- عبد الرحمن بن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، ج06، المصدر السابق، ص ص (252 -264).

[1228] يحي ابن خلدون، بغية الرواد في ذكر ملوك بن عبد الواد، ج01، المصدر السابق، ص 21.

إن ارتفاع أسوار مدينة تلمسان (الصورة 27) وعظمتها دفعت الرحالة المغربي محمد العبدري أن يخصها بالذكر وهو الذي زار هذه المدينة في عهد السلطان أبي سعيد عثمان الأول[1229] بقوله: "...وتلمسان مدينة كبيرة سهلية جبلية جميلة المنظر مقسومة باثنين بينهما سور، ولها جامع عجيب ...، وسورها من أوثق الأسوار وأصحها ..."[1230]، وأثناء تعرض العمري لحصار أبي الحسن المريني على مدينة تلمسان، أشار إلى تحصين المدينة وأسوارها المنيعة بقوله:" تلمسان منحرفة إلى الجنوب الشرقي من فاس ثلاثة أسوار، ومن جهة القصبة ستة أسوار بعضها داخل بعض، ولم يهجس بخاطر أحد أنها تؤخذ، ولكن يسر الله لهذا السلطان أبي الحسن المريني صعبها، وذلل له إباءها حتى ملك نصف ناصيتها ..."[1231]. وفي العهد العثماني دعمت أسوار المشور بأبراج دائرية، وأخرى مربعة، لعل أهمها البرج الأكبر الموجود في الجهة الشمالية الذي يتحكم في جميع تحصينات المشور، وفتح باب بالقرب من الزاوية الجنوبية يدعى باب الفروسية، وباب بالجهة الغربية هو باب الحديد، ونصبت على أسوار المشور مجموعة من المدافع[1232].

أما نصوص الرحالة التي تناولت المشور (الصورة 28) الذي يعتبر من أهم القصور الزيانية، وهو عبارة عن قلعة محصنة التي كانت مأوى لسلاطين بني زيان ومقر مملكتهم، فهي قليلة جدا، وأهمها نص الحسن الوزان الذي أشار إلى المشور ومنتزهاته، واصفا عمارته وتحصيناته: "والقصر الملكي (الصورة 29) الواقع جنوب المدينة محاط بأسوار مرتفعة إلى حد كبير على شكل قلعة، ويضم قصورا أخرى صغيرة ببساتينها وسقاياتها، وكلها مبنية بكامل العناية وبأسلوب فني رائع.

[1229] هو السلطان أبو سعيد، أبو يحي يغمراسن ابن زيان، صاحب تلمسان في المغرب الأوسط، وليها بعد وفاة أبيه سنة 681هـ،كان شجاعا باسلا مقداما داهية، انتهج سياسة مسالمة لبني مرين، حاصره السلطان يوسف بن يعقوب المريني في قاعدة ملكه، ونقض كثير من القبائل طاعته، فاشتد الضيق على تلمسان، فتوفي وهو محاصر فيها سنة 703هـ، وكانت مدّة دولته 21سنة إلا شهرا. أنظر: المصدر نفسه، ص ص (118- 121).

- خير الدين الزركلي، الأعلام، المصدر السابق، ص ص (215- 216).

- عبد الرحمن ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، ج06، المصدر السابق، ص ص (41 - 42)

[1230] محمدالعبدري، رحلة العبدري، المصدر السابق، ص ص (48 -49).

[1231] أحمد العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار،ج04، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ط01، سنة 1423هـ، ص 208.

[1232] حساني مختار، الحواضر والأمصار الإسلامية الجزائرية، ج04، المرجع السابق، ص 12.

وللقصر الملكي بابان يقضي أحدهما إلى البادية تجاه الجبل والآخر إلى قلب المدينة حيث يقيم رئيس الحرس"[1233].يبلغ طول المشور 490م وعرضه 280م.

والجدير بالذكر أن الزيانيين شيدوا مجموعة من القصور الأخرى غير المشور، فيذكر العمري أنه لما مات أبو حمو ولي بعده أبو تاشفين فزاد تحصيلا من الأقوات، وتحصينا الأسوار والآلات، وبنى بها البناءات العجيبة الشكل، والقباب الغريبة المثل، والبرك المتسعة، والقصور المنيعة، وغرس بها من سائر أنواع الثمار[1234]، وهذا ما يؤكده يحي ابن خلدون[1235]مؤرخ الدولة الزيانية الذي التحق بخدمة السلطان أبي حمو موسى الثاني[1236]، وأقام بتلمسان، ومما تعرض له بالوصف: " ... وبها للملك قصور زاهرات اشتملت على المصانع الفائقة، والصروح الشاهقة، والبساتين الرائقة مما زخرفت عروشه،ونمقت غروسه، وتناسبت أطواله وعروضه، فأزرى بالخورنق، وأخجل الرصافة[1237]،وعبث بالسدير[1238]..."[1239].

كانت عناية ولاة الموحدين كبيرة حسب عبد الرحمن ابن خلدون بتوسيع عمران مدينة تلمسان، وشيدوا القصور بها، فقد قال في هذا الشأن: "وصرف ولاة الموحدين بتلمسان من السادة نظرهم واهتمامهم بشأنها إلى تحصينها وتشييد أسوارها، وحشد الناس إلى عمرانها والتناهي

(1233) الحسن الوزان، وصف إفريقية،ج02، المصدر السابق، ص 20.

(1234)أحمد العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج04، المصدر السابق، ص 204.

(1235)هو أبو زكرياء يحي ابن محمد ابن الحسن ابن خلدون، مؤرخ الدولة الزيانية، وهو شقيق المؤرخ الكبير عبد الرحمن ابن خلدون، كان مولده في تونس سنة 733هـ، سكن فاس، واستكتبه السلطان ابن زيان، قتل بتلمسان سنة 780هـ. أنظر: خير الدين الزركلي، الأعلام، ج08، المصدر السابق، ص166.

(1236)هو موسى ابن يوسف ابن عبد الرحمن ابن يحي ابن يغمراسن ابن زيان ابن ثابت ابن محمد، أحد ملوك الزيانيين، تولى أمر تلمسان 760هـ إلى 711هـ. أنظر:عبد الرحمن ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، تحقيق:خليل شحادة، ج01، دار الفكر، بيروت، ط02، سنة 1408هـ/1988م، ص ص (163- 164).

– عبد الحميد حاجيات، أبو حمو موسى الزياني حياته وآثاره، المرجع السابق، ص69.

–يحي ابن خلدون، بغية الرواد في ذكر ملوك بن عبد الواد، ج01،، المصدر السابق، ص 13.

(1237)الرصافة هي إحدى مقرات الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك (743- 784) في بادية الشام. أنظر :عفيف بهنسي، الفن العربي لإسلامي في بداية تكونه، المرجع السابق، ص 128.

(1238)الخورنق والسدير قصران بناهما المنذر بن امرئ القيس اللخمي، ملك الحيرة من قبل الفرس، أنظر: أبو بكر الرازي، مختار الصحاح تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، بيروت، ط05، سنة 1420هـ/1990م، ص 30 .

(1239) يحي ابن خلدون، بغية الرواد في ذكر ملوك بن عبد الواد، ج01، المصدر السابق، ص 19.

في تمصيرها، واتخاذ الصروح والقصور، والاحتفال مقاصر الملك، واتساع خطة الدور، وكان من أعظمهم اهتماما بذلك وأوسعهم نظرا السيد أبو عمران موسى ابن يوسف العشرى، الذي وليها سنة 656هـ على عهد أبيه يوسف ابن عبد المؤمن[1240].

ويضيف ابن خلدون أن تلمسان أصبحت قاعدة المغرب الأوسط بفضل ملوك بني عبد الواد، ففي عهد يغمراسن ابن زيان: "لم يزل عمران تلمسان يتزايد، وخطتها تتسع، الصروح بها بالآجر والفهر تعلى وتشاد، إلى أن نزلها أهل آل زيان واتخذوها دارا لملكهم، وكرسيا لسلطانهم، فاختطوا بها القصور المؤنقة، والمنازل الحافلة، واغترسوا الرياض والبساتين، وأجروا خلالها المياه، فأصبحت أعظم أمصار المغرب، ورحل إليها الناس من القاصية، ونفقت بها أسواق العلوم والصنائع، فنما بها العلماء، وأشتهر فيها الأعلام، وضاهت أمصار الدول الإسلامية والقواعد الخلافية"[1241].

أشار الرّحالة عبد المنعم الحميري في كتابه "الروض المعطار في خبر الأقطار" نقلا عن أبي عبيد الله البكري: "أن عدد أبواب تلمسان خمسة أبواب، ثلاثة في القبلة، منها: باب الحمام، وباب وهب، وباب الخوخة، في الشرق: باب العقبة، وفي الغرب: باب أبي قرة[1242]. وبذلك تختلف هذه الرواية عن رواية يحي بن خلدون التي تبين أن لتلمسان خمسة أبواب: باب الجياد قبلة، وباب العقبة شرقا، وباب سيدي الحلوي، وباب القرمادين (الصورة 30) شمالا، وباب كشوط غربا[1243]. ويرجع سبب الاختلاف بين الروايتين إلى الفارق الزمني، حيث أن الرحالة عبد المنعم الحميري الذي عاصر القرن 09هـ، قد نقل عن البكري الذي عاش في القرن 09هـ، بينما يصف يحي ابن خلدون مدينة تلمسان في القرن 08هـ، وهذا لا يمنع من وجود باب مشترك بين الوصفين وهو باب العقبة. ويحدد الحسن الوزان شكل الأبواب وصفتها بقوله: " والأسوار في غاية الارتفاع

(1240) عبد الرحمن ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، ج05، المصدر السابق، ص 104.

(1241) المصدر نفسه، ص105.

(1242) عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، المصدر السابق، ص13.

- أبو عبيد الله البكري، المسالك والممالك، ج02، المصدر السابق، ص 245.

(1243) يحي ابن خلدون، بغية الرواد في ذكر ملوك بن عبد الواد، ج01، المصدر السابق، ص ص (19-20).

والقوة، فتحت فيها خمسة أبواب واسعة جدا، مصاريعها مصفحة بالحديد، وقد أقيمت في جوفها حجيرات يقيم فيها حراس ومكاسون"[1244].

يروي عبد الرحمن ابن خلدون أنه لما ضرب يوسف بن يعقوب الحصار على تلمسان سنة 698هـ، وأحاط الجنود بها من جميع جهاتها، ضرب سياجا من الأسوار محيط بها، وفتح أبوابا مداخل لحربها، واختط لمنزله إلى جانب الأسوار مدينة سماها المنصورة[1245].وفي سنة 702هـ شرع السلطان يوسف ابن يعقوب في عمارة مدينته فاختط في وسط المعسكر قصرا لسكنه، واتخذ به مسجدا لمصلاه، وأدار عليه السور، وأمر الناس بالبناء، فبنوا الدور الواسعة، والمنازل الرحيبة،والقصور الأنيقة، واتخذوا البساتين، وأجروا المياه، ثم أمر بإدارة السور سياجا، وصيرها مصرا، فكانت من أعظم الأمصار والمدن، وأحفلها اتساع خطه وكثرة عمران، ونفاق أسواق، واحتفال بناء وتشييد صنعة، وأمر باتخاذ الحمامات والمارستان، وابتنى جامعا، وشيّد له مئذنة رفيعة، فكان من أحفل مساجد الأمصار وأعظمها وسماها المنصورة، واستبحر عمرانها ونفقت أسواقها، ورحل إليها التجار بالبضائع من الآفاق، فكانت إحدى مدائن المغرب[1246](الشكل 21).

وكل ما بقي هو أطلال جامع المنصورة ومئذنته (الصورة 31) التي يبلغ ارتفاعها 40م، وهي حسب جورج مارسي[1247]، تعتبر إحدى النماذج الرائعة للفن الإسلامي، فالمنظر المهيب لأحجامها والتناسق الجلي للقطع الزخرفية، والإصرار القوي والحز حول دقة صنع تفاصيلها، كل هذه العوامل أسهمت في منح هذا المعلم مكانا متميزا ضمن مجموع الأعمال الرائعة في الفن المغربي[1248]. ولعل أهم وثيقة تاريخية تناولت وصف مئذنة المنصورة وصفا اتسم بالدقة الشديدة،

[1244]الحسن الوزان، وصف إفريقية،ج02، المصدر السابق، ص 20.

[1245]عبد الرحمن ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر،ج07، المصدر السابق، ص127.

[1246]عبد الرحمن ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، ج07، المصدر السابق، ص ص (292-293).

[1247]هو مستشرق فرنسي، ولد في رين بفرنسا سنة 1876م، اهتم بالدراسات الاستشراقية في الفن الإسلامي. توفي سنة 1962. أنظر: وليام وجورج ماراسي، المعالم الأثرية العربية لمدينة تلمسان، ترجمة: مراد بلعيد ورشيد بورويبة، شركة الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، سنة 1432هـ/2014م، ص12.

[1248]وليام وجورج ماراسي، المعالم الأثرية العربية لمدينة تلمسان، المرجع السابق، ص292.

والموضوعية العلمية في تشخيص واقعها المعماري والزخرفي، وحير علماء الآثار والمعماريين في العصر الحديث، ما ورد في المسند الصحيح الحسن لابن مرزوق الخطيب في قوله: "لاشك أن صومعته لا تلحق بها صومعة في مشارق الأرض ومغاربها، صعدتها غير مرة مع الأمير أبي علي الناصر رحمه الله، هو على فرسه، وأنا على بغلتي، من أسفلها إلى أعلاها، وكأن في وطء الأرض، وكانت على الباب الجوفي منه، ولها ممران يطلع فيهما إلى أعلاها، وكانت محكمة البناء والنجارة من الأحجار بصناعة مختلفة من الأحكاء من كل جانب، ورأيت العمود الذي يركب فيه التفافيح، وهو من الحديد يشبه أن يكون صاريا. وأما الثريا فكان عملها على يدي، وأنا الذي رسمت تاريخها في أسفلها على ما هي عليه في جامع تلمسان الآن، وتشتمل على ألف مشكاة أو نحوها، وعهدي بقدر وزنها في أسفلها"[1249].وقد أقر ابن مرزوق الخطيب أن هذا الجامع لا يقل أهمية عن جامع قرطبة، وجامع المنصور بمراكش، وأن الجامع الكبير بالمنصورة لو كملت تتماته لم يقل حسنه، وترتيب صنعه عن جامع قرطبة، ورغم أن جامع مراكش أكبر منه مساحة إلا أن رخام جامع المنصورة أغرب وأعظم منه، ومنبره أجمع الصناع أنه لم يعمل مثله قط في المعمورة، فبلغ من مسجد قرطبة عدة قطع، وعوضت بما اشتمل عليه من المنبر، فلم يوجد بينهما مناسبة فيه من الأشكال المنقوشة، قدر البندق والحمص، وفيه من التحاشي قدر الإبرة ونحوها، إذا رأيته رأيت العجب، فالله حسيب من تسبب في خراب ذلك كله، وهو مجازيه قد محا رسوما يفخر بها أهل الإسلام، ويعتز بها الدين ما بقيت الأيام[1250].

ومن جملة ما عدده ابن مرزوق الخطيب من أعمال أبي الحسن المريني في مدينة تلمسان باستثناء ضاحية العباد: "وأما ما أنشأه بمدينة تلمسان فيما يرضي الله من إعادة رسمه وتجديد آثاره، فكان مما لم يعهد منه في سالف الأزمان، ولا سبق شكله في قواعد البلدان، فمن ذلك جامع القصبة المشتمل على المحاسن التي لم يجتمع مثلها في مثله من حسن وصفه وجمال شكله

[1249]ابن مرزوق الخطيب، المسند الصحيح الحسن، المصدر السابق، ص 402.

[1250]ابن مرزوق الخطيب، المسند الصحيح الحسن، المصدر السابق، ص ص (402-403).

وترتيب رواقاته، واعتدال صحنه، وحسن ستاره، ومعين مائه، واتساع رحابه، واحتفال ثرياته الفضية منها والصفرية، وغرابة منبره[1251].

ومن بين المرافق التي عرفتها تلمسان الحمامات وصفها الرحالة محمد العبدري بقوله: "...والبلد به حمامات نظيفة، ومن أحسنها وأوسعها وأنظفها حمام العالية، وهو مشهور قل أن يرى له نظير..."[1252]. وقد ورد اسم هذا الحمام في مستند الأوقاف التي أصدرها أبو حمو موسى الثاني، وقد حدد النص مكانه بالقرب من باب الحديد[1253]. غير أن الحسن الوزان شبه حمامات مدينة تلمسان بحمامات مدينة فاس، وأقر بأنها متفاوتة في القيمة لكنهما ناقصة الماء بالنسبة لحمامات فاس[1254].ولعل أهم حمامات مدينة تلمسان حمام الصباعين الذي ينسب إلى عهد الدولة المرابطية، ويعرف أيضا بحمام سيدي أبي الحسن الغماري[1255]. نسبة إلى المكان الذي كان يجلس فيه.

وتحتوي تلمسان على فنادق على النمط الإفريقي، منها: اثنان لمقام تجار جنوة والبندقية، وتوجد بتلمسان خمس مدارس جيدة البناء مزدانة بالفسيفساء وغيرها من الأعمال الفنية، شيّد بعضها ملوك تلمسان وبعضها ملوك فاس[1256]. وهي مدرسة: أبي مدين بالعباد، ومدرسة سيدي الحلوي، ومدرسة ابني الإمام، والمدرسة التاشفينية، والمدرسة اليعقوبية. وكان لهذه المدارس الأثر البالغ في بعث الحياة الفكرية في تلمسان في عهد دولة بني عبد الواد، فكانت مقصد الطلبة من كل صوب لطلب مختلف العلوم النقلية والفكرية، وأولى سلاطين بنو زيان عناية كبيرة لرعاية الطلبة، فخصصوا لهم الأوقاف، وأنشئوا المكتبات في المساجد والمدارس[1257].

[1251] المصدر نفسه، ص 402 .

[1252] محمد العبدري، رحلة العبدري، المصدر السابق، ص49.

[1253] حساني مختار، الحواضر والأمصار الإسلامية الجزائرية، ج04، المرجع السابق، ص17.

[1254] الحسن الوزان، وصف إفريقية، ج02، المصدر السابق، ص ص (19-20).

[1255] هو أبو الحسن بن يخلف التنسي الذي ذاع صيته إبان حكم أبي سعيد عثمان. أنظر: وليام وجورج ماراسي، المعالم الأثرية العربية لمدينة تلمسان، المرجع السابق، ص 217.

[1256] الحسن الوزان، وصف إفريقية،ج02، المصدر السابق، ص ص (19-20).

[1257] عبد الحميد حاجيات، أبو حمو موسى الزياني حياته وآثاره، المرجع السابق، ص 59.

تتوزع المنازل بالشوارع والسكك بمداخل جانبية، وأحياء صغيرة يدخل إليها بواسطة أبواب بحيث لا يسمح بدخول الغرباء إلا من أذن لهم، ومنازلها جيدة مغطاة بالقراميد، وقد بلغ تعداد سكان مدينة تلمسان، عندما ضعفة شوكة بني مرين، وتكاثر سكان تلمسان من جديد 13ألف دار[(1258)] .

وفي خارج مدينة تلمسان ممتلكات هائلة، فيها دور جميلة للغاية ينعم فيها المدنيون بسكانها في الصيف، حيث الكروم المغروسة الممتازة ينتج أعنابا من كل لون، طيبة المذاق جدا، وأنواع الكرز الكثيرة التي لم أر لها مثلا في جهة أقرب، والتين الشديد الحلاوة، وهو أسود غليظ طويل جدا، يجفف ليأكل في الشتاء، والخوخ والجوز واللوز والبطيخ، وغيرها من الفواكه المختلفة، وعلى بعد ثلاثة أميال شرق المدينة ترى عدّة أرحية لطحن القمح على نهر يدعى سفسف[(1259)]، وترى أخرى قرب المدينة على منحدرات رأس القلعة جهة الجنوب[(1260)].

وما نظمه الأديب محمد بن يوسف القيسي الأندلسي في وصف مدينة تلمسان :

تاهـت تلمسـان بدولتـه علـى — كل بـلاد بحسـن منظرها الجلـي
راقـت محاسنـها ورق نسيمـها — فجـلا بـها شعـري وطاب تغزلي
عـرج بمنعرجـات باب جيـادها — وافتـح به بـاب الرجـاء المقفـل
ولتغـد للعبـاد منـها غـدوة — تصبـح همـوم النفـس عنك بمعزل
وضريـح تـاج العـارفين شعيبها — زره هنـاك فحبـذا ذاك الـولي[(1261)].

ونظم الشيخ الصوفي أبي عبد الله محمد ابن خميس :

تلمسان جادتك السحـاب الدوالـج — وأرسـت بواديـك الريـاح اللواقـح
وسـح على ساحـات باب جيـادها — ملث بصافي يصافي ترابها ويصافح
يطـير فـؤادي كـل مـا لاح لامـع — وينهـل دمعـي كلـما ناح صلاح[(1262)].

(1258)الحسن الوزان، وصف إفريقية،ج02، المصدر السابق، ص19.

(1259)هو النهر المعروف اليوم بالصفصيف.

(1260))الحسن الوزان، وصف إفريقية، ج02، المصدر السابق، ص20 .

(1261)يحي ابن خلدون، بغية الرواد في ذكر ملوك بن عبد الواد، ج01، المصدر السابق، ص 14.

3- ضاحية العباد:

العباد[1263] في اللهجة المغربية جمع العابد، ويعني الرجل الزاهد، وغير بعيد عن القرية الحالية يقع الرباط أو الخلوة المشار إليها القديمة، وكانت تحمل اسم "رباط العباد". وفيما بعد اختصرت هذه التسمية في العباد. وأطلقت على الضاحية الواقعة جنوب مدينة تلمسان.

والعباد مدينة صغيرة شبه ربض تقع في الجبل على بعد نحو ميل من جنوب تلمسان، وهي كثيرة الازدهار، وافرة السكان والصناع ومعظمهم من الصباغين، وبها دفن ولي كبير ذو صيت شهر، يوجد ضريحه في مسجد (الشكل 22) من عدّة درجات، ويعظم أهل تلمسان والبلاد المجاورة هذا الولي ويستغيثون به، ويتصدقون عنده كثيرا لوجه الله، ويسمى سيدي أبي مدين، وهناك مدرسة جميلة، وفندق لإيواء الغرباء أسسها بعض ملوك فاس من بني مرين[1264].

ومن أهم المعالم الأثرية الموجودة بقرية العباد، مسجد سيدي أبي مدين شعيب (الصورة 32) الذي شيّده السلطان أبو الحسن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المريني سنة 739هـ[1265]، وقد أشرف على بنائه ابن مرزوق الخطيب، ووصفه وصفا دقيقا في كتابه "المسند الحسن الصحيح"، فقال: "وأما الجامع الذي بناه أبو الحسن المريني، حداء ضريح شيخ المشايخ، وقدوة الأئمة المتأخرين من المتصوفين، أبي مدين شعيب بن الحسين، فهو الذي عز مثاله، واتصفت بالحسن والوثاقة أشكاله، وأنفق فيه مدارا جسيما ومالا عظيما،و كان بناؤه على يد عمي، وصنو أبي الصالح أبو عبد الله محمد ابن محمد ابن أبي بكر ابن مرزوق وعلى يدي. واشتمل على الوضع الغريب، هو أن سقفه كلها أشكال منضبطة بخواتم وصناعات نجارة،كل جهة تخالف الجهة في الوضع، قد رقمت على نحو ما يرقم عليه أشكال النجارة، فلا يختلج في النفس شك، ولا يعترض لها وهم، أنها أشكال منجورة، وهي كلها مبنية بإحكام بالآجر والفضة"[1266].

[1262] المصدر نفسه، ص 11.

[1263] وليام وجورج ماراسي، المعالم الأثرية العربية لمدينة تلمسان، المرجع السابق، ص303.

[1264] الحسن الوزان، وصف إفريقية،ج02، المصدر السابق، ص24.

[1265] عبد الحميد حاجيات، أبو حمو موسى الزياني حياته وآثاره، المرجع السابق، ص65.

[1266] ابن مرزوق الخطيب، المسند الصحيح الحسن، المصدر السابق، ص ص (403-404).

وقد كتب على أحد تيجان الأعمدة بخط أندلسي "هذا ما أمر بعمله مولانا أمير المسلمين أبو الحسن ابن مولانا أمير المسلمين أبي يعقوب" التاج الأيمن. أما في التاج الأسير فقد كتب فيه: "ابتغاء وجه الله العظيم ورجاء ثوابه الجسيم كتب الله به أنفع الحسنات وأرفع الدرجات".

واشتمل المنبر العجيب الشكل المؤلف من الصندل والعاج والأبنوس المذهب ذلك كله، وقد تقدمت حكاية رقم الصدر منه، وأما الباب الجوفي الذي ينفتح على المدرج الذي ينزل فيه إلى قبر الشيخ وإلى الشارع، وهو باب النحاس المشتمل على مصراعين،كل مصراع منهما مصفح بالنحاس المخرم المنقوش بالخواتم المستوفاة المشتركة العمل وتخريمة على أشكال من النحاس ملونة فهومن غريب ما يتحدث به السفار أحذ على صناعة المصراعين الصفارون نحوا من سبعمائة دينار ذهبا[1267]. هكذا وجدته يخطي عدا ثمن النحاس والحديد والخشب والأصبغة، على مدرجة قبته من عمل المقربص، غريبة الشكل، قليلة المثل، وصومعته كذلك في غاية من الحسن والإتقان،كل جهة من جهاتها الأربع تختلف الأخرى في النوع والإحكام، وذهبت تفافيح جامورها بثلاثمائة وسبعين دينارا ذهبا[1268]. وبهذا كان هذا المسجد آية في الجمال والحسن والروعة، يعبر عن ذروة تطوّر الفن المغربي الأندلسي.

وقد أصاف أبو الحسن المريني إلى جانب المسجد سنة 747هـ مدرسة (الصورة 33)، وهي التي يطلق عليها اليوم مدرسة سيدي أبو مدين[1269] (الشكل 23)، حدد موقعها ابن مرزوق الخطيب، بقوله: "وهي بالعباد ظاهر تلمسان، وحذاء الجامع الذي قدمت ذكره (جامع أبي مدين)"[1270]. وقدم وصفا شامل للمدارس التي شيدها أبو الحسن المريني، فقال: "والمدارس كلها قد اشتملت على المباني العجيبة، والصنائع العديدة، والاحتفال في البناء، والنقش، والجص، والفرش على اختلاف أنواعه من الزليجي البديع، والرخام المجزع، والخشب المحكم النقش، والمياه

[1267] المصدر نفقسه، ص 404.

[1268] المصدر نفسه، ص 404.

[1269] عبد الحميد حاجيات، أبو حمو موسى الزياني حياته وآثاره، المرجع السابق، ص65.

[1270] ابن مرزوق الخطيب، المسند الصحيح الحسن، المصدر السابق، ص 406.

النهيرة..."[1271]. وتمتاز هذه المدرسة بزخرفتها وفنها المعماري ذي الأقواس المنكرة، والآجر باللون الأخضر، يوجد في فناء المدرسة (الصورة 34) صهريج تحار الأبصار في زخرفته، وبقربه صحن دائري من الرخام مخصص للشرب والوضوء، وهو أمام قاعة المحاضرات التي تتسع لحلقة كبيرة يتوسطها محراب يتكون من قوس دائري مكتوب في قاعدته عدّة أسماء بخط كوفي، وتتكون المدرسة من طابقين(الصورة 35) طابق سفلي يتكون من عشرة حجرات، وطابق علوي يشتمل على ثماني حجرات، وكل حجرة تتسع لشخصين[1272]،وتم وفق الأحباس التي تقام بها، ويحفظ بها الوضع مما يصلح ويبني، ويجري في المرتبات على الصلبة والعونة والقيم والبواب والمؤذن والإمام والناظر والشهود والخدام، ويوفر من ذلك[1273].وباب المدرسة كبير يتوسطه باب صغير فوق الباب الأول نجد أنواع من الزخرفة الهندسية المتقنة وأشكالها من الفصائل المذهبة ذات المسامير الكبيرة[1274].

وسميت هذه المدرسة أيضا بالمدرسة الخلدونية لأن عبد الرحمن ابن خلدون درس بين جدرانها، وقد فقدت كثيرا من زينتها وزخرفتها الأصيلة، بفعل الترميم والإصلاحات التي أدخلت عليها على مر العصور[1275]. وهي الآن إحدى ملحقات مركز صيانة وترميم المخطوط الكائن مقره الرئيسي بولاية أدرار.

وصف ابن القنفذ القسنطيني ضريح الولي أبي مدين شعيب (الصورة 36) بقوله : "وقبر الشيخ أبي مدين بالعباد معمود مشهور، وحوض للزائرين، رأيت من قبور الأولياء كثيرا من تونس إلى مغرب الشمس، ومنتهى بلد آسفي، فما رأيت أنور من قبره ولا أشرق وأطهر من سره...،وقبره في بيت صغير بجنبه نحو قبرين إحداهما في غالب ظني للخادم بلال، وأما قبر الشيخ

[1271] المصدر نفسه، ص 406.

[1272] لخضر عبدلي، التاريخ السياسي والحضاري، لدولة بني عبد الواد، المرجع السابق، ص 264..

[1273] ابن مرزوق الخطيب، المسند الصحيح الحسن، المصدر السابق، ص 406.

[1274] لخضر عبدلي، التاريخ السياسي والحضاري، لدولة بني عبد الواد، المرجع السابق، ص 265.

[1275] حساني مختار، الحواضر والأمصار الإسلامية الجزائرية، ج04، المرجع السابق، ص 20.

من هذه القبور فهو أنك إذا دخلت البيت فارجع على يمينك مستقبلا، فالذي يقع على يسارك فهو قبره ..."[1276](الشكل 24).

وما نخلص إليه أن مدينة تلمسان هي عروس بلاد المغرب، وعاصمة ملوك المغرب الأوسط، استلهمت عقول وأقلام رحالة المغرب الإسلامي، نظرا لحضارتها العريقة، وكثرة فنونها وعمرانها وتنوعه، وازدهار الحركة العلمية والثقافية بها، فخصوها بأوصاف دقيقة، وحرصوا على تدوين مشاهداتهم حين حلوا أو نزلوا بها، فكانت نصوص رحلاتهم أهم الوثائق التي تعرفنا بتاريخ وعمران هذه المدينة العريقة التي كانت تضاهي عواصم الدول الأخرى في المشرق والمغرب والأندلس.

[1276]ابن القنفذ القسنطيني، أنس الفقير وعز الحقير، تحقيق: أحمد الفاسي، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، سنة 1963م، ص105.

خـــــاتـمـة

بعد التعرض لموضوع البحث الموسوم ب"العمارة الإسلامية في كتب رحالة المغرب الإسلامي من القرن 7ه حتى القرن 10ه"، والإلمام بجميع جوانبه، ومحاولة التوغل في مكونات النسيج العمراني في المدن الإسلامية من خلال النماذج المختارة، بالاعتماد على أوصاف رحالة المغرب الإسلامي المدرجة في مصنفاتهم ومعاجمهم الجغرافية، وكتب رحلاتهم الأدبية، والكشف عن أهميتها في المساهمة في التعريف بذروة التطور الذي بلغه التراث الإسلامي المعماري، وأهم الخصائص التخطيطية والمعمارية والزخرفية لأهم مدارسه، ومدي اعتماد الدراسات المعمارية الإسلامية الحديثة عليها. وقد توصلنا إلى مجموعة من النتائج ارتأينا أن نسردها كالآتي:

- إن مساهمة رحالة المغرب الإسلامي فعالة وكبيرة في تنشيط وإثراء الساحة العلمية والثقافية في المغرب الإسلامي بسبب الحمولة العلمية، والزاد المعرفي الذي كانوا يعودون به من المشرق، وهذا يدل على حرصهم على تحصيل السند العالي، والتبحر في مختلف أنواع العلوم والفنون، من أجل تكوين شخصية علمية موسوعية.
- إن فضل الرحلات الحجازية في التعريف بالتراث الإسلامي لمكة المكرمة والمدينة المنورة كبير، فقد اشتملت نصوصها على أوصاف دقيقة لما اختصت به هذه المدن من المعالم والأعراف والحالات الاجتماعية والثقافية، وكان التركيز على العمائر الدينية مثل: مسجد النبي صلى الله عليه وسلم، والمسجد الحرام ، فتناولت شكلها التخطيطي مبينة أبعادها المختلفة من طول وعرض وارتفاع ومساحة ومحيط، ووصفت بدقة متناهية عناصرها المعمارية خاصة المآذن والقباب والمحاريب والصحون والأبواب والسقوف، مبرزة عبقرية المعماري المسلم في الزخرفة والتزيين.
- تعدت الرحلات المغربية الأندلسية شبه الجزيرة العربية، ووصلت إلى العراق والشام وفلسطين، من أجل طلب العلم، وتحصيل الإجازات العلمية، وقد ساهمت في التعريف بأهم الخصائص التخطيطية والمعمارية السائدة في شبه الجزيرة العربية والعراق والشام وفلسطين كالمدرسة المصرية السورية، والمدرسة العراقية الفارسية. فنال الجامع الأموي بدمشق قسطا وافرا من اهتمام رحالة المغرب الإسلامي لموقعه الجغرافي بدمشق التي تعد أهم حواضر العالم الإسلامي عاصمة الخلافة

الأموية، ولاحتوائه على جميع العناصر المعمارية المكونة للمسجد وانسجامها وتناسقها مع بعضها البعض، وأصبحت تكون مع العناصر التخطيطية والزخرفية وحدة متكاملة عضويا ووظيفيا، وكان المثل بعد مسجد النبي صلى الله عليه وسلم الذي شيد بالمدينة المنورة عام 622م الذي اقتدت به مساجد الدولة الإسلامية الواسعة الأرجاء. ولا يقل جامع قبة الصخرة أهمية عنه، لأنه تم بناءه في موقع مقدس كان مسرحا لبعض أحداث التاريخ الإسلامي، لها صلة وطيدة بعقيدة المسلم وعبادته، ولشكله الفريد من نوعه عن باقي المساجد الأخرى.

- إن نصوص الرحلات التي تتناول المعالم المعمارية في المغرب والأندلس قليلة جدا، لأنها كانت معلومة ومشهورة، فلم ير الرحالة المغاربة جدوى من إعادة وصفها، واكتفوا بالإشارة إليها، ملتزمين بالموضوعية العلمية التي تقتضي فصل الذات عن الموضوع.
- إن الصروح المعمارية المغربية الأندلسية الإسلامية الشامخة حتى الآن، تشهد بحق عن ذروة التقدم والتطور التي بلغته الفنون الإسلامية بوجه عام، وفن العمارة بوجه خاص، وعن الصفات والسمات المشكلة للشخصية المستقلة للفن الإسلامي عن باقي الفنون، غم تأثره بالفنون السابقة له، كالفن الساساني والبزنطي، وهذا تفنيد واضح لبعض آراء المستشرقين التي تعتبر أن المسلمين في مجال العمارة لم يكونوا سوى مقلدين وناقلين ومحاكين لتراث الأمم السابقة.
- لقد شهدت بلاد الأندلس بقيام دولة بني أمية مرحلة جديدة رسخت قواعد حضارية، وأخذت الحياة الفنية والحضارية والاقتصادية والسياسية تزدهر وتتألق بعد أن تأثرت العمارة والفنون بتأثيرات شرقية أصيلة. ويعد جامع القيروان وجامع قرطبة المنبعان الرئيسيان للفن الأندلسي الإسلامي في بلاد المغرب الإسلامي ، وهما النموذجان المعماريان اللذين اقتدت بهما بلاد الإسلام في المغرب والأندلس، واتخذتهما المثل الأعلى في العمارة والتشييد.
- إن ازدواجية العقود في حرم جامع قرطبية، إذ تحمل السقوف بواسطة صفين من الأقواس، فيقوم فوق تاج العمود وسادة عالية تحمل طرفي قوسين حدويين، وفي الجانبين الآخرين لها

تنهض عضادة لاصقة لكي تحمل طرفي قوسين نصف دائريين تماما. فهذه الفكرة لجأ إليها المعماري المسلم للمناسبة بين المساحة والارتفاع في جامع قرطبة.

- إن اهتمام رحالة المغرب الإسلامي كان منصبا في وصف العمائر الدينية كالمساجد والأضرحة والمدارس، في حين أهملوا وصف العمائر المدنية، والعسكرية، وهذا راجع لطبيعة رحلاتهم، التي كانت تتجه في الغالب لأداء فريضة الحج، أو لتحصيل مختلف العلوم، فكان ارتيادهم الدائم للمساجد والمدارس.

- تعد نصوص الرحالة المغاربة مادة علمية لتأريخ عمليات ترميم وتجديد المعالم الأثرية الإسلامية، فقد اشتملت على قراءة لبعض اللوحات التذكارية التي تبين الإضافات والإصلاحات التي قام بها الخلفاء والأمراء والملوك في مختلف المنشئات المعمارية الإسلامية كالمسجد النبوي الشريف والجامع الحرام وجامع قرطبة وجامع القيروان.

- إن التخطيط العام للمدن الإسلامية كان موحدا في جميع أقطار الدولة الإسلامية الواسعة الأرجاء، فكان فصر الحاكم والمسجد الجامع يحتلان مركز المدينة، وكان الحكام والملوك يتباهون في تزيين المسجد الجامع، وإتقان صنعته من خلال الزيادات والإضافات والترميمات المتعاقبة عليه تعاقب الملوك والسلاطين والأمراء، باعتباره كان يدل على قوة ملكهم، وعظيم سلطانهم، وكان مركز إشعاع الحياة الفكرية والثقافية في المدينة، ونظرا للوظائف المنوطة به كالعبادة والتعليم والقضاء والسياسة وغيرها. ثم تأتي دور القادة ودواوين الحكومة المختلقة، وتقسم بعد ذلك مساحة المدينة إلى خطط وقطائع، ينزل في كل واحدة قبيلة من القبائل، ولكل حي منازله ومسجده وسوقه ومقبرته الخاصة به. تحاط المدينة بأساليب دفاعية مختلفة كالأسوار المنيعة، والخنادق العميقة، وتنتهي الأحياء غالبا بأبواب ضخمة يمكن إغلاقها عند الخطر.

- إن اعتماد الدراسات الحديثة للعمارة الإسلامية على مصنفات وكتب رحالة المغرب الإسلامي كبير، وخاصة الدراسات الاستشراقية التي حازت قصب السبق في هذا المجال، وتظهر أهمية نصوص الرحلة كونها تحتوي على مختلف الأبعاد والقياسات، من طول وعرض وعمق ومساحة

ومحيط، باستعمال وحدات قياس معلومة كالذراع، والشبر وغيرها، وهذا ما ساعد المستشرقين في رسم مخططات معمارية لها، وتخيل أشكال افتراضية لها.

- تظهر أهمية مصنفات ومؤلفات رحالة المغرب الإسلامي في ميدان الجغرافيا والرحلات وتقويم البلدان، كونهم اعتمدوا على مشاهداتهم الشخصية لتلك المعالم الأثرية المادية الإسلامية، وهي في حالة جيدة، فجاءت أوصافهم دقيقة محاكية لواقع النسيج العمراني للمدن التي نزلوا أو حلوا بها.
- تعد المادة العلمية التي دونها حالة المغرب الإسلامي من القرن 7هـ حتى القرن 10هـ، موسوعات علمية ضخمة، فيها من المعلومات والأوصاف ما يفيد كل باحث، وما يروي ظمأ كل متتبع لأخبار الشعوب والأقوام والملل، جمعوا معظم مادة رحلاتهم عن طريق التجربة الشخصية، وعن طريق الروايات أثناء محادثاتهم مع شخصيات تعرفوا عليها عرضا خلال رحلاتهم، فابن بطوطة مثلا على نقيض الغالبية العظمى من الجغرافيين المغاربة، لم يكن جغرافيا نقالة أو من أصحاب الموسوعات، أو أديبا مشهورا يتمتع بمواهب خاصة، بل كان شخصا عاديا، جعلت منه الأقدار جغرافيا، وصنعت منه لونا من الرحالة نادرا عند العرب، فقد عرف كيف يصوغ ويصور ما شاهده في الأقطار والأمصار التي حل بها بدقة وبساطة، استجابة لعاطفة لا تقاوم، ورغبة جارفة للتعرف على الأقطار والشعوب، فأصبحت رحلته موسوعة نسيج وحدها تحفل بمادة علمية غنية، ليس في مجال الجغرافية التأريخية فحسب، بل عن جميع حضارة ذلك العصر.
- يتميز أسلوب معظم رحالة المغرب الإسلامي بالدقة في الوصف والتعبير دون إسهاب أو تطويل، وبأسلوب أدبي عال يخلو من الأساطير والخرافات، مما يوضح أن معظم الرحالة المغاربة كانوا ذوي ثقافة عالية، وأنهم دقيقي الملاحظة، وأنهم اقتبسوا في بعض الأحيان من غيرهم، وهذا راجع لاطلاعهم على كثير من المؤلفات والمصادر المتوفرة لديهم، مع استعمال أسلوب السرد في عرض مختلف الظواهر الاجتماعية والثقافية والعمرانية التي صادفوها في الأصقاع التي مروا أو حلوا بها.

- انفرد الرحالة والمؤرخ عبد الرحمن ابن خلدون عن غيره من رحالة المغرب الإسلامي، باهتمامه بنظريات العمران، والعوامل المتحكمة في قيام الدول وتطورها ثم اضمحلالها، باستعمال أسلوب يعتمد على التلخيص، واستدراك الثغرات مع تقريب المعاني باستعمال الأسلوب المرسل، البعيد عن السجع والصنعة، مستشرفا لقيام علم جديد كان الرائد فيه من خلال نظرياته. أنا وهو علم الاجتماع.
- إن إسهام مؤلفات ومصنفات رحالة المغرب الإسلامي من القرن 7ه حتى القرن 10ه في الدراسات المعمارية الإسلامية كبير، فلا يستطيع باحث أكاديمي يستهويه كشف أسرار العمارة الإسلامية وخباياها الاستغناء عن نصوص رحلاتهم،كونها تحتوي على معلومات معمارية مهمة ودقيقة تتعلق بأساليب العمارة والتشييد في النسيج العمراني للمدنية الإسلامية.

قائمة المصـــــادر

والمراجـــــع

1 – قائمة المصادر والمراجع باللغة العربية:

أ– قائمة المصادر والمراجع:

1– المصادر:

- القرآن الكريم، رواية ورش عن نافع.
- ابن الأبار، تحفة القادم، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط01، سنة 1426هـ/1996م.
- ابن الأبار، الحلة السيراء، تحقيق: حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، ط02، سنة 1985م.
- ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق: محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1415هـ/1994م.
- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر بن عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط01، سنة1416هـ/ 1997م.
- أحمد بابا التنبكتي، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، دار الأبحاث للترجمة والنشر والتوزيع، الجزائر، سنة 2011.
- أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، دار الأبحاث للترجمة والنشر والتوزيع، الجزائر، سنة 2011.
- أبو أحمد الجرجاني، الكامل في ضعفاء الرجال، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي معوض، دار الكتب العلمية بيروت، ط01، سنة 1408هـ/1997م.
- أحمد بن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 11415هـ.
- أحمد بن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، دار المعارف النظامية، الهند، ط01، سنة 1326هـ.

- أحمد ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دط، دت.
- أحمد بن حجر العسقلاني، لسان الميزان، تحقيق: عبد الفتاح أبو غداه، دار البشائر الإسلامية، ط01، سنة 2002م.
- أحمد بن الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، تحقيق: بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط01، سنة 2002م.
- أحمد بن الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد وذيوله، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01 ، سنة 1417هـ.
- أحمد بن رافع بن محمد الطهطاوي الحنفي، التشبيه والإيقاظ لما في ذيول تذكرة الحفاظ، مطبعة الترقي، دمشق، سنة 1348هـ.
- أحمد بن علي بن منجويه، رجال صحح مسلم، تحقيق: عبد الله الليثي، دار المعرفة، بيروت.
- أحمد بن علي بن منجويه، رجال صحح مسلم، تحقيق: عبد الله الليثي، دار المعرفة، بيروت، دط، دت.
- أحمد القلقشندي، قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتب اللبناني، بيروت، ط02، سنة 1402هـ/1982م.
- أحمد القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق: إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط02،سنة 1400هـ/1980م.
- أحمد القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس، دار المنصور للطباعة و الوراقة، الرباط، دط، سنة 1973م.
- أحمد القاضي المكناسي، ذرة الحجال في أسماء الرجال، تحقيق: محمد أبو النور، دار التراث، القاهرة، سنة 1970هـ.

- أحمد المقري التلمساني، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد العظيم شلبي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، سنة 1355هـ/1934م.
- أحمد المقري التلمساني، أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق مصطفى السقا و إبراهيم الأبياري و عبد الحفيظ شلبي، مطبعة فضالة، المغرب، (د ط)، (د ت).
- أحمد المقري التلمساني، روضة الآس العاطرة الأنفاس، المكتبة الملكية، الرباط، ط02، سنة 1983م.
- أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1408هـ/ 1988م.
- أحمد الناصري السلاوي، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، دط، دت.
- أحمد بن يحي البدلاوي، فتوح البلدان، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط01، سنة 1988م.
- أحمد بن يحي البلاذري، جمل من أنساب الأشراف، تحقيق: سهيل زكار ورياض الزركلي، دار الفكر، بيروت، ط01، سنة 1417هـ/ 1996م
- أحمد بن يحي بن عميرة الضبي، بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، دار الكتاب العربي، بيروت، سنة 1968م.
- أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأنصار، تحقيق: عبد الله بن يحيى الشريجي، المجمع الثقافي أبو ظبي، الإمارات العربية، سنة 2003.
- أحمد بن يحي الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس، خرجه: جماعة من الفقهاء بأشراف: محمد حاجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط01، سنة1981م.
- أبي إسحاق الشيرازي، طبقات الفقهاء، تحقيق: إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت، سنة 1970م.

- إسماعيل باشا البغدادي، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط01، سنة 1992م.
- إسماعيل بن حماد الفرابي، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار الملايين، بيروت، ط04، 1407هـ/1987م.
- بطرس البستاني، قطر المحيط، المكتبة العربية بيروت، سنة 1869.
- ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة في غرائب الأمصار و عجائب الأقطار، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، سنة 2003م.
- ابن بطوطة، مهذب رحلة ابن بطوطة، دار النهضة للنشر، الجزائر، 2005م.
- ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق: عبد الهادي التازي، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، سنة 1997م.
- أبو بكر محمد بن الحسين البغدادي ، أخبار أبي حفص عمر بن عبد العزيز، تحقيق: عبد الله عبد الرحيم عليان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط02،سنة 1400هـ /1980م.
- تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: محمود محمد الطناجي وعبد الفتاح محمد الحلو، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط02،سنة 1413هـ.
- تفي الدين أبي المعالي محمد بن رافع السلامي، الوفيات، تحقيق: صالح مهدي عباس وبشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، دط، دت.
- تقي الدين الدقيقي المصري، اتفاق المباني وافتراق المعاني، تحقيق: يحي عبد الرءوف جبر، دار غمار، الأردن، ط01، سنة 1405هـ/1985م.
- تقي الدين بن فهد الهاشمي، لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1419هـ/1998م.
- تقي الدين المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: عبد القادر عطاء، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط01 ، سنة 1997م/ 1418 هـ.
- **ابن جبير**، رحلة ابن جبير، دار الكتاب اللبناني، ومكتبة المدرسة، بيروت. (دط)، (دت).

- جمال الدين الآتابكي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر القاهرة، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة 1992م/1413هـ.
- جمال الدين بن محمد الجوزي، مثير الغرم الساكن إلى أشرف الأماكن، تحقيق: مرزوق علي إبراهيم، دار الدراية، ط01، سنة 1995م/ 1415هـ.
- جمال الدين بن محمد الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1412هـ/1992م.
- حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط02، 1981م.
- الحافظ الذهبي، العبر في أخبار من عبير، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، دت.
- الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين النحاة، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر بيروت، ط02، سنة م1997م.
- الحافظ جلال الدين السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل، دار إحياء الكتب العلمية، القاهرة، ط01، سنة 1967م.
- أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، مكتبة الدعوة الإسلامية، القاهرة، (د ط)، (د ت).
- ابن الحبان، الثقات، تحقيق: محمد عبد المعيد خان، دار المعرف العثمانية، حيدر أباد، ط01، سنة 1393هـ/1973م.
- ابن حزم الأندلسي الطاهري، جمهرة أنساب العرب، تحقيق: لجنة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1403هـ/ 1983م.
- أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، التنبيه والإشراف، تحقيق: عبد الله إسماعيل الضاوي، دار الضاوي، القاهرة، دط، دت.
- ابن الحسن النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، تحقيق: مريم قاسم الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1410هـ/ 1990م.

- الحسن الوزان، وصف إفريقية، ترجمة محمد: حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، سنة 1983م.
- حسن بن يزيد السرافي، رحلة السيرافي، المجمع الثقافي، أبو ظبي، سنة 1964م.
- خالد البلوي، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، تحقيق: الحسن السائح، المطبعة المحمدية، المغرب، دط، دت.
- ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، دت.
- خير الدين الزركلي، الأعلام، دار الملايين، بيروت، سنة 2002م.
- الرازي بن أبي حاتم، الجرح والتعديل، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط01، سنة 1271هـ/1952م.
- عبد الرحمن بن أبي حاتم، الجرح والتعديل، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط01، سنة 1952م.
- عبد الرحمن ابن خلدون، رحلة ابن خلدون، تحقيق: محمد بن تاوريت الطنجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط02 ،سنة 2009م.
- عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الفكر اللبنانية، بيروت، سنة 1989م.
- عبد الرحمن **بن خلدون**، المقدمة، دار الفكر للطباعة و التوزيع، بيروت، لبنان، ط01، سنة 1423هـ/ 2003م.
- عبد الرحمن بن يونس الصفدي، تاريخ ابن يونس المصري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1421هـ.
- رزق محمد عاصم، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، مكتبة مديولي، ط01، سنة 2000م.
- ابن رشيد السبتي، ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط01، سنة 1988م.

- زين الدين أبو الفداء السودوني، تاج التراجم، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، دار القلم، دمشق، ط01، سنة 1413هـ/ 1992م.
- السمعاني، الأنساب، تحقيق: عبد الرحمن بن يحي المعلمي اليماني، دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد ، ط01، سنة 1382هـ/ 1962م.
- الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في احتراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، سنة 1422هـ/2002م.
- شمس الدين بن قيماز الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط03، سنة 1408هـ ./1988م.
- شمس الدين بن قيماز الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط01، سنة 2003م.
- شمس الدين بن قيماز الذهبي، الكشاف في معرفة من له رواية في كتب السنة، تحقيق: محمد عوانه أحمد ومحمد بن الخطيب، دار القبلة للثقافة الإسلامية، حماة، ط01، سنة1413هـ/1992م.
- شمس الدين بن قيماز الذهبي، معجم الشيوخ الكبير، تحقيق: محمد الحبيب الهيلة، مكتبة الصديق، الطائف،ط01، سنة 1408هـ/1988م.
- شمس الدين الذهبي، معرفة القراء الكبار على الطبقات والأمصار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1417هـ /1997م.
- شمس الدين بن علي ين حماروية بن طولون، مفاكهة الخلان وحوادث الأعيان، تحقيق: خليل منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط03،سنة 1418هـ/1998م.
- صلاح الدين بن أيبك الصفدي، أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق: علي أبوزيد ونبيل أبو عشمة ومحمد موعد، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط01، سنة 1418هـ/1998م.
- صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس ، دار صادر، بيروت، ط01، سنة 1974م.

- صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، الوافي للوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط01، سنة 2000م.
- عاتق بن غيث الحربي، معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، دار مكة للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، ط 01 ، سنة 1982م.
- العباس بن إبراهيم السمالي، الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط02، سنة 1997م.
- أبو العباس الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق: عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط01، سنة **1979**م.
- ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخيار الأندلس والمغرب، تحقيق: ليفي بروفنصال وج س كولان، دار الثقافة، بيروت، ط03، سنة 1983م.
- عبد العزيز الكتاني الدمشقي، ذيل تاريخ مولد العلماء ووفياتهم تحقيق: عبد الله أحمد سليمان الحمد، دار العاصمة الرياض، ط01، سنة 1409هـ.
- ابن عساكر، تاريخ دمشق، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، ج54، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، سنة 1415هـ/ 1995م.
- عفيف الدين اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، تحقيق: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1417هـ/1997م.
- علي ابن بسام أبو الحسن الشنتريني ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عباس دار الثقافة، بيروت، سنة 1417هـ/1997م.
- علي الجزنائي، جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، مطبعة الملكية، الرباط، ط02، سنة 1411هـ/ 1991م .
- علي بن سيده المرسي، المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1421هـ/2000م.

- علي بن موسى بن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، تحقيق: ولد السالم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 2013م.
- علي بن موسى بن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف، مصر سنة 1953م.
- ابن العماد ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، بيروت، سنة 1996م.
- عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، سنة 1376ه/1957م.
- الفتح بن خاقان، مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملمح أهل الأندلس، تحقيق: محمد علي سوابكة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط01، سنة 1403ه/1983م.
- أبو الفرج الإصفهاني، مقاتل الطالبين، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعرفة، بيروت، دطّ، دت.
- ابن فرحون المالكي، الديباج المذهب في معرفة علماء المذهب، تحقيق محمد الأحمدي أبو الفدا، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة، (د ت).
- ابن الفرضى، تاريخ علماء الأندلس، تحقيق: عزت العطار الحسيني، مكتبة الخانجي، القاهرة، سنة 1408ه/1988م.
- ابن الفرضى، تاريخ علماء الأندلس، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط01، سنة1410ه..
- عفيف الدين بن سليمان اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، تحقيق: خليل منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1417ه/1997م.
- القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، تحقيق: سعيد أحمد أعراب، مطبعة فضالة، المغرب، ط01، سنة 1981م.

- عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي، الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1410هـ/1990م.
- ابن القنفذ القسنطيني، الوفيات، تحقيق: عادل نوهض، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط04، 1983هـ.
- ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1 ، سنة 1408هـ/1988م.
- ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر، الجيزة، ط01، سنة 1419هـ/ 1998م.
- كمال الدين الأنباري، نزهة الألباب في طبقة الأدباء، تحقيق: إبراهيم السمرائي، مكتبة المنار، الزرقاء، ط01، سنة 1405هـ/1985م.
- عبد الكريم السمعاني، الأنساب، تحقيق: عبد الرحمن بن يحي المعلمي اليماني وآخرون، دار المعارف العثمانية، حيدر أباد، ط01، سنة 1382هـ/1962م.
- لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط02، 1392هـ/ 1973م.
- لسان الدين بن الخطيب، معيار الاختبار في ذكر المعاهد والديار، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، سنة 1423م.
- عبد الله البغوي، معجم الصحابة، تحقيق: محمد الأمين بن محمد الجكني، ج03، دار البيان، الكويت، ط01، سنة 1421هـ/2000م.
- أبو عبيد الله البكري، المسالك والممالك دار الغرب الإسلامي، سنة 1992م.
- أبو عبيد الله البكري، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، عالم الكتب، بيروت، ط03، سنة 1403هـ.
- عبد الله بن الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه الإمام مالك ابن أنس وأصحابه، تحقيق: أحمد عبيد، عالم الكتب، بيروت، ط01، 1984م.

- عبد الله بن محمد البغوي، معجم الصحابة، تحقيق: محمد الأمين بن محمد الجنكني، دار البيان، الكويت، ط01، سنة 2000م.
- عبد الله بن محمد العياشي، الرحلة العياشية، تحقيق: سعيد القاضي سليمان القرشي، ج1، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات العربية، ط 01، سنة 2006م.
- عبد الله ابن المعز العباسي، طبقات الشعراء، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف، القاهرة، ط03، دت.
- مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، دار الدعوة، القاهرة، دط، دت.
- مجهول، حدود العالم من المشرق إلى المغرب، تحقيق: السيد يوسف الهادي، دار الثقافة، القاهرة، دط، سنة 1413هـ.
- مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب، تحقيق: سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، سنة 1985م.
- مجهول، تاريخ الأندلس، تحقيق: عبد القادر بوباية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط02، سنة 2009م.
- مجهول، مفاخر البربر، تحقيق: عبد القادر بوباية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ط01، سنة 2005م.
- محمد بن أحمد الأزدي الهروي، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط01، سنة 2001م.
- محمد بن إسحاق العبيدي، معرفة الصحابة، تحقيق: عامر حسين صبري، مطبوعات جامعة الإمارات العربية، ط01، سنة1426هـ/2005م.
- محمد ابن إسحاق الهمداني المدعو بابن الفقيه، البلدان، تحقيق: يوسف الهادي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1416هـ/ 1996م.
- محمد أمين بن عابدين، رد المختار على الدر المختار فيشرح تنوير الأبصار، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود ولي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1415هـ/1994م.

- محمد البخاري، التاريخ الكبير، تحقيق: محمد عبد المعيد خان، دار المعارف العثمانية، حيدر أباد.
- محمد بن حبان، الثقات، تحقيق: محمد عبد المعيد خان، دار المعارف العثمانية، حيدر أباد، ط01، سنة 1393هـ/ 1973م.
- محمد بن حسان البستي، الثقات، تحقيق: محمد بن عبد المعيد خان، دار المعارف العثمانية، حيدرأباد، ط01، سنة 1393هـ /1979م.
- محمد عبد الحي الكتاني، فهرس الفهارس والإثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط02،سنة 1982م.
- محمد بن عبد الرحمن السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، القاهرة، سنة 1353هـ.
- محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1410هـ/1990م.
- محمد بن شاكر بن هارون، فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط01، سنة 1973م.
- محمد بن الطيب القادري، الإكليل والتاج في تذييل كفاية المحتاج، دار الأبحاث للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1 ، سنة2011م.
- محمد العبدري، رحلة العبدري، تحقيق: علي إبراهيم كردي، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط 02 ، سنة 2005م.
- محمد الكندي،كتاب الولاة وكتاب القضاة، تحقيق: محمد محسن، محمد حسن إسماعيل وأحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1424هـ/2003م.
- محمد بن عبد الله الربعي، تاريخ مولد العلماء ووفياتهم، تحقيق: عبد الله أحمد سليمان الحمد، دار العاصمة، الرياض، ط01، سنة 1410هـ.
- أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التيجاني، رحلة التيجاني، تحقيق: حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، تونس، سنة1981م.

- محمد مجاهد القيسي الدمشقي، الرد الوافر، المكتب الإسلامي، بيروت، ط01،سنة 1393هـ.
- محمد بن محمد الأندلسي الوزير السراج، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، مطبعة الدولة التونسية، تونس، ط01، سنة1287هـ.
- محمد بن محمد الأندلسي الوزير السراج، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تحقيق محمد حبيب الهيلة، ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، سنة 1985م.
- محمد بن محمد الحسيني، تاريخ العروس في جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، بيروت، دط، دت .
- محمد بن محمد بن عمر بن قاسم بن مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، تحقيق: عبد المجيد خيالي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط01، سنة 1424هـ/2003م.
- محمد ابن مرزوق التلمساني، المسند الصحيح الحسن، تحقيق: ماريا جيسوس بيغيرا، تقديم: محمد بوعياد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، سنة 1984م.
- محمد المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة مديولي، القاهرة، ط03، 1411هـ/1981م.
- محمد بن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق ليفي بروفنصال، دار الفكر العربي، بيروت، دت.
- محمد بنعبد المنعم الحميري، صفة جزيرة الأندلس، تحقيق: ليفي بروفنصال، دار الجيل، بيروت، ط02، سنة 1408هـ/1988م.
- أبو مدين شعيب بن الحسن الإشبيلي، حياته و آثاره، أنس الوحيد و نزهة المريد، تقديم و تحقيق: عبد الحميد حاجيات، دار المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، سنة2004م.
- ابن مريم الشريف المديوني التلمساني، البستان، ترجمة: عبد القادر بوباية، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط01، سنة 2011م.
- ابن مريم الشريف المديوني التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، مراجعة: محمد ابن أبي شنب، المطبعة الثعالبية، الجزائر، سنة 1908م.

- المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، القاهرة، سنة 1948م.
- أبو معين الدين المروزي ،سفر نامه، تحقيق: يحي الخشاب، دار الكتاب الجديد، بيروت، دط، دت.
- عبد الملك ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين، تحقيق: عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط01، سنة 1964م.
- عبد الملك بن حسين المكي، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل، تحقيق: أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1998م.
- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر بيروت، ط03، سنة1414هـ.
- النسائي، فضائل الصحابة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1405هـ.
- أبو نعيم، معرفة الصحابة، تحقيق: عادل بن يوسف الغزاري، دار الوطن العربي للنشر، الرياض، ط01، سنة 1419هـ/ 1990م.
- نور الدين السمهودي، وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1419هـ.
- عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق: محمد زينهم عزب، دار القرطاجني للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط07، سنة 1978م.
- أبو الوليد سليمان القرطبي الباجي الأندلسي، الجرح والتعديل لمن خرج له البخاري في الجامع الصحيح، تحقيق: أبو لبابة حسين، دار اللواء للنشر والتوزيع، الرياض ط01، سنة 1406هـ/1986م.
- ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ط02، سنة 1995م.
- يحي ابن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحيق: عبد الحميد حاجيات، مطبعة بيير فوسطانا الشرقية، الجزائر، سنة 1903م.
- اليعقوبي، البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01 ، سنة 1422هـ.

- يوسف بن تغري الظاهري الحنفي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب، القاهرة، دط، دت.
- يوسف بن تغرى الظاهري الحنفي، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق: محمد أمين ومحمد عبد الفتاح عاشور، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة.
- يوسف بن تعزي بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، مورد للطافة في من ولى السلطنة والخلافة، تحقيق نبيل محمد عبد العزيز أحمد، دار الكتب المصرية.
- يوسف بن عبد الرحمن القصاعي الكلبي المزري، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تحقيق: بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط01، سنة1400هـ/1980م.
- يوسف بن عبد الله النميري القرطبي، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط01، سنة 1412هـ/1992م.

2- المراجع:

1) أحمد رمضان أحمد، الرحلة والراحلة المسلمون، دار البيان العربي، جدة، (د ت).
2) أحمد فكري، مسجد القيروان، دار العالم الإسلامي، القاهرة، سنة 2009م.
3) أرنست كونل، الفن الإسلامي، ترجمة: أحمد موسى، دار صادر، بيروت، ط02، سنة 1966م.
4) أغناطيوس كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم، مطبعة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، سنة 1987م.
5) أنور الرفاعي، تاريخ الفن عند العرب والمسلمين، دار الفكر، بيروت، ط01،سنة 1398هـ/1977م.
6) إيفا ويلسون، الزخارف الإسلامية، ترجمة: أمال مزيود، دار قابس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، دط، دت.
7) بالحاج معروف، العمارة الإسلامية – مساجد ميزاب ومصلياته الجنائزية–، دار قرطبة، الجزائر، ط01، سنة 1428هـ/2007م.

8) ثروت عكاشة، القيم الجمالية في العمارة الإسلامية، دار الشروق، القاهرة، ط01، سنة1944م.

9) ج س كولان، الأندلس، ترجمة: إبراهيم خور رشيد وعبد الحميد يونس وحسين عثمان، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط01، سنة 1980م.

10) جودة هلال ومحمد محمود صبح، قرطبة في التاريخ الإسلامي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة 1986م.

11) جودة هلال ومحمد محمود صبح، قرطبة في التاريخ الإسلامي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة 1986م.

12) حسان حلاق، مكة المكرمة من خلال رحلتي ابن جبير وابن بطوطة، دار النهضة العربية، بيروت، ط01، سنة 1996م.

13) الحسن الشاهدي، أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، مطابع عكاظ، الرباط، ط 02، سنة2002م.

14) حسن محمد فهيم، أدب الرحلات، عالم المعرفة، الكويت، سنة 1990م.

15) حسنى محمد نويصر، الآثار الإسلامية، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، سنة 1997م.

16) حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط02، سنة 1986م.

17) حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، مكتبة الأسرة الفكرية، القاهرة، ط02، سنة 1992م.

18) أبو الحسن الهروي، الإشارات إلى معرفة الزيارات، المكتبة الثقافية الدينية، القاهرة، ط01، سنة 1423هـ.

- عبد الحميد حاجيات، أبو حمو موسى الزياني، حياته وآثاره، موفهم للنشر، الجزائر، سنة 2011م.

19) خالد بلعربي، الدولة الزيانية في عهد يغمراسن دراسة تاريخية وحضارية633هـ-681هـ، دار الألمعية للنشر والتوزيع، قسنطينة، ط01، سنة2011م.

20) خليل إبراهيم السمرائي وعبد الواحد طه دنون وناطق صلاح مطلوب، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، ط01، سنة 2000م.

21) خليل السمرائي وعبد الواحد طه دنون وناطق صالح مطلوب، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، دط، دت.

22) عبد الحميد بكري، النبذة في تاريخ توات و أعلامها خلال القرن 9-14هـ، شركة الهدى للطباعة و النشر، عين ميلة، الجزائر ، ط01، سنة 2005م.

23) عبد الرحمن مؤذن، أدبية الرحلة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، سنة 1417هـ/ 1996م.

24) عبد الرحيم مؤذن، الرحلة في الأدب المغربي أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، سنة2006م.

25) عبد الرزاق الموافي، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن 4هـ، مطابع الوفاء، المنصورة، ط01، سنة 1410هـ/ 1996م.

26) زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، دار الرائد العربي، بيروت، سنة 1401هـ/1981م.

27) زكي محمد حسن، في الفنون الإسلامية، دار الرائد العربي، بيروت، سنة 1981م.

28) زيغريد مونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة: فاروق بيوض وكمال ديسوقي، مراجعة :هارون عيسى الخوري، دار الجيل، بيروت، ط02، سنة 1993م.

29) السيد عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، سنة 1997م.

30) السيد عبد العزيز سالم، المساجد والقصور في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، سنة 1986م.

31) شكيب أرسلان، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، مكتبة الحياة، بيروت، دت.

32) شوقي ضيف، الرحلات، دار المعارف، القاهرة، ط 04، سنة1987م.

33) صالح أحمد الشامي، الفن الإسلامي –التزام وإبداع- دار العلم، دمشق، ط01، سنة 1410هـ/1990م.

34) أبو صالح الألفي، الفن الإسلامي –أصوله وفلسفته ومدارسه-، دار المعارف، القاهرة، ط02، سنة 1967م.

35) عاتق بن غيث الحربي، معالم مكة التاريخية والأثرية، دار مكة للنشر والتوزيع، مكة، ط01، سنة 1980م.

36) عثمان عثمان إسماعيل، تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى، سلسلة حضارة المغرب الإسلامي، ط01، سنة 1992م.

37) عبد العزيز الدولاتلي، مسجد قرطبة وقصر الحمراء، موفم للنشر، الجزائر، سنة 2011م.

38) عبد العزيز بن عبد الله، الرحلات من المغرب وإليه عبر التاريخ، دار نشر المعرفة، الرباط، ط1، سنة2001م.

39) عصام عبد الرؤوف الفقي، تاريخ المغرب والأندلس، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، سنة 1990م.

40) عفيف بهنسي، الفن الإسلامي في بداية تكونه، دار الفكر، دمشق، ط01، سنة 1413هـ/1983م.

41) علي الخفاف محمد أحمد عقلة المومني، دراسات في التراث العربي الإسلامي، دار الكندي للنشر والتوزيع، الأردن، سنة 1420هـ/2000م.

42) علي محمد الصلابي، دولة الموحدين، دار البيارق للنشر، عمان، دط، دت.

43) علي محمد الصلابي، معاوية بن أبي سفيان –شخصيته وعصره- ، دار الأندلس الجديدة للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ط01، سنة 1429هـ/2008م.

44) علي بن محمد الكتاني، انبعاث دولة الإسلام في الأندلس، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1426هـ/2005م.

45) علياء عكاشة، العمارة الإسلامية في مصر، بردي للنشر، الجيزة، سنة 2008م.

46) عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز من القرنين 7هـ و 8هـ ، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، سنة 1996م.

47) غارسيه غموس، الشعر الأندلسي، ترجمة: حسين يونس، القاهرة، سنة 1956م.

48) فؤاد قنديل، أدب الرحلات في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، سنة2002م.

49) كريشي أرنولد بيجز، تراث الإسلام في الفنون الفرعية والتصوير، ترجمة: زكي محمود حسن، دار الكتاب العربي، دمشق، ط01، سنة1984م.

50) كمال السيد أبو مصطفي، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوي المعيار المعرب للونشريسي، دار الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية، سنة 1996م.

51) أبو عبد الله الواقدي، فتوح الشام، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، سنة 1417هـ/1997م.

52) محمد حسن العيدروس، العصر الأندلسي –العمارة والفنون الأندلسية في غرناطة وطليطلة وقرطبة-، دار الكتاب الحديث، القاهرة، ط01، سنة 1433هـ/2012م.

53) محمد حسين جودي، العمارة العربية الإسلامية، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان، ط01، سنة 1427هـ/2007م.

54) محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة بير فوتبانة، الجزائر الشرقية، سنة 1906م.

55) محمد خيط، المقري العباس أحمد بن محمد، دار مدين للطباعة و النشر، الجزائر، ط01، سنة2012م.

56) محمد عوض مؤنس، الرحالة الجغرافيون و الرحالة المسلمون في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، مكتبة الدراسات و البحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ط01، سنة 1990م.

57) محمد كرد علي، خطط الشام، مكتبة النوري، دمشق، ط03، سنة 1403هـ/1983م.

58) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط04، سنة 1417هـ/1997م.

59) عبد المعطي محمد، الإبداع الفني وتذوق الفنون الجميلة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، دط، دت.

60) نجوى عثمان، مساجد القيروان ، دار عكرمة، دمشق، سنة 2000م.

61) نقولا زيادة، الجغرافية والرحلات عند العرب، دار الكتاب اللبناني، بيروت، سنة 1978م.

62) عبد الهادي التازي، مكة في مائة رحلة مغربية، مراجعة: عباس صالح طسكندي، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، الرياض، 1426 هـ/ 2008 م.

63) هاني محمد القحطاني، مبادئ العمارة الإسلامية وتحولاتها المعاصرة –قراءة تحليلية نحو الشكل–، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط01، سنة 2009م.

64) وفاء بنت عبد الله سليمان المزروع، إسهام الرحالة المجاورين الأندلسيين على الحياة العلمية بمكة المكرمة من القرن 2 هـ حتى نهاية القرن 6 هـ، (د ط)، (د ت).

ب– قائمة المجلات والدوريات:

1. أحمد مختار العبادي، "نظرة أهل المغرب والأندلس نحو المقدس"، الرحالة العرب والمسلمون اكتشاف الآخر. المغرب منطلقا وموئلا، أعمال ندوة من 14 إلى 17 جوان 2003، وزارة الثقافة، الرباط، ط01، سنة 2003.

2. أحمد موسى، "الفن المصري"، مجلة الرسالة، العدد192.

عبد الجبار السمرائي: "رحلة ابن بطوطة"، مجلة المواد، ج18، دار الشؤون الثقافية، بغداد،العدد04،سنة 1989م.

3. سعد زغلول عبد الحميد: "ابن خلدون مؤرخا تاريخ العرب والبربر في كتاب العبر"، مجلة قراءات جديدة في كتابات قديمة، ج14، علم الفكر، وزارة الإعلام، الكويت، العدد02، سنة 1983م.
4. السيد عبد العزيز سالم: "العمارة الإسلامية في الأندلس وتطورها"، عالم الفكر، ج08، العدد 01، جوان 1988، وزارة الإعلام، الكويت.
5. شاكر مصطفى: "عناصر الوحدة في الفن الإسلامي"، أعمال الندوة المنعقدة في اسطنبول، أفريل 1983، دار الفكر، دمشق، سنة 1989م.
6. شوقي عطا الله الجمل: "الحسن بن محمد الوزان وإنتاجه الفكري والمؤثرات التي تأثر بها"، مجلة المناهل، العدد 02، وزارة الثقافة المغربية، الرباط، مارس 1975.
7. عبد العزيز عبد الله: " الرحالة العرب والمسلمون من المغرب وإليه"، الرحالة العرب والمسلمون اكتشاف الآخر- المغرب منطلقا وموئلا، أعمال ندوة من 14 إلى 17 جوان 2003، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، ط01، نوفمبر 2003.
8. علي محسن عيسى مال الله: "العراق في رحلة ابن جبير خاصة ورحلات العرب الأخرى"، مجلة المواد، ج18، دار الشؤون الثقافية، بغداد،العدد04،سنة 1989م.
9. فلاح شاكر: "ابن جبير في رحلته قراءة في الجوانب الجغرافية للرحلة "، مجلة المواد، ج18، دار الشؤون الثقافية، بغداد،العدد04،سنة 1989م.
10. عبد القادر زمامة: "ليون الإفريقي"، مجلة اللقاء، الرباط، العدد10، يناير 1969م،
11. محمد الخزعلي: "لسان الدين بن الخطيب و أدب الرحلة"، مجلة أم القرى لعلوم الشريعة و اللغة العربية و آدابها، ج 18، عدد 39، سنة 1424هـ.
12. محمد الفاسي: "رحلة العبدري"، مجلة الدراسات الإسلامية، ج09، مدريد
13. محمد ماكمان:"أثر الرحالين في التقدم العلمي و الحضاري"، مجلة فكر ونقد،دار النشر المغربية، الدار البيضاء،عدد 87، مارس، 2007م.

14. ، أنظر: محمد المهدي الحجوي: "حياة الحسن الوزان وآثاره"، مؤتمر المستشرقين، مطبعة المملكة المغربية، الرباط، سنة 1939م.

15. محمود بوعنان، "رحالة مصري يزور الجزائر في القرن 9هـ"، مجلة الأصالة، وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، العدد 24، سنة 1975.

ج– قائمة الأطروحات والمذكرات:

1. أنصار محمد عوض الله الرفاعي، المحتوى التعبيري للفن الإسلامي وفلسفته التربوية، مذكرة ماجستير، كلية التربية الفنية، جامعة حلوان، القاهرة، سنة 1416هـ/1996م.

2. عبد الصمد عزوزي، أدب الرحالة الجزائريين في الخمسية الهجرية الثانية، مذكرة ماجستير، كلية الأدب العربي، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 1429هـ/ 2003م.

3. عبد الله بن أحمد بن حامد آل حمادي، آداب الرحلة في المملكة العربية السعودية، مذكرة ماجستير، جامعة أم القرى، سنة 1998م.

4. محمد الأنصاري، ابن سعيد المغربي، حياته و آثاره، أطروحة ماجيستير، الدائرة العربية بالجامعة الأمريكية، بيروت، ماي 1977م.

5. محمد بن حمو، العمارة والعمران من خلال كتب النوازل بالمغرب الإسلامي–دراسة في فقه العمران والعمارة الإسلامية، رسالة دكتوراه في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامع الجزائر، سنة 1432هـ/2011م،

6. سيدي محمد الغوتي بسنوسي، الأصول العميقة لمعايير التناسق في العمارة الدينية بالمغرب العربي، رسالة دكتوراه دولة، قسم الثقافة الشعبية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، سنة 2000م.

7. ياسين شبابيي، الفكر السياسي عند الشيخ المغيلي التلمساني، مذكرة ماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، كلية الحضارة والعلوم الإسلامية، جامعةالسانيا، وهران، سنة2008م.

2- قائمة المصادر والمراجع باللغة الأجنبية:

أ- قائمة المصادر والمراجع:

1. Dozy, Histoire Des Musulmans D'Espagne, Nouvelle Edition,Tome 03,1932.

2. E.F. Gautier , Le Passer de l'Afrique de Nord, Les Siècles Obscurs, Paris, 1942.

3. G- Demonlynes ,Le pèlerinage à la Mekk , paris,1923

4. George Marçais , L'Art Musulman, 1er Ed, Presse Universitaire de France, Paris, 1982.

5. George Marçais , L'Architecture Musulmane D'Occident, Paris, 1954.

6. George Marçais, Manuel d'Art musulman, L'Architecture Tunisi Algérie Maroc, Espagne, Sicile, Vo02,.Augustepicardy Paris,

7.Jean Claude Berchie, Voyage Ver Soi, Seuil Poétique, Paris, 1983.

8. Jean Léon Africain , Historial Description de l'Afrique, Mise en Français : Jean Trempol, Lyon, 1556.

9.K.AC Grezwell, AshortAccount of EarlyMuslim, First Published. 1958.

10.K.AC Grezwell, EarlyMuslim Architecture, Umaayyads, EarlyAbbasids and Tulunidis, Vol 01, Oxford, Don Presse, 1932.

11.LévéProvençal, Le voyage d'IbenBattuta dans le royaume de Grenada(1356), Mélanges willionMarçais, Paris, 1950.

12.MelcherAntana, Campanas de los Almohades en Espana Sevilla y sus monumentos Arabes ReligonyCultural, El Escorial, 1930.

13.Philippe Bouden, Architecture et Architecturelogie , Paris, 1975.

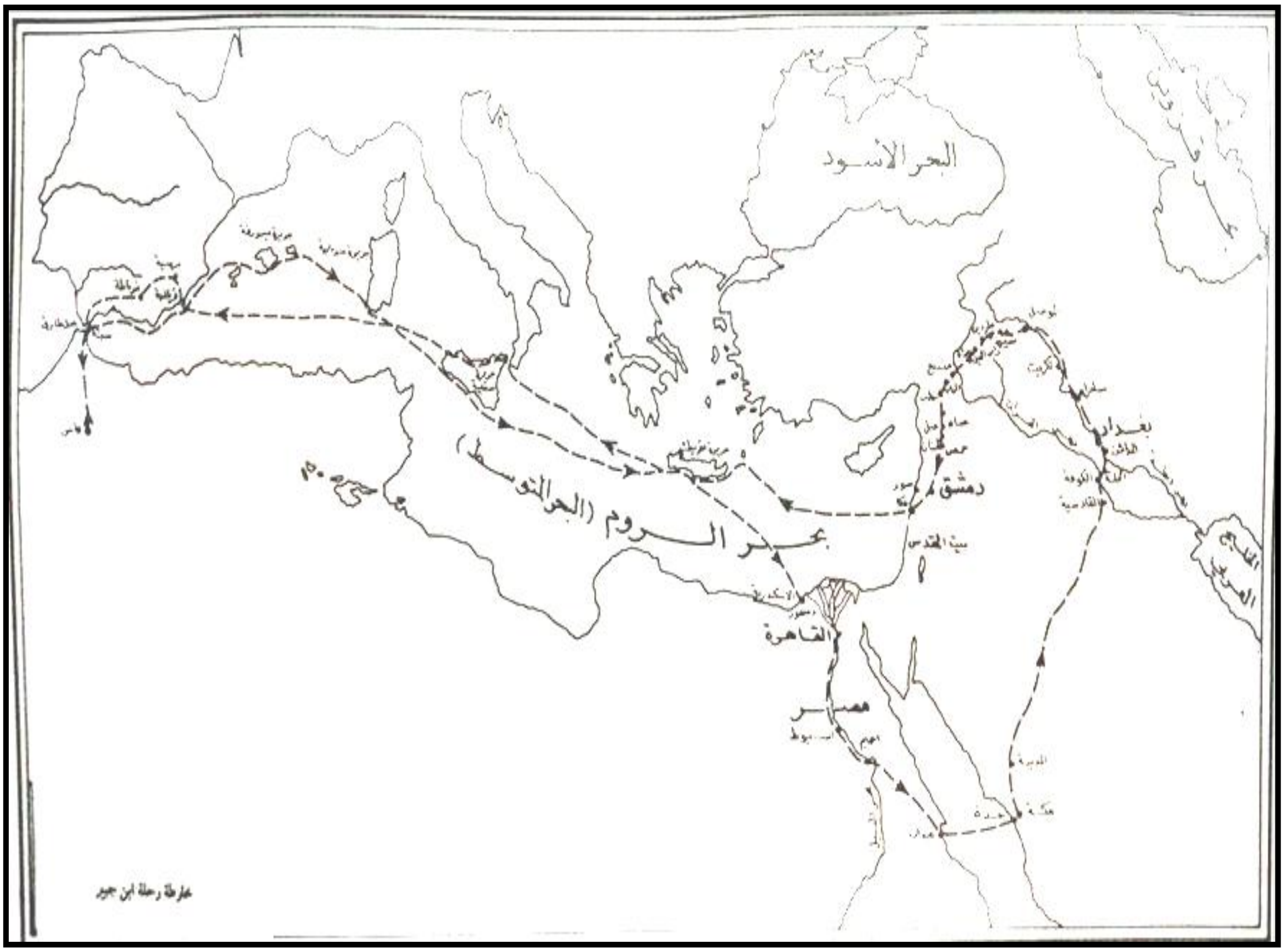
14. Rachid Bourouiba, Apport De L'Algérie à L'Architecture Religieuse Arabo –Islamique , OPU, Alger,1986.

15.T.Burckhard, L'Art De L'Islam –Langage et Signification, Sindbad, Paris ; 1983.

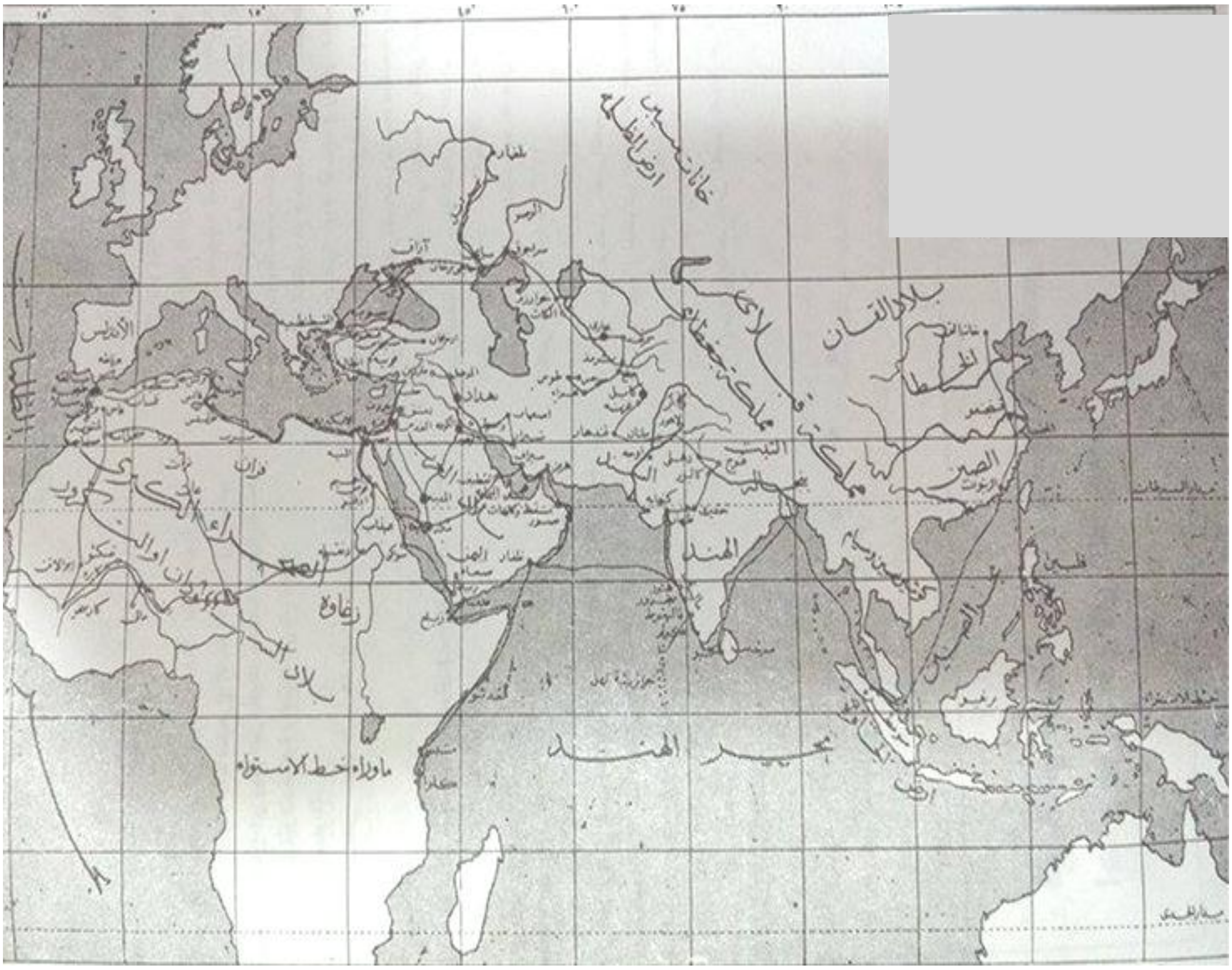
ب- قائمة المجلات باللغة الأجنبية:

-A.Papadopoulmm « Sur L'Esthétique de L'Art Musulman », In Proccedings of The International Sympodiumheld in Istanbul, April 1983, Dar-El-Fiker, Damascus , 1989.

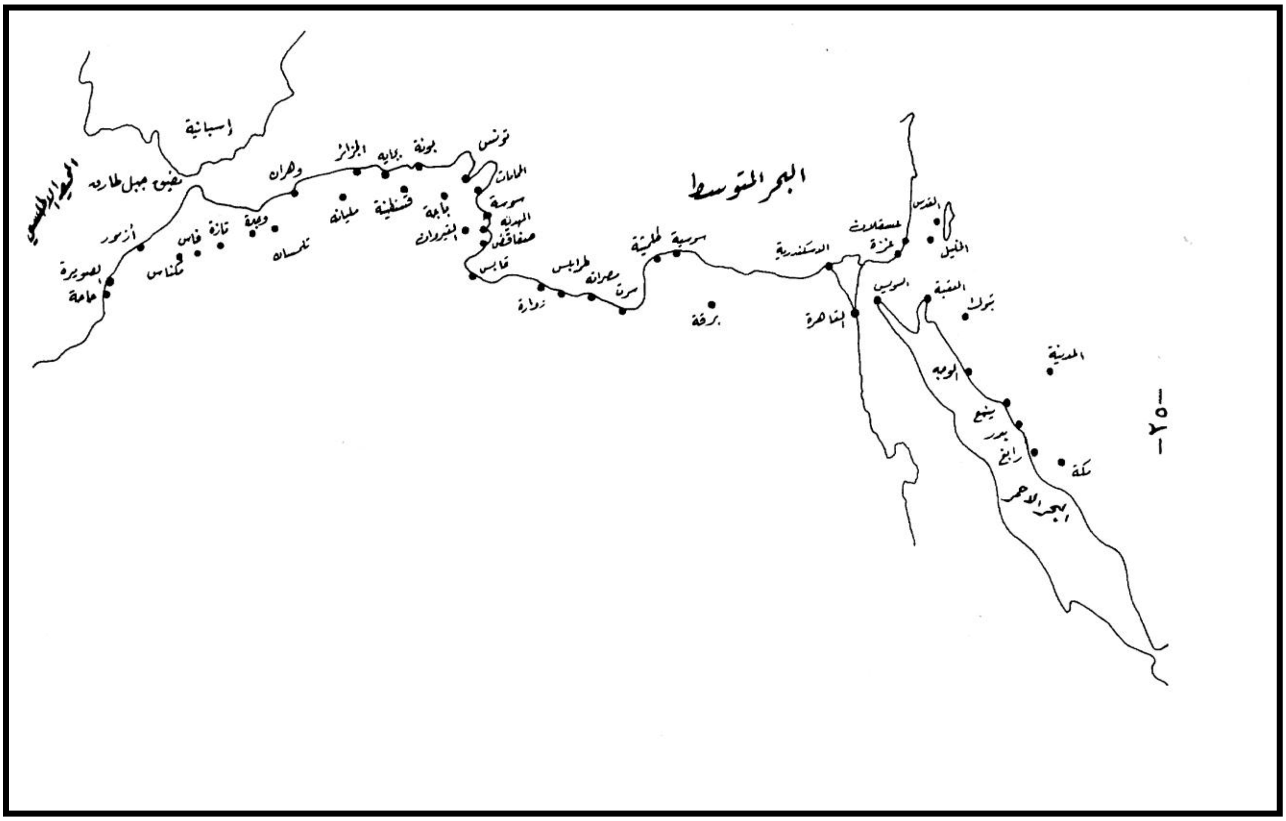
ملحــق الأشكـال



الشكل -01-: مسار رحلة ابن جبير
عن شاكر أسود، ابن جبير في رحلته، المرجع السابق، ص 81.



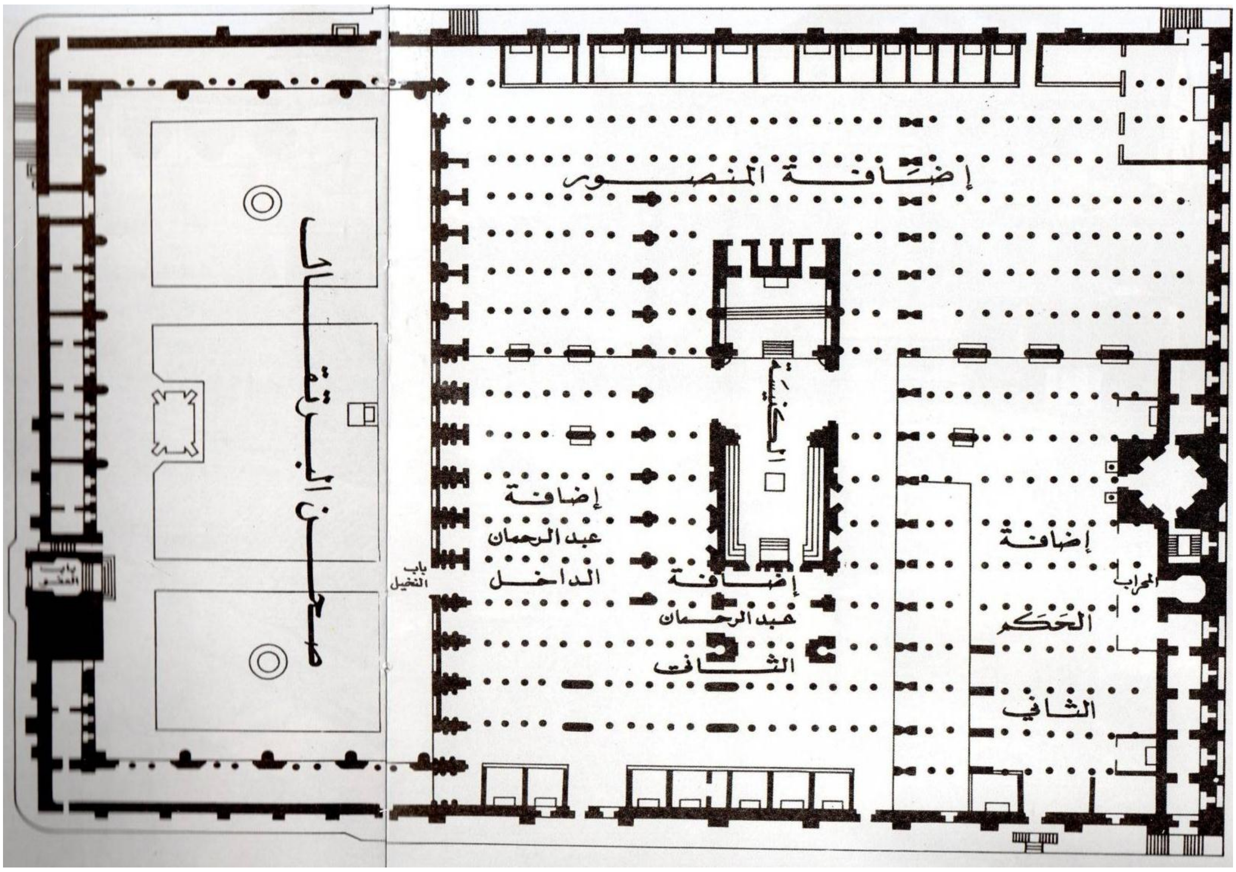
الشكل -02-: مسار رحلة ابن بطوطة
عن ابن بطوطة، مهذب رحلة بن بطوطة، المصدر السابق، ص 205.



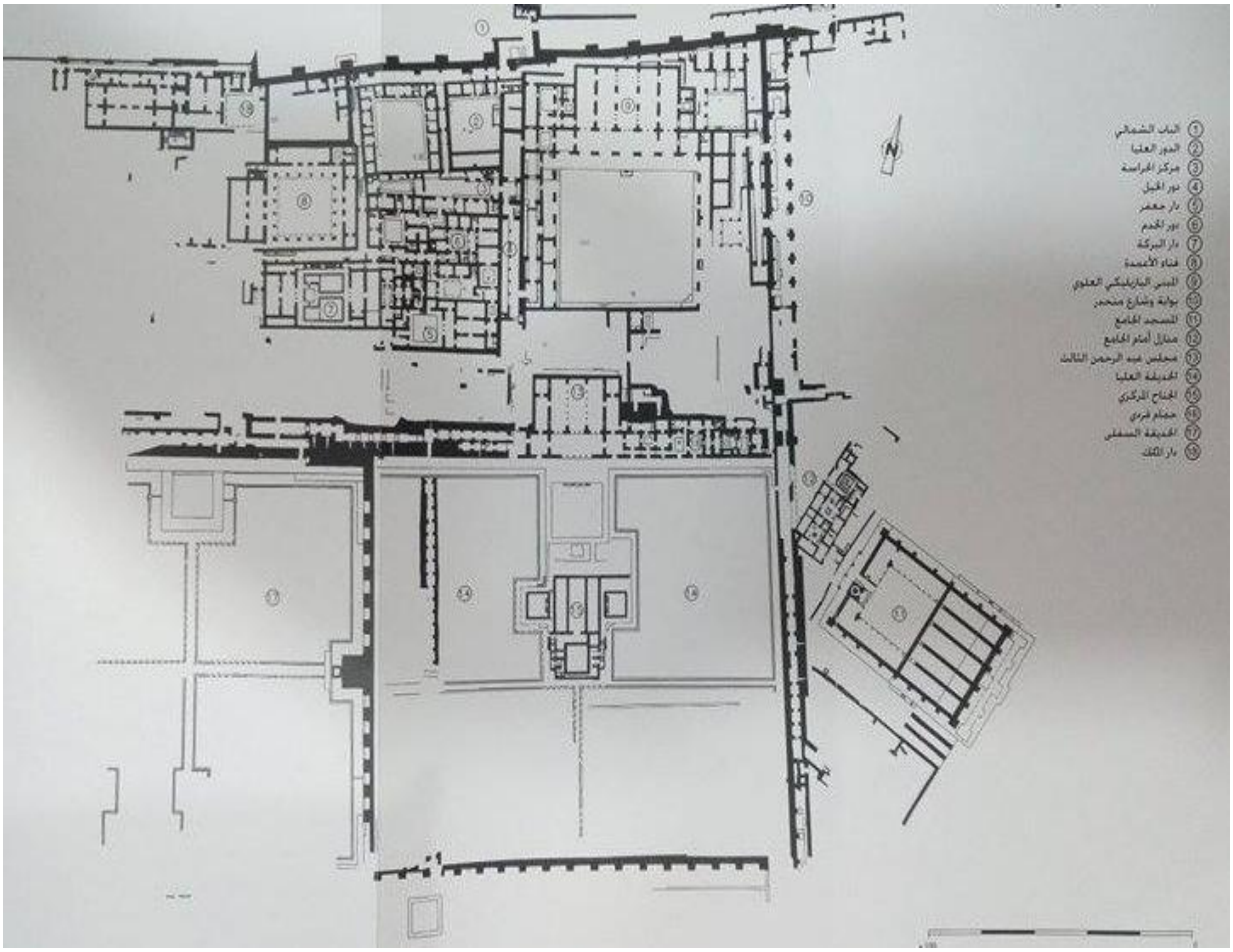
الشكل -03-: مسار رحلة العبدري
عن محمد العبدري، رحلة العبدري، المصدر السابق، ص25.



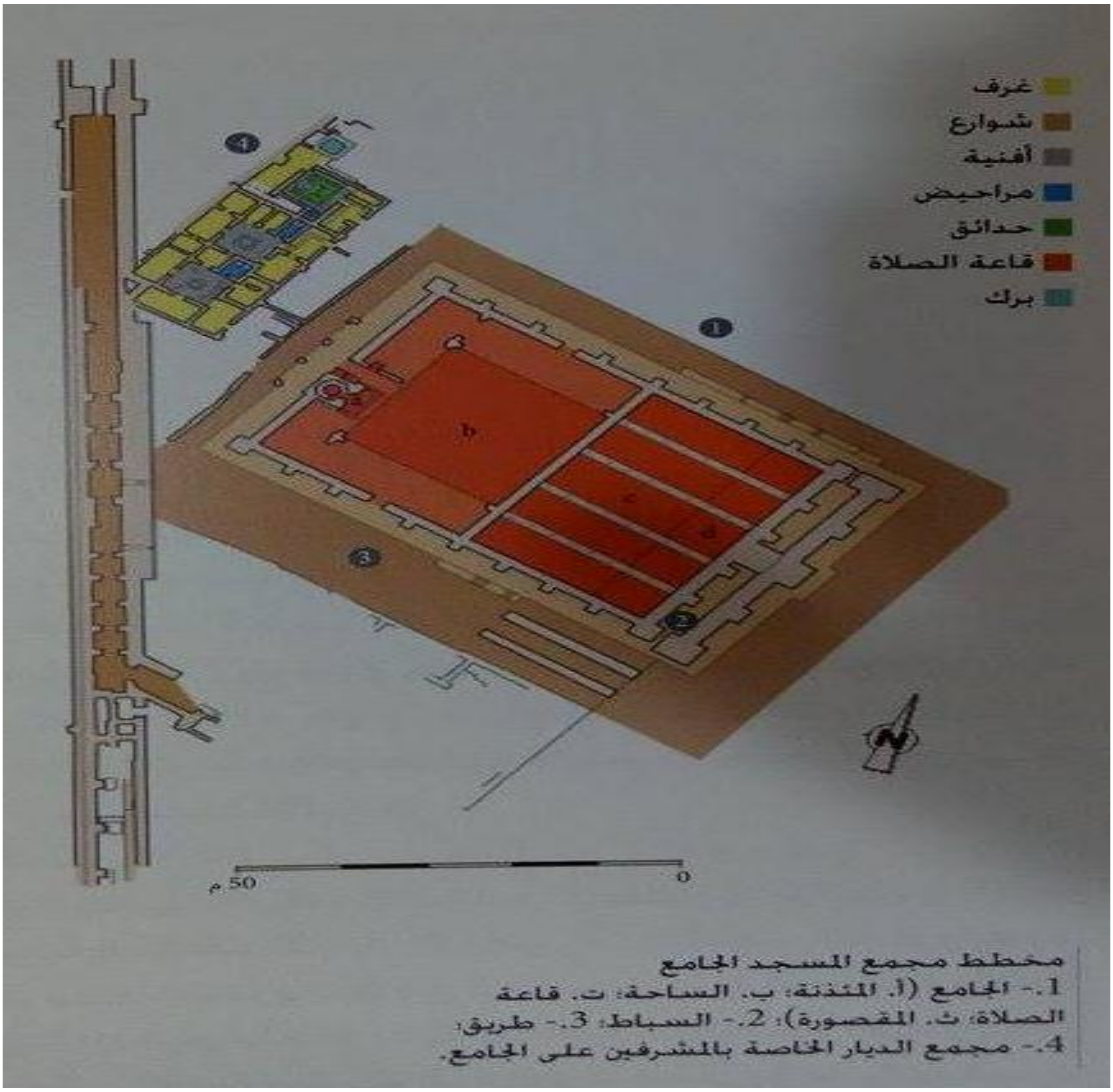
الشكل -04-: النسيج العمراني لمدينة قرطبة
عن دليل قرطبة



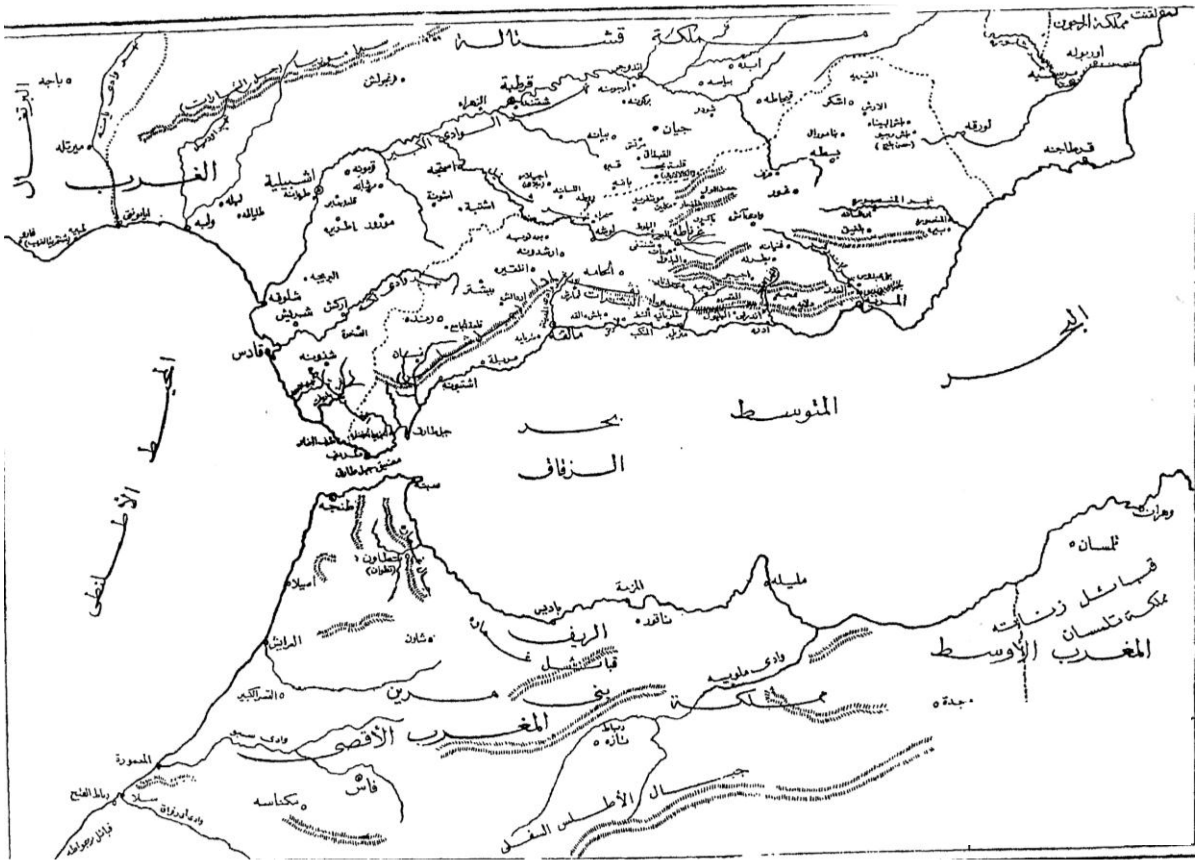
الشكل -05-: المخطط المعماري لجامع قرطبة عبر مراحله التاريخية المختلفة عن عفيف بهنسي، الفن العربي الإسلامي في بداية تكونه، المرجع السابق، ص86.



الشكل -06-: المخطط المعماري لقصر مدينة الزهراء
عن دليل مدينة الزهراء

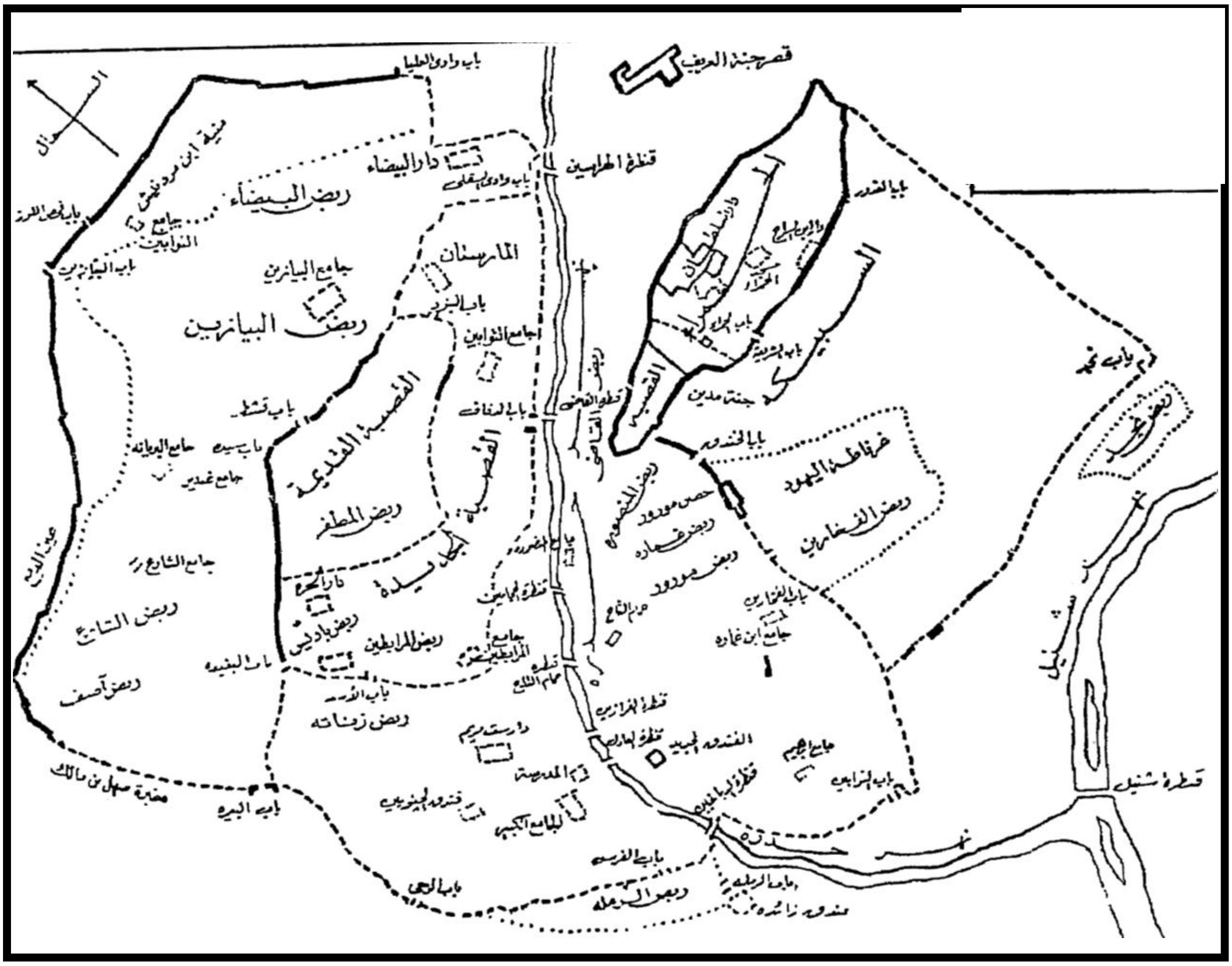


الشكل -07-: المخطط المعماري مسجد مدينة الزهراء
عن دليل مدينة الزهراء



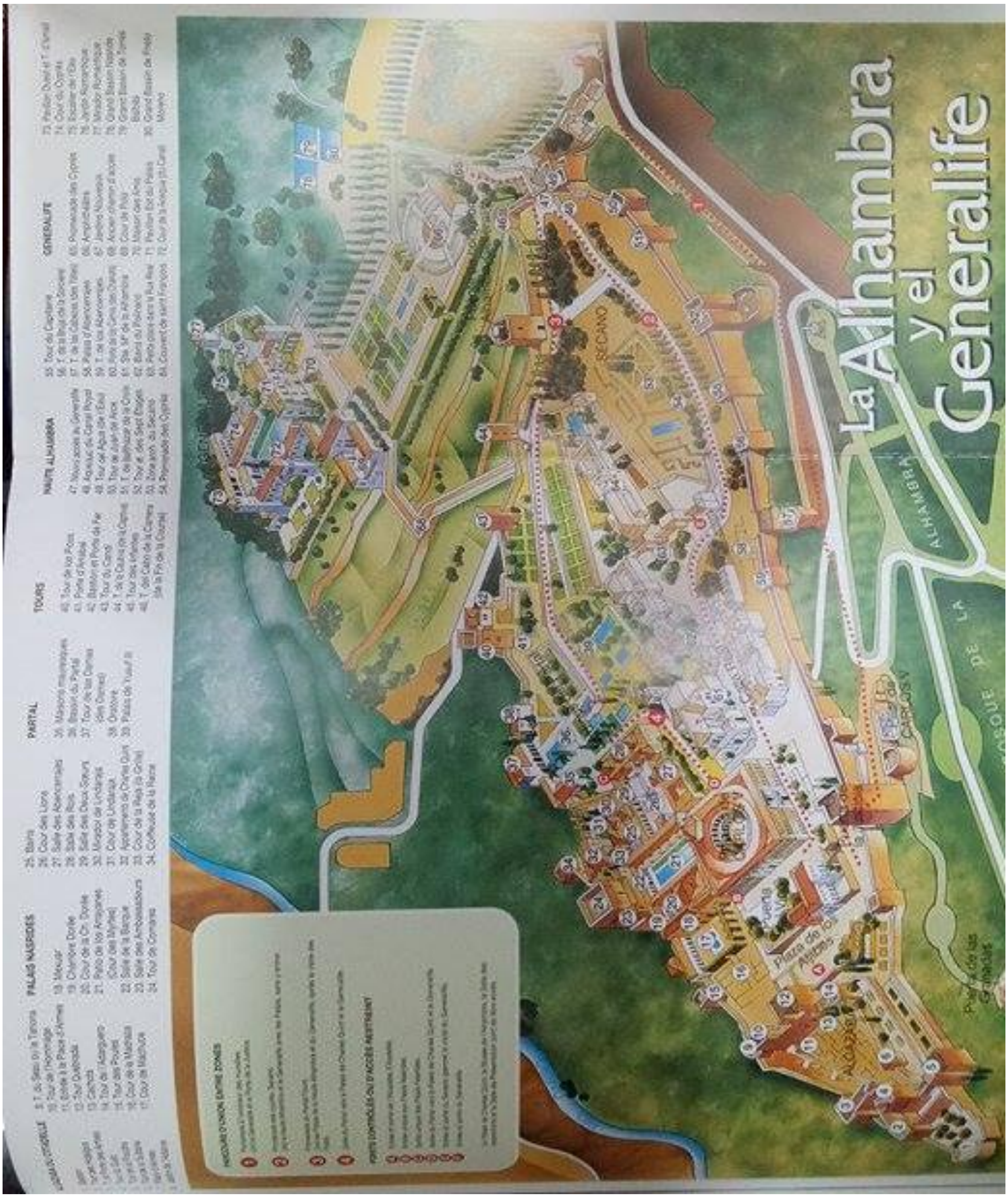
الشكل -08-: خريطة مملكة غرناطة

عن لسان الدين ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج01، المصدر السابق، ص 89.

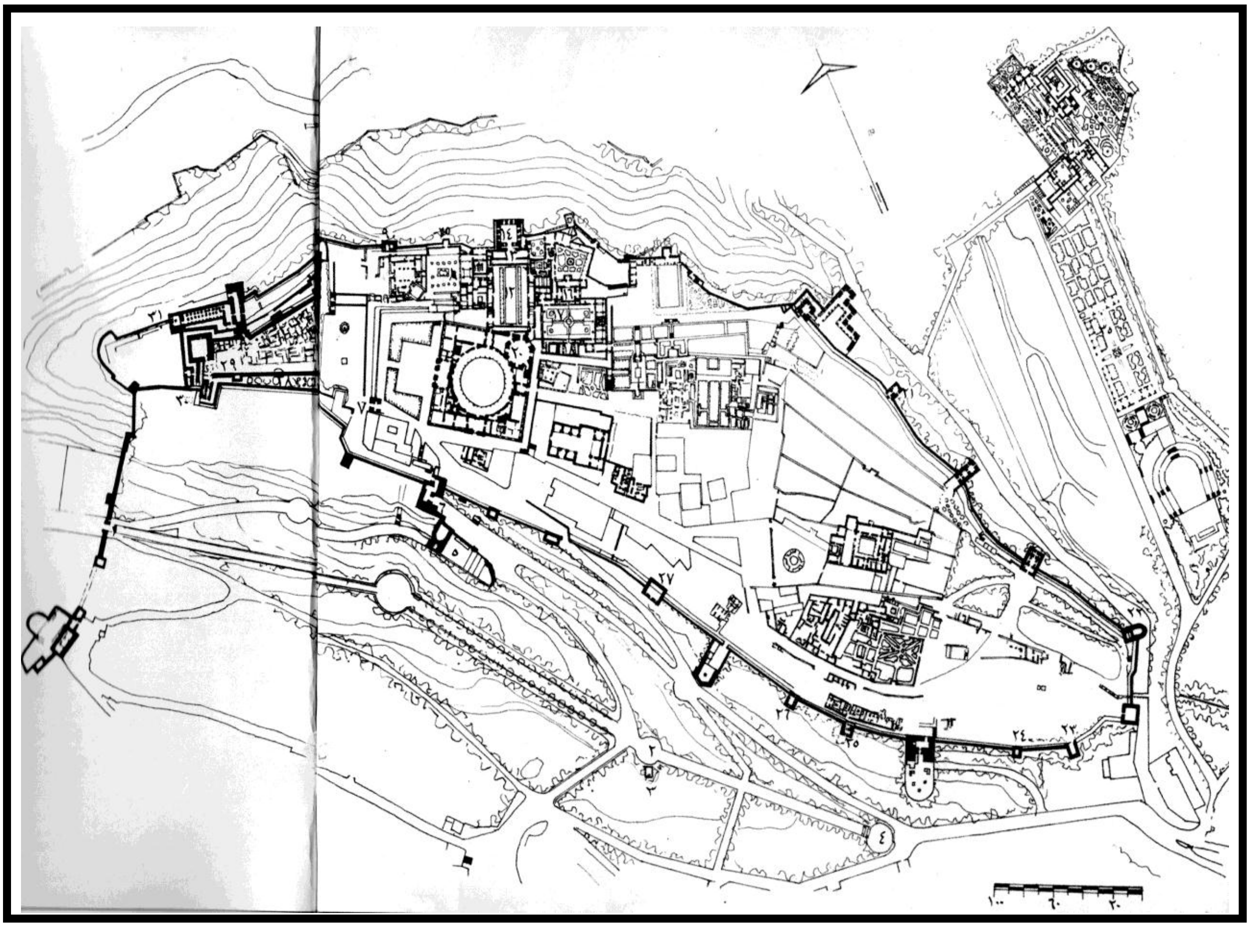


الشكل -09-: النسيج العمراني لمدينة غرناطة
عن لسان الدين ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج$_{01}$، المصدر السابق، ص 95.

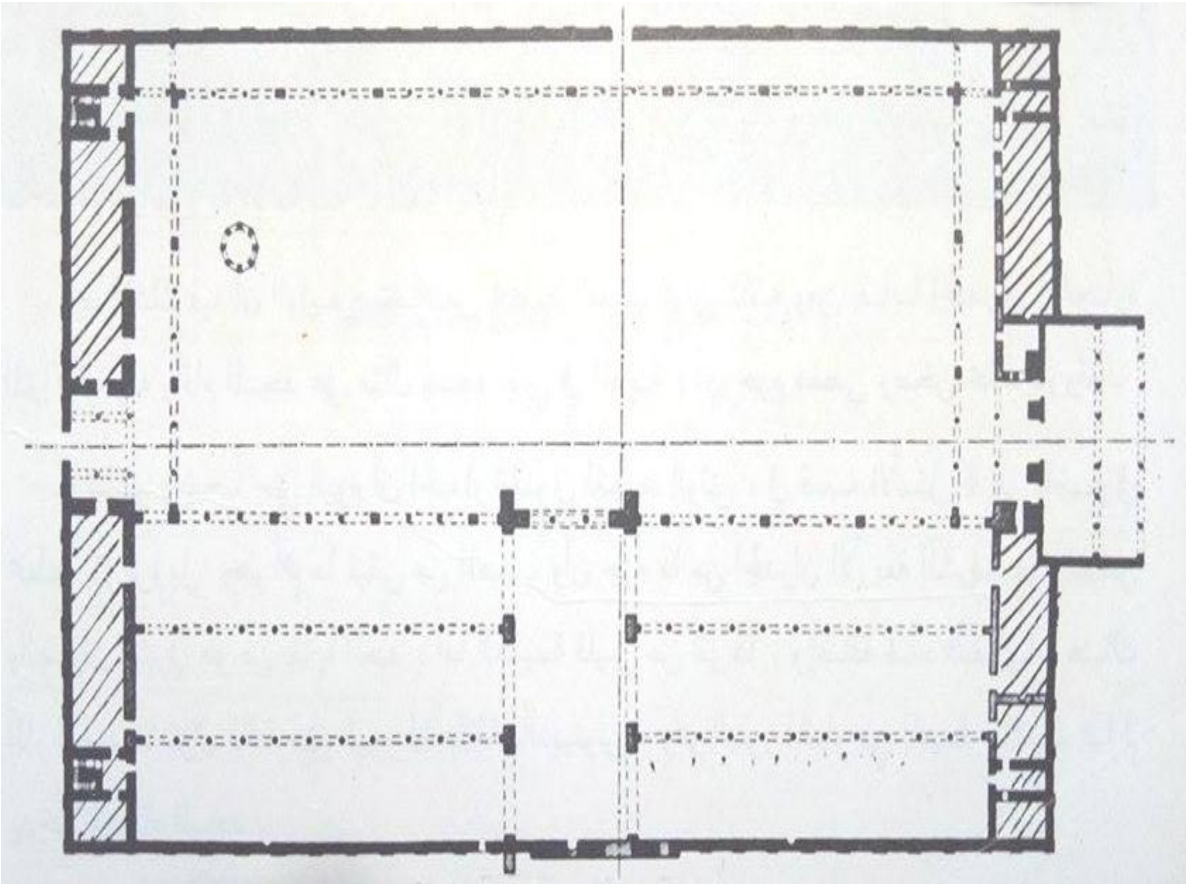
الشكل -10-: المخطط المعماري لقلعة الحمراء
عن دليل القلعة الحمراء



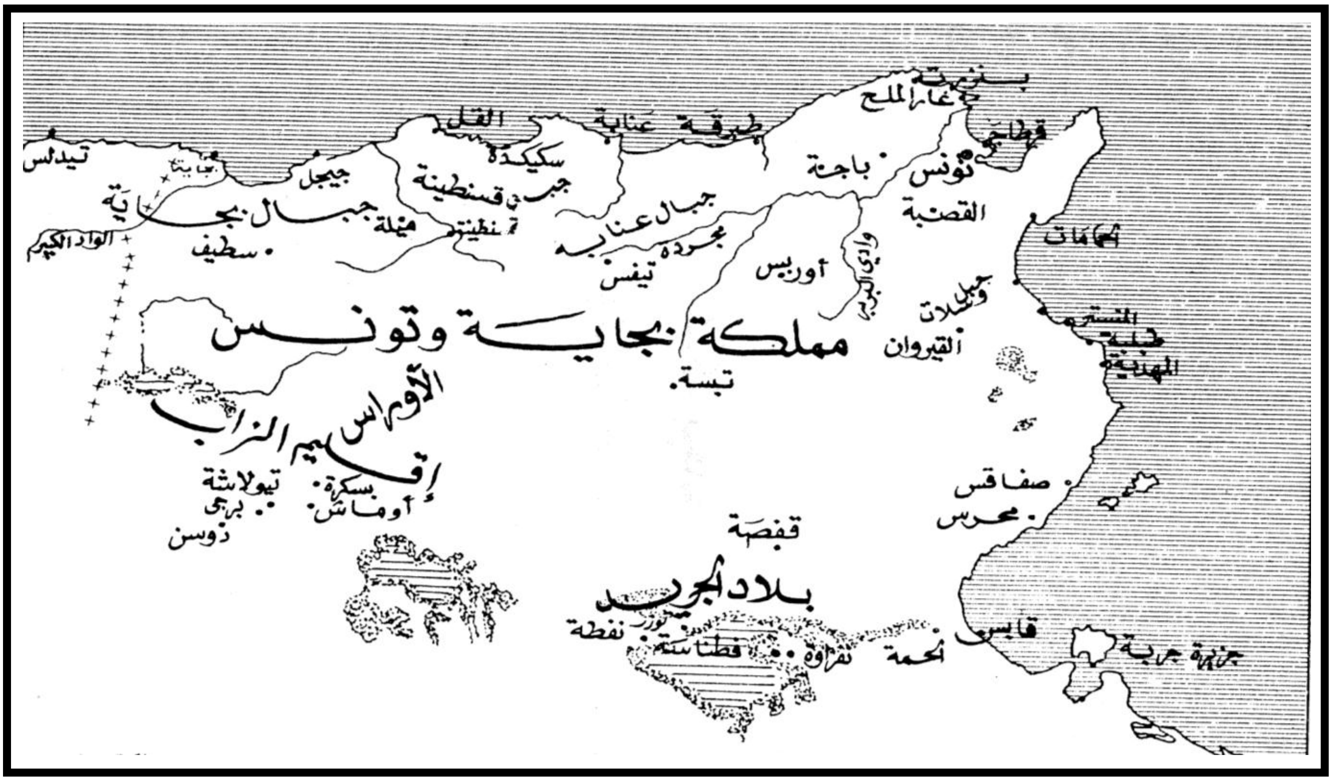
الشكل -10-: المخطط المعماري لقلعة الحمراء
عن دليل القلعة الحمراء



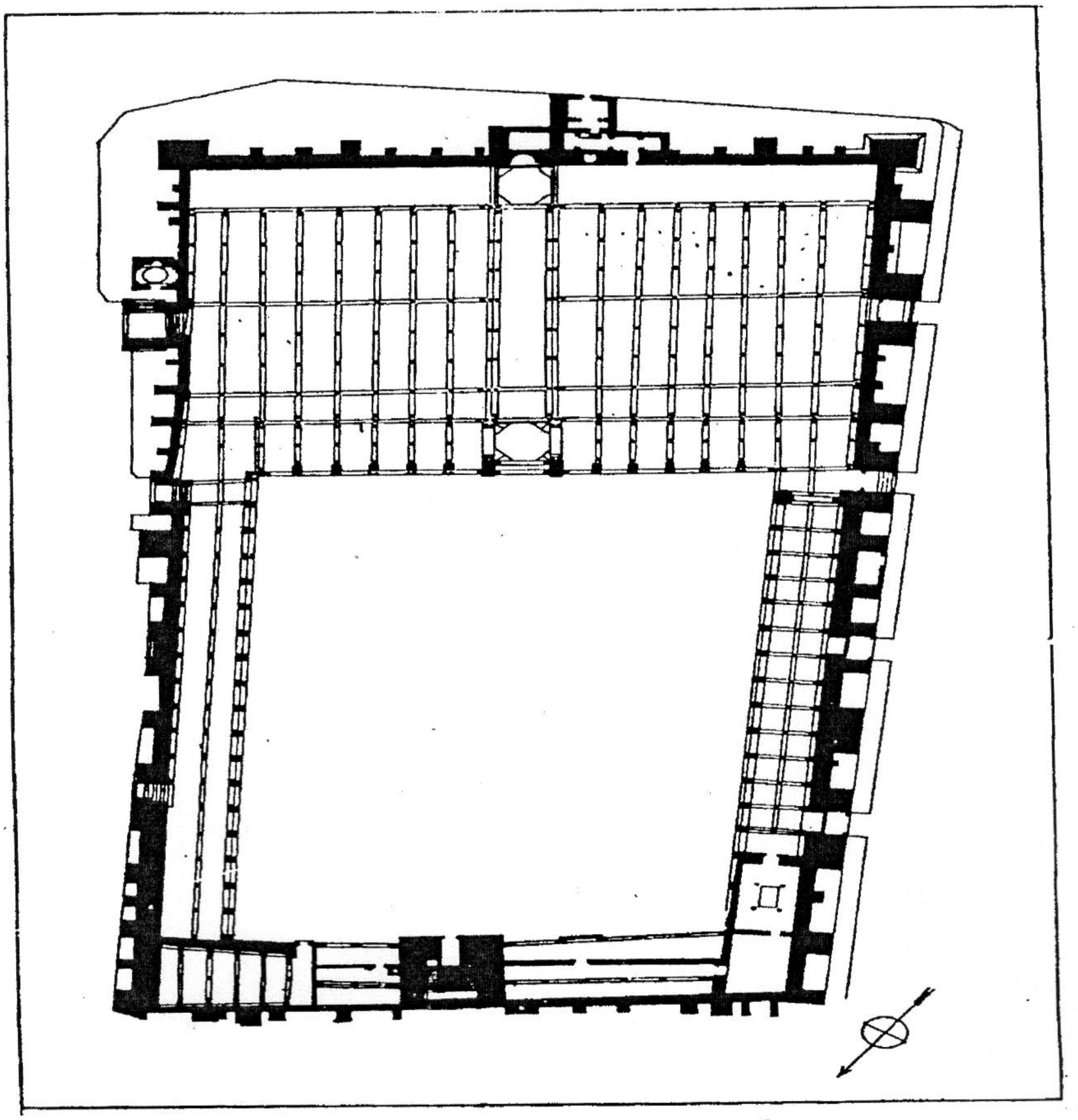
الشكل -11-: المخطط المعماري لقلعة الحمراء
عن دليل القلعة الحمراء.



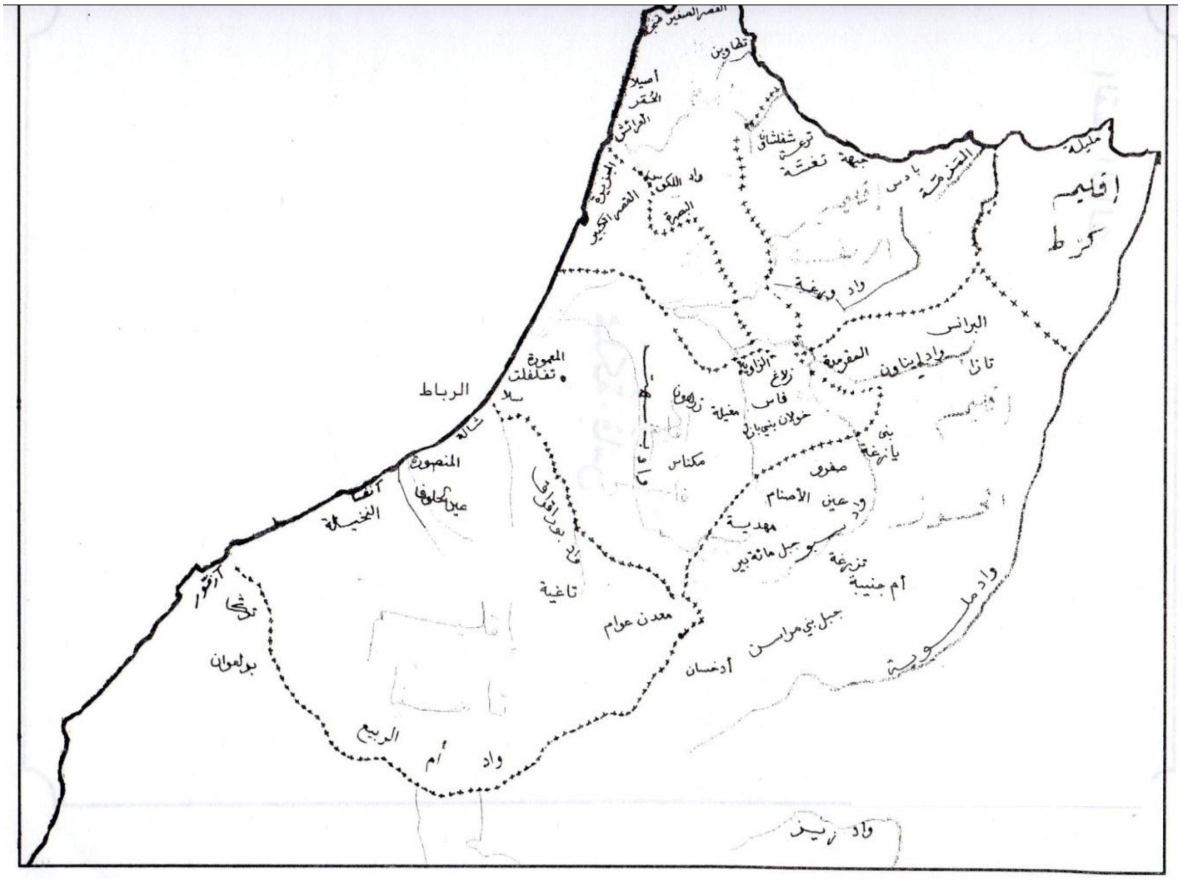
الشكل -12-: المخطط المعماري للجامع الأموي عن كريزويل
نقلا عن عفيف بهنسي، الفن العربي الإسلامي في بداية تكونه، المرجع السابق، ص86.



الشكل -13-: خريطة مملكة بجاية و تونس
عن الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج02،، المصدر السابق، ص48.

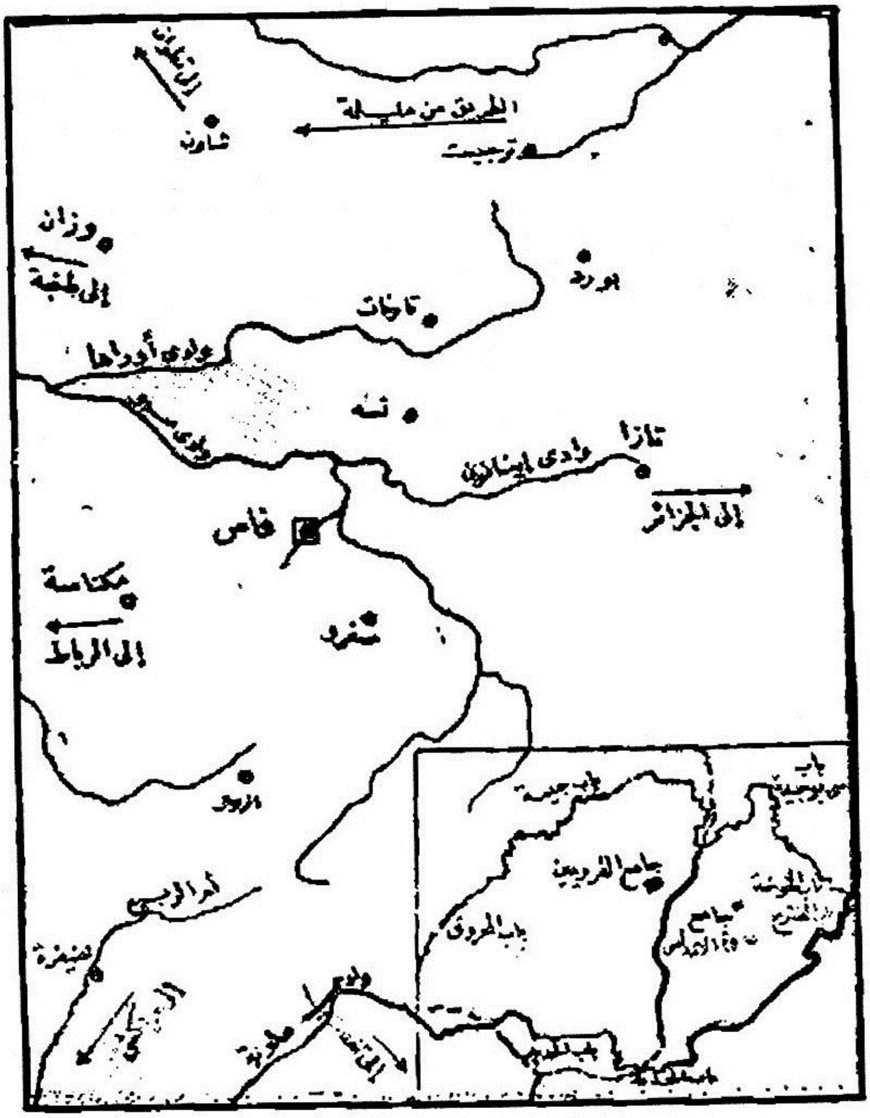


الشكل -14-: المخطط المعماري لجامع القيروان
عن أحمد فكري، مسجد القيروان، المرجع السابق، 30.

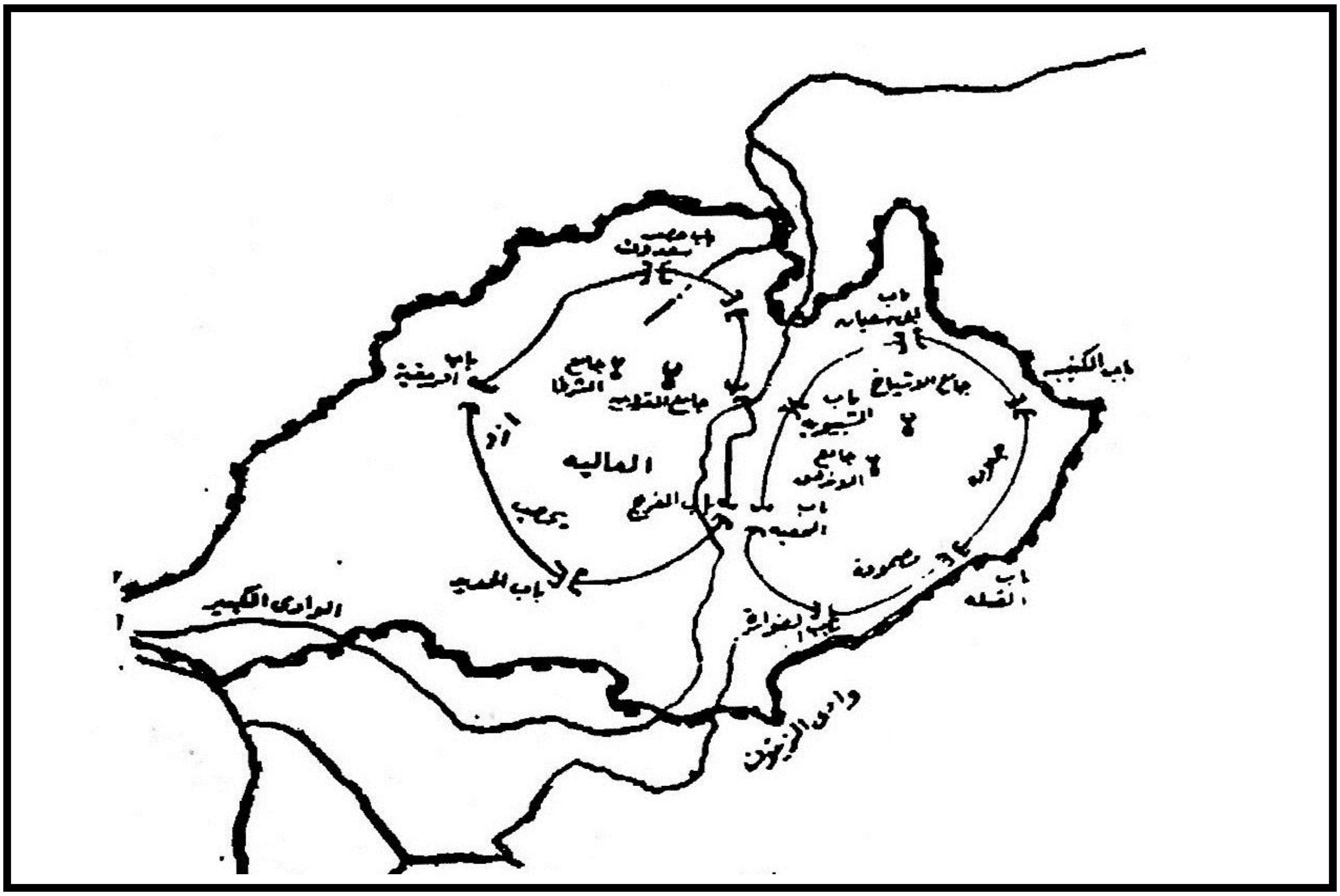


الشكل -15-: خريطة مملكة فاس

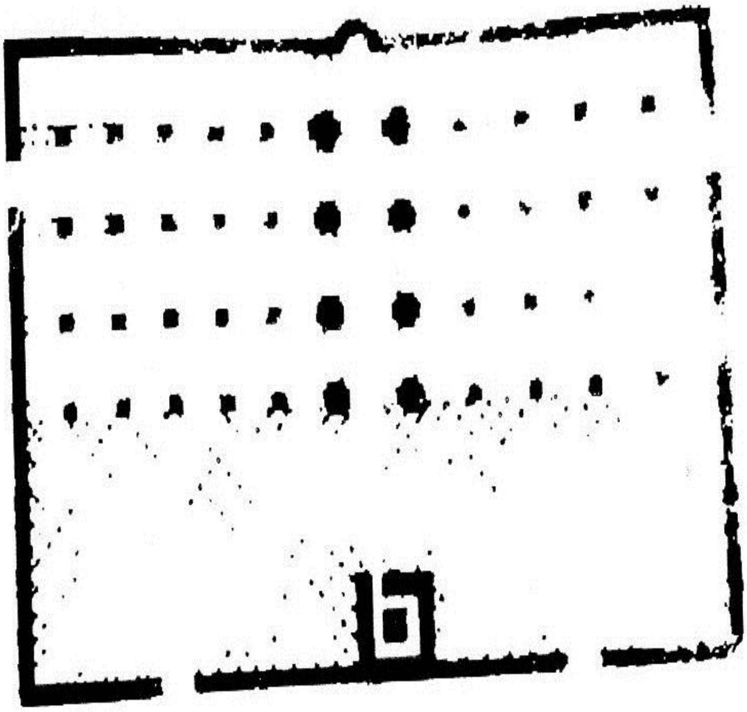
عن الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج01، المصدر السابق، ص192.



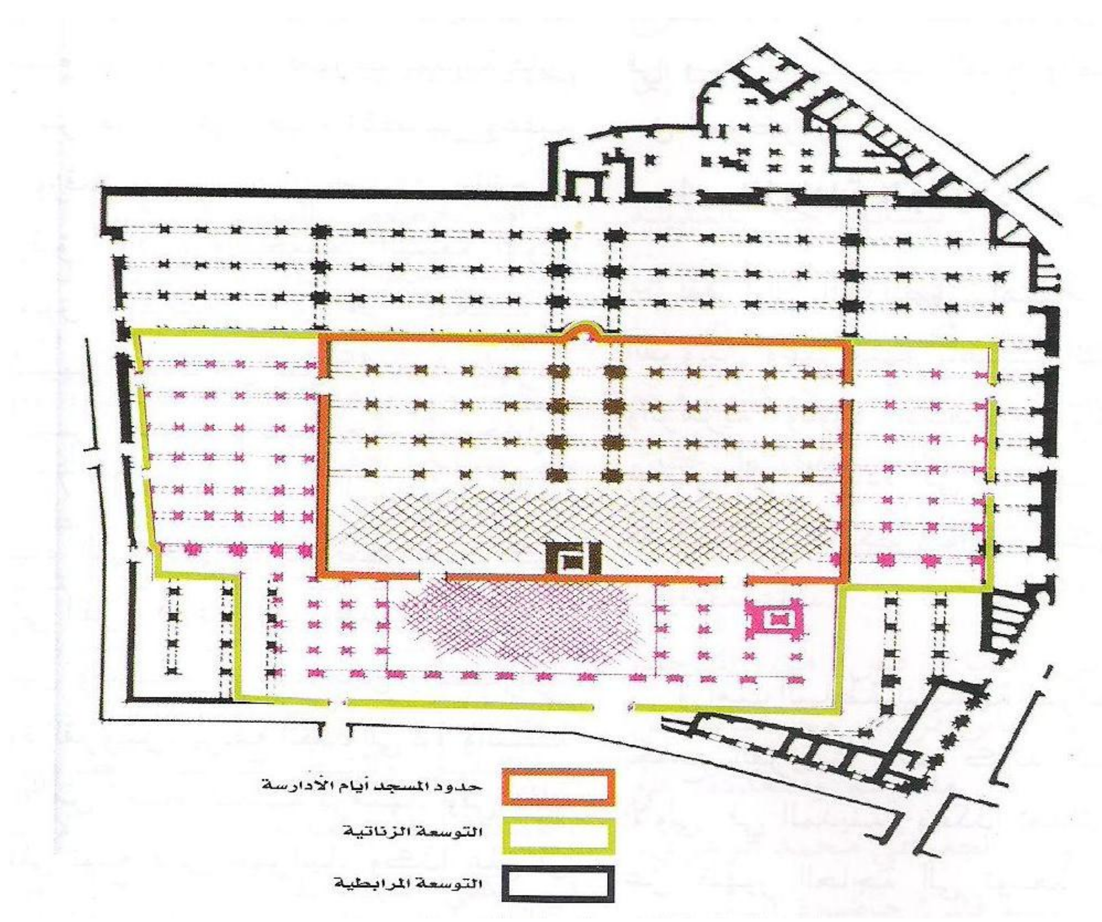
الشكل -16-: موقع مدينة فاس وعمرانها
عن عثمان عثمان إسماعيل، العمارة والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى،ج01، المرجع السابق، ص270.



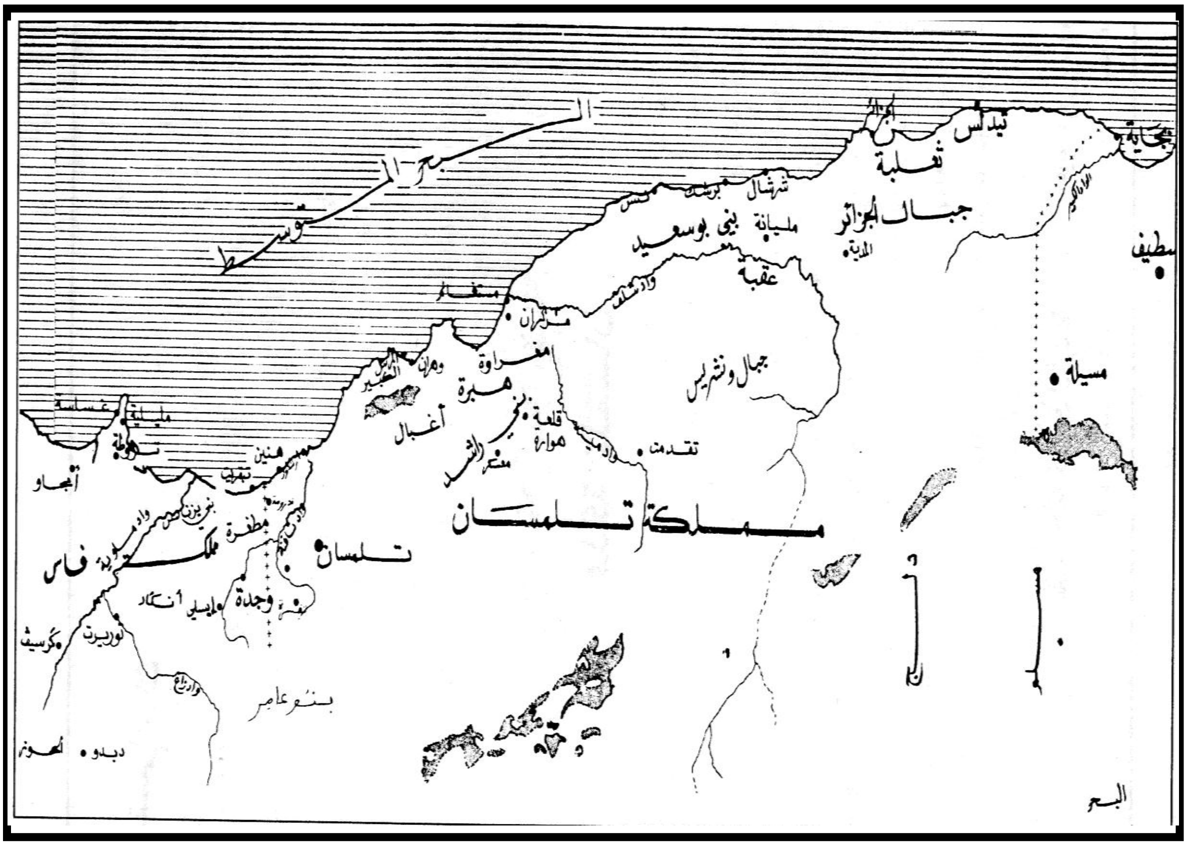
الشكل -17-: النسيج العمراني لمدينة فاس عن ليفي بروفنصال
نقلا عن عثمان عثمان إسماعيل، العمارة والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى،ج01، المرجع السابق، ص270.



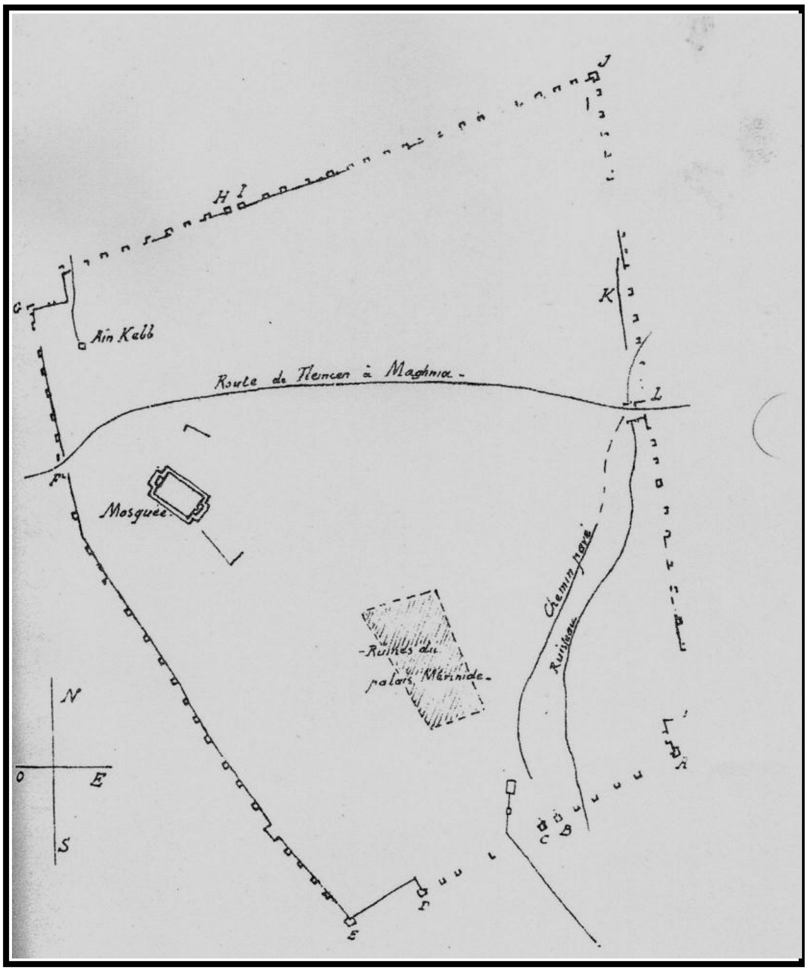
الشكل -18-: المخطط المعماري لجامع القرويين عند تشييده
نقلا عن عثمان عثمان إسماعيل، العمارة والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى،ج01، المرجع السابق، ص271.



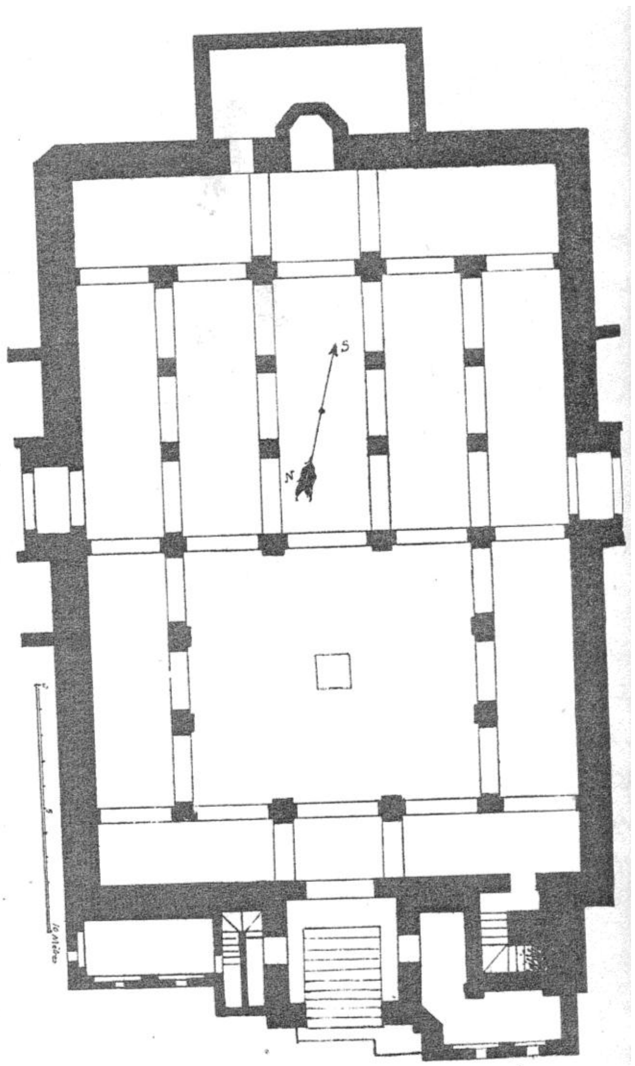
الشكل -19-: المخطط المعماري النهائي لجامع القرويين



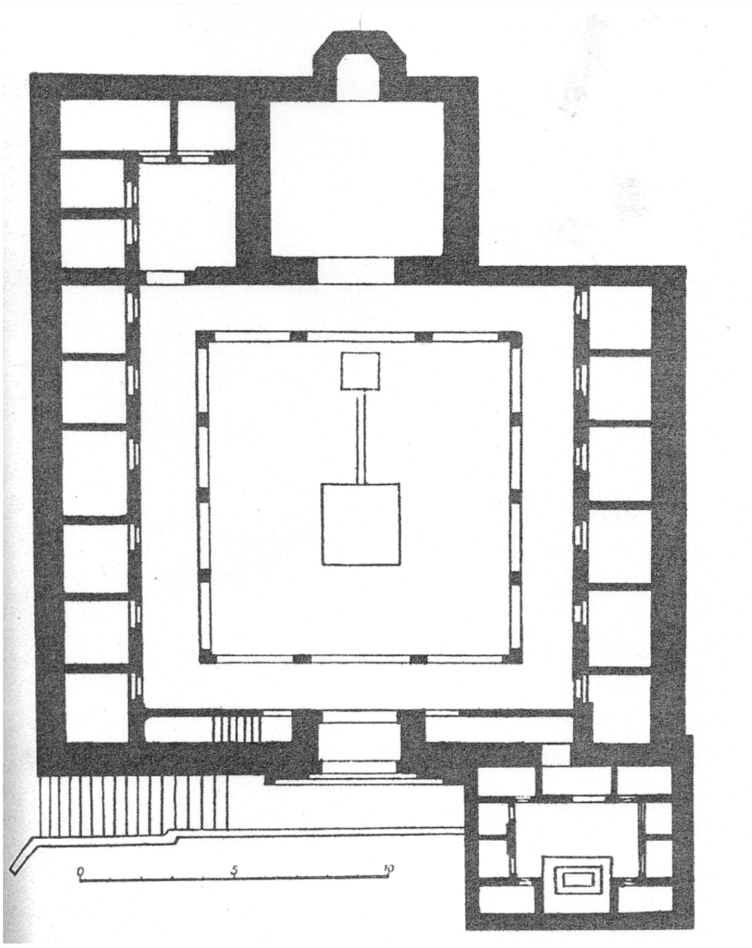
الشكل -20-: خريطة مملكة تلمسان
عن الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج02، المصدر السابق، ص06.



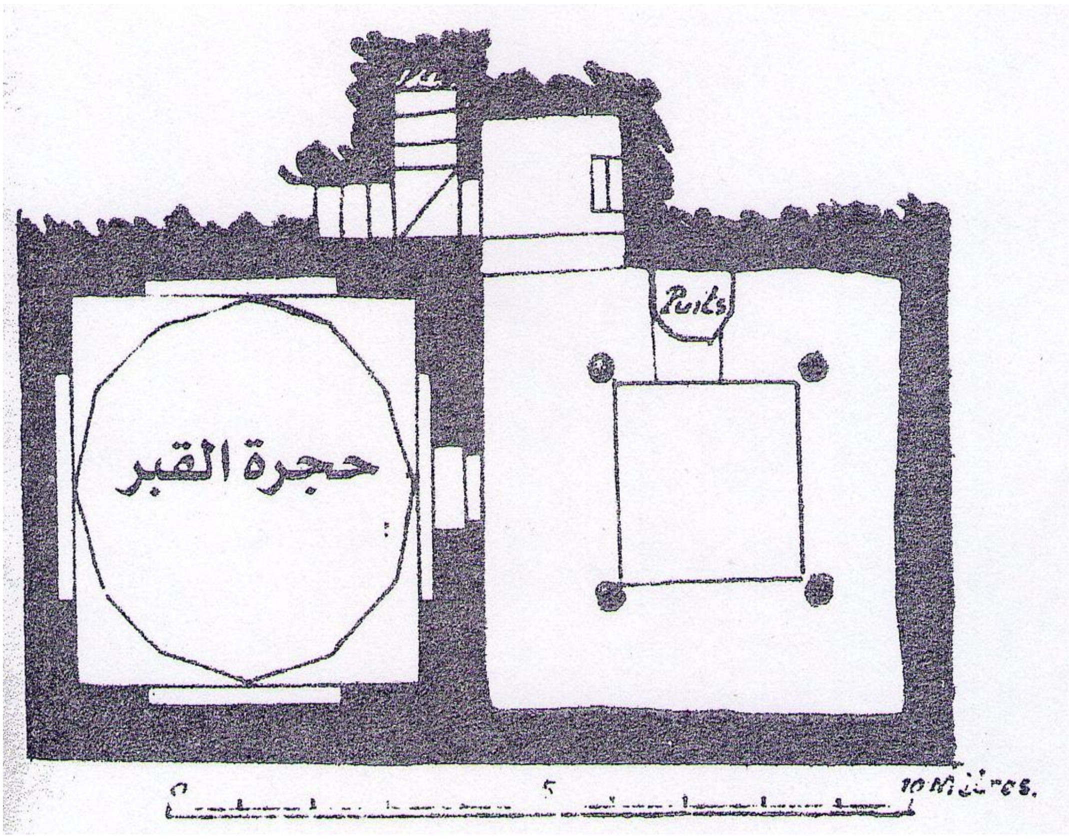
الشكل -21-: خريطة مدينة المنصورة
عن وليام وجورج مارسي، المعالم الأثرية العربية لمدينة تلمسان، المرجع السابق، ص266.



الشكل -22-: مخطط جامع سيدي بومدين
عن وليام وجورج مارسي، المعالم الأثرية العربية لمدينة تلمسان، المرجع السابق، ص335.



الشكل -23-: مخطط مدرسة سيدي بومدين
عن وليام وجورج مارسي، المعالم الأثرية العربية لمدينة تلمسان، المرجع السابق، ص378.

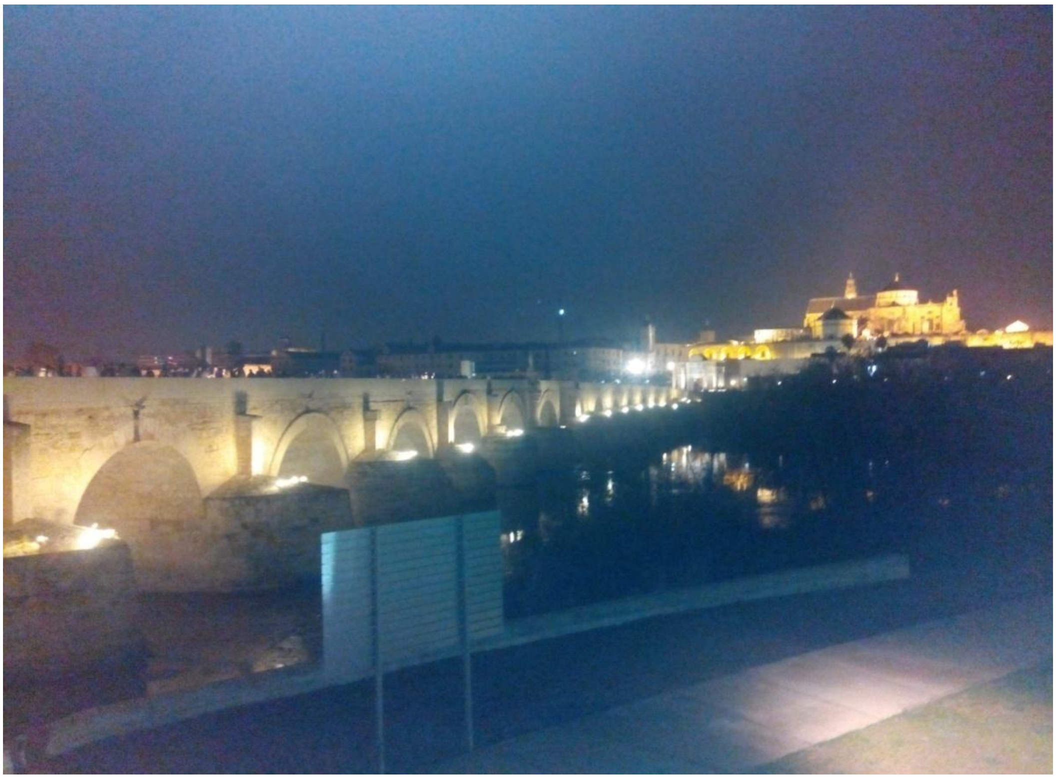


الشكل -24-: مخطط ضريح سيدي بومدين
عن وليام وجورج مارسي، المعالم الأثرية العربية لمدينة تلمسان، المرجع السابق، ص318.

ملحــق اللوحــات



الصورة رقم (01): قنطرة قرطبة



الصورة رقم (02): موقع جامع قرطبة



الصورة رقم (03): صحن جامع قرطبة



الصورة رقم (04): صومعة جامع قرطبة



الصورة رقم (05): محراب جامع قرطبة



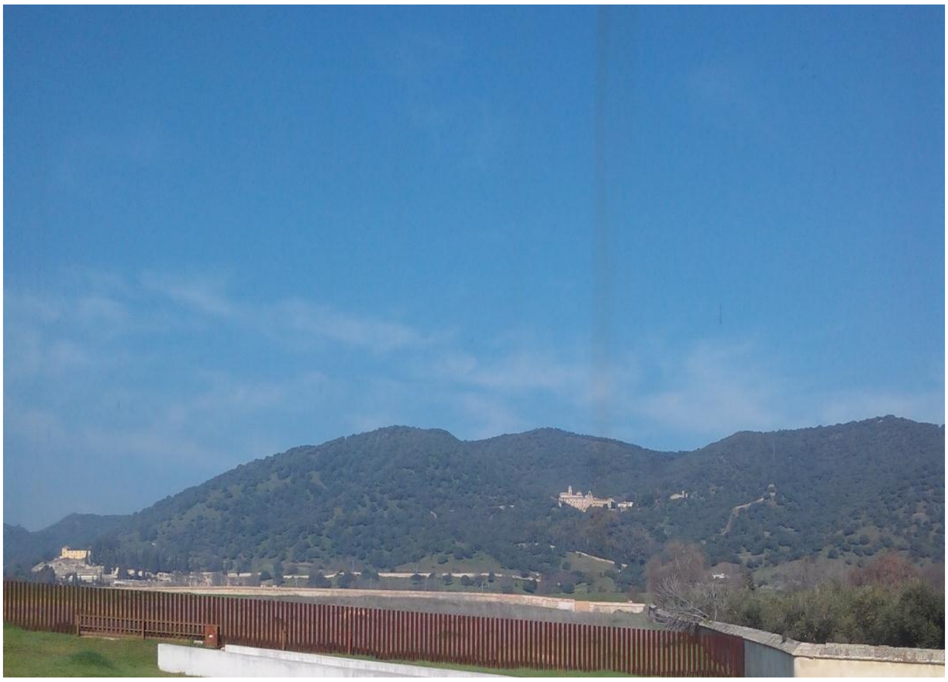
الصورة رقم (06): باب سان استيبان



الصورة رقم (07): إحدى قباب جامع قرطبة



الصورة رقم (08): العقود المركبة لجامع قرطبة



الصورة رقم (09): موقع مدينة الزهراء



الصورة رقم (10): باب مدينة الزهراء



الصورة رقم (11): المستوى الأعلى لمدينة الزهراء



الصورة رقم (12): جامع مدينة الزهراء



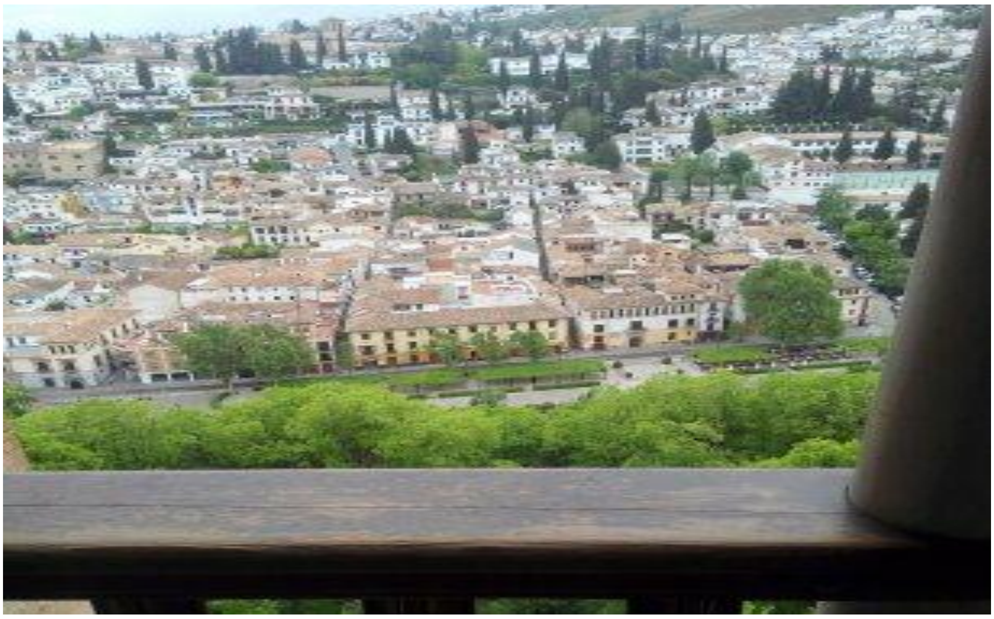
الصورة رقم (13): حدائق مدينة الزهراء



الصورة رقم (14): قلعة الحمراء



الصورة رقم (15): نهر حدرة



الصورة رقم (16): حي البيازين



الصورة رقم (17): زخرفة كتابية في الحمراء



الصورة رقم (18): برج قمارش



الصورة رقم (19): فناء الريحان



الصورة رقم (20): بهو السباع



الصورة رقم (21): قاعة بني السراج



الصورة رقم (22): قاعة الأختين



الصورة رقم (23): قاعة الملوك



الصورة رقم (24): قصور جنة العريف



الصورة رقم (25): جامع القرويين



الصورة رقم (26): مئذنة جامع القرويين



الصورة رقم (27): أسوار مدينة تلمسان



الصورة رقم (28): قلعة المشور



الصورة رقم (29): قصر الملكي الزياني



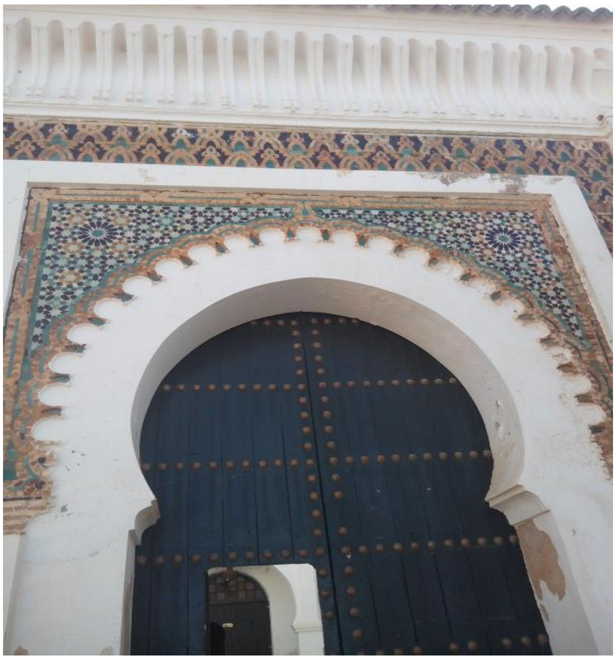
الصورة رقم (30): باب القرمادين



الصورة رقم (31): مئذنة جامع المنصورة



الصورة رقم (32): جامع أبي مدين



الصورة رقم (33): مدرسة سيدي بومدين



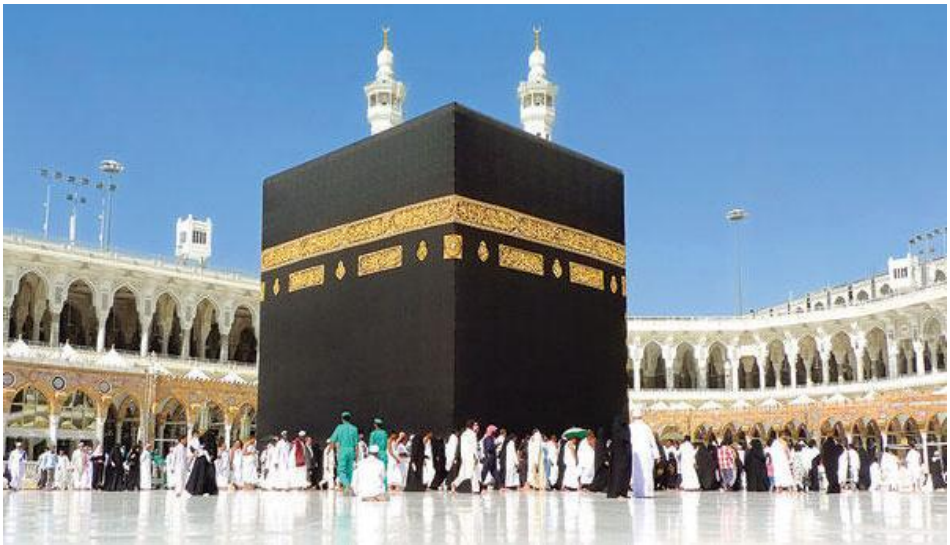
الصورة رقم (34): فناء مدرسة سيدي بومدين



الصورة رقم (35): طابقا مدرسة سيدي بومدين



الصورة رقم (36): ضريح سيدي بومدين



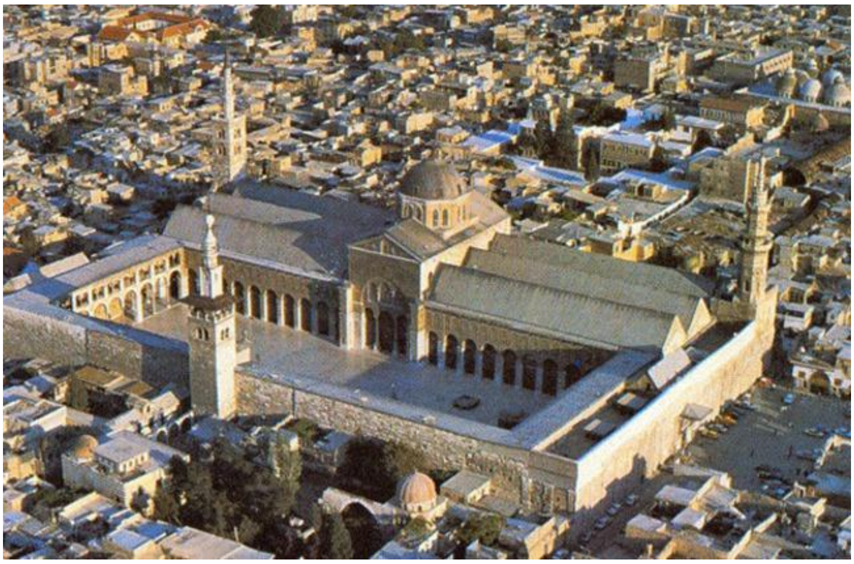
الصورة رقم (37): البيت العتيق

عن:https://www.google.dz/search?q=%D8%AF



الصورة رقم (38): المسجد الحرام

عن:https://www.google.dz/search?dcr=0&tbm=isch&sa



الصورة رقم (39): الجامع الأموي

عن:https://www.google.dz/search?q=%D8%AF%D9



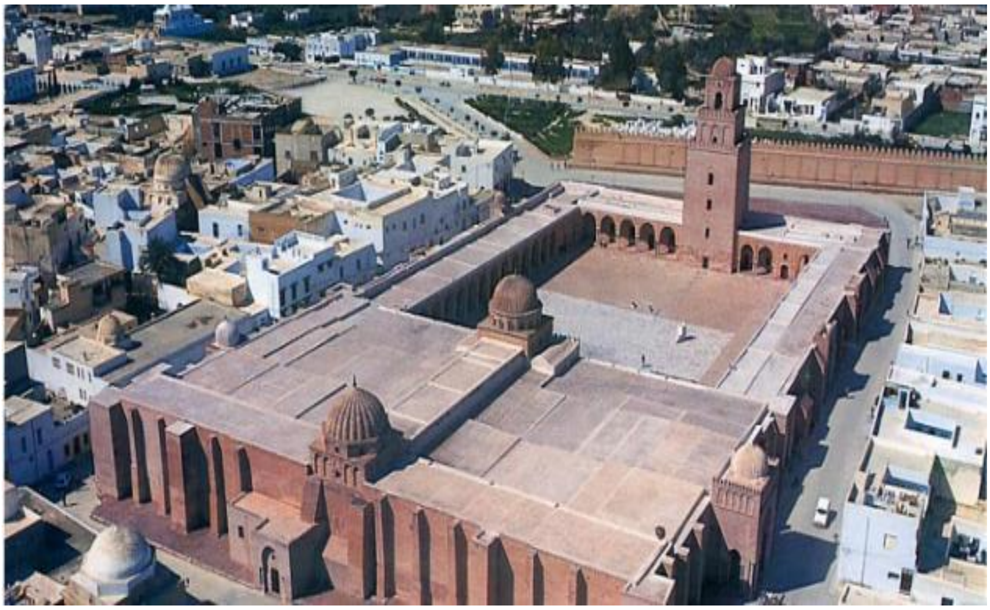
الصورة رقم (40): المئذنة الغربية للجامع الأموي

عن:https://www.google.dz/search?q=%D8%AF%D9%85%



الصورة رقم (41): قبة النسر

عن: https://www.google.dz/search?q=%D8%A7%D9%84%D9%85



الصورة رقم (42): جامع القيروان

عن: https://www.google.dz/search?q=%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%B3%D8%AC%D8



الصورة رقم (43): صحن جامع القيروان

عن : https://www.google.dz/search?dcr=0&tbm=isch&sa=1&ei=Y-ddWun



الصورة رقم (44): مئذنة جامع القيروان

عن : https://www.google.dz/search?dcr=0&tbm=isch&sa=1&ei=Y-ddWun_C8njUfGRpfAI&q

الفهـــارس

1- فهرس الأشكال

2. فهرس الصور:

3- فهرس الموضوعات

ملخص:

يدرس هذا البحث الدور الذي لعبته كتب ومصنفات رحالة المغرب الإسلامي في التعريف بالتراث المعماري الإسلامي،من حيث تنوعه،واعتماده على أساليب وتقنيات خاصة من ناحية التخطيط والعناصر المعمارية والزخرفية التي تشترك فيها جميع مدن الدولة الإسلامية الواسعة الأرجاء،رغم وجود التأثرات المحلية الخاصة بكل قطر. وذلك من خلال اعتماد الرحالة المغاربة في جمع مادتهم العلمية على مشاهداتهم وخبراتهم الشخصية،وعلى المصادر السابقة والمعاصرة لهم في مجال الجغرافية وتقويم البلدان،مما أدى إلى احتواء رحلاتهم على معلومات وافية عن عمران المناطق التي زاروها والأصقاع المجاورة لها.

الكلمات المفتاحية:

الرحلة، العمارة الإسلامية، النسيج العمراني، المسجد، القصر، القلعة، المئذنة، القبة، الأقواس.

Résumé:

Cette recherche étudie le rôle joué par les livres et les œuvres des voyageurs du Maghreb islamique dans la définition du patrimoine de l'architecture islamique, en termes de sa diversité et sa dépendance à l'égard des méthodes et des techniques spéciales de planification et d'éléments architecturaux et décoratif dans lequel toutes les villes de la grande part de civilisation musulman au sujet, en dépit de la présence d'interactions locales pour chaque pays. Grâce à l'adoption du voyageur maghrébin dans la collection de scientifiques leur matériel sur leurs observations et expériences personnelles, et sur des sources antérieures et les contemporains dans la zone géographique et les pays civils, ce qui a conduit à la limitation de leurs déplacements sur une information adéquate sur les zones urbaines qu'ils ont visité.

Les mots clés:

Le voyage, l'architecture islamique, Le tissu urbain, La mosquée, Le palais, Le château, Le minaret, Le dôme, Les arcs.

Summary:

This study deals with the role played by the books and taxonomies works of the traveler of the Islamic Maghreb in the definition of Islamic architectural heritage, in terms of its diversity and its adoption, of special methods and techniques in terms of planning and architectural and decorative elements, which are shared by all the cities of the wide Islamic countries, despite the presence of local influences for each corner. This was done through the adoption of maghreb travelers in collecting their scientific material through their personal observations and experiences, and through previous and contemporary sources in the field of geography and the assessment of the countries, which resulted in the containment of their trips to the information about the areas visited.

key words:

The journey, the Islamic architecture, The urban fabric, The mosque, The palace, The castle, The minaret, The dome, The archers.